

مُجَاوِزُ بَرِّ الْيُسْفَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

مَخْصِيَّةٌ وَعَصْرُهُ
الدَّوْلَةُ السُّفَيْنِيَّةُ

تأليف
الدكتور علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تنويه

هذا الكتاب جزء من كتاب

الدولة الأموية

عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

رأيت نشره على انفراد لأهميته ولتعم الفائدة

مَجَازِيْرُ بَنِي سَفْيَانَ

شَوْصِيَّةٌ وَعَصْرُ
الرَّوْلَةِ السُّفْيَانِيَّةِ



(القدرة) 2009

عاصمة الثقافة العربية
اتحاد الناشرين السوريين

(الموضوع: سيرة - تراجم)

(العنوان: موسوعة السير 10\1)

(التأليف: الدكتور علي محمد محمد الصلابي)

الورق: كريم

ألوان الطباعة: لوانان

عدد الصفحات: 5558

القياس: 24×17

التجليد: كرتونيه

الوزن: 10 كغ

التنفيذ الطباعي:

مطبعة 53dots - بيروت

التجليد:

مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

ISBN: 978-9953-520-38-4



9 789953 520384

الطبعة الثانية

1430 هـ - 2009 م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
و التصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي
و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق
إلا بإذن خطي من



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق - سوريا - ص.ب: 311

حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي

طالة المبيعات تلفاكس: 2228450 - 2225877

الإدارة تلفاكس: 2458541 - 2243502

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318

برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة

تلفاكس: 01 817857 - جوال: 03 204459

www.ibn-katheer.com

info@ibn-katheer.com

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠] .

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانتك ، ولك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرضا ، أما بعد :

هذا الكتاب جزء من كتاب الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار وقد سميته معاوية بن أبي سفيان ، شخصيته وعصره .

ويتحدث هذا الكتاب عن الجذور التاريخية للأسرة الأموية ، وشهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين ، وموقف بني أمية من الدعوة الإسلامية ، وعن الأمويين الذين أسلموا منذ بداية الدعوة الإسلامية ، وعن المصاهرات بين بني هاشم وبني أمية ، وعن شخصية معاوية بن أبي سفيان وعصره رضي الله عنه ، فيتطرق لاسمه ونسبه وكنيته وأسرته ، وعن إسلام أبي سفيان والد معاوية رضي الله عنه ، وعن هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضي الله عنهما ، وعن إخوان وأخوات معاوية ، ويتحدث عن زوجات معاوية وأولاده ، وعن إسلام معاوية رضي الله عنه ، وشيء من فضائله ، وعن رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ ، وعن الأحاديث الباطلة التي لا تصح في شأن معاوية مدحاً وذمماً .

ويتكلم الكتاب عن دور بني أمية في عهد رسول الله ﷺ ، وعهد الخلافة الراشدة ، ويشير

إلى متى بدأ نجم معاوية في الظهور ، وعن ولايته على دمشق وبلبك والبلقان في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وعلاقته بعمر رضي الله عنهما ، ويبين الكتاب جهود معاوية رضي الله عنه على جبهة الشام ، وعن سنّ نظام الصوائف والشواتي في عهد عمر ، وعن تكوين أسطول إسلامي في البحر ، وعن أعمال معاوية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهما ، فيوضح فتوحاته في عهده ، وإصراره في الطلب من عثمان السماح له بالغزو البحري ، وعن غزوه لقبرص واستسلام أهلها وطلب الصلح ، ثم نقض القبارصة للصلح ثم فتحها .

ويتعرض الكتاب لحقيقة الخلاف بين أبي ذر ومعاوية وموقف عثمان رضي الله عنهم منه ، ويرد الكتاب عن الشبهات التي ألصقت بعثمان رضي الله عنه ؛ كاتهامه بإعطاء أقرابه من بيت المال ، وتعيينه لأقرابه في مناصب الدولة على حساب المسلمين .

ويتطرق الكتاب لأسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ؛ كالرخاء وأثره في المجتمع ، وطبيعة التحول الاجتماعي في عهده ، وظهور جيل جديد ، واستعداد المجتمع لقبول الشائعات ، ومجيء عثمان بعد عمر رضي الله عنهما ، وخروج كبار الصحابة من المدينة ، والعصبية الجاهلية ، وتوقف الفتوحات بسبب موانع طبيعية أو بشرية ، والمفهوم الخاطئ للورع ، وظهور جيل جديد من الطامحين ، ووجود طائفة متوترة من الحاقدين ، والتدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضي الله عنه ، واستخدام الأساليب والوسائل المهيّجة للنّاس ، ودور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة ، وموقف معاوية بن أبي سفيان في الفتنة .

ويتحدث عن مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأي معاوية في ذلك ، وعن مقتل عثمان وموقف الصحابة منه .

وعن معاوية في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ويتطرق الكتاب إلى اختلاف الصحابة في الطريقة التي يؤخذ بها القصاص من قتلة عثمان ، وإلى معركة صفين ، وإلى تسلسل الأحداث ، ابتداءً من إرسال أم حبيبة أم المؤمنين بنت أبي سفيان لنعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام ، ودوافع معاوية رضي الله عنه في عدم بيعه علي رضي الله عنه ، وردّه على أمير المؤمنين علي ، وعن تجهيز أمير المؤمنين علي لغزو الشام ، وخروج معاوية إلى صفين ، وبداية المناوشات بين الطرفين ، والموادعة بينهما ، ومحاولات الصلح ، ثم نشوب القتال ، ثم الدعوة إلى التحكيم .

ويتكلم الكتاب عن مقتل عمّار بن ياسر رضي الله عنه وأثره على المسلمين ، وعن المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة ، ومعاملة الأسرى عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وعن عدد القتلى ، وعن تفقد أمير المؤمنين علي للقتلى وترحمه عليهم ، وعن موقف لمعاوية مع ملك الروم في تلك الأحداث ، وعن قصة باطلة في حق عمرو بن العاص بصفين ، وعن إصرار

قتلة عثمان رضي الله عنه أن تستمر المعركة ، وعن نهى أمير المؤمنين علي شتم معاوية ولعن أهل الشام ، وعن التحكيم ، وعن نص وثيقة التحكيم ، وعن قصة التحكيم المشهورة وبيان بطلانها ، وعن حقيقة قرار التحكيم ، وكان انعقاد المؤتمر .

وأشار الكتاب إلى إمكانية الاستفادة من حادثة التحكيم في فض المنازعات بين الدول الإسلامية .

هذا وقد بينت موقف أهل السنة والجماعة من تلك الحروب ، وتكلمت عن تغيير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين ، وعن المهادنة بين أمير المؤمنين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، وعن استشهاد أمير المؤمنين علي واستقبال معاوية خبر مقتله .

ثم تحدثت عن المشروع الإصلاحى الكبير في عهد الحسن بن علي ، والذي توجّ بوحدة الأمة ، وذلك بتنازل الحسن بالخلافة لمعاوية رضي الله عنهما ، وأشارت إلى مراحل الصلح وشروطه وأسبابه ومعوقاته ، ونتائجه ، كما وضحت الفقه الكبير في مقاصد الشريعة ، وفقه المصالح والمفاسد ، وفقه الخلاف الذي تميز به الحسن بن علي ، والذي بنى عليه مشروعه الإصلاحى العظيم ، والذي ترتب عليه دخول الأمة الإسلامية في مراحل جديدة تمّ فيها بيعة معاوية رضي الله عنه من كافة الصحابة الأحياء وأبناء الأمة .

ووضحت صفات معاوية رضي الله عنه والتي من أهمها : العلم والفقه ، والحلم والعفو ، والدهاء والحيلة ، وعقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب ، وتواضعه وورعه ، وبكاؤه من خشية الله ، ونقلت ثناء العلماء على معاوية ، وأشارت إلى دخول دولة بني أمية في خير القرون ، والتي قال فيها رسول الله ﷺ : « خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »^(١) .

وتحدثت عن عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول ﷺ في فضائل أهل الشام ، وعن أهل الحل والعقد في عهد معاوية رضي الله عنه ، وعن الشورى ، وحرية التعبير ، وعن سياسته الداخلية ، من الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة ، وأبنائهم ، وحسن علاقته مع الحسن والحسين وابن الزبير وابن عباس وغيرهم رضي الله عنهم ، وبينت بطلان تعميم معاوية سب أمير المؤمنين علي على منابر الدولة . وزعم بعض المؤرخين بأن معاوية سمّ الحسن بن علي ، فأثبتّ بالحجج العلمية والبراهين الساطعة بطلان ذلك أيضاً .

وتعرضت لموقف معاوية من قتله عثمان بعدما أصبح أمير المؤمنين ، وكذلك مقتل حجر بن عدي رضي الله عنه ، وموقف عائشة أم المؤمنين من مقتله .

كما أوضحت حرص معاوية على مباشرة الأمور بنفسه وتوطيد الأمن في خلافته ، فتحدثت عن مجلسه في يومه ، وعن الدواوين المركزية التابعة له ، كديوان الرسائل ، وديوان الخاتم ،

وديون البريد وعن نظام الحجابة ، والحرس ، والشرطة ، وعن حسن اختياره للرجال والأعوان ، وعن استخدامه للمال في تأكيد ولاء الأعوان ، وتأليف القلوب ، واتباعه سياسة الشدة واللين ، وسياسة المنفعة المتبادلة بين بني أمية ورعيّتهم ، واتخاذه سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته ، وجعل الناس يميلون إليه ، وعن اهتمامه بجهاز الاستخبارات ، وبناء الجيش الإسلامي وتطويره ، وعن فقهه الكبير في سياسة الموازنات بين القبائل ، والعشائر ، وأعيان المجتمع ، وعن سياسته مع الأسرة الأموية .

وتكلمت عن حياته في المجتمع ، وعن اهتماماته العلمية والتاريخية والشعرية واللغوية والعلوم التجريبية .

وأفردت مباحث في علاقته بالخوارج ، ووسائله في تحجيم دورهم وإضعافهم ، وبينت النظام المالي في عهده ، ومصادر دخل الدولة ، كالزكاة ، والجزية ، والخراج ، والعشور ، والصوافي ، والغنائم ، وعن النفقات العامة ، كالنفقات العسكرية ، والإدارية ، والاجتماعية ، واهتمامه بالزراعة والتجارة الداخلية والخارجية ، والحرف والصناعات ، وأثرت قضية الشبهات حول مصارف الأموال في عهد معاوية ، وناقشتها بعلم وإنصاف ، كالتفرقة في العطاء ، وكذبة إعطاء مصر طعمة لعمر بن العاص ، وكالتوسع في إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار ، ومظاهر الترف عند الأمويين .

وأفردت مبحثاً عن القضاء في عهد معاوية ، والدولة الأموية ، وصلته بالعهد الراشدي ، وتخلى الخلفاء عن ممارسة القضاء وفصل السلطات ، ومرتببات القضاء ، وتسجيل الأحكام والإشهاد عليها ، وأعوان القضاة ، كالمناذري والحاجب ، والترجمان أو المترجم ، والمراقبة والمتابعة ، وعن مصادر الأحكام القضائية في العهد الأموي ، وعن اختصاص القضاء ، وذكرت أسماء أشهر القضاة في عهد معاوية ، كما أشرت إلى ميزات القضاء في عهد معاوية والأمويين عموماً ، وإلى خطاب عمر بن الخطاب إلى معاوية رضي الله عنهما في القضاء .

وتكلمت عن مؤسسة الشرطة في عهد معاوية وواجباتها ، كحماية الخليفة وولاية الأمصار ضد منائهم في الداخل ، ومعاقبة المذنبين والخارجين عن القانون ، وتنفيذ العقوبات الشرعية ، وعن قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة والحرس والعرفاء ، وصاحب الاستخراج أو العذاب ، وجهاز الحسبة ، ونظام المراقبة ، ومؤسسة الدرك .

وتحدثت عن مؤسسة الولاية والإدارة في عهد معاوية رضي الله عنه ، وأهم الأقاليم التابعة لدولته ، وأسماء أشهر ولاته وأهم أعمالهم في تلك الأقاليم .

وعندما تحدثت عن المدينة النبوية ترجمت لشخصية أبي هريرة رضي الله عنه ؛ حيث توفي بها عام (٥٨ هـ أو ٥٩ هـ) وقد عاش في عهد معاوية ما يقرب من ثمانية عشرة سنة ، وقد تعرض

هذا الصحابي الجليل لهجمة ظالمة من قبل أعداء الصحابة في القديم والحديث ، وتلقف تلك الاتهامات الباطلة مجموعة من المستشرقين ، فرأيت لزماً عليّ أن أدافع عن هذا الصحابي الجليل الذي يعتبر من أكبر رواة السنة النبوية الشريفة ، فعزّفتُ به وبشيء من حياته ، كعبادته وعفافه وحلمه وعفوه ، واهتمامه بالعلم ، ورددتُ على الشبهات التي أثّرت حوله ، والتي هدفها التشكيك في ما وصل إلينا من سنة رسول الله ﷺ ، وذلك بالطعن في هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه ، وكان لسان حالي في مجادلة أولئك الكذابين قول الشاعر :

وإذا اضطُرزتَ على الجدال ولم تَجِدْ	لَكَ مَهْرِباً وتَلَاقتِ الصَّفَانِ
فاجعلْ كتابَ الله درعاً سابِغاً	والشرعَ سيفَكَ وابدَ في الميدانِ
والسُّنةُ البيضاءِ دونَكَ جُنةٌ	واركبْ جِوَادَ العزمِ في الجولانِ
وابتِ بصبرِكَ تحتَ ألويةِ الهدى	فالصبرُ أوثقُ عِدةَ الإنسانِ
واطعنْ برمحِ الحقِّ كلَّ معانِدٍ	للهِ دُرٌّ الفـارِسِ الطَّعْـانِ
واحملْ بسيفِ الصُّدقِ حملةَ مخلصٍ	متجـرداً لله غيـرَ جِـبـانِ

هذا وقد وصفت حركة الفتوحات في عهد معاوية رضي الله عنه ، وقدمت بين يدي حركة الفتوحات مقدمة تناقش الشبهات التي ألصقت كذباً وزوراً وبهتاناً بحركة الفتوحات .

إن معاوية رضي الله عنه حمى وعزّز منجزات الموجة الأولى في حركة الفتح التي قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون ، فالموجة الثانية لحركة الفتوح هي التي بدأت في عهد معاوية نفسه ، واستمرت فيما بعد لكي تبلغ أقصى اتساعها في عهد الوليد بن عبد الملك .

ولقد وصفت ما قام به معاوية من حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية واهتمامه بفتح القسطنطينية ، وتخطيطه الاستراتيجي للاستيلاء عليها ، كاهتمامه بدور صناعة السفن في مصر والشام ، وتقوية الثغور البحرية بهما ، واستيلاؤه على الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط ، وتحصينه أطراف الشام الشمالية ، وقد قام بحصار القسطنطينية ، وقد توفي أبو أيوب الأنصاري في حصار القسطنطينية ، وقد ترك أبو أيوب رضي الله عنه في وصيته بأن يدفن في أقصى ما يمكن من أرض العدو ، وهذه صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد ، فيكون بين صفوفهم حتى وهو في نعشه على أعناقهم ، وأراد أن يتوغّل في أرض العدو حياً وميتاً ، وكأنما لم يكفه ما حقق في حياته فتمنّى مزيداً عليه بعد مماته ، وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهدة الحق بالمعنى الأصح الأدق .

هذا وقد استطاع معاوية رضي الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحمولات المستمرة براً وبحراً ، وقد أهرق البيزنطيون وأذاقهم ألوان الضنك والخوف ، وأنزل بهم خسائر

فادحة ، بالرغم من كل ذلك لم يستطع اقتحام القسطنطينية بسبب عوامل عديدة سيراها القارئ في الكتاب بإذن الله تعالى .

وقد دخل معاوية في علاقات سلمية مع الدولة البيزنطية ، وتم تبادل المراسلات والخبرات ، والسفراء فيما بين الدولتين الأموية والبيزنطية .

وواصل معاوية فتوحاته في الشمال الإفريقي ، وانطلقت حملة معاوية بن حديج رضي الله عنه في عهده ، وبرز اسم عقبة بن نافع في تلك الفتوحات ، وقام ببناء مدينة القيروان بتونس اليوم ، وكان ذلك في عهد معاوية ، وقد أصبحت القيروان مركز الإشعاع الحضاري الإسلامي بالمغرب وعاصمتها العلمية ، وسيمضي القارئ مع الفتوحات في الشمال الإفريقي حتى استشهد عقبة رحمه الله تعالى .

وتحدثت في فتوحات معاوية في الجناح الشرقي للدولة الأموية ؛ في خراسان وسجستان وما وراء النهر ، وعن فتوحات السند في عهده .

ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات ، والتي من أهمها: أثر الآيات والأحاديث النبوية في نفوس المجاهدين ، وسنن الله في الفتوحات ، كسنة الله في الاتجاد والاجتماع ، وسنة الأخذ بالأسباب ، وسنة التدافع ، وسنة الله في الظلم والظالمين ، وسنة الله في المترفين ، وسنة الله في الطغيان والطغاة ، وسنة التدرج ، وسنة تغيير النفوس ، والتخطيط الاستراتيجي للفتوحات عند معاوية ، وسياسته تجاه الروم ، وجبهة الشمال الإفريقي ، وجبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر ، وإدارته للشورى في حركة الفتوحات ، ومركزية القيادة والإمداد في إدارته ، ونظام الألوية والرايات ، واهتمامه بالعيون والبريد ، والحدود البرية للدولة ، واهتمامه بالأسطول والحدود البحرية ، وبديوان الجند والعطاء ، والأثر العلمي والاقتصادي والاجتماعي في عهده ، وتحدثت عن بعض كرامات المجاهدين في عهده .

هذا وقد تكلمت عن فكرة ولاية العهد ، والخطوات التي اتبعتها معاوية لبيعة يزيد ، من مشاورات ، وحملات إعلامية ، وقبول أهل الشام لبيعة يزيد ، وبيعة الوفود ، وطلب البيعة من أهل المدينة ، واعتراض عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم عن تلك البيعة ، وعن أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد ، كالحفاظ على وحدة الأمة ، وقوة العصبية القبلية ، ومحبة معاوية لابنه وقناعته به ، وعن الانتقادات التي وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد ، وعن المآخذ على فكرة ولاية العهد في عهد معاوية .

وعن الأيام الأخيرة من حياته ، وعن دعائه وهو في سكرات الموات ، وقوله: اللهم أقل

العترة ، واعف عن الزلة ، وتجاوز بحلمك عن جهل ما لم يَرَّجُ غيرك ، فإنك واسع المغفرة ، ليس لذي خطيئة مهرب إلا إليك . ثم مات .

وتحدث الكتاب عن عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأهم صفاته ، وبيعته وموقف الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير منها ، والأسباب التي أدت إلى خروج الحسين ، والفتوى التي بنى عليها خروجه ، وعزم الحسين على الذهاب إلى الكوفة ، ونصائح الصحابة والتابعين ، ورأيهم في ذهابه إليها ، وعن موقف يزيد من أحداث الكوفة ، ودور عبيد الله بن زياد في القضاء على مسلم بن عقيل وأنصاره ، وعن أحداث معركة كربلاء ، واستشهاد الحسين بن علي رضي الله عنه ، وعن المواقف الرائعة التي كانت بجانب الحسين رضي الله عنه ، وموقف يزيد بن معاوية من قتله ، ومن أبناء الحسين وذريته ، وبينت من المسؤول عن قتل الحسين ، وذكرت أقوال الناس في يزيد بن معاوية ، وهل يجوز لعنه؟

وحذرت من الأساطير التي نسجت حول مقتل الحسين رضي الله عنه ، ووضعت أهم الدروس والعبر والفوائد من سيرته في نقاط ، والتي كان من أهمها : هدي رسول الله ﷺ في يوم عاشوراء ، وآداب التعامل مع المصائب في الإسلام ، والتحقيق في مكان رأس الحسين ، وحكم الإسلام من تقديس أضرحه الأئمة ، وزيارة قبر الحسين ، وقدسية كربلاء ، وهدي الإسلام في زيارة القبور ، والبناء عليها واتخاذها مساجد ، وخروج الحسين رضي الله عنه ، واستغلال القوى المضادة للإسلام لمقتله ، وحادثة كربلاء .

ثم تحدثت عن وقعة الحرّة ، وما قيل حول انتهاك الأعراض في تلك الوقعة ، ودواعي فشل أهل المدينة في تلك المعركة .

وتكلمت عن حركة ابن الزبير في عهد يزيد ، وأسباب اختيار ابن الزبير لمكة في مقاومته للحكم الأموي ، وأسباب خروجه عليهم ، والجهود السلمية التي بذلها يزيد لاحتواء ابن الزبير ، والجهود الحربية أيضاً ، وحصار الكعبة وضربها بالمنجنيق واحتراقها ، ووفاء يزيد بن معاوية المفاجئ .

ثم تحدثت عن خلافة معاوية بن يزيد ، ومدة حكمه ، وتنازله عن الخلافة ، وتركه للأمر شورى .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه
علي محمد محمد الصّلابيّ

الإخوة الكرام ، يسر المؤلف أن تصله ملاحظاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبه من خلال دور النشر ، ويطلب من إخوانه الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص والصواب ، ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا .

عنوان المؤلف

abumohamed2@maktoob.comE-mail:

تمهيد

الجذور التاريخية للأسرة الأموية

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وفي عبد مناف يلتقي بنو أمية مع بني هاشم ، وكان بنو عبد مناف يتمتعون بمركز الزعامة في مكة ، لا يناهضهم فيه أحد من بطون قريش . . وجميع قريش تعرف ذلك وتسلم لهم الرياسة عليها^(١) .

أولاً : شهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين :

كان بنو عبد مناف بن قصي وحدة واحدة في محاولتهم اقتسام السلطة في مكة مع بني عمهم عبد الدار بن قصي ، الذي فضله والده على سائر أبنائه ، رغم شرفهم عليه ، وجعل له الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكان زعيمهم في هذه المحاولة هو عبد شمس ، أبو أمية ، إذ كان أسنَّ بني عبد مناف ، وتفرقت قريش على ذلك بين فريقين ، عبد مناف وعبد الدار ، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، فولي الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف ، وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفاراً ، قلما يقيم بمكة ، وكان مقلداً ذا ولد ، وكان هاشم موسراً^(٢) .

وهكذا كانت السلطة في مكة عبارة عن مراكز نفوذ تقررهما الأهمية الاقتصادية ، دون أن يكون لأسرة ما أو زعيم ما السيادة الكاملة على غرار ما كان لقصي زعيم قريش الأول^(٣) .

وكذلك اشترك بنو عبد مناف معاً في جهودهم لتنظيم التجارة بين مكة وما حولها^(٤) ، وهكذا كانوا يداً واحدة تتحرك في تفاهم وتآلف ، فلما ماتوا رثاهم الشعراء معاً ، دون تفريق بينهم تماماً كما كانوا يمتدحونهم معاً^(٥) ، وهكذا تقتضي طبيعة الحياة العربية في الجاهلية أن يتناصر أبناء الأب الواحد ، وأن تجتمع كلمتهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً^(٦) .

(١) النجوم العوالي ، للعصامي (٢/٣) .

(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام (١/١٣٧-١٣٨ ، ١٤١) .

(٣) الحجاز والدولة الإسلامية ، (ص ٨٧) .

(٤) تاريخ الطبري (٢/٢٥٢) .

(٥) السيرة النبوية ، لابن هشام (١/١٤٤-١٤٨) .

(٦) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٢٢) .

وأما الروايات التي تزعم وجود عداء مستحكم بين بني هاشم وبني عبد شمس وأمية قبل الإسلام ، فهي واهية الأسانيد ، لا تثبت ، فهي تروي أن هاشماً وعبد شمس ولدا ملتصقين ففصل بينهما بالسيف ، فكان بين أبنائهما الدماء لأجل ذلك^(١) ، فهذه رواية لقيطة ليس لها راوٍ ، تفوح منها رائحة الأسطورة والخيال ، ويكذبها ما رواه ابن إسحاق من أن عبد شمس كان أسن بني عبد مناف^(٢) ، والروايات التي تروي أن منافرات حدثت بين هاشم وأمية بن عبد شمس ، وبين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية^(٣) ، وكلتا الروايتين ترويان عن هشام الكلبي وهو رواية شيعي كذاب يرويها كليهما عن رجال مجهولين لا يعرف أسماءهم^(٤) ، إذ إن هذه الروايات كما يبدو واضحاً من سندها المعطل ومتنها المصطنع كانت صدى لما حدث فيما بعد من صراع بين بني أمية وبني هاشم حاول الرواة أن يجعلوا له سنداً تاريخياً ثابتاً ، وتظل حقيقة العلاقة الطيبة بين الفريقين لا شك فيها^(٥) ولذلك يقول ابن خلدون : كان لبني عبد مناف في قريش جمل من العزة والشرف لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قريش : وكان فخذاهم بنو أمية وبنو هاشم هما جميعاً ينتمون لعبد مناف ، ويتنسبون إليه ، وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم ، إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً ، والعزة إنما هي بالكثرة ، قال الشاعر : وإنما العزة للكاثر^(٦) . . .

ولعل ما يشير إليه ابن خلدون من تفوق بني أمية قد اتضح قبيل مبعث الرسول ﷺ لما مات عبد المطلب بن هاشم الذي ورث شرف أبيه وبرز نجم أبي سفيان بن حرب ، فذلك ما يبدو من هذا الوصف الدقيق لطبيعة العلاقة بين بني أمية وبني هاشم على لسان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لما سئل : أيكم كان أشرف أنتم أو بنو هاشم ؟ فأجاب : كنا أكثر أشرافاً وكانوا هم أشرف ، وكان فيهم عبد المطلب ولم يكن فينا مثله ، فلما صرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً ، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ، فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا : منا نبي ، فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرون بمثله ، محمد ﷺ ، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف ؟!^(٧)

إن كل ذلك لا ينفي احتمال وجود نوع من التنافس بين الجانبين قبل الإسلام ، في ضوء

(١) النزاع والتخاصم للمقريزي ، (ص ١٨١) .

(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام (١/ ١٣٧) .

(٣) النزاع والتخاصم ، ص ١٨١ ، الدولة الأموية ، شاهين ، (ص ١٢٢) .

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٢٢) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٢٣) .

(٦) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٣) .

(٧) البداية والنهاية (١٣٨/ ٨) .

ما نعرف من طبيعة الحياة العربية في مكة قبل الإسلام ، ولكنه تنافس يحدث بين الإخوة أحياناً ، وبين أبناء الأب الواحد ، غير أنه لم يتطور ليصبح تربصاً وعداء كما يزعم المتزيدون^(١) .

ولدينا من شواهد التاريخ ما يدل على قوة العلاقة بين بني هاشم وبني أمية ، فقد كان عبد المطلب بن هاشم - زعيم الهاشميين في عصره - صديقاً لحرب بن أمية - زعيم الأمويين - ، كما كان العباس بن عبد المطلب بن هاشم صديقاً حميماً لأبي سفيان بن حرب بن أمية ، وفي قصة إسلام أبي سفيان عند فتح مكة ، ودور العباس فيها أكبر دليل على ذلك ، كما سنبينها في الصفحات القادمة بإذن الله ، والغريب أن المقرئ الذي ألف كتاباً خاصاً عن علاقات الهاشميين والأمويين وجعل محوره النزاع والتخاصم ، يعترف بالصدقة الوطيدة التي كانت بين العباس وأبي سفيان^(٢) ، فإذا كانت الصداقة الوطيدة قائمة ، ووطيدة بين زعماء البيت الأموي والهاشمي - وهما أبناء أب واحد ، وهو عبد مناف بن قصي ، فإن الحدس بتأصيل النزاع بينهما بعد الإسلام والرجوع به إلى ما قبل الإسلام لا سند له من تاريخ^(٣) .

إن الكتاب المنسوب للمقرئ (النزاع والتخاصم) فيما بين بني أمية وبني هاشم ، لا يمكن أن يتصور عاقل أن يد المقرئ قد خطت حرفاً واحداً من هذا الكتاب ؛ لأن المقرئ لا يمكن أن ينزل إلى هذا الدرك من إلغاء العقل ، والجهل بالأحكام ، فإن هذا الكتاب ألفه صاحبه في عصر الانحدار الطائفي ، والتهافت العاطفي ، وتخلي فيه عن صفة المؤرخ ، وبعد عن سجية العلماء ، حيث جعل هذا الكتاب متنفساً عن بغضاء مكتومة ، وحقد دفين ، جعلها أساساً لحكمه وشعاراً لكتابه^(٤) ، ويرى الدكتور إبراهيم شعوط أن الكتاب منسوب للمقرئ^(٥) ، والذي يهمنا أن ما قرره صاحب الكتاب من أن العداوة مستحكمة بين بني أمية وبني هاشم وأنها قديمة لا يثبت هذا الادعاء أمام البحث العلمي النزهي ، إن الذين ينظرون إلى تاريخ بني أمية من خلال موقف أبي سفيان من الإسلام في مكة ومن خلال ما دار بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من حروب يبنون على ذلك - كما فعل العقاد - أوهاماً من صراع تاريخي قبل الإسلام وبعده بين بني هاشم وبني أمية ، وتلك أوهام ليس لها من التاريخ إلا رواية ملفقة أو أحداثاً عارضة لا تمثل قط صراعاً بين هذين الفرعين الكريمين من بني عبد مناف وهما ذروة الشرف في قریش^(٦) ،

(١) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٢٣) .

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (ص ٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٥) .

(٤) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ (ص ٢٠٩) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٣ .

(٦) المناهج الإسلامية لدراسة التاريخ ، د. محمد رشاد خليل ، ص ٢٤ .

والذي يظهره البحث العلمي النزيه وبعد ترك الروايات والأساطير الساقطة يتضح أن العلاقة بين البطينين كانت طبيعية مثلها مثل العلاقة بين باقي بطون قريش .

ثانياً: موقف بني أمية من الدعوة الإسلامية :

لقد كان تعامل الأمويين مع الدعوة الناشئة هو نفس تعامل بقية بطون قريش للدعوة الجديدة من أمثال بني مخزوم وبني هاشم وغيرهم ، ولنأخذ على ذلك مثلاً وهو كيفية تعامل بني هاشم رهط النبي ﷺ وأقرب بطون قريش إليه مع الدعوة ، فإن منطق العصبية السائد في الجاهلية يقتضي أن يتلقف بنو هاشم الدعوة الجديدة التي تحقق لهم العزة والشرف بالإيمان والنصرة ، وأن يقفوا خلف النبي الهاشمي بالتأييد والبذل ، وقد وقفوا إلى جواره فعلاً في بعض المواقف ولعل أشهرها حصار الكافرين لهم في شعب بني هاشم ، ولكنهم في النظرة الشاملة انقسموا عليه بين مؤيد ومعارض ومؤمن وكافر ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من قبائل مكة .

والمثال المشهور لكفار بني هاشم هو أبو لهب عم النبي ﷺ الذي كان أول من جهر بعداوة الإسلام لما جهر الرسول بدعوته ، ولم يكتف بالمعارضة الصريحة بل عضدها بالعمل والكيد ، فقد مارس صور شتى من تعذيب الرسول ﷺ وصد الناس^(١) عنه ، وكانت معه زوجته أم جميل بنت حرب الأموية ، وابناه عتبة وعتبة اللذان طلقا بنتي النبي رقية وأم كلثوم ليشغلا محمداً^(٢) ببنتيه ، وكان ابنه عتبة يشارك في إيذاء النبي ﷺ حتى دعا عليه فنهشه أسد في بعض أسفاره^(٣) ، بل إن أبا لهب لم يدخل مع قومه شعب بني هاشم لما حاصرتهم قريش^(٤) فيه ، ولما لم يستطع الخروج مع قريش لقتال الرسول يوم بدر استأجر بدلاً منه العاص بن هشام بن المغيرة بأربعة آلاف درهم^(٥) ، وقد كان أبو لهب في كفره وعناده مثلاً مشهوراً ولكنه لم يكن الهاشمي الوحيد الذي كفر بالنبي ﷺ وجهد في إيذائه وحربه ، فقد كان في أسرى المشركين يوم بدر من بني هاشم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث ، وحليفهم عتبة بن عمرو بن جحدم ، وقد قبل الرسول ﷺ فداءهم فيمن افتدى من أسرى قريش^(٦) .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ممن شهد قتال يوم بدر مع المشركين ونجا من

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام (٢/ ٦٤ - ٦٥)؛ والسيرة ، للصلاحي (١/ ٤٠٤).

(٢) السيرة النبوية ، لابن هشام (٢/ ٢١٩)؛ الدولة الأموية ، شاهين ، (ص ١٢٥).

(٣) أنساب الأشراف (١/ ١٣٠ - ١٣١).

(٤) السيرة النبوية ، لابن هشام (١/ ٣٣٩).

(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٨٣).

(٦) تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٥ - ٤٦٦).

القتل والأسر^(١) وهو ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة - أرضعتها حليلة السعدية أياماً - وكان يألف رسول الله ﷺ وكان له ترباً ، فلما بعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يعادها أحد قط ، ولم يدخل الشعب مع بني هاشم وهجا رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكان من المجاهرين بالظلم له ﷺ ولكل من آمن به قبل الهجرة^(٢) .

إن أعظم النصرة والتأييد لقيهما النبي ﷺ من عمه أبي طالب الذي تحمّل في سبيل ذلك ضغوطاً هائلة من قريش ، ولكنه ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته وفياً لدين آبائه ، فمات على ملة الأشياخ من قومه^(٣) ، وظل العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ الآخر في مكة ، واشترك مكرهاً ضده في غزوة بدر وأسر بها ، ولكنه لم يهاجر إلى المدينة ويعلن إسلامه إلا والرسول ﷺ في طريقه لفتح مكة^(٤) ، وقد أسلم في مكة نفر من بني هاشم وبذلوا في سبيل الدعوة الكثير؛ مثل: علي بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وجعفر بن أبي طالب وغيرهم ، ولكنهم كانوا يشاركون غيرهم من غير بني هاشم في ذلك كأبي بكر وعمر وعثمان ، ولم يكن بذلهم لأنهم هاشميون بل لأنهم مسلمون ، ويظل إيمانهم دليلاً على صدق القول باختلاف استجابة الأفراد للدعوة الإسلامية بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية^(٥) .

وبالنسبة لبني أمية وموقفهم من الإسلام فإن مؤرخينا لا يتحدثون عنهم كبطن مستقل من بطون قريش ، وإنما يتحدثون عنهم مع غيرهم من بني عبد شمس والد أمية ، فيعدونهم وحدة واحدة^(٦) ، وقد كانوا أبناء أب واحد وتربطهم علاقات التصاهر والترابط الاجتماعي ؛ ولذلك فإنهم عند حديثهم عن عدا بني أمية للرسول ﷺ يذكرون اسمي عتيبة وشيبة ابني ربيعة بن عبد شمس ، ورغم أنهما ليسا من بني أمية . . ويذكرون معهما أيضاً أبا سفيان بن حرب وعقبة بن أبي معيط ، فأما عقبة بن أبي معيط هذا فقد كان من مرّة قريش ، فقد تفل في وجه رسول الله ﷺ ، وأنه رمى عليه ﷺ سلى جزور وهو يصلي ، وأنه خنقه بثوب في عنقه حتى دفعه أبو بكر الصديق^(٧) ، وقد نال جزاءه لما أمر النبي ﷺ بقتله بعد أسره يوم بدر ، والغريب أنه كان

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٦٢) .

(٢) في اختصار المغازي والسير ، لابن عبد البر ، (ص ٤٤) .

(٣) زاد المعاد (٢/ ٤٦) ؛ السيرة النبوية ، لابن هشام (١/ ٢٥٦) .

(٤) السيرة النبوية ، لابن هشام (٤/ ١٢) .

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٢٧) .

(٦) السيرة النبوية ، لابن هشام (٣/ ٧٠ - ٧١) .

(٧) البخاري ، رقم (٣٦٨٧ ، ٣٨٥٦) .

يذكره بما بينهما من رحم^(١) ، ومثل هذه النماذج الطائشة لم ينفرد بها بنو أمية أو عبد شمس في مكة آنذاك^(٢).

وأما معارضة عتبة وشيبة ابني ربيعة فمعلومة ومشهورة ، ومع هذا لما هاجر الرسول ﷺ إلى الطائف وصده عنها أهلها وتبعه الصبيان والغلمان يرمونه ويصيحون به لجأ إلى حائط ابني ربيعة عتبة وشيبة ، فلما رأياه على هذا الحال تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً نصرانياً يقال له : عداس ، فقالا له : خذ قطعاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه^(٣).

ثالثاً : أمويون مسلمون منذ بداية الدعوة الإسلامية :

وإذا جارينا نهج المؤرخين في الحديث عن بني أمية وبني عبد شمس معاً ، فإننا نرى منهم جماعة كانوا من السابقين إلى الإسلام ، فمِنذ المرحلة السرية للدعوة وقبل الجهر بها كان قد أسلم كل من عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، وكان إسلامه على يد أبي بكر الصديق في أيام الإسلام الأولى^(٤) ، وكذلك كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وقد أسلم في هذه المرحلة السرية التي دامت حوالي ثلاث سنين^(٥) - أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس^(٦) ، كما أسلم في مرحلة مبكرة حليفان لبني أمية وهما : عبد الله بن جحش بن رئاب ، وأخوه أبو أحمد بن جحش ؛ وهما ابنا عمه النبي ﷺ ؛ فأمهما أميمة بنت عبد المطلب^(٧).

وفي الهجرة الأولى إلى الحبشة شارك نفر من مسلمي بني أمية مثل عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو^(٨) ، كما كان لبني أمية مشاركة في الهجرة الثانية ومعهم بعض حلفائهم ، وقد ذكر الدكتور حمدي شاهين قائمة طويلة بأسمائهم ، مما يؤكد استجابة بعض بني أمية للإسلام منذ بداية الدعوة^(٩) ، وقد ساهمت نساء بني أمية وعبد شمس في صنع مسيرة الإسلام وفي إعطاء الأسوة

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام (٢/ ٢١٢).

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٢٧).

(٣) السيرة النبوية (١/ ٢٩٢ - ٢٩٣).

(٤) السيرة النبوية ، لابن هشام (١/ ٢٦٠).

(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٣١٨).

(٦) السيرة النبوية ، لابن هشام (١/ ٢٦٣).

(٧) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٦٢).

(٨) المصدر السابق نفسه (١/ ٣١٥).

(٩) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٣١).

وضرب المثل في نبل التضحية وعزيز العطاء ، فقد أسلمت رملة بنت شيبه بن ربيعة زوجة عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى المدينة وثبتت معه على دينه رغم مقتل أبيها وعمها وابنه في بدر ، مما أهاج عليها غضب هند بنت عتبة فقالت تعيها :

لحى الرحمن صابئةً بوجٍّ ومكةً أو بأطرافِ الحجون
تدينُ لمعشرٍ قتلُوا أباهَا أَقتلُ أهلكِ جاءكِ باليقين^(١)

وهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط إلى المدينة في الهدنة التي كانت بين النبي ﷺ والمشركين في الحديبية ، على أن الصورة الأزهى والنموذج الأرقى في ذلك المجال هو إسلام أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، فقد أسلمت مبكراً^(٢) ، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى .

رابعاً: المصاهرات بين بني هاشم وبني أمية :

لم يكن بين بني هاشم وبني أمية من المباغضة والعداوة والمنافرة التي اخترعها وابتكرها أعداء الإسلام والمسلمين ونسجوا الأساطير والقصص حولها ، فالحقيقة التاريخية تقول بأن علاقتهم كانت علاقة أبناء العمومة والإخوان والخلان ، فهم من أقرب الناس فيما بينهم ، يتبادلون الحب والتقدير والاحترام ، ويتقاسمون الهموم والآلام والأحزان ، فبنو أمية وبنو هاشم كلهم أبناء أب واحد ، وأحفاد جد واحد ، وأغصان شجرة واحدة قبل الإسلام وبعد الإسلام وكلهم استقوا من عين واحدة ومنبع صافٍ واحد ، وأخذوا الثمار من دين الله الحنيف الذي جاء به رسول الله الصادق الأمين ، المعلم ، المربي ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولقد كان بين أبي سفيان وبين العباس صداقة يضرب بها الأمثال^(٣) ، كما كانت بينهم المصاهرات قبل الإسلام وبعده ، وكان على رأسهم رسول الله ﷺ الذي زوج بناته الثلاث من الأربع من بني أمية ، وهذه نماذج من المصاهرات بينهم :

أ - عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، فقد تزوج رقية بنت رسول الله ﷺ ، ثم بعد وفاتها تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ .

ب - أبو العاص بن الربيع وهو من بني أمية ، فقد تزوج زينب بنت رسول الله ﷺ وولدت زينب له ابنة وهي أمامة ، وتزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد وفاة فاطمة الزهراء^(٤) .

(١) نسب قريش ، (ص ١٠٤ - ١٠٥) .

(٢) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٩) .

(٣) الشيعة وأهل البيت ، (ص ١٤١) .

(٤) الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة ، أبو معاذ السيد بن أحمد الإسماعيلي ، (ص ٢٢) .

- ج- خديجة بنت علي بن أبي طالب ، تزوجها عبد الرحمن بن عامر بن كرز الأموي^(١) .
- د- رملة بنت علي بن أبي طالب ، تزوجها معاوية بن مروان بن الحكم^(٢) .
- هـ- زينب بنت الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، تزوجها الوليد بن عبد الملك بن مروان^(٣) .
- و- فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب ، تزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان^(٤) .
- وقد اكتفيت ببيان بعض منها ، وفيها كفاية لمن أراد الحق والتبصر^(٥) .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٣) .

(٢) نسب قريش ، (ص ٤٥) ، جمهرة أنساب العرب ، (ص ٨٧) .

(٣) نسب قريش ، (ص ٥٢) ، الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة ، (ص ٢٢) .

(٤) الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة ، (ص ٢٥) .

(٥) الشيعة وأهل البيت ، (ص ٢٢٤) .

الفصل الأول

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من مولده حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وأسرته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، أمير المؤمنين ملك الإسلام ، أبو عبد الرحمن ، القرشي الأمويّ المكي^(١) ، ولد قبل البعثة بخمس سنين ، وقيل : بسبع ، وقيل : بثلاث عشرة ، والأول أشهر^(٢) ، وكان رجلاً طويلاً ، أبيض ، جميلاً ، مهيباً ، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير ، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يحبو فيقول لوالدته : إن ابني هذا لعظيم الرأس ، وإنه لخليق أن يسود قومه ، فقالت هند : قومه فقط ، ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة^(٣) ، وعن أبان بن عثمان قال : كان معاوية يمشي مع أمه هند ، فعثر ، فقالت : قم لا رفعك الله ، وأعرابي ينظر ، فقال : لمَ تقولين له؟ فوالله إني لأظنه سيسود قومه . قالت : لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه^(٤) .

ثانياً: إسلام أبي سفيان والد معاوية رضي الله عنهما:

كان أبو سفيان من عتاة الجاهلية الذين حاربوا الإسلام . . وكتب السيرة النبوية وصفت

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠) .

(٢) الإصابة (٦/ ١٥١) .

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٨) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢١) .

أعماله ضد الدعوة الإسلامية ، إلا أن الله تعالى أراد الهداية له ، فأسلم قبل فتح مكة بقليل ، وقد أكرمه رسول الله ﷺ في فتح مكة وأعلن : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن^(١) ، وفي هذا الإكرام النبوي الشريف لأبي سفيان لفئة تربوية ، ففي تخصيصه ﷺ بيت أبي سفيان بشيء يشبع ما تطلع إليه نفس أبي سفيان ، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه^(٢) ، وكان هذا الأسلوب النبوي الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان ، وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئاً في الإسلام ، إن هو أخلص له ، وبذل في سبيله^(٣) ، وهذا منهج نبوي كريم ، على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ، ويعملوا به في تعاملهم مع الناس^(٤).

وقد حسن إسلام أبي سفيان وشاهد المواقع وقدم خدمات جليلة للإسلام ، فقد كان مع رسول الله ﷺ في حنين ، وشارك في حصار الطائف وفقد إحدى عينيه فيها ، وفي اليرموك فقد الثانية^(٥) ، وبعد ثقيف أرسله رسول الله ﷺ مع المغيرة بن شعبه لهدم اللات^(٦) - صنم ثقيف ، وقد كانت اللات معظمة عند قريش كذلك ، وكانوا يحلفون بها ، وهذا دليل على تغلغل الإيمان في قلب أبي سفيان رضي الله عنه ، لقد أسلم أبو سفيان إذاً بعد أن ظل حبه للرياسة وممارسته لها حائلاً بينه وبين الإسلام ، وقد راعى رسول الله ﷺ هذه العوامل النفسية المؤثرة على نفس أبي سفيان ونفوس عليه القوم من قريش بعد الفتح ، فقد جعل من دخل دار أبي سفيان آمناً ، كما أعطاه من غنائم حنين مع غيره ممن سموا آنذاك بالمؤلفة قلوبهم^(٧).

ولم ينسَ أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية ، وحرص على مضاعفة جهده في خدمة الإسلام ، وقال عنه ابن كثير : من سادات قريش في الجاهلية ، وتفرد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر ، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه ، وكانت له مواقف شريفة ، وآثار محمودة في اليرموك وما قبله وما بعده^(٨).

وروي عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل

(١) البخاري ، رقم (٤٢٨٠).

(٢) المستفاد من قصص القرآن (٢/٤٠٣).

(٣) قراءة سياسة للسيرة النبوية ، لمحمد رواس قلعجي (ص ٢٤٥).

(٤) السيرة النبوية ، للصلاحي (٢/٤٩٧).

(٥) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٣).

(٦) السيرة النبوية ، لابن هشام (٤/١٩٥).

(٧) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٤٢).

(٨) البداية والنهاية (١١/٣٩٧).

واحد يقول: يا نصر الله اقترب ، والمسلمون يقتتلون هم والروم ، فذهبت أنظر فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد^(١) ، وروي أنه كان يوم اليرموك يقف على الكراديس: فيقول للناس: الله الله ! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك^(٢) ، وقيل: مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع وثلاثين^(٣) ، وصلى عليه ابنه معاوية ، وقيل: بل صلى عليه عثمان ، وله ثلاث وثمانون ، وقيل: كان له بضع وتسعون سنة^(٤).

ثالثاً: هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضي الله عنهما:

هي أم معاوية ، أسلمت يوم الفتح ، بعد إسلام زوجها أبي سفيان ، فأقاما على نكاحهما ، ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال ، بايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة - وكانت متنكرة ، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، لما صنعت بحمزة - على ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن ، وأرجلهن ، ولا يعصين في معروف ، ولما قال النبي ﷺ: «ولا يسرقن»؛ قالت هند: يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ، ويكفي بني ، فهل علي من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وبنك بالمعروف» ، ولما قال: «ولا يزنين» قالت هند: وهل تزني الحرّة؟ ولما عرفها رسول الله ﷺ قال لها: «وانك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم ، فاعفُ عما سلف عفا الله عنك .

وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحة ، فقد كان لا يوافق النساء ، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له ، أو ذات محرم منه ، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت: لا والله! ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط^(٥).

وروى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن الزبير: أنه لما بايعت هند تكلمت فقالت: يا رسول الله ، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه ، لتفنعني رحمك يا محمد ، إني امرأة مؤمنة بالله ، مصدقة برسوله ، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله ﷺ: «مرحباً بك» ، فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل

(١) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٣).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٠٣).

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٠٤).

(٥) البخاري ، رقم (٥٢٨٨)؛ مسلم ، رقم (١٨٦٦).

خِباثتك ، قال : « وأيضاً والذي نفسي بيده » . قالت : يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيان رجل ممسك ، فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا ؟ قال : « لا أراه إلا بالمعروف ^(١) » .

ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى بيتها فجعلت تكسر صنماً كان عندها حتى فلذته فلذة وهي تقول : كنت منك في غرور ^(٢) ، ولما رأت المسلمين ببیت الله الحرام قالت : والله ما رأيت الله عبداً حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة ، والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً ^(٣) .

وكان لهند في جاهليتها موقف مع زينب بنت المصطفى ﷺ ، فقد كانت بمكة مع زوجها أبي العاص بن الربيع وأرسل النبي ﷺ من يأتيه بها إلى المدينة ، وكان ذلك بعد (بدر) ولم تجف دماء قريش بعد ، وكانت (هند) قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها ، وكانت تطوف على مجالس قريش وأنديتها تُذكي نار الثأر ، وتؤجج أوار الحرب ، وفي الطريق لقيت زينب بنت رسول الله ﷺ ، وكان قد تسرّب خبر استعدادها للخروج لأبيها فقالت هند : أي بنت محمد ! بلغني أنك تريدين اللحق بأبيك !! . أي ابنة عمي ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يعينك في سفرك ، أو بمال تبلغين به إلى أبيك ، فعندي حاجتك فلا تستحييني ، فإنه لا يدخل بين النساء ما يكون بين الرجال ، تروي زينب رضي الله عنها ذلك ، وتقول : ووالله ما أراها قالت إلا لتفعل ^(٤) . ثم يوم خروج زينب يتعرض لها رجال من قريش ، يريدون إرجاعها ، فتسقط من على ناقتها وكانت حاملاً ، فتنزف ، وتسمع هند ، فتخرج مسرعة وترفع عقيرتها في وجه قومها : أمعركة مع أنثى عزلاء؟! أين كانت شجاعته يوم بدر؟ وتحول بينهم وبين زينب وتضمها إليها وتمسح عنها ما بها ، وتصلح شأنها ، حتى استأنفت الخروج إلى أبيها في أمن وأمان ^(٥) .

وكانت هند امرأة حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة ، ويروى أنها كانت قبل أبي سفيان عند الفاكه بن المغيرة ، وكان من فتيان قريش ، له مجلس يأتيه ندماؤه فيدخلون بغير استئذان ، فدخلته هند يوماً وليس فيه أحد ، فنامت فيه ، وجاء بعض ندماء الفاكه فدخل البيت ، ورأى هند نائمة فخرج ، فلقى الفاكه خارجاً ، ثم دخل فوجد هنداً في المجلس نائمة فقفزها بالرجل ، فشرى ^(٦) الأمر إلى أن اتفقوا على أن يتحاكموا إلى كاهن في بعض النواحي ، فحملها أبوها عتبة

(١) الطبقات الكبرى (٨/ ١٧٢) ، البخاري رقم (٣٨٢٥) .

(٢) الطبقات (٨/ ١٧٢) .

(٣) نحو رؤية جديدة للتاريخ ، (ص ٢٠٠) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٠٨) ؛ فرسان من عصر النبوة ، (ص ٨٥٣) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٠٨) .

(٦) فشري : بمعنى عظم وتفاقم .

وخرج معهم الفاكه حتى إذا دنوا من الكاهن رآها أبوها متغيرة مصفراً لونها ، فخلا بها وقال : يا بُنية ما لي أراك قد اصفرّ لونك وتغيّر جسمك ؟ ! فإن كنت قد ألممت بذنب بأخبريني حتى أفل^(١) هذا الأمر قبل أن نفتضح على رؤوس الناس . فقالت : يا أبتى إني لبريئة ، ولكنني أعلم أنا نأتي بشراً يخطئ ويصيب ، فأخشى أن يخطئ فيّ بقول يكون عاراً علينا إلى آخر الدهر . قال عتبة : فإنني سأختبره ، فخبأ له حبة بُر في إحليل مهر^(٢) ، ثم ربط عليها ، فلما أتى الكاهن قال : قد خبأت لك خبيئاً فما هو ؟ قال : ثمرة في كَمَرَةٍ ، قال : بئس ، قال : حبة بُر في إحليل مهر . فأجلسوا هنداً بين نساء ثم سألوا الكاهن ، فقام فضرب بيده بين كتفي هند وقال : قومي حصاناً غير زانية وَلْتَلِدَنَّ ملكاً يقال له معاوية . فوثب الفاكه ، فأخذ بيدها وقال : امرأتي ، فنزعت يدها من يده وقالت : والله لأحرصنَّ أن يكون من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان ، وولدت له معاوية^(٣) . هذا وقد توفيت في ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٤) .

رابعاً: من إخوان وأخوات معاوية رضي الله عنه :

١- يزيد بن أبي سفيان :

وكان يقال له : يزيد الخير ، وهو أفضل بني أبي سفيان ، أسلم يوم الفتح وشهد حيناً ، وأعطاه النبي ﷺ من غنائمها مئة بغير وأربعين أوقية^(٥) ، واستعمله أبو بكر على أول الجيوش التي أرسلها إلى الشام ، وكانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتحها ومساعدة الجيوش الإسلامية الأخرى عند الضرورة ، وكان جيش يزيد أول الأمر ثلاثة آلاف رجل ، وقبل رحيل جيش يزيد أوصاه الخليفة أبو بكر وصية بليغة عالية المستوى تشتمل على حكم باهرة في مجالي الحرب والسلم ، وشيعة ماشياً وأوصاه بما يأتي :

«إني قد وليتك لأبلوك وأجرّبك وأخرّجك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً بعمله ، وقد وليتك عمل خالد^(٦) ، فأياك وعبيّة الجاهلية^(٧) فإن الله يبغضها ويبغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم

(١) أي : حتى أفلك .

(٢) من اختبار الكاهن ، فإن عرف سألوه ، وإلا تركوه .

(٣) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢١٩) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٤) .

(٦) يعني : خالد بن سعيد بن العاص ، وكان قد استعفى أبا بكر فأعفاه .

(٧) يعني : التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية .

وإبدأهم بالخير وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها ، والتخشع فيها ، وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تريتهم فيروا خَلِّكَ^(١) ، ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكرك^(٢) ، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلايتك فيخلط أمرك ، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة ، ولا تخزُنْ عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك ، واسمر بالليل في أصحابك تأتاك الأخبار وتتكشف عنك الأستار ، وأكثر حرسك ، وبددْهم في عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم في محارستهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه ، وعاقبه في غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل ، واجعل التوبة الأولى أطول من الأخيرة ، فإنها أيسرها قربها من النهار ، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجئ فيها ، ولا تسرع إليها ، ولا تتخذ لها مدفعاً ، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم ، واكتف بعلايتهم ولا تجالس العبّاثين ، وجالس أهل الصدق والوفاء ، واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس ، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ، ويدفع النصر ، وستجدون أقواماً حسبوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حسبوا أنفسهم له .

قال ابن الأثير : وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاية الأمر^(٣) .

ومن فوائد هذه الوصية :

أ - أن الولايات والمناصب ليست حقاً ثابتاً لأصحابها وإنما بقاؤهم فيها مرهون بالإحسان والنجاح في العمل ، ومن واجب المسؤول الأعلى أن يعزّلهم إذا أساءوا ، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل ، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا ، فيخل بمسؤوليته ويعرّض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع .

ب - إن تقوى الله عز وجل هي أهم عوامل النجاح في العمل ، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم ، فإذا اتقوه في باطنهم فحريّ بهم أن يتقوه في ظاهرهم ، وبذلك يتجنب الوالي كل مظاهر الفساد والإفساد ، التي تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التي لا تلتزم بتقوى الله تعالى .

(١) يعني : لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك .

(٢) ليرواقوة المسلمين .

(٣) الكامل ، لابن الأثير (٢/ ٦٤ - ٦٥) .

ج - التحذير من التعصب للآباء والأجداد والأقوام ، فإن التعصب لذلك قد يحمل الإنسان على الانحراف عن الطريق المستقيم ، إذا كان ما عليه الآباء والأجداد مخالفاً للاستقامة ، إضافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة ؛ وهي الأخوة في الله .

د - الإيجاز في الموعظة ، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً ، فيضيع المقصود ، ويغلب على السامع الإعجاب ببلاغة المتكلم إن كان بليغاً عن استيعاب ما يقول والاستفادة من مواعظه ، وإن لم يكن بليغاً فإن الملل يأخذ بالسامع فلا يعي ما يقول المتكلم .

هـ - إذا أصلح المسؤول نفسه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجاً صالحاً للقدوة الحسنة ؛ فإن ذلك يكون سبباً في صلاح من هم تحت رعايته .

و - الاهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهراً ومخبراً ؛ مظهراً من ناحية إكمال أفعالها وأفعالها ، ومخبراً من ناحية الخشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى ، فإن هذه الصلاة الكاملة يقام بها ذكر الله في الأرض ، وتهذب السلوك ، وتقوي القلوب ، وتبعث على ارتياح النفوس ، وتعتبر ملاذاً للمسلم عند الشدائد .

ز - إكرام رسل العدو إذا قدموا مع الاحتراس منهم ، وعدم تمكينهم من معرفة واقع الجيش الإسلامي ، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتحلى به المسلمون من مكارم الأخلاق ، ولكن لا يصل هذا الإكرام إلى حد إطلاعهم على بطانة أمور المسلمين ، بل ينبغي إطلاعهم على قوة جيش المسلمين ليُرهبوا بذلك أقوامهم^(١) .

ح - الاحتفاظ بالأسرار ، وعدم التهاون بإفشاءها ، خاصة فيما يتعلق بأمر المسلمين العامة ، فإن الحكيم يستطيع التعرف في الأمور وإن تغيرت وجوها ما دام سرّه حبيساً في ضميره ، فإذا أفشاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها .

ط - إتقان المشورة أهم من النظر في نتائجها ، فإن المستشار وإن كان حصيف الرأي ثاقب الفكر ، فإنه لا يستطيع أن يفيد من استشاره حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح ، فإذا أخفى المستشار بعض تفاصيل القضية فإنه يكون قد جنى على نفسه ، حيث قد يتضرر بهذه المشورة .

ي - أن على القائد وكل مسؤول أن يكون مخالطاً لمن ولي أمرهم على مختلف طبقاتهم ليكون دقيق الخبرة بأمورهم ، وفي هذا أكبر العون له على تصور مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها ، أما المسؤول الذي يعيش في عزلة ولا يختلط إلا بأفراد من كبار رعيته ، فإنه لا يصل إليه من المعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء ، وقد لا يكشفون له الأمور بكل تفصيلاتها ، فقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح .

ك - الاهتمام بأمر حراسة المسلمين خاصة من مكان الخطر ، واختبار الحرّاس الأمناء من ذوي النباهة وعدم وضع الثقة الكاملة بهم ، بل لا بدّ من الرقابة عليهم حتى لا يؤتى المسلمون من قبلهم .

ل - أن يسلك المسؤول في عقاب المخالف مسلكاً وسطاً ، فلا يتهاون فيترك عقوبة المستحق ، فإن ذلك يجزئ على مزيد من المخالفة ، ويجزئ غيره على ارتكاب المخالفات ، فتسود الفوضى وينفلت الأمر ، ولا يشتد في العقوبة فينفر الرعية ، ويدفعهم إلى التسخط والتحزب ، بل تكون عقوبته بحكمة واتزان بعد النظر والتروي بحيث تؤدي غرضها التربوي بدون إثارة ضجة ، ولا دفع إلى النقد والتسخط^(١) .

م - أن يكون لدى المسؤول يقظة وانتباه لكل ما يجري في حدود المسؤولية المناطة به حتى يشعر أفراد الرعية بأن هناك اهتماماً بأموالهم ، فيزيد المحسن إحساناً ، ويقصر المسيء عن الإساءة ، ولكن بدون تجسس عليهم ، فإن ذلك يعتبر فضيحة لهم ، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقة الذي يربط المسؤول بأفراد رعيته ، من المودة والإعجاب والشكر على الجميل ، وهذا الخيط ما دام قائماً فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التي تفسد المجتمع وتحدث الفوضى ، فإذا انقطع ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى فإن أهم الحواجز التي تحول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطمت ، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور لأنها تحتاج إلى قوة رادعة ، وهذه لها سلبياتها المعروفة .

ن - أن يحرص المسؤول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة ، وإن سمع منهم ما يكره أحياناً من النقد والتوجيه ، فإن ذلك يعود عليه وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع ، وألاً يجالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية ؛ فإن هؤلاء وإن أنس بكلامهم وثنائهم فإنهم يحولون بينه وبين التفكير في الأمور الجادة ، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به وبمن ولي أمورهم .

س - أن يصدق القائد في لقاء الأعداء وأن لا يجبن ، فإن جبنه يسري على جنده فيقع بذلك الفشل والهزيمة ، وفي غير الحرب أن يكون المسؤول شجاعاً في مواجهة المواقف ، وأن لا يضعف فيسري ضعفه على من هم تحت إدارته من العاملين ، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج .

ع - أن يتجنب القائد الغلول ، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها هذا في مجال الحرب ، وفي مجالات السلم أن يتجنب المسؤول أية استفادة دنيوية من عمله لا تحل له شرعاً ، مثل أخذ

الهدايا التي يقصد بها دافعها الاستفادة من المسؤول في مجانبه الحق ، فإن ذلك من الغلول ، والغلول كما جاء في هذه الوصية يقرب إلى الفقر ، ويدفع النصر .

ومن هذه الفوائد تبين لنا عظمة الوصية التي أوصى بها أبو بكر رضي الله عنه أحد قواده ، وهي تبين لنا أنه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين ، وأنه كان يتصور ما قد يواجهه قواده فيحاول تزويدهم بما ينفعهم في تلافي الوقوع في المشكلات ، وحلها إذا وقعت ، وهذه الوصية وأمثالها تسجل إضافة جديدة لمواقف أبي بكر المتعددة^(١).

وجاء في رواية: أن أبا بكر رضي الله عنه لم ينسّ اللمسات الإنسانية في وصيته لجيش يزيد؛ حيث وصاه بدستور المسلمين للحرب المكون من عشر نقاط تجسد إنسانية الحضارة الإسلامية وروحها المفعمة بالرحمة ، والشفقة ، وقد جاءت هذه الوصية على شكل مقتبس من رسول الله ﷺ فقد قال: «أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تفسدوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بيعوا إلا لأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . اندفعوا باسم الله»^(٢).

وقد استفاد منها يزيد بن أبي سفيان غاية الاستفادة ، ولما فتح الشام في عهد عمر ، ولّى الفاروق يزيد فلسطين وناحتيتها ، ثم لما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل ، فلما مات معاذ بن جبل استخلف يزيد بن أبي سفيان ، ثم مات يزيد فاستخلف أخاه معاوية ، وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة ، وقيل: مات يزيد سنة تسع عشرة ، بعد فتح قيسارية ، وقيل: بل مات قبل فتح قيسارية وإنما افتتحها معاوية^(٣). وقال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله البصري: جزع عمر على يزيد جزعاً شديداً ، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام^(٤).

٢- عتبة بن أبي سفيان:

يكنى أبا الوليد ، ولد على عهد رسول الله ﷺ ، ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم ، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص ، وحكي عنه أنه اعترضه أعرابي

(١) التاريخ الإسلامي (٩/١٩٦).

(٢) صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين ، سلامة الهرفي ، ص ٦٢ ، نقلاً عن تاريخ الطبري (٣/٢٢٧).

(٣) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٥).

(٤) المصدر السابق نفسه .

وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قال: لست به ولم تبع. قال: فيا أخاه. قال: أَسَمَعْتَ فَقُلْ ، قال: شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة ، ويختص بالخؤولة^(١) ، ويشكو إليك كثرة العيال ، ووطأة الزمان ، وشدة فقر ، وترادف ضُرٍّ ، وعندك ما يسعه ويصرف عنه بؤسه ، أستغفر الله منك ، وأستعينه عليك. قال: قد أمرنا لك بغناك ، فليت إسرأنا إليك يقوم بإبطائنا عنك^(٢) ، وكان خطيباً فصيحاً ، يقال: إنه لم يكن في بني أمية أخطب منه^(٣) ، وأقام بمصر والياً سنة ثم توفي بها ، ودفن في مقبرتها سنة أربع وأربعين ، وقيل: سنة ثلاث وأربعين^(٤).

٣- عنبة بن أبي سفيان:

يكنى أبا عثمان ، روي عن أبي أمامة قال: لما حضر عنبة بن أبي سفيان الموت اشتد جزعه وجاءه الناس يعودونه ، فجعل عنبة يبكي ويجزع ، فقال له القوم: يا أبا عثمان ما يبكيك وما يحزنك وقد كنت على سمت من الإسلام حسن وطريقة إن شاء الله حسنة؟! فازداد حزناً وشدة بكاء ، وقال: ما يمنعني ألا أبكي وألا يشتد حزني من هول المطلاع ، وما يدريني ما أشرف عليه غداً ، وما قدمت من كبير عمل تثق به نفسي^(٥).

٤- أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها:

هي رملة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ ، تكنى أم حبيبة وهي بها أشهر من اسمها ، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية ، ولدت رضي الله عنها قبل البعثة بسبعة عشر عاماً ، وكانت قبل النبي ﷺ عند عبيد الله بن جحش بن رباب بن يعمر الأسدي من بني أسد بن خزيمة ، فأسلم ثم هاجرا إلى الحبشة فولدت حبيبة وبها كانت تكنى ، وقد ارتد زوجها عبيد الله بن جحش عن الإسلام ودخل في النصرانية فهلك وهو على تلك الحالة ، وتمسكت بدينها وذلك من فضل الله عليها ليتم لها الإسلام والهجرة ، فأبدلها الله عز وجل به خير البشر عليها وأفضلهم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ، وهي أقرب أزواجه نسباً إليه وأكثرهن صداقاً رضي الله عنها وأرضاها^(٦). قال الذهبي عنها: وهي من بنات عم الرسول ﷺ ، وليس في أزواجه من هي أكرم نسباً إليه منها ، ولا في نسائه من هي أكثر صداقاً منها ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها ، عَقَدَ له ﷺ عليها بالحبشة ، وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربعمئة دينار ، وجهزها

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٠٧) ، قادة فتح الشام ومصر ، (ص ٩٩).

(٢) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٨).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٨).

(٦) الطبقات لابن سعد (٨/ ٩٦ - ١٠٠)؛ مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٩).

بأشياء^(١). وقد ورد لها بعض المناقب التي تدل على علو مكانتها وعظيم شأنها رضي الله عنها وأرضاها ، ومن تلك المناقب :

أ - أنها كانت ممن هاجر في الله الهجرة الثانية إلى الحبشة فارة بدينها رضي الله عنها ، فقد روى الحاكم بإسناده إلى إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص قال : قالت أم حبيبة رأيت في النوم عبيد الله بن جحش زوجي بأسوأ صورة وأشوهها ، ففزعت فقلت : تغيرت والله حاله ، فإذا هو يقول حين أصبح : يا أم حبيبة إني نظرت في الدين فلم أر ديناً خيراً من النصرانية وكنت قد دنت بها ، ثم دخلت في دين محمد ، ثم قد رجعت إلى النصرانية ، فقلت : والله ما خير لك ، وأخبرته بالرؤيا التي رأيت له ، فلم يحفل بها وأكب على الخمر حتى مات ، فأرى في النوم كأن آتياً يقول لي : يا أم المؤمنين ! ففزعت وأولتها أن رسول الله ﷺ يتزوجني ، قالت : فما هو إلا أن انقضت عدتي فما شعرت إلا برسول النجاشي على بابي يستأذن ، فإذا جارية له يقال لها : أبرهة ، كانت تقوم على ثيابه ودهنه ، فدخلت عليّ فقالت : إن الملك يقول لك : إن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوجه ، فقالت : بشرك الله بخير ، قالت : يقول لك الملك : وكلي من يزوجه ، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته^(٢) . ففي هذا الحديث فضيلة ظاهرة ومنقبة عالية لأم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها ؛ وهي أنها كانت ممن شرف بالهجرة إلى أرض الحبشة وثبتت على إسلامها وهجرتها^(٣).

ب - ومن مناقبها : أنها أكرمت فراش رسول الله ﷺ من أن يجلس عليه أبوها لما قدم المدينة لعقد الهدنة بين الرسول ﷺ وبين قريش ، ومنعته من الجلوس عليه لأنه كان يومئذ على الشرك ولم يكن قد أسلم^(٤) ، فقد روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن مسلم الزهري قال : لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يريد غزو مكة ، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه ، فقال : يا بنية أرغب بهذا الفراش عني أم بي عنه ، فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك ، فقال : يا بنية أصابك بعدي شر^(٥).

ج - ومن مناقبها : ما رواه ابن سعد والحاكم عن عوف بن الحارث قال : سمعت عائشة تقول : دعني أم حبيبة زوج النبي ﷺ عند موتها ، فقالت : قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ،

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/٢١٩).

(٢) المستدرک ، معرفة الصحابة (٤/٢٠-٢١).

(٣) العقيدة في أهل البيت ، (ص ١١٣).

(٤) المصذر السابق نفسه ، (ص ١١٣).

(٥) سير أعلام النبلاء (٢/٢٢٣)؛ الطبقات الكبرى (٨/٩٩-١٠٠).

فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك ، فقلتُ : غفر الله لك ذلك كله وتجاوز وحللك من ذلك ، فقالت : سَرَرَنِي ؛ سرَّكَ الله ، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك ، وتوفيت سنة أربع وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما^(١) .

٥- أم الحكم بنت أبي سفيان رضي الله عنهما :

هي أم عبد الرحمن بن أم الحكم ، كانت من مسلمة الفتح ، كانت حين نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾ [المتحة: ١٠] تحت عياض بن غنم الفهري ، ففارقها حينئذ ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفي^(٢) .

٦- عزة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما :

ذكرها ابن شهاب في حديث أم حبيبة في الرضاع ، أخرج مسلم حديثها ، وهو ما يروى عن أم حبيبة أنها قالت : يا رسول الله ! هل لك في أختي؟ قال : ما أصنع بها؟ قالت : تنكحها ، قال : أتحيين ذلك؟ قالت : نعم لست بمخلية لك ، وأحب من شركني في خير أختي^(٣) ، ويُنَّ لها رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له^(٤) إذ لا يجوز في الإسلام الجمع بين الأختين^(٥) . هذا وقد عقد رسول الله ﷺ على أم حبيبة بنت أبي سفيان سنة ست للهجرة^(٦) وكان عمرها آنذاك ٣٣ سنة ، وقال الذهبي : فكان لها يوم قدم بها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية إلى المدينة بضع وثلاثون سنة^(٧) ، وقد توفيت سنة ٤٤ هـ^(٨) .

٧- أميمة بنت أبي سفيان :

ولدت أبا سفيان بن حويطب بن عبد العُزَّى وجويرية ، وذكرها ابن قدامة في التبيين في أنساب القرشيين باقتضاب^(٩) .

خامساً : زوجات معاوية رضي الله عنه وأولاده :

١- من نساء معاوية رضي الله عنه : ميسون بنت بحدل الكلبي ، ولدت له يزيد بن معاوية ،

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٢٢٣) .

(٢) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٩) .

(٣) مسلم ، رقم (١٤٤٩) .

(٤) مسلم ، رقم (١٤٤٩) .

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٤٢) .

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٠) .

(٧) المصدر السابق نفسه (٢/ ٢٢٢) .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٩) .

وأمة رب المشارق فماتت صغيرة^(١) ، وكان معاوية رضي الله عنه يعجل ميسون بنت بحدل ويحترمها إلا أنها كانت تحن إلى مرتع طفولتها في البادية ، وتكثر ذكر أهلها وحياتهم البسيطة وصفاء عيشتهم ، وبعدهم عما يكدرهم ، وتزهّد في حياة القصور ، بما فيها من الخدم والوصيفات ، وذات يوم تذكرت باديتها وحنّت إلى أترابها وأناسها ، وتذكرت مسقط رأسها فبكت وتنهدت فقالت لها بعض حظاياها: ما يبكيك وأنت في مُلْكٍ يضاهي ملك بلقيس؟! فتنفست الصعداء ثم أنشدت:

أحِبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنِيفٍ	لَبِيتُ تَخْفُقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ
أحِبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلِ زُفُوفٍ ^(٣)	وَيَكْرُ ^(٢) يَتَّبِعُ الْأَطْعَانُ سَبْقاً
أحِبُّ إِلَيَّ مِنْ قَطِّ أَلِيفٍ	وَكَلْبٍ يَنْبَحُ الطُّرَاقَ عَنِّي
أحِبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشَّفُوفِ ^(٤)	وَلِبْسٍ عِبَاءٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي
أحِبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرِّغِيفِ ^(٥)	وَأَكْلِ كُسَيْرَةٍ فِي كِسْرِ بَيْتِي
أحِبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ	وَأَصْوَاتِ الرِّيَّاحِ بِكُلِّ فَجٍّ
أحِبُّ إِلَيَّ مِنْ عَلَجِ كَلِيفٍ ^(٦)	وَخِرْقٍ مِنْ بَنِي عَمِي نَحِيفٌ
إِلَى نَفْسِي مِنَ الْعَيْشِ الطَّرِيفِ	خَشُونَةٌ عِيشِي فِي الْبَدَاةِ أَشْهَى
فَحَسْبِي ذَاكَ مِنْ وَطْنٍ شَرِيفٍ	فَمَا أَبْغِي سِوَى وَطْنِي بَدِيلاً

فلما دخل معاوية عَرَفَتَهُ الحَظِيَّةُ بما قالت ، وقيل: إنه سمعها وهي تنشد ذلك فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً علوفاً ، هي طالق ، مَرُّوها فلتأخذ جميع ما في القصر فهو لها ، ثم سورها إلى أهلها بالبادية فأخذت معها ابنها يزيد فنشأ في البرية فصيحاً^(٧).

ونقل البغدادي - رحمه الله - في خزانة الأدب: أن معاوية لما طلقها قال لها: كنت فبنت ، فأجابته: ما سُررنا إذ كُنَّا ، ولا أسفنا إذ بِنَّا^(٨). والله درّ القائل حيث أشار إلى هذا في قوله: وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ مَأْرَبُ قِضَاهَا الشَّبَابُ هُنَاكَ

(١) تاريخ الطبري (٦/٢٤٦-٢٤٧).

(٢) البكر: الفتى من الإبل. والشقب: الذكر من ولد الناقة.

(٣) زفوف: مسرع.

(٤) الشفوف: جمع شف: وهو الثوب الرقيق الذي يشف ما وراءه.

(٥) الكسيرة: القطعة من الخبز. الكسر: طرف الخباء من الأرض.

(٦) الخرق: الفتى السمح الكريم. العلاج: الشديد.

(٧) شاعرات العرب ، ص (٣٩٦-٣٩٧)؛ نساء من عصر التابعين ، أحمد خليل جمعة ، (ص ٤٣).

(٨) خزانة الأدب (٣/٥٩٣)؛ نساء من عصر التابعين ، ص ٤٣.

إذا ذكروا الأوطان ذكّرتهم عهود الصّبا فيها فحنّوا لذلك^(١)

٢ - ومن زوجاته: فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف ، ولدت له عبد الرحمن وعبد الله ابني معاوية ، وكان عبد الله محمّلاً ضعيفاً وكان يكنى أبا الخير ، وأما عبد الرحمن^(٢) فمات صغيراً.

٣ - ومن زوجاته: كنود بنت قرظة ، وهي أخت فاختة تزوجها منفردة عنها بعدها ، وهي التي كانت معه حيث افتتح قبرص^(٣).

٤ - وتزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ثم طلقها^(٤).

ومن بناته: رملة ، تزوجها عمرو بن عثمان بن عفان^(٥) ، وهند بنت معاوية تزوجها عبد الله بن عامر^(٦) ، وعائشة وعاتكة وصفية^(٧).

سادساً: إسلام معاوية رضي الله عنه وشيء من فضائله :

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد رضي الله عنهم يوم الفتح^(٨) هذا على المشهور ، ولكن يروى عنه أنه قال : أسلمت يوم القضية - أي : عمرة القضاء سنة ٧ هـ - ولكن كتبت إسلامي من أبي ، ثم علم بذلك ، فقال لي : هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه فقلت له : لم آل نفسي جهداً ، ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وإني لمصدق به ، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامي ، فجئته فرحب بي وكتبت بين يديه^(٩) ، وشهد معاوية - رضي الله عنه - مع رسول الله ﷺ حيناً ، وأعطاه مئة من الإبل وأربعين أوقية من الذهب^(١٠).

وقد ذكر العلماء لمعاوية رضي الله عنه فضائل كثيرة ؛ من هذه الفضائل :

- (١) نساء من عصر التابعين ، ص ٤٤ .
- (٢) تاريخ الطبري (١٤٧/٦) .
- (٣) البداية والنهاية (٤٦٢/١١) .
- (٤) المصدر السابق نفسه (٤٦٣/١١) .
- (٥) المصدر السابق نفسه .
- (٦) المصدر السابق نفسه (٤٦٤/١١) .
- (٧) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، ص ١٢٩ .
- (٨) الإصابة (٤٣٣/٣) ؛ التبيين في أنساب القرشيين ، ص ١٠٥ .
- (٩) البداية والنهاية (٣٩٦/١١) .
- (١٠) المصدر السابق نفسه .

١- من القرآن الكريم:

فقد اشترك معاوية رضي الله عنه في غزوة حنين ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦] . ومعاوية رضي الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي ﷺ^(١) ، كما أنه ممن وعدهم الله الحسنى ؛ قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠] . ومعاوية رضي الله عنه ممن وعدهم الله الحسنى ، فإنه أنفق في حنين والطائف وقاتل فيهما^(٢).

٢- من السنة:

أ- دعاء الرسول ﷺ لمعاوية رضي الله عنه : ومن ذلك قوله ﷺ : «اللهم اجعله هادياً^(٣) ، مهدياً^(٤) ، واهدبه»^(٥).

وقال ﷺ : «اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب وقِه العذاب»^(٦).

ب- ما أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ ، فتواريت خلف الباب ، قال : فجاء فحطأني خطأً وقال : «اذهب وادع لي معاوية» ، قال : فجئت فقلت : هو يأكل ، قال : ثم قال لي : «اذهب فادع لي معاوية» ، قال : فجئت فقلت : هو يأكل ، فقال : «لا أشبع الله بطنه»^(٧).

قال النووي معلقاً على هذا الحديث : وقد فهم مسلم رحمه الله من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقاً للدعاء عليه ، فلهذا أدخله في هذا الباب^(٨) . وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه في الحقيقة دعاء له^(٩) ، ولذلك قال ابن عساكر عن حديث «لا أشبع الله بطنه» : أصح ما روي في

(١) الفتاوى (٤/٤٥٨).

(٢) المصدر السابق نفسه (٤/٤٩٥).

(٣) هادياً: أي للناس أو دالاً على الخير.

(٤) مهدياً: مهتدياً في نفسه.

(٥) الشريعة (٥/٢٤٣٧) إسناده صحيح.

(٦) موارد الظمان للهيثمي ، تحقيق حسين الداراني (٧/٢٤٩) إسناده حسن.

(٧) مسلم ، رقم (٢٦٠٤).

(٨) اسم الباب : من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً.

(٩) شرح صحيح مسلم ، للنووي (١٦/١٦٥).

فضل معاوية ، وبعده حديث : «اللهم علمه الكتاب» ، وبعده حديث : «اللهم اجعله هادياً مهدياً»^(١). وعن الحديث نفسه قال الذهبي : قلت : لعل أن يقال : هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ : «اللهم من لعنته أو سببته ، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة»^(٢). وقال الألباني : قد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعناً في معاوية رضي الله عنه ، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك ، كيف وفيه أنه كان كاتب النبي ﷺ^(٣) ، وقيل في : «لا أشبع الله بطنه» : إنها كلمة جرت على عادة العرب ؛ نحو : قاتله الله ما أكرمه ، ويل أمه وأبيه ما أجوده ، مما لا يراد معناه^(٤).

جـ- ما أخرجه البخاري من طريق أنس بن مالك ، عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت : نام النبي ﷺ يوماً قريباً مني ، ثم استيقظ يبتسم ، فقلت : ما أضحكك؟ قال : «أناس من أمتي عرضوا علي ، يركبون هذا البحر الأخضر ، كالمملوك على الأسرة» ، قالت : فادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ، ثم نام الثانية ، ففعل مثلها ، فقالت قولها ، فأجابها مثلها ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : «أنت من الأولين» ، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية^(٥) ، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين ، فُقِرَتْ إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت^(٦). قال ابن حجر معلقاً على رؤيا رسول الله ﷺ : قوله : «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة . . .» يشعر بأن ضحكه كان إعجاباً بهم ، وفرحاً لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة^(٧).

د - ما أخرجه البخاري من طريق أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»^(٨) ، قالت : يا رسول الله ! أنا فيهم؟ قال : «أنت فيهم» . ثم قال النبي ﷺ : «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر»^(٩) مغفور لهم؟ فقلت : أنا فيهم يا رسول الله؟ قال : «لا»^(١٠).

(١) تاريخ دمشق (٢٤/٦٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/١٣٠).

(٣) السلسلة الصحيحة (١/١٦٥).

(٤) النهي عن طعن أمير المؤمنين معاوية ، (ص ٦٩).

(٥) وذلك في إمارة معاوية على الشام في خلافة عثمان سنة ٢٧هـ.

(٦) فتح الباري على صحيح البخاري (٢٢/٦).

(٧) المصدر السابق نفسه (١١/٧٦).

(٨) أوجبوا : أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة .

(٩) مدينة قيصر : يعني القسطنطينية . فتح الباري (٦/١٢٠).

(١٠) فتح الباري على صحيح البخاري (٢٢/٦).

قال المهلب^(١) معلقاً على هذا الحديث: في هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر^(٢).

وكان معاوية رضي الله عنه يكتب الوحي لرسول الله ﷺ^(٣) ، وكذلك رسائل النبي ﷺ إلى زعماء القبائل^(٤) ، وكتابة معاوية للوحي لرسول الله ﷺ أتاحت له لوناً من القرب الطبيعي من رسول الله ﷺ في تلك الفترة التي أعقبت فتح مكة حتى وفاة رسول الله ﷺ ، مما يستتبع بالضرورة التأثير بشخص الرسول الكريم ﷺ ، والأخذ المباشر منه^(٥).

سابعاً: رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ :

يعد معاوية رضي الله عنه من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول الله ﷺ ، ومرد ذلك إلى ملازمته لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة ، وكان عمره في فتح مكة حوالي ثماني عشرة سنة^(٦) ، ولكونه صهر رسول الله ﷺ وكتابه فقد أتاحت له فرصة عظيمة مكنته من الاستفادة من رسول الله ﷺ ، هذا وقد روى معاوية رضي الله عنه مئة وثلاثة وستين حديثاً^(٧) عن رسول الله ﷺ ، واتفق له البخاري ومسلم على أربعة أحاديث ، وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة^(٨) ، ومن هذه الأحاديث التي رواها معاوية رضي الله عنه :

١ - دخل معاوية على عبد الله بن الزبير وابن عامر ، فقام ابن عامر ، ولم يقم ابن الزبير ، فقال معاوية: مه ، قال رسول الله ﷺ : «من أحب أن يمثل له عباد الله قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار»^(٩).

٢ - عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين»^(١٠).

(١) المهلب بن أحمد بن أبي صفرة الأسدي الأندلسي ، مصنف شرح صحيح البخاري ، توفي سنة ٤٣٥ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء (١٧/٥٨٩) ؛ مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢٧) .

(٢) فتح الباري (٦/١٢٠) .

(٣) البداية والنهاية (١١/٣٩٦) .

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة (٣/٤٣٤) .

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها ، ص ١٤٥ .

(٦) الطبقات الكبرى (٧/٤٠٦) ؛ خلافة معاوية ، د. عمر العقيلي ، (ص ١٤) .

(٧) أسماء الصحابة الرواة ، لابن حزم ، (ص ٥٥) ؛ مرويات خلافة معاوية ، (ص ٢٣) .

(٨) سير أعلام النبلاء (٣/١٦٢) .

(٩) الموسوعة الحديثية ، مسند الإمام أحمد (٢٨/٤٠) ؛ إسناده صحيح .

(١٠) المصدر السابق نفسه (٢٨/٤٨) ؛ إسناده صحيح .

٣- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : خرج معاوية على حلقة في المسجد ، فقال : ما أجلسكم^(١) ، قالوا : جلسنا نذكر الله عز وجل ، قال : الله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أما إنني لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلي من رسول الله ﷺ أقلّ عنه حديثاً مني ، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : «ما أجلسكم؟» قالوا : جلسنا نذكر الله عز وجل ، ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ علينا بك ، قال : «الله ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : «أما إنني لم أستحلفكم تهمة لكم ، وإنّه أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أنّ الله عز وجل يباهي بكم الملائكة»^(٢) .

٤- عن معبد الجهني ، قال : كان معاوية قلماً يُحدّث عن رسول الله ﷺ شيئاً ، ويقول هؤلاء الكلمات قلماً يدعهنّ أو يحدّث بهنّ في الجمع ، عن النبي ﷺ قال : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإن هذا المال حُلُوٌّ خضِرٌ فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه ، وإياكم والتمايح ، فإنّه الذبح»^(٣) .

٥- عن عبد الرحمن بن عبد ، عن معاوية ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من شرب الخمر ، فاجلدوه ، فإن عاد ، فاجلدوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد الرابعة ، فاقتلوه»^(٤) .

٦- عن عيسى بن طلحة ، قال : سمعت معاوية يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن المؤذنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(٥) .

٧- عن مجاهد وعطاء ، عن ابن عباس : أن معاوية أخبره : أنه رأى رسول الله ﷺ قصّر من شعره بمشقص ، فقلنا لابن عباس : ما بلغنا هذا إلا عن معاوية ، فقال : ما كان معاوية على رسول الله متهماً .

٨- عن الزهري قال : حدثني حميد بن عبد الرحمن بن عوف : أنّه سمع معاوية يخطب بالمدينة يقول : يا أهل المدينة ، أين علماؤكم ؟! سمعت رسول الله ﷺ يقول : «هذا يوم عاشوراء ولم يفرض علينا صيامه ، فمن شاء منكم أن يصوم فليصم فإنني صائم» ، فصام الناس بداية^(٦) .

(١) أي : في المسجد .

(٢) الموسوعة الحديثية ، مسند أحمد (٥٠ / ٢٨) إسناده صحيح .

(٣) المصدر السابق نفسه (٥٢ / ٢٨) إسناده صحيح .

(٤) المصدر السابق نفسه (٦١ / ٢٨) إسناده صحيح .

(٥) المصدر السابق نفسه (٧٥ / ٢٨) إسناده صحيح على شرط مسلم .

(٦) الموسوعة الحديثية ؛ مسند الإمام أحمد (٨١ / ٢٨) إسناده صحيح .

٩ - عن الحَكَم بن ميناء: أن يزيد بن جارية الأنصاري أخبره: أنه كان جالساً في نفر من الأنصار، فخرج عليهم معاوية، فسألهم عن حديثهم، فقالوا: كُتِّبَ في حديث من حديث الأنصار، فقال معاوية: ألا أزيدكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحبَّ الأنصار أحبَّ الله عز وجل، ومن أبغض الأنصار، أبغضه الله عز وجل»^(١).

١٠ - عن أبي صالح، عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»^(٢).

١١ - قال محمد بن كعب القُرظي: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٣).

١٢ - عن أبي بردة، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته»^(٤).

١٣ - وعن معاوية رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»^(٥).

١٤ - وعن معاوية بن أبي سفيان: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من نسي شيئاً من صلاته فليسجد سجدتين وهو جالس»^(٦).

١٥ - وعن معاوية بن أبي سفيان، عن النبي ﷺ قال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٧).

١٦ - وعن عمير بن هانئ قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم ظاهرون على الناس». فقام مالك بن يخامر السكسكي فقال: يا أمير

(١) المصدر السابق نفسه (٨٥/٢٨) إسناده صحيح.

(٢) المصدر السابق نفسه (٨٩/٢٨) صحيح لغيره.

(٣) المصدر السابق نفسه (١٠٠/٢٨) إسناده صحيح.

(٤) المصدر السابق نفسه (١٠٧/٢٨) إسناده صحيح.

(٥) المصدر السابق نفسه (١١٦/٢٨) إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٦) المصدر السابق نفسه (١١٨/٢٨) صحيح لغيره.

(٧) المصدر السابق نفسه (١١٨/٢٨) صحيح لغيره.

المؤمنين ! سمعت معاذ بن جبل يقول : وهم أهل الشام ، فقال معاوية ورفع صوته : هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول : وهم أهل الشام^(١).

١٧ - حدثنا روح ، قال : حدثنا أبو أمية عمرو بن يحيى بن سعيد قال : سمعت جدِّي يُحدِّث : أن معاوية أخذ الإداوة بعد أبي هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها واشتكى أبو هريرة ، فيبينما هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ ، فقال : «يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله عز وجل واعدل» ، قال : فما زلت أعلم أنني مُبتلى بعمل لقول النبي ﷺ حتى ابتليتُ^(٢).

١٨ - وعن أبي عامر عبد الله بن لُحَيٍّ ، قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلمَّا قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، - يعني : الأهواء - كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة ، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله . والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به»^(٣).

ثامناً : من الأحاديث الباطلة التي لا تصح في شأن معاوية مدحاً وذماً :

١ - من الأحاديث الباطلة التي لا تصح في مدح معاوية :

وقد ساق ابن عساكر في ترجمته لمعاوية أحاديث واهية وباطلة طَوَّلَ بها جداً ، فمن الأباطيل المختلفة^(٤) :

أ - عن واثلة مرفوعاً : كاد معاوية أن يبعث نبياً من حلمه وائتمانه على كلام ربي^(٥).

ب - وعن أبي موسى : نزل عليه الوحي ، فلما سُرِّي عنه ، طلب معاوية ، فلما كتبها - يعني آية الكرسي . قال : غفر الله لك يا معاوية ما تقدم إلى يوم القيامة^(٦).

ج - وعن أنس : هبط جبريل بقلم من ذهب ، فقال : يا محمد ! إن العليَّ الأعلى يقول : قد

(١) الموسوعة الحديثية ، مسند أحمد (١٢٩/٢٨) إسناده صحيح .

(٢) المصدر السابق نفسه (١٣٠/٢٨) رجاله ثقات رجال الصحيح ، غير أن جد عمرو بن يحيى - وهو سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص لم يتبين لنا سماعه من معاوية ، فقد ذكر البخاري في تاريخه الكبير (٣/٣٣١) فقال : ويروى في فضائل معاوية أشياء ضعيفة تحتمل ، وذكر منها هذا الحديث .

(٣) الموسوعة الحديثية ، مسند أحمد (١٣٥/٢٨) إسناده حسن .

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/١٢٧ ، ١٢٨) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٣/١٢٨) موضوع .

(٦) المصدر السابق نفسه (٣/١٢٩) موضوع .

أهديت هذا القلم من فوق عرشي إلى معاوية ، فمره أن يكتب آية الكرسي به ويشكله ويعجمه ، فذكر خبراً طويلاً^(١).

د- وعن ابن عباس ، قال : لما أنزلت آية الكرسي ، دعا معاوية فلم يجد قلماً ، وذلك أن الله أمر جبريل أن يأخذ الأقلام من دواته ، فقام ليحيى بقلم ، فقال النبي ﷺ : خذ القلم من أذنك ، فإذا قلم ذهب مكتوب عليه لا إله إلا الله ، هدية من الله إلى أمينه معاوية .
هـ- وعن حذيفة مرفوعاً : يبعث معاوية وعليه رداء من نور الإيمان^(٢).

و- وعن أنس مرفوعاً : « لا أفتقد أحداً غير معاوية ، لا أراه سبعين عاماً ، فإذا كان بعد أقبل على ناقة من المسك ، فأقول : أين كنت؟ فيقول : في روضة تحت العرش » .
ز- وعن ابن عمر مرفوعاً : يا معاوية ، أنت مني وأنا منك ، لتزاحمني على باب الجنة^(٣).

قال الذهبي بعد ذكر هذه الأحاديث وغيرها : فهذه الأحاديث ظاهرة الوضع والله أعلم^(٤).
وقد ذكر أكثر هذه الأحاديث الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة^(٥) ، وقال ابن كثير بعد أن ذكر حديثاً منها : وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة^(٦) ، والعجب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبئ عليها وعلى نكارتها وضعف حالها^(٧) !! .

٢- من الأحاديث الباطلة في ذم معاوية :

قال ابن الجوزي : قد تعصب قوم ممن يدعي السنة فوضعوا في فضله أحاديث ليغضبوا الرافضة ، وتعصب قوم من الرافضة فوضعوا في ذمه أحاديث ، وكلا الفريقين على الخطأ القبيح^(٨). ومن الأحاديث الواهية في ذمه :

أ- الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ : يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي فطلع معاوية .

ب - وقام النبي ﷺ خطيباً ، فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة ، فقال

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٢٩) موضوع .

(٢) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٣٠) موضوع .

(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٣١) موضوع .

(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٣١) .

(٥) الفوائد المجموعة ، (ص ٤٠٣ - ٤٠٧) .

(٦) البداية والنهاية (١١/ ٤٠٩) .

(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣١) .

(٨) الموضوعات (٢/ ١٥) .

النبي ﷺ : لعن الله القائد والمقود ، أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذي الإساءة . وهذا الحديث لا يصح وهو كذب على رسول الله ، وهو من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث ، ولا يوجد في شيء من دواوين الحديث التي يرجع إليها في معرفة الحديث ، ولا له إسناده معروف^(١) ، ثم من المعلوم من سيرة معاوية أنه كان من أحلم الناس ، وأصبرهم على من يؤذيه ، وأعظم الناس تأليفاً لمن يعاديه ، فكيف ينفر عن رسول الله ﷺ ، مع أنه أعظم الناس مرتبة في الدين والدنيا ، وهو محتاج إليه في كل أموره؟! فكيف لا يصبر على سماع كلامه وهو بعد المُلْك يسمع كلام من يسبه في وجهه ، فلماذا لا يسمع كلام النبي ﷺ؟! وكيف يتخذ النبي ﷺ كاتباً من هذه حاله^(٢)!؟ .

تاسعاً: دور بني أمية في عهد رسول الله ﷺ :

رغم إسلام الكثير من رجال بني أمية منذ بداية الدعوة ، وتضحياتهم وهجرتهم إلى الحبشة ، ورغم إسلام جميع بني أمية عند فتح مكة ، وترحيب الرسول ﷺ بهم وفرحه بإسلامهم ، والاعتماد عليهم في جلائل الأعمال وقد أفسح لهم مكاناً في دولته لتستفيد بجهودهم ومقدرتهم ، فقد أعطى الرسول ﷺ لأبي سفيان ميزة لم يعطها أحداً من أهل مكة ، حين قال : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(٣) ، وهذا شرف كبير حازه أبو سفيان يدل على تقدير الرسول ﷺ للزعماء وأصحاب الكلمة في قومهم ، واستعمل الرسول ﷺ أبا سفيان على نجران ، واتخذ ابنه معاوية كاتباً له^(٤) .

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس ، أن أبا سفيان طلب من النبي ﷺ أن يؤمره حتى يقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين ، وأن يجعل معاوية كاتباً بين يديه ، فاستجاب له النبي ﷺ^(٥) .

وكان أول والٍ على مكة - وهي أشرف بلاد الله - بعد فتحها رجلٌ من بني أمية ، هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، يروي ابن إسحاق عن زيد بن أسلم أنه قال : لما استعمل النبي ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً ، فقال : أيها الناس ! أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله ﷺ كل يوم درهماً فليست بي حاجة إلى أحد^(٦) .

(١) البداية والنهاية (١١/٤٣٨) .

(٢) أمير المؤمنين معاوية ، لابن تيمية ، جمع وتقديم محمد مال الله ، (ص ٨٨) .

(٣) البخاري ، رقم (٤٢٨٠) .

(٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (ص ١١) .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (٦٢/١٦) .

(٦) السيرة النبوية ، لابن هشام (٤/٦٩ - ١٤٩) ؛ تاريخ خليفة بن خياط ، (ص ٩٧) .

كما استعمل رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على قرى خيبر ووادي القرى وتيماء وتبوك ، وقبض رسول الله ﷺ وعمرو عليها^(١) ، كما استعمل الحكم بن سعيد بن العاص على سوق مكة^(٢) ، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء^(٣) ، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على البحرين ، وقبض رسول الله ﷺ وهو عليها^(٤) ، كما كان أبان وخالد ابنا سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان إضافة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنهم - من كتاب الرسول ﷺ^(٥) .

وخلاصة القول : فقد قبض رسول الله ﷺ ومُعظم رجالات بني أمية على مختلف الأعمال ، من الولاية والكتابة ، وجباية الأموال ، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال الرسول ﷺ أكثر منهم^(٦) ، واستعمال النبي ﷺ لأكثر رجال بني أمية أكبر دليل على كفاءتهم وأمانتهم^(٧) .

وأما قوله ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(٨) ، فهذه الكلمات ، جعل بعض الناس منها سبة في جبين بني أمية وحدهم ، وجعلوا يعيرونهم بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء ، ولم يفهموا أن هؤلاء الطلقاء وأبناءهم قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وكانت لهم مواقف مشهودة في نصرته الإسلام في حياة الرسول ﷺ وبعده في الفتوحات في عهد خلفائه الراشدين^(٩) .

ونحب أن نشير إلى عدة نقاط متعلقة بوصف الطلقاء ؛ منها :

١- إن هذا الاتهام وليد عصر الخصومة الحزبية الحادة ، لما تفجرت الأحقاد ضد بني أمية في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه وبعد بروز نجم معاوية بن أبي سفيان وخلافه مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حيث أصبح ذلك الوصف يعني عندهم أنهم قوم ضعاف الإيمان ، دخلوا الإسلام رغبة في غنائمه ، أو رهبة من القتل ، ليكيدوا لأهله ويفيدوا أنفسهم .

٢- إن أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ليسا من الطلقاء بالمعنى الدقيق السابق لهذه الكلمة ؛ فقد أسلم أبو سفيان قبيل فتح مكة والرسول ﷺ وجيشه بمر الظهران خارجها ، وقد جاء فور

(١) منهاج السنة (٣/ ١٧٥ - ١٧٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) خليفة بن خياط ، (ص ٩٧) .

(٤) منهاج السنة (٣/ ١٧٥ - ١٧٦) .

(٥) تخريج الدلالات السمعية ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

(٦) منهاج السنة (٣/ ١٧٥) ؛ العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (ص ١٢) .

(٧) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (ص ١٢) .

(٨) الطبقات (٢/ ١٤١ - ١٤٢) .

(٩) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (ص ٨) .

إسلامه يدعو قومه إلى المسالمة والفتح ، أما معاوية ابنه فقد أكدت بعض الروايات أنه أسلم قبل الفتح أيضاً ، غير أنه كان يخفي إسلامه - شأن بعض الناس آنذاك - لمكانته من أبيه الذي كان يقود القتال ضد المسلمين ، فقد روي أنه أسلم سرّاً يوم عمرة القضاء ، أو عام الحديبية^(١) ، وإنما وضعهم المؤرخون في زمرة هؤلاء الطلقاء لقرب وقت إسلام أبي سفيان من الفتح ، ولأنه كان زعيم مكة الذي ارتبط إسلامه بإسلامها ، كما أن معاوية كان إسلامه سرّاً لم يُشع ، ولم يعرف إسلامه إلا مع الطلقاء بعد فتح مكة .

٣- إن وصف الطلقاء لا يقتضي الذم ، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبي ﷺ ، وكانوا نحواً من ألفي رجل ، ومنهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، ويزيد بن أبي سفيان ، وحكيم بن حزام ، وأبي سفيان بن الحارث ابن عم النبي ﷺ الذي كان يهجوهم ثم حسن إسلامه ، وعتاب بن أسيد الذي ولاه النبي ﷺ مكة لما فتحها ، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم .

٤- إن النظرة الإسلامية في هذا الشأن أن الإسلام يجب ما قبله ، ويفسح المجال للإفادة من جميع الطاقات والقدرات ويدفع بها نحو تحقيق غاياته الكبرى ، وينزل الناس منازلهم ، وأن خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا ، ولم يمنع تأخر إسلام خالد وعمرو بن العاص من تبوئهما المكانة العالية عند النبي ﷺ ، فأرسل عمراً أميراً على ذات السلاسل ، وسمّى خالداً سيف الله . هذا مع حفظ المكانة الأسمى والمنزلة العظيمة للسابقين الصادقين في الإسلام ، ومن هؤلاء السابقين كان جماعة من بني أمية وغيرهم ، كما كان من الطلقاء بنو أمية وغيرهم^(٢) .

* * *

(١) البداية والنهاية (١١/٣٩٦).

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٤٤).

المبحث الثاني

الأمويون ومعاوية في عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم

أولاً: في خلافة أبي بكر رضي الله عنه :

واجه المسلمون بعد موت نبيهم ﷺ ظروفاً عصيبة ، وأجمع المسلمون على بيعه أبي بكر خليفة لرسول الله ﷺ ، وقام بجهود عظيمة في مواجهة الأخطار ، فحارب المرتدين حتى ردهم إلى الإسلام والجماعة ، وبدأ حركة الفتوح في بلاد الفرس والروم ، وكان أول كتاب كتبه أبو بكر بشأن حروب الردة إلى عامله الأموي على مكة عتاب بن أسيد؛ حيث كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام ، فواجههم عتاب في تهامة حتى ظفر بهم^(١) ، ثم جهز من أهل مكة وأعمالها خمسمئة رجل ، وأمر عليهم أخاه خالد بن أسيد ، فاشتركوا في قتال المرتدين باليمن^(٢) ، وإعادة أهل حضرموت وكندة إلى حظيرة الإسلام^(٣).

وفي حروب المسلمين ضد مسيلمة الكذاب كان قائد الجيش خالد بن الوليد الذي جعل على قيادة المهاجرين في جيشه أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومعه زيد بن الخطاب^(٤) ، فقاتل أبو حذيفة قتالاً مجيداً ، ولما انكشف المسلمون في أول القتال كان أبو حذيفة يهتف فيهم: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال ، وقاتل حتى قتل رضي الله عنه^(٥) ، وحمل راية المهاجرين يومذاك مولاه سالم وقاتل بها حتى قتل أيضاً^(٦) ، وشهد حروب اليمامة ضد مسيلمة معاوية رضي الله عنه^(٧) ، كما استشهد من حلفاء بني أمية عكاشة بن محصن الأسدي في قتال

(١) تاريخ الطبري (٣/٣١٩)؛ الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٤٨).

(٢) المصدر السابق نفسه (٣/٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠).

(٣) المصدر السابق نفسه (٣/٣٣٠-٣٤٢).

(٤) المصدر السابق نفسه (٣/٣٨١).

(٥) المصدر السابق نفسه (٣/٢٩١).

(٦) المصدر السابق نفسه (٣/٢٩١-٢٩٢)؛ الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٤٨).

(٧) البداية والنهاية (١١/٣٩٦).

طليحة الأسدي^(١) ، وساهم العلاء الحضرمي حليفهم أيضاً في إخماد الردة في البحرين ، ففعل وظفر بهم بعد بلاء حسن وآيات عجيبة^(٢) .

وكان من الطبيعي بعد انتهاء حروب الردة وعودة المرتدين إلى حظيرة الدين وانصياعهم للحكومة الراشدة ، أن تطمح الأبصار إلى تخليص الشعوب المستعبدة من حكوماتها الظالمة ودعوتها إلى الإسلام ، وبدأ ما عرف في التاريخ بحركة الفتوح الكبرى على جبهتي فارس والروم . . وقد كان لبني أمية دور بارز في هذه الحروب ؛ مما يؤكد عمق التزامهم الإسلامي وحيوية دورهم التاريخي في هذه الفترة ، غير أننا نشير في البداية إلى وضوح سمتين ظاهرتين صاحبتا حركة الفتوح^(٣) :

السمة الأولى : هي تعاظم دور مسلمة الفتح وطلاق مكة في الفتوح - ومنهم بعض بني أمية - وقد كان ذلك متوقعاً لسببين .

الأول : هو ما قرره أبو بكر من ضرورة عدم الاستعانة بمن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه في الفتح^(٤) . وقد كان هذا يعود إلى حرص أبي بكر الصديق رضي الله عنه على نقاء هذه الفتوحات من آثار رقة الدين أو شهوات هذه النفوس التي لم تخلص بعد للإسلام ، أو لم تبرهن على إخلاصها له .

والثاني : يعود إلى حرص هؤلاء السادة والأشراف على تعويض ما فاتهم من خدمة قضية الإسلام ، وأن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام ، فسادوا بذلك وعلت أقدارهم^(٥) .

والسمة الثانية : هي تركيز نشاط الأمويين في الفتوح على جبهة الشام يشاركهم في ذلك كثير من الفاتحين من أهل مكة عموماً ، ويبدو أن ذلك كان أمراً مقصوداً من الخليفة الصديق الذي أدرك وجود صلات عميقة الجذور بين بني أمية والمكيين والقبائل العربية المقيمة ببلاد الشام تحت الحكم البيزنطي ، تلك الصلات التي تعمقت من خلال النشاط التجاري المتواصل بين مكة والشام في الجاهلية ، الذي كان بنو أمية أبرز قواده ورواده^(٦) .

وأما عن مشاركة الأمويين في حروب الفتح ، فقد جاءت مبكرة ، حيث شارك الوليد بن عقبة بن أبي معيط مع خالد بن الوليد في فتوح العراق الأولى ، وشهد معه قتل هرمز ، وأرسله

(١) ديوان الردة ، (ص ٨٦) .

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٠١-٣١٣) ؛ سيرة أبي بكر الصديق ، للصلاحي ، (ص ٢٢٥) .

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها ، ص ١٤٨ .

(٤) تاريخ الطبري (٣/ ٣١٩-٣٤٧) .

(٥) الدولة الأموية ، حمدي شاهين ، (ص ١٤٩) .

(٦) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٤٩) .

خالد إلى أبي بكر بالغنائم وبشارة الفتح وإخباره عن جمع جديد من الفرس^(١)، ثم وجهه الخليفة مدداً إلى عياض بن غنم الذي كان قد أمره بفتح العراق من جهة الشمال، وكان يحاصر دومة الجندل فيجد العنت والمشقة في فتحها، فأشار عليه الوليد باستمداً خالد بن الوليد، فاستمده، فأنجده، وفتحوا معاً دومة الجندل^(٢)، ثم ولاه أبو بكر على النصف من صدقات قضاة مما يلي دومة الجندل^(٣)، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعرض عليه الجهاد في سبيل الله، ويخيره بينه وبين أن يظل على عمله الذي ولاه إياه، فأجابه بإيثار الجهاد، فوجه به إلى الشام^(٤).

وكان أول لواء عقده أبو بكر في حروب الشام لخالد بن سعيد بن العاص الأموي، ثم عزله وولى بدله يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي أيضاً^(٥)، وأما جيش يزيد بن أبي سفيان، فكان أول جيش كبير يوجهه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماثياً^(٦)، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى يقودها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح^(٧)، يقول الذهبي عن يزيد بن أبي سفيان: وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، عقد له أبو بكر، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه، وما ذلك إلا لشرفه، وكمال دينه^(٨).

ثم أتبع الصديق أناس آخرين يرغبون في الجهاد وألحقهم بجيش يزيد، وجعل عليهم أميراً معاوية بن أبي سفيان^(٩). . . وخرج أبو سفيان بن حرب - وهو يومئذ شيخ كبير^(١٠)، كما اشترك في الجهاد في الشام أيضاً خالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، وعمرو بن سعيد، وقاتلوا جميعاً هناك وقتلوا، حتى قيل: ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص شهيداً^(١١).

وقبل معركة اليرموك عقد قادة الجيوش مؤتمراً للحرب في الجولان. . . ومربهم أبو سفيان بن

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٤).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٠)؛ الدولة الأموية، حمدي شاهين، (ص ١٤٩).

(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٩٠).

(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٨٩ - ٣٩٠).

(٥) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٨٧).

(٦) فتوح الشام، للواقدي (١/ ٣ - ٤).

(٧) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٤).

(٨) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٨).

(٩) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩١).

(١٠) لما توفي كان عمره ثمانياً وثمانين سنة، ولما حضر اليرموك كان عمره أكثر من سبعين سنة.

(١١) النزاع والتخاصم، (ص ٤٦)؛ الدولة الأموية، حمدي شاهين، (ص ١٥٠).

حرب فقال: ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلطة من قريش يذكرون أمر حربهم ويتذكرون ما يكيدون به عدوهم - في منزلي - ولا يحضروني ، فاشترك معهم في مشورتهم ، فأفسحوا له ، فأسهم معهم في رسم خطة القتال^(١) .

ولما أزلت ساعة الحرب في اليرموك عمد قادة الفريقين إلى إذكاء حماس الجنود ، فبينما كان الروم يحضضهم القسيسون والرهبان ، وينعون لهم النصرانية ، حتى تشجعوا وخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله^(٢) ، كان المسلمون يتبادرون إلى لقاء الخطب البليغة والأرجاز المثيرة^(٣) ، بل إنهم عينوا أحد كبار شيوخهم والمخضرمين من رجالهم في مهمة «القاص» وكان ذلك الرجل هو أبو سفيان بن حرب نفسه^(٤) ، ولا شك أن توليه ذلك العمل المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه في دينه وإسلامه ، إذ إن قادة الجيش لو علموا فيه آنذاك غير هذا الإخلاص ما جعلوه أميناً على تعبئة حماس الجند وإثارة حميتهم الإسلامية ، ولو علم الجنود منه غير ذلك الصدق ما كان لعمله فيه ذلك الأثر العظيم ، وقد كان اختياراً موفقاً فعلاً يتسق مع طبيعة تكوين ذلك الجيش الذي يضم الكثير من أهل مكة وقبائل العرب الذين تأخر إسلامهم ، والذين احتفظوا بثقتهم القديمة في أبي سفيان ، زعيمهم الذي خبروه^(٥) ، وكان أبو سفيان رضي الله عنه يقف على الكراديس^(٦) ، فيقول: الله الله ، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل النصر على عبادك^(٧) .

ثانياً: في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

عندما توفي الصديق عام ١٣ هـ ببيع الفاروق بالخلافة ، وسار على نهج صاحبيه في استعمال بني أمية والثقة بهم ، فلم يعزل أحداً منهم من عمل ، ولم يجد على أحد منهم مأخذاً ، والكل يعرف صرامة عمر ، وتحريه أمر ولاته وعماله وتقصيه أعمالهم وأخبارهم ، ومحاسبتهم بكل دقة وحزم ، فاستمرارهم في عهده يدل على أمانتهم وكفائتهم ، فقد بقي يزيد بن أبي سفيان والياً على دمشق ، كما زاد عمر في عمل معاوية بالشام^(٨) .

(١) فتوح الشام للواقدي (١/ ٩٩) .

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١) .

(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٩٧) .

(٥) الدولة الأموية ، حمدي شاهين ، (ص ١٥١) .

(٦) الكراديس : جمع كردوس : القطعة العظيمة من الخيل أو الكتبية من الجند .

(٧) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ٢٠٣) .

(٨) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (ص ١٥) .

١ - بدأ نجم معاوية في الظهور :

بدأ نجم معاوية رضي الله عنه في الظهور في ميدان العمل السياسي والإداري في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه ؛ فقد ولاه فتح قيسارية^(١) سنة خمس عشرة للهجرة^(٢) ، وجاء في كتاب توليته له : أما بعد ، فقد وليتك قيسارية فسِرْ إليها واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، الله ربنا وثقتنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير^(٣) ، كانت هذه المهمة الجسيمة اختباراً كبيراً من عمر لمعاوية في ميدان الواقع ، فقد استطاع تجاوز هذا الاختبار بكل نجاح ، فقد سار إلى قيسارية بجنوده الذين أعدهم له أخوه يزيد بن أبي سفيان - أحد ولادة الشام لعمر رضي الله عنه - وكانت تلك المدينة محصنة وبأس أهلها شديد ، فحاصرها معاوية طويلاً وزاحف أهلها مرات عديدة ، فلم يئس معاوية ، فصمم على فتحها ، واجتهد في القتال حتى فتح الله على يديه ، وكان فتحه كبيراً فقد قتل من أهلها ما يقرب من مئة ألف^(٤) ، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه^(٥) .

وقد أثبت معاوية - بعد توفيق الله - بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته ، فأكسبه ذلك ثقة الجميع ، فأُسند له أخوه يزيد - أمير دمشق - مهمة فتح سواحل الشام ، وقد أبلى في ذلك بلاءً حسناً^(٦) ، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قوتل قتالاً شديداً ، وربما رمى ففتحها ، وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما يحتاج لها إليه من المسلمين ؛ فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد^(٧) ، ويرى الدكتور عبد الرحمن الشجاع أن مدن الشام تساقطت تحت ضربات المجاهدين الواحدة تلو الأخرى ، لأن الروم كانوا من الهزيمة بمكان لا تجعلهم يفكرون في المقاومة فتساقطت مدن بيروت ، وصيدا ، ونابلس ، واللد ، وحلب ، وإنطاكية ، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحاً على يد معاوية بن أبي سفيان ، وكان ذلك بعد القدس^(٨) .

وكان عبادة بن الصامت على ميمنة جيش المسلمين في حصار قيسارية ، فقام رضي الله عنه

(١) قيسارية : على ساحل الشام ، تعد في أعمال فلسطين . ياقوت (٤/ ٤٢١) .

(٢) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، (ص ٥٩) .

(٣) تاريخ الطبري (٤/ ٤٣١) .

(٤) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية ، (ص ٦٣ ، ٦٤) .

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٥٤) .

(٦) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، (ص ٥٩) .

(٧) فتوح البلدان ، للبلاذري ، (ص ١٣٤) .

(٨) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، (ص ٣٥٥) .

بوعظ جنده، ودعاهم إلى تفقد أنفسهم والحيطة من المعاصي ، ثم قاد هجوماً قتل فيه كثيراً من الروم ، لكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه ، فعاد إلى موقعه الذي انطلق منه ، فحرّض أصحابه على القتال ، وأبدى لهم استغرابه الشديد لعدم تحقيق أهداف ذلك الهجوم فقال: يا أهل الإسلام ، إني كنت من أحدث النقباء سنّاً ، وأبعدهم أجلاً ، وقد قضى الله أن أبقاني حتى قاتلت هذا العدو معكم . . والذي نفسي بيده ما حملت قط في جماعة من المؤمنين على جماعة من المشركين ، إلا خلّوا لنا الساحة وأعطانا الله عليهم الظفر؛ فما بالكم حملتم على هؤلاء فلم تزيلوهم^(١)؟! ثم بين لهم ما يخشاه منهم ، فقال: إني والله لخائف عليكم خصلتين: أن تكونوا قد غلّلتهم ، أو لم تناصحوا الله في حملتكم^(٢).

وحض أصحابه على طلب الشهادة بصدق ، وأعلمهم أنه سيكون في مقدمتهم وأنه لن يعود إلى مكانه ، إلا أن يفتح الله عليه أو يرزقه الشهادة^(٣) ، فلما التحم المسلمون والروم ، ترجل عبادة عن جواده وأخذ يقاتل راجلاً ، فلما رآه عمير بن سعد الأنصاري نادى المسلمين يعلمهم بما فعل أميرهم ويدعوهم إلى الاقتداء به ، فقاتلوا الروم حتى هزموهم وأحجروهم في حصنهم^(٤). وبعد فتح قيسارية ونجاح معاوية في فتح سواحل دمشق ولاه عمر بن الخطاب ولاية الأردن وكان ذلك عام ١٧ هـ^(٥).

٢- ولايته على دمشق وبعليك والبلقاء :

في سنة ثمانى عشرة للهجرة توفي يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما في طاعون عمواس ، فولى عمر معاوية عمل أخيه - دمشق وبعليك والبلقاء^(٦) - ، وقد كان لعمل عمر هذا أكبر الأثر على نفسية والد معاوية ووالدته ، فحين عزى عمر أبا سفيان في وفاة ابنه يزيد قال: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية. قال: وصلت رحماً يا أمير المؤمنين. وكتب أبو سفيان لمعاوية ينصحه في بداية عمله هذا ، فمما قال: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ ، وقصر بنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا أتباعاً ، وقد لوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم ، فإنك تجري إلى أمد

(١) الأنصار في العصر الراشدي، (ص ٢٠٧).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٠٩).

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) تاريخ الطبري (٤/ ٦٧)؛ خلافة معاوية، للعقيلي، (ص ١٧ ، ١٨).

(٦) الطبقات الكبرى (٧/ ٤٠٦)؛ أثر العلماء في الحياة السياسية ، (ص ٦١).

فنافس ، فإن بلغته أورثته عقبك^(١) ، وكذلك كتبت له والدته هند بنت عتبة تقول : والله يا بني إنه قل من تلد مثلك ، وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر ، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت^(٢) .

وكان بعض الناس - لا سيما شيوخهم - استغربوا تولية عمر رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه مع حداثة سنه ووجود من هو أكبر منه وأفضل ، لذا سوغ عمر رضي الله عنه عمله هذا - حيث قالوا : ولّى حدث السن - بقوله : تلو منوني في ولايته ، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهداً»^(٣) .

٣- معاوية في موكب عظيم وإنكار عمر عليه :

كان عمر رضي الله عنه - وهو الخبير بمعادن الرجال - يدرك أكثر من غيره ما يتمتع به معاوية من صفات تؤهله للقيادة ، فحين قدم عمر الشام وافاه معاوية بموكب عظيم أنكره عليه عمر فقال : أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال : نعم . قال : مع ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك . قال : هو ما بلغك من ذلك . قال : ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن أمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز . قال : يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة ، فيجب أن تظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم فإن أمرتني فعلت ، وإن نهيتني انتهيت ، فقال له عمر : ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب^(٤) الضرس ، لئن كان ما قلت حقاً ، إنه لرأي أريب^(٥) ، ولئن كان باطلاً إنه لخديعة أديب^(٦) . قال : فمرني يا أمير المؤمنين ، قال : لا أمرك ولا أنهاك . فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه ، فقال عمر : لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه^(٧) ، وفي رواية أن الرجل الذي قال لعمر : ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه ؛ هو عبد الرحمن بن عوف ، وكان مع عمر حين استقبلهما معاوية بهذا الموكب العظيم^(٨) .

وهذا الجواب من معاوية - رضي الله عنه - يدل على خبرة سياسية عالية ، ومعرفة واعية

(١) البداية والنهاية (١١/٣٩٩) ، المقصود من (أورثته عقبك) أي : الحمد .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) السلسلة الصحيحة (٤/٦١٥) ، رقم (١٩٦٩) . وقال الألباني : حديث صحيح .

(٤) الرواجب : جمع راجبة : وهي ما بين عقد الأصابع من داخل ؛ أي : أضيق ما يكون .

(٥) البداية والنهاية (١١/٤١٦) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) المصدر السابق نفسه .

(٨) المصدر السابق نفسه (١١/٤١٦) .

بأحوال الأمم ، ودراية كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمني للدولة التي يحكمها ، ومن أجل هذا هذا رضي عمر سياسته على الرغم من أنها تخالف سياسة عمر في اهتمامه بأحوال رعيته وبحث شكواهم ، ولعل كلمة عمر - رضي الله عنه - : من أجل ذلك جشمناه ما جشمناه ؛ تدل على رضاه عن سياسة معاوية^(١).

وكان عمر رضي الله عنه يتعهد معاوية بالتربية والوعظ والنصح ، وأحياناً يشتد ويغلظ عليه ، فعن أسلم مولى عمر رضي الله عنه قال : قدم علينا معاوية وهو أبيض أو أبضُ الناس وأجملهم ، فخرج إلى الحج مع عمر ، فكان عمر ينظر إليه ، فيعجب له ، ثم يضع أُصْبُعَهُ على منته ثم يرفعها عن مثل الشراك ، فيقول : بخ بخ ، نحن إذا خير الناس ، أن جُمع لنا خير الدنيا والآخرة ، فقال معاوية : يا أمير المؤمنين ، سأحدثك ، إنّا بأرض الحمامات والريف ، فقال عمر : سأحدثك ما بك إطفاك نفسك بأطيب الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب . قال : فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حُلّة فلبسها ، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب ، فقال : يعمد أحدكم فيخرج حاجاً تَفَلّاً ، حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما ، فقال معاوية : إنما لبستهما لأدخل فيهما على عشيرتي أو قومي ، والله لقد بلغني أذاك هاهنا وبالشام ، والله يعلم أنني لقد عرفتُ الحياء فيه ، ثم نزع معاوية ثوبيه ، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما^(٢).

وقال عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي ، عن جَدِّه قال : دخل معاوية على عمر وعليه حُلّة خضراء فنظر إليها الصّحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة ، فجعل يضربه بها ، وجعل معاوية يقول : يا أمير المؤمنين ، الله الله فيّ ، فرجع عمر إلى مجلسه ، فقال له القوم : لم ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومك مثله؟! فقال : والله ما رأيت إلا خيراً وما بلغني إلا خير ، ولكنّي رأيته - وأشار بيده^(٣) - فأحببت أن أضع منه^(٤) ، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال : هذا كسرى العرب^(٥).

وكان معاوية رضي الله عنه في إمارته بالشام في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة ، وكان يرى أنه في ثغر تجاه العدو ويحتاج إلى مباهاتهم بزيّنة الحرب والجهاد^(٦) وإظهار الملك

(١) الأمويون بين الشرق والغرب ، لمحمد الوكيل (١/ ٣٠).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤١٧).

(٣) يعني : أشار بيده إلى فوق.

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٤١٨).

(٥) المصدر السابق نفسه (١١/ ٤١٧)؛ الاستيعاب ، (ص ٦٦٨).

(٦) ابن خلدون إسلامياً ، عماد الدين خليل ، (ص ٧٨).

والسلطان ، وكان يرى أن الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلبة بالحق وقهر الكافة على الدين ، ومراعاة المصالح ، وإنما ذمه لما فيه التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات ، فلو كان الملك مخلصاً في غلبه للناس أنه الله ، ولحملهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً^(١) ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغَىٰ لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥] لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك .

وكانت أبهة معاوية في الملك لها أغراض ومقاصد شرعية ، ولذلك سكت عمر رضي الله عنه ، وذات يوم ذكر معاوية عند عمر فقال : دعوا فتى قريش وابن سيدها ؛ إنه لمن يضحك في الغضب ولا يُثال منه إلا على الرضا ، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه^(٢) ، ومهما يكن في هذه الرواية وغيرها من مبالغة ، فإن ثقة عمر في معاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك^(٣) ، فقد برهن معاوية لعمر عمق فهمه لضرورات السياسة وتغير البيئة والمجتمع ، وأثر ذلك كله على التطوير السياسي لأدوات الحكم .

ومهما يكن من أمر فقد عظمت مكانة معاوية عند عمر رضي الله عنه ، فولاه أهم أقاليم دولته ، وزاد في ولايته ، ولم يعزله ، على كثرة من كان يعزل من عماله وأمرائه ، وكان معجباً بذكائه وإدارته ولا يكتم ذلك الإعجاب^(٤) حتى قال يوماً لجلسائه : تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية^(٥) ؟ !

٤ - جهود معاوية رضي الله عنه على جبهة الشام :

لما تولى معاوية أمر الشام ، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مصر ، أصبحت مهمة حماية الحدود الشامية للدولة الإسلامية والتوسع منها منوطة به ، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية في أمرين هما : سن نظام الصوائف والشواتي^(٦) ، وتكوين أسطول بحري إسلامي لأول مرة في تاريخ الإسلام^(٧) .

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ٧٨) .

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤١٥) .

(٣) الدولة الأموية ، حمدي شاهين ، (ص ١٥٤) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٥٧) .

(٥) تاريخ الطبري (٥/ ٣٣٠) .

(٦) الصوائف : غزو بلاد الروم في الصيف ، والشواتي : في الشتاء .

(٧) الدولة الأموية ، حمدي شاهين ، (ص ١٥٤) .

أ- سن نظام الصوائف والشواتي في عهد عمر :

أصيب الروم على يد جنود الإسلام بهزائم مريعة متتالية فقدوا على أثرها الشام ومصر ، بكل ما تمثلانه من أهمية اقتصادية وسياسية وعسكرية ، غير أنهم لم يسلموا بهذه الهزائم ، بل استمرت هجماتهم على الشام من خلال الدروب الجبلية التي تفصلهم عن باقي أجزاء إمبراطورية الروم ، مما جعل عمر بن الخطاب يقول في جولته بالشام سنة ١٦ هـ : والله لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم لنا ما دونه ، وللروم ما وراءه^(١) ، وفي رحلته هذه إلى الشام سمى عمر الصوائف والشواتي ، وسد فروج الشام ومسالكها^(٢).

ومن المحتمل أن يكون هدف الروم من هجماتهم على المدن الإسلامية الحدودية منذ البداية ، هو اعتماد ذلك كتدبير وقائي لحماية بلاد الروم وردع المسلمين ، لكن استجابة معاوية كانت فوق التحدي ، فقد نقل المعركة إلى بلاد العدو ، وابتعد بالحرب عن بلاد المسلمين ، وكان لا بد لمعاوية - من أجل تحقيق ذلك الهدف - من تطوير وسائل الدفاع ، واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقي الصدمة والإنذار ، مع استخدام هذه القواعد مركز انطلاق للهجمات المضادة ، وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف ؛ منها صائفة سنة ٢٢ هـ ؛ حيث دخل بها بلاد الروم في عشرة آلاف ، وصائفة ٣٢ هـ^(٣) ، حيث أوغل حتى بلغ عمورية ، ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ : عبادة بن الصامت ، وأبو أيوب الأنصاري ، وأبو ذر الغفاري ، وشداد بن أوس^(٤).

ب- تكوين أسطول إسلامي في البحر :

ويعود الفضل إلى الله ثم إلى معاوية في هذه المرحلة المبكرة في فتح باب الجهاد في البحر الذي أصبح ضرورياً لحماية الشام ومصر ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطي ، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين ، وإمداداته للتأثرين بهما. وقد استطاعت عمليات الصوائف والشواتي أن تضع حداً للتهديدات البرية ، لكن المدن الساحلية ، بداية من إنطاكية ونهاية بالإسكندرية ، بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية ، وأدرك معاوية أيضاً أنه من المحال تطوير عمليات الفتوح في إفريقية ما لم يتم انتزاع السيطرة البحرية من البيزنطيين^(٥) ، ولم يبدأ معاوية في غزو البحر فعلياً إلا في عهد عثمان ، وسيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى .

(١) تاريخ اليعقوبي (١٣٣/٢).

(٢) تاريخ الطبري (٦٢/٤).

(٣) تاريخ الأمم والملوك (١٤٤/٤ ، ١٦٠).

(٤) المصدر السابق نفسه (٢٤١/٤)؛ الدولة الأموية ، حمدي شاهين ، (ص ١٥٥).

(٥) معاوية بن أبي سفيان ، بسام العسلي ، (ص ٤٠).

ثالثاً: معاوية رضي الله عنه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه :

حينما جاء عثمان إلى الخلافة كان معاوية رضي الله عنه والياً على معظم الشّام ، فأقرّه عثمان عليها^(١) ، كما أقرّ بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم ، كاليمن ، والبحرين ، ومصر وغيرها من الولايات ، وقد تطورت الأحداث ، وضُمت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح معاوية هو الوالي المطلق لبلاد الشام ، بل أصبح أقوى ولاية عثمان ، وأشدّهم نفوذاً ، وقد كان في بداية خلافة عثمان ولاية آخرون ، منهم : عمير بن سعد الأنصاري ، وكان على حمص ، وبنافس معاوية بن أبي سفيان في المكانة لدى عثمان رضي الله عنه ، إلا أن عميراً مرض مرضاً أعياه عن القيام بأعباء الولاية ، فطلب من الخليفة عثمان أن يعفيه ، فأعفاه ، وضم ولايته إلى معاوية بن أبي سفيان ، وبذلك زاد نفوذ معاوية ، فامتد إلى حمص التي ولى عليها من قبله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^(٢) ، كما توفي علقمة بن محرز ، وكان على فلسطين ، فضمّ عثمان ولايته إلى ولاية معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، فاجتمعت الشّام لمعاوية بعد سنتين من خلافة عثمان رضي الله عنه ، وأصبح الوالي المطلق فيها طيلة السنوات الباقية من خلافة عثمان رضي الله عنه حتّى توفي عثمان وهو عليها كما هو معروف^(٣) .

وقد كانت فترة معاوية على الشّام مليئة بالأحداث ، وكانت الشّام من أهم مناطق الجهاد ، ومع أن الشّام في داخلها قد استقرت أوضاعها ، وسادها الإسلام ، وقلّت محاولات الرّوم إثارة الفلاقل فيها ، إلا أن الشام كانت متاخمة لأرض الروم ، وبالتالي كان المجال مفتوحاً أمام معاوية للجهاد في تلك النواحي وسيأتي الحديث عنها بإذن الله ، وقد كان لمعاوية ثقله السياسي في الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه ، إذ كان ضمن الولاة الذين جمعهم عثمان ليستشيرهم ، حين بدأت ملامح الفتنة تلوح في الأفق ، كما ظهرت له آراء خاصة في هذا الاجتماع ، وجّهها إلى عثمان^(٤) رضي الله عنه ، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى .

١ - فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري رضي الله عنه :

كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز أمراء الجهاد في زمن ولاية معاوية على بلاد الشّام ، فعندما أجلبت الرّوم على المسلمين بالشّام بجموع عظيمة أول خلافة عثمان ، كتب معاوية إلى عثمان يستمده ، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة والي الكوفة عندما انتهى من مهمته في

(١) تاريخ خليفة بن خياط ، (ص ١٥٥) .

(٢) تاريخ الطبري (٤٤٢/٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٤٤٣/٥) .

(٤) الولاية على البلدان (١٧٦/١) .

أذربيجان وعاد إلى الموصل؛ جاء في خطاب الخليفة إلى الوليد بن عقبة: أمّا بعد: فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني: أن الرُّوم قد أجلبت^(١) على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابي هذا، فابعث رجلاً ممّن ترضى نجاته، وبأسه، وشجاعته، وإسلامه في ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي^(٢) والسّلام.

فقام الوليد في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد؛ أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاءً حسناً، وردّ عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردّهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين، وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف، تمثّلون إخوانكم من أهل الشام، فإنّهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا - رحمكم الله - مع سليمان بن ربيعة.

فانتدب النّاس، فلم يمض ثلاثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا، حتى دخلوا الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهريّ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهليّ، فشئتوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاءوا من سبي، وملؤوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة^(٣)، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة، وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يبيت قائدهم الموريان - أي: يباغته ليلاً - فسمعت امرأته أمّ عبد الله بنت يزيد الكلبيّة يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سراق الموريان أو العجّة. ثم بيّتهم، فغلبهم. وأتى سراق الموريان فوجد امرأته، قد سبقته إليه^(٤).

وواصل حبيب جهاده، وانتصاراته المتوالية في أراضي أرمينية، وأذربيجان، ففتحها إمّا صلحاً أو عنوة^(٥)، وقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الذين حاربوا في أرمينية البيزنطية، فقد أباد جيوشاً بأكملها للعدوّ، وفتح حصوناً، ومدناً كثيرة^(٦)، كما غزا ما يلي

(١) أجلبت: تجمعت للحرب.

(٢) تاريخ الطبري (٥/٢٤٧).

(٣) تاريخ الطبري (٥/٢٤٧)؛ عثمان بن عفان، للصلاحي، (ص ١٨١).

(٤) تاريخ الطبري (٥/٢٤٨).

(٥) الدول الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، لحمدي شاهين، (ص ٢٥٢).

(٦) حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين، (ص ٥٧٧).

ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك ، مثل : شمشاط ، وملطية ، وغيرها^(١).

٢- غزوات معاوية في عهد عثمان - رضي الله عنهما - في البر :

أدرك معاوية رضي الله عنه بأن إزالة خطر الروم وتهديدهم للمسلمين لا يتم إلا بمواصلة غزو الروم وتنشيط حركة الجهاد بشكل مستمر في الثغور الشامية والجزيرية^(٢) ، وشحنهما بالمرابطين وتعهدهما على الدوام ، وقد أخذ منه ذلك وقتاً طويلاً وبذل فيه جهداً كبيراً خلال ولايته تلك في عهد عثمان ، ففي سنة خمس وعشرين للهجرة قام معاوية بجولة عسكرية على الثغور الشامية ، فوجد الحصون فيما بين إنطاكية وطرسوس خالية ، فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته ، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسي الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك . وكانت الولاة تفعله^(٣) ، وفي سنة إحدى وثلاثين غزا من ناحية المصيصة فبلغ درولية^(٤) ، فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين إنطاكية إلا هدمه^(٥).

وكذلك الشأن في الثغور الجزيرية فقد أولاها عنايته ؛ فقد وجه في الأيام الأولى لولايته تلك كلاً من حبيب بن مسلمة الفهري وصفوان بن المعطل السلمي إلى شمشاط ففتحها . كما وجه حبيب بن مسلمة إلى إعادة فتح ملطية بعد أن انتقضت ، ففتحها عنوة ، ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها .

كما قام معاوية بنفسه بعد ذلك بحملة أخرى يريد التوغل في أرض الروم ؛ فقد مرَّ على ملطية فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما وذلك لكي تكون طريقاً آمناً لحملات

(١) عثمان بن عفان ، للصَّلابي ، (ص ٢٠٥).

(٢) الثغور الشامية والجزيرية : هي شريط طويل من القلاع والحصون يمتد على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية مع الدولة البيزنطية ، ويبدأ هذا الشريط من ملطية إلى الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط ، وينقسم خط هذه القلاع إلى مجموعتين : إحداها تسمى بـ (الثغور الجزيرية) وهي تمثل الجزء الشمالي الشرقي من هذا الخط ، ومن أهم ثغور هذا القسم : ملطية ، وزبطرة ، وحصن منصور ، والحدث ومرعش وشمشاط ، والمجموعة الثانية تسمى بـ (الثغور الشامية) وهي تمثل الجزء الجنوبي الغربي من ذلك الخط ، وأهم ثغور ذلك القسم : عين زربة ، وأذنة ، وطرسوس ، وهرقلة ، ويفصل بين المجموعتين فاصل طبيعي وهو جبل اللكام . انظر : أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، (ص ٦٧).

(٣) فتوح البلدان ، (ص ٦٩).

(٤) المصيصة ودرولية من الثغور الشامية .

(٥) فتوح البلدان ، (ص ١٦٩).

الصوائف. كما غزا حصن المرأة من الثغور الجزرية في السنة نفسها^(١)، وكان يتعهد حصن الحدث، وبنى مدينة مرعش وأسكنها الجند، وكل هذه المدن والحصون من الثغور الجزرية^(٢)، ولما اطمأن معاوية إلى قوة جانبه بعد تلك الإجراءات أخذ يغزو في عمق الأراضي الرومية، فقد قاد بنفسه غزوة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة توغل فيها بجيشه حتى وصل مضيق القسطنطينية^(٣).

٣- معاوية يلتمس من عثمان رضي الله عنهما السماح له بالغزو البحري :

كان معاوية رضي الله عنه يلحُّ على عمر في غزو البحر، ويصف له قرب الرُّوم من حمص، ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق.

فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية: أن لا، والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وتالله لمسلم أحبُّ إليَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء مني، ولم أقدم إليه في ذلك^(٤).

ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى في الرُّوم ما رأى، فطمع في بلادهم وفتحها، فلما تولَّى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث، وألحَّ به على عثمان، فردَّ عليه عثمان رضي الله عنه قائلاً: أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر - رحمه الله - حين استأذنته في غزو البحر. ثم كتب إليه معاوية مرةً أخرى يهوِّن عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب إليه: فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا^(٥). كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضي الله عنه أيضاً بقوله: لا تنتخب الناس، ولا تفرع بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً، فاحمله وأعنه^(٦)، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب، وتقريبها إلى ساحل عكا، فقد رمَّه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص^(٧).

(١) تاريخ خليفة بن خياط، (ص ١٦٧)؛ و: فتوح البلدان، (ص ١٨٩).

(٢) فتوح البلدان، ص ١٨٧-١٩٦.

(٣) تاريخ خليفة، ص ١٦٧؛ تاريخ الطبري (٤/٣٠٤)؛ أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، (ص ٦٩).

(٤) تاريخ الطبري (٥/٢٥٨).

(٥) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢/٥٣٨).

(٦) تاريخ الطبري (٥/٢٦٠).

(٧) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٢/٥٣٨).

٤- غزو قبرص:

أعدَّ معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازي ، وأتخذ ميناء عكا مكاناً للإقلاع ، وكانت المراكب كثيرة ، وحمل معه زوجه فاخنة بنت قرظة ، كذلك حمل عبادة بن الصَّامت امرأته أمَّ حرام بنت ملحان معه في تلك الغزوة^(١) ، وأمَّ حرام هذه صاحبة القصة المشهورة: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان يدخل على أمَّ حرام بنت ملحان ، فتطعمه ، وكانت أمَّ حرام تحت عبادة بن الصَّامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً ، فأطعمته ، ثم جلست تغلي من رأسه ، فنام رسول الله ﷺ ، ثم استيقظ وهو يضحك. فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرّة ، أو مثل الملوك على الأسرّة». وقالت: فقلت: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم! فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ، ثم استيقظ ، وهو يضحك ، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟! قال: «ناس من أمتي عرضوا عليَّ في سبيل الله...» - كما قال في الرواية الأولى -. قال: «أنت من الأولين». فركبت أمَّ حرام بنت ملحان في البحر في زمن معاوية ، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر ، فهلكت^(٢).

ورغم أن معاوية رضي الله عنه لم يجبر الناس على الخروج ، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين^(٣) ، مما يدل على أن المسلمين قد هانت في أعينهم الدنيا بما فيها ، فأصبحوا لا يعبؤون بها بالرَّغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها ، فصاروا يرفلون في نعيمها.

إن المسلمين قد تربّوا على أنَّ ما عند الله خير ، وأبقى ، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه ، وإقامة العدل ، ونشر الفضيلة ، والعمل على إظهار دين الله على كلِّ ما عداه ، وهم يعتقدون: أنَّ هذه المهمة هي رسالتهم الحقيقية ، وأنَّ الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله ، فإن هم قصّروا في مهمّتهم ، وقعدوا عن أداء واجبهم ، فسيمسك الله عنهم نصره في الدُّنيا ، ويحرمهم مرضاته في الآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، من أجل هذا هُرّعوا مع معاوية ، وتسابقوا إلى السفن يركبونها ، ولعلَّ حديث أمَّ حرام قد ألَمَّ بخواطرهم ، فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ثمان وعشرين من الهجرة ٦٤٩ م^(٤).

(١) البداية والنهاية (١٥٩/٧).

(٢) البخاري ، رقم (٢٨٧٧).

(٣) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ، (ص ٣٥٦).

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ٣٥٦).

وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء عكا متوجهين إلى قبرص ، ونزل المسلمون إلى الساحل ، وتقدمت أم حرام لتركب دابّتها ، فنفرت الدّابة ، وألقت أمّ حرام على الأرض ، فاندقت عنقها ، فماتت^(١) ، وترك المسلمون أمّ حرام بعد دفنها في أرض الجزيرة عنواناً على مدى التضحيات التي قدّمها المسلمون في سبيل نشر دينهم ، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة^(٢) .

واجتمع معاوية بأصحابه ، وكان فيهم : أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفاري ، وعبادة بن الصّامت ، ووائل بن الأسقع ، وعبد الله بن بشر المازني ، وشداد بن أوس بن ثابت ، والمقداد بن الأسود ، وكعب الجبر بن ماتع ، وجبير بن نصير الضرمي . وتشاوروا فيما بينهم ، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم : أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم^(٣) ، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله ، ثمّ تأمّن حدود الدولة الإسلامية بالشام ، وذلك لأنّ البيزنطيين كانوا يتخذون من قبرص محطة يستريحون فيها ؛ إذا غزوا ، ويتموّنون منها ، إذا قلّ زادهم ، وهي بهذه المثابة تهدّد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها ، فإذا لم يطمئن المسلمون على مسالمة هذه الجزيرة لهم ، وخضوعها لإرادتهم ، فإن وجودها كذلك سيظلّ شوكة في ظهورهم ، وسهماً مسدداً في صدورهم ، ولكن سكّان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة ، ولم يفتحوا لهم بلادهم ، بل تحصّنوا في العاصمة ، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين ، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدّم الروم للدّفاع عنهم ، وصدّ هجوم المسلمين عليها^(٤) .

٥ - الاستسلام وطلب الصلح :

تقدّم المسلمون إلى عاصمة قبرص (قسنطينا) وحاصروها ، وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح ، وقدّموا للمسلمين شروطاً ، واشترط عليهم المسلمون شروطاً ، وأما شروط أهل قبرص ، فكان في طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطاً تورّطهم مع الروم ، لأنهم لا قبل لهم بهم ، ولا قدرة لهم على قتالهم ، وأما شروط المسلمين ، فهي :

أ - ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة ، إذا هاجم سكانها محاربون .

ب - أن يدلّ سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوّهم من الروم .

ج - أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومئتي دينار في كل عام .

د - أن يكون طريق المسلمين إلى عدوّهم عليهم .

(١) البداية والنهاية (١٥٩/٧) .

(٢) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ، (ص ٣٥٧) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ٣٥٧) .

هـ- ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين ، ولا يُطْلَعُوهم على أسرارهم^(١).

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام ، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة ، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدخول في معارك من هذا النوع مع العدو المتربص بهم سواء بالهجوم على بلاد الشام ، أو على الإسكندرية^(٢).

٦- عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامي في الشام :

استعمل معاوية بن أبي سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة ، فغزا خمسين غزاة ما بين شاتية ، وصائفة في البحر ، ولم يغرق فيه أحد ، ولم ينكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه الله العافية في جنده ، وألا يبتليه بمصائب أحد منهم ، ففعل ، حتى إذا أراد أن يصيبه وحده ، خرج في قاربه طليعة ، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم وعليه سؤال يعتزّون^(٣) بذلك المكان ، فتصدق عليهم ، فرجعت امرأة من السُّؤال إلى قريتها ، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرفأ ، قالوا: أي عدوة الله ، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبّختهم ، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد! فساروا إليه ، فهجموا عليه ، فقاتلوه ، وقتلهم ، فأصيب وحده ، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه ، فجاؤوا حتى أرقوا ، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي ، فخرج فقاتلهم ، فضجر وجعل يعبث بأصحابه ، ويشتمهم ، فقالت جارية عبد الله: وا عبد الله! ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا.

وأصيب في المسلمين يومئذ ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي^(٤) ، وقيل لتلك المرأة التي استشارت الروم على عبد الله بن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتاجر ، فلما سأله ، أعطاني كالملك ، فعرفت أنه عبد الله بن قيس^(٥).

وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنَّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أتاحت له وهو في وضع لا يضُرُّ بسمعة المسلمين البحرية ، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء فكانت تلك الكائنة الغربية التي أبصرت غورها تلك المرأة الذكيّة من نساء تلك البلاد ، حيث رأت ذلك الرّجل يظهر من مظاهره الخارجيّة بمظهر التّجار العاديين ، ولكنّه يعطي عطاء الملوك ، فلقد رأت فيه أمارات

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٢٦١).

(٢) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ، (ص ٣٥٨ ، ٣٥٩).

(٣) يعتزون: يتعرضون للناس دون أن يسألوهم.

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٢٦٠).

(٥) المصدر السابق نفسه.

السَّيادة مع بساطة مظهره؛ فعرفت: أنه قائد المسلمين، الذي دَوَّخَ المحاربين في تلك البلاد، وهكذا كانت نسمات ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سبباً في كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فيتمَّ بذلك الهجوم عليه، وظفره بالشهادة.

وهكذا يضرب قادة المسلمين المثل العليا بأنفسهم، لتتمَّ الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه، ولم يكل الأمر إلى جنوده، وفي انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء، والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه، فيتولَّى هذه المهمة، ثمَّ نجده يتخلَّق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء، وضعفتهم، فيمدُّ لهم يد الحنان، والعطف، ويسخو لهم بالمال الذي هو من أعزِّ ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقاً صبوراً، لا معنفاً، ولا مستكبراً، وإذا ادلهمت الخطوب، تفاءل بانكشاف الغمَّة، ولم يَجَأْ إلى لوم أصحابه، وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذي يفسد العمل، ويعجِّل بالخلل، والفوضى، وأمَّا خليفته سفيان الأزديُّ، فلعلَّه وقع فيما وقع فيه من الارتباك، والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة، ولكن ممَّا يُحفظ له: أنَّه لما تَبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره ينتهجه في القيادة سارع في التأسّي به في ذلك، ولم يحمله التكبر على عدم سماع كلمة الحقِّ، وإن صدرت من جارية مغمورة.

وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخلق العظيم الذي كان غالباً في الجيل الأوَّل، وبه تمَّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة، والقادة في إدارة أمور الأمة، فلهه دُرُّ أبناء ذلك الجيل: ما أبلغ ذكرهم! وما أبعد غورهم! وما أعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين، أو ما أعذب لمساتهم في الأرض على المستضعفين والمساكين^(١).

٧- القبارصة ينقضون الصلح:

في سنة اثنتين وثلاثين هجرية، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومي عنيف أجبرهم على إمداد جيش الروم بالسُّفن، ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلُّوا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة، ووضعها تحت سلطان المسلمين، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجوماً عنيفاً، فقتلوا، وأسروا، وسلبوا، هجم عليها جيش معاوية من جهة، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبيّاً كثيراً، وغنموا ما لا جزيلاً^(٢)، وتحت ضغط القوات الإسلامية

(١) التاريخ الإسلامي (١٢/٤٠٢).

(٢) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، (ص ٣٥٩-٣٦٠).

اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح ، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول^(١) ، وخشي معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يربط في الجزيرة ، فيحميها من غارات الأعداء ، ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين ، فبعث إليهم اثني عشر ألفاً من الجنود ، ونقل إليهم جماعة من بعلبك ، وبنى هناك مدينة ، وأقام فيها مسجداً ، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم ، وظلّ الحال على ذلك ، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من هجمات الروم المفاجئة ، ولاحظ المسلمون: أنّ أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية ، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم ، وأحسن المسلمون: أن الروم يغلبونهم على أمرهم ، ويستخرونهم لمصالحهم فأروا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم ، وأن يمنعوهم من تسلط البيزنطيين . وقال إسماعيل بن عيَّاش: أهل قبرص أذلاء مقهورون ويغلبهم الروم على أنفسهم ، ونسأهم ، فقد يحق علينا أن نمنعهم ، ونحميهم^(٢) .

٨- ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه !

وقد جاء في سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء فبكى ، ثم قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه ، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوهم ، فلما تركوا أمر الله - عز وجل - وعصوه ، صاروا إلى ما ترى^(٣) .

وجاء في رواية: فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله؟! فقال: ويحك! إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك ، فلما ضيعوا أمر الله ، صيرهم إلى ما ترى ، سلط الله عليهم السبي ، وإذا سلط على قوم السبي ، فليس لله فيهم حاجة ، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى ، إذا تركوا أمره^(٤) !

إن ما تفوّه به أبو الدرداء ، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة ، والفقه في أمر الله تعالى ، فهذا الصحابي الجليل يبكي حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم ، فلم ينقادوا لدعوة الحق ، فباؤوا بهذا المصير المؤلم ، حيث تحولوا من الملك والعزة إلى الاستسلام والذلّة ، لإصرارهم على لزوم الباطل ، والتكبر على الخضوع لدعوة الحق ، ولو أنهم عقلوا ، وتدبروا لكان في دخولهم في الإسلام بقاء ملكهم ، وعمران ديارهم ، والظفر بحماية دولة الإسلام ، وإن هذا التفكير العميق من أبي الدرداء مظهرٌ من مظاهر الرّحمة ، والعطف ، تفتحت عنه نفسه الزكية ، فتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دموع تتحدّر من عيني هذا الرجل العظيم ، ليعبر عمّا يجول في

(١) البلاذري ، (ص ١٥٨) .

(٢) جولة تاريخية ، (ص ٣٦١) .

(٣) التاريخ الإسلامي (١٢/٣٩٦) .

(٤) البداية والنهاية (٧/١٥٩) .

نفسه من نظرات الحنان ، والرَّحمة ، والأسى على مصير تلك الأمة التي اجتمع لها البقاء على الضلال ، والمآل السيئ بزوال الملك ، والوقوع في الذل والهوان ، وإنه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس في الإسلام ، فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون في ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد في الآخرة ، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر ، والتشرد ، وتعرضهم للقتل في الحياة الدنيا؟^(١).

٩- معاوية يولي عبادة بن الصامت رضي الله عنهما على قسمة غنائم قبرص :

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضي الله عنهما: شهدت رسول الله ﷺ في غزوة حنين والناس يكلمونه في الغنائم ، فأخذ وبرة من بعير ، وقال: ما لي مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس ، والخمس مردود فيكم^(٢). فاتق الله يا معاوية! واقسم الغنائم على وجهها ، ولا تُعطِ منها أحداً أكثر من حقه! فقال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم ، ليس أحد بالشام أفضل منك ، ولا أعلم ، فاقسمها بين أهلها ، واتق الله فيها ، فقسمها عبادة بين أهلها ، وأعانه أبو الدرداء ، وأبو أمامة^(٣).

وعباد بن الصامت رضي الله عنه من مؤسسي المدرسة الشامية؛ فقد وجهه عمر إلى الشام قاضياً ومعلماً ، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين فولي قضاءها ، واستقر به المقام فيها ، فكان أول من تولى قضاء فلسطين ، وكان أيضاً يعلم أهلها القرآن ، وظل على هذا النحو إلى أن مات بها^(٤) ، وقد أسهم عبادة رضي الله عنه بنصيب كبير في تنفيذ سياسة الخلافة الراشدة العلمية والتربوية والجهادية ، وكان رضي الله عنه من أهل الزهد والخشونة ، فعندما وصل إلى حمص قال لأهلها: ألا إن الدنيا عرض حاضر ، وإن الآخرة وعد صادق ، ألا إن الدنيا بنين وإن الآخرة بنين ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن كل أم يتبعها بنوها^(٥).

١٠- حقيقة الخلاف بين أبي ذر ومعاوية وموقف عثمان رضي الله عنهم منه :

إن مبغضي عثمان بن عفان رضي الله عنه كانوا يشتمون عليه أنه نفى أبا ذر رضي الله عنه إلى الربذة ، وزعم بعض المؤرخين: أن ابن السوداء عبد الله بن سبأ لقي أبا ذر في الشام ، وأوحى إليه بمذهب القناعة ، والزهد ، ومواساة الفقراء ، ووجوب إنفاق المال الزائد عن الحاجة ،

(١) التاريخ الإسلامي (١٢/٣٩٧).

(٢) البداية والنهاية (٤/٣٥٣).

(٣) الرياض النضرة ، (ص ٥٦١).

(٤) عبادة بن الصامت: صحابي كبير وفاتح مجاهد ، (ص ٨٤).

(٥) الاكتفاء ، الكلاعي (٣/٣١٠).

وجعله يعيب معاوية ، فأخذه عبادة بن الصامت إلى معاوية ، وقال له : هذا والله الذي بعث إليك أبا ذر . فأخرج معاوية أبا ذر من الشام^(١) ، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهاً بين رأي أبي ذر ، ورأي مزدك الفارسي ، وقال بأن وجه الشبه جاء من أن ابن سبأ كان في اليمن وطوف في العراق ، وكان الفرس في اليمن والعراق قبل الإسلام ، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق ، واعتنقها أبو ذر على حسن النية في اعتقادها^(٢) .

وكل ما قيل في قصة أبي ذر ، مما يُستع به على عثمان ؛ باطل لا يُبنى على رواية صحيحة ، وكل ما قيل حول اتصال أبي ذر رضي الله عنه بابن السوداء باطل لا محالة^(٣) .

والصحيح : أن أبا ذر رضي الله عنه نزل في الربذة باختياره ، وأن ذلك كان بسبب اجتهاد أبي ذر في فهم آية خالف فيه الصحابة ، وأصر على رأيه ، فلم يوافق أحد عليه ، فطلب أن ينزل بالربذة^(٤) ، التي كان يغدو إليها زمن النبي ﷺ ، ولم يكن نزوله بها نفيّاً قصرياً ، أو إقامة جبرية ، ولم يأمره الخليفة بالرجوع عن رأيه ، لأن له وجهاً مقبولاً ، لكنه لا يجب على المسلمين الأخذ به^(٥) . وأصح ما روي في قصة أبي ذر رضي الله عنه ما رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب ، قال : مررت بالربذة ، فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه ، فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا؟ قال : كنت بالشام ، فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُونُوا لِمَن يُكْفِرُونَ أَموالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَبْفُقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة : ٣٤] .

قال معاوية : نزلت في أهل الكتاب ، فقلت : نزلت فينا ، وفيهم ، فكان بيني وبينه في ذلك ، وكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إلي عثمان أن أقدم المدينة ، فقدمتها ، فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان ، فقال لي : إن شئت فكن قريباً ، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمروا علي حبشياً ، لسمعت وأطعت^(٦) . وقد أشار هذا الأثر إلى أمور مهمة ؛ منها :

أ - سأله زيد بن وهب ، ليتحقق ممّا أشاعه مبغضو عثمان : هل نفاه عثمان أو اختار أبو ذر

(١) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦ ، ٢١٧) .

(٢) فجر الإسلام ، (ص ١١٠) .

(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٧) .

(٤) كانت منزلاً في الطريق بين العراق ومكة .

(٥) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٧) .

(٦) البخاري ، كتاب الزكاة ، رقم (١٤٠٦) .

المكان؟ فجاء سياق الكلام: أنه خرج بعد أن كثر الناس عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشام ، وليس في نص الحديث: أنَّ عثمان أمره بالذهاب إلى الربذة ، بل اختارها بنفسه ، ويؤيد هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله بن الصَّامِت قال: دخلت مع أبي ذرٍّ على عثمان ، فحسر رأسه ، فقال: والله ما أنا منهم - يعني: الخوارج - فقال: إنَّما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة ، فقال: لا حاجة لي في ذلك ، ائذن لي بالربذة. قال: نعم^(١).

ب - قوله: (كنت بالشَّام): بيِّن السَّبب في سكناه الشَّام ، ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد بن وهب: حدَّثني أبو ذرٍّ ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا بلغ البناء - أي: المدينة - سلَّاً ، فارتحل إلى الشَّام». فلمَّا بلغ البناء سلَّاً ، قدمت الشام فسكنت فيها^(٢).

ج - إنَّ قصة أبي ذرٍّ في المال جاءت من اجتهاده في فهم الآية الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْزِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٣٤ - ٣٥]. وروى البخاري عن أبي ذرٍّ ما يدل على أنه فسَّر الوعيد ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا...﴾ الآية ، وكان يخوِّف النَّاس به ، فعن الأحنف بن قيس ، قال: جلستُ إلى ملأ من قريش في مسجد المدينة ، فجاء رجل خشن الشَّعر ، والثَّياب ، والهيئة ، حتى قام عليهم ، فسَلَّم ، ثم قال: بَشِّرِ الكانِزِينَ بِرَضْفٍ^(٤) يُحْمَى عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ثم يوضع على حلمة نَذِي أحدهم ، حتَّى يخرج من نُعْضِي كتفه ، ويوضع على نُعْض كتفه حتى يخرج من حلمة نَذِيه ، يتزلزل^(٥). ثم ولى فجلس في سارية ، وتبعته ، وجلست إليه ، وأنا لا أدري من هو ، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذي قلت ، قال: إنَّهم لا يعقلون شيئاً. واستدلَّ أبو ذرٍّ رضي الله عنه بقول رسول الله ﷺ: «ما أحبُّ أنَّ لي مثل أحد ذهباً ، أنفقه كلَّه إلا ثلاث دنائير»^(٦).

د - وقد خالف جمهور الصحابة أبا ذرٍّ ، وحملوا الوعيد على مانعي الزَّكاة واستدلوا على ذلك بالحديث الذي رواه أبو سعيد الخدريُّ ، قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذُود صدقة ، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»^(٦). وقال

(١) فتح الباري (٣/ ٢٧٤).

(٢) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٩).

(٣) الرضف: الحجارة المحمَّاة ، واحداها: رضة.

(٤) نغض: العظم الدقيق الذي على طرف الكتف. يتزلزل: يضطرب.

(٥) البخاري: كتاب الزكاة ، رقم (١٤٠٧).

(٦) البخاري ، رقم (١٤٠٥).

الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث: أنَّ ما زاد على الخمس ففيه صدقة ، ومقتضاه: أنَّ كلَّ ما أخرجت منه الصدقة ، فلا وعيد على صاحبه ، فلا يسمَّى ما يفضل بعد إخراج الصدقة كنزاً^(١).

هذا وقد فصلت في موضع أبي ذرٍّ وخلافه مع معاوية رضي الله عنهما في كتابي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأثبت بالحجج والأدلة والبراهين بأن عثمان رضي الله عنه لم ينفِ أبا ذرٍّ رضي الله عنه ، إنما استأذنه ، فأذن له ولكنَّ أعداء عثمان رضي الله عنه كانوا يشيعون عليه بأنَّه نفاه ، ولذلك لمَّا سأل غالب القطان ، الحسن البصري: عثمان أخرج أبا ذرٍّ؟ قال الحسن: لا؛ معاذ الله^(٢) ، وكل ما روي في أنَّ عثمان نفاه إلى الرِّبذة فإنه ضعيف الإسناد ، لا يخلو من علة قاذحة ، مع ما في متنه من نكارة لمخالفته للمرويات الصحيحة والحسنة ، التي تبين أنَّ أبا ذرٍّ استأذن للخروج إلى الرِّبذة ، وأنَّ عثمان أذن له^(٣) ، بل إن عثمان أرسل يطلبه من الشام ، ليحاوِّره بالمدينة ، فقد قال له عندما قدم من الشام: إنا أرسلنا إليك لخير ، لتجاورنا بالمدينة^(٤) . وقال له أيضاً: كن عندي ، تغدو عليك ، وتروح اللقاح^(٥) . أفمن يقول ذلك له ينفيه^(٦)؟! .

ولم تنصَّ على نفيه إلا رواية رواها ابن سعد ، وفيها بريدة بن سفيان الأسلمي الذي قال عنه الحافظ ابن حجر: ليس بالقوي ، وفيه رفض . فهل تقبل رواية رافضي تتعارض مع الروايات الصحيحة ، والحسنة^(٧)؟! واستغل الرافضة هذه الحادثة أبشع استغلال ، فأشاعوا: أن عثمان رضي الله عنه نفى أبا ذرٍّ إلى الرِّبذة ، وأن ذلك مما عيب عليه من قبل الخارجين عليه ، أو أنَّهم سوَّغوا الخروج عليه^(٨) ، وعاب عثمان رضي الله عنه بذلك ابن المطهر الحلبي الشيعي المتوفى سنة ٧٢٦ هـ ، بل زاد: أن عثمان رضي الله عنه ضرب أبا ذرٍّ ضرباً وجيعاً ، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ردّاً جامعاً قوياً^(٩) ، وكان سلف هذه الأمة يعلمون هذه الحقيقة ، فإنَّه لما قيل

(١) فتح الباري ، (٣/٢٧٢).

(٢) تاريخ المدينة ، ابن شبة ، (ص ١٠٣٧) ، إسناده صحيح .

(٣) فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١/١١٠).

(٤) تاريخ المدينة ، (ص ١٠٣٦-١٠٣٧) ، إسناده حسن .

(٥) الطبقات ، لابن سعد (٤/٢٢٦-٢٢٧).

(٦) فتنة مقتل عثمان (١/١١١).

(٧) المصدر السابق نفسه .

(٨) فتنة مقتل عثمان (١/١١١).

(٩) منهاج السنة ، لابن تيمية (٦/١٨٣).

للحسن البصري: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا ، معاذ الله^(١).

وكان ابن سيرين إذا ذُكر له: أنَّ عثمان رضي الله عنه سيّر أبا ذر ، أخذه أمرٌ عظيم ، ويقول: هو خرج من نفسه ، ولم يسيّره عثمان^(٢) ، وكما تقدم في الرواية الصحيحة الإسناد: أنَّ أبا ذر رضي الله عنه لمّا رأى كثرة النَّاس عليه خشي الفتنة ، فذكر ذلك لعثمان كأنه يستأذنه في الخروج ، فقال له عثمان رضي الله عنه: إن شئت تنحيت ، فكنت قريباً^(٣).

كما أنَّ أبا ذر رضي الله عنه لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيد بآراء عبد الله بن سبأ اليهودي ، وقد أقام بالربذة حتى توفي ، ولم يحضر شيئاً مما وقع في الفتن^(٤) ، ثمَّ قد روى حديثاً من أحاديث النَّهي عن الدخول في الفتنة^(٥).

وبعد وفاة أبي ذر رضي الله عنه ضمَّ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه عياله إلى عياله^(٦) ، ف رضي الله عن جميع الصحابة الأبرار ، الطيبين الأطهار.

١١ - اتهم عثمان رضي الله عنه بإعطاء أقاربه من بيت المال:

اتَّهم عثمان رضي الله عنه من قبل الغوغاء ، والخوارج بإسرافه في بيت المال ، وإعطائه أكثره لأقاربه ، وقد ساند هذا الاتِّهام حملة دعائية باطلة قادها أعداء الإسلام ضده ، وتسرَّبت في كتب التاريخ ، وتعامل معها بعض المفكرين ، والمؤرخين على كونها حقائق ، وهي باطلة لم تثبت ، لأنها مختلقة ، والذي ثبت من إعطائه أقاربه أمور تعد من مناقبه ، لا من المثالب فيه^(٧).

إن عثمان رضي الله عنه كان ذا ثروة عظيمة ، وكان وصولاً للرحم^(٨) يصلهم بصلات كثيرة وفيرة ، فنقم عليه أولئك الأشرار ، وقالوا بأنَّه إنما كان يصلهم من بيت المال ، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقال: إني أحبُّ أهل بيتي ، وأعطيتهم . فأما حُبِّي لهم؛ فإنَّه لم يمل معهم إلى جور ، بل أحمل الحقوق عليهم . . وأما إعطاؤهم ، فإني إنَّما أعطيتهم من مالي ، ولا استحلُّ أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس ، وقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرِّعية

(١) تاريخ المدينة (١٠٣٧) إسناده صحيح.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) البخاري ، كتاب الزكاة ، رقم (١٤٠٦).

(٤) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة في ضوء قواعد الجرح والتعديل ، (ص ١٧٤).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) تاريخ الطبري (٣١٤/٥).

(٧) عثمان بن عفان ، للصلاحي ، (ص ١٤٨).

(٨) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، (ص ٨٢).

من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر ، وأنا يومئذ شحيح حريص ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي^(١) ، وفني عمري ، وودّعت الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا؟!^(٢).

وكان عثمان قد قسم ماله ، وأرضه في بني أمية ، وجعل ولده كبعض من يعطي ، فبدأ ببني أبي العاص ، فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف ، فأخذوا مئة ألف ، وأعطى بني عثمان مثل ذلك ، وقسم في بني العاص ، وفي بني العيص ، وفي بني حرب^(٣) ، فهذه النصوص وغيرها ممّا اشتهر عنه ، وما صحّ من الأحاديث في فضائله الجمة تدل على ما قيل فيه من إسرافه في بيت المال ، وإنفاق أكثره على أقاربه وقصوره ؛ حكايات بدون زمام ، ولا خطام^(٤).

إن سيرة عثمان رضي الله عنه في أقاربه تمثّل جانباً من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة ، لقوله تعالى : ﴿ وَآتَاكَ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦] ، كما أنّها تمثّل جانباً عملياً من سيرة المصطفى ﷺ ، فقد رأى عثمان رضي الله عنه من رسول الله ﷺ وعلم من حاله ما لم يرَ ، أو يعلم غيره من منتقديه ، وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة النَّاسِ ، وكان ممّا رأى شدّة حبّ رسول الله ﷺ لأقاربه وبرّه لهم ، وإحسانه إليهم ، وقد أعطى عمّه العبّاس ما لم يعط أحداً عندما ورد عليه مال البحرين^(٥) ، ولعثمان وسائر المؤمنين في رسول الله ﷺ أعظم القدوة^(٦).

وقد ردّ ابن تيمية - رحمه الله - على من اتّهم عثمان بتفضيله أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال ؛ فقال : وكان يؤثّر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال ؛ حتّى إنّه دفع إلى أربعة نفر من قریش زوّجهم بناته أربعمئة ألف دينار ، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار - مليون دينار - . فالجواب يقال : أين النقل الثابت بهذا؟ . نعم كان يعطي أقاربه ، ويعطي غير أقاربه أيضاً ، وكان يحسن إلى جميع المسلمين ، وأمّا هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت ، ثم يقال ثانياً : هذا من الكذب البين ، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ^(٧).

(١) جاوزت أعمارهم .

(٢) تاريخ الطبري (٣٥٦/٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، (ص ٨٣) .

(٥) البخاري ، كتاب الجزية .

(٦) البداية والنهاية (٢٠١/٧) .

(٧) منهاج السنة (١٩٠/٣) .

١٢ - هل عين عثمان رضي الله عنه أحداً من أقربائه على حساب المسلمين ؟ :

لم يكن عثمان رضي الله عنه عين أحداً من أقاربه على حساب المسلمين ، ولو أراد أن يجامل أحداً من أقاربه على حساب المسلمين لكان ربيبه محمد بن أبي حذيفة أولى الناس بهذه المجاملة ، ولكنَّ الخليفة أبي أن يوليه شيئاً ليس كفوّاً له بقوله : يا بنيّ لو كنت رضاءً ثمّ سألتني العمل ، لاستعملتك ، ولكن لست هناك ^(١) . ولم يكن ذلك كراهية له ، ولا نفوراً منه ، وإلا لما جهّزه من عنده ، وحمله ، وأعطاه حين استأذن في الخروج إلى مصر ^(٢) .

وأما استعمال الأحداث فكان لعثمان رضي الله عنه في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ؛ فقد جهّز جيشاً لغزو الرُّوم في آخر حياته ، واستعمل عليه أسامة بن زيد ، رضي الله عنهما ^(٣) ، وعندما توفيَّ الرسول ﷺ تمسَّك الصديق رضي الله عنه بإنفاذ هذا الجيش ، لكنَّ بعض الصحابة رغبوا في تغيير أسامة بقائد أحسن منه ، فكلّموا عمر في ذلك ليكلّم أبا بكر ، فغضب أبو بكر لمّا سمع هذه المقالة ، وقال لعمر : يا عمر استعمله رسول الله ﷺ ، وتأمرني أن أعزله ؟! ^(٤) . ويجيب عثمان بنفسه على هذه المآخذ أمام الملائ من الصحابة بقوله : ولم أستعمل إلا مجتمعاً ، محتلماً ، مرضياً ، وهؤلاء أهل عملهم ، فسلوهم عنهم ، وهؤلاء أهل بلدهم وقد ولّيت من قبلي أحدث منهم ، وقيل لرسول الله ﷺ ممّا قيل لي في استعماله لأسامة ، أكذلك؟ قالوا: نعم ، يعيرون للنّاس ما لا يفسرون ^(٥) .

ويقول عليّ رضي الله عنه : ولا يولّي - أي : عثمان - إلا رجلاً سوياً ، عدلاً ، وقد ولّيت رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكّة وهو ابن عشرين سنة ^(٦) .

ولم يكن ولاية الأمصار في عهد عثمان رضي الله عنه جاهلين بأمر الشّرع ، ولم يكونوا من المفرّطين في الدّين ، وإذا كانت لهم ذنوب ، فلهم حسنات كثيرة ، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء تعود عليهم ولم يكن لها تأثير في المجتمع المسلم ، وقد تتبعنا آثار هؤلاء الولاية أيّام ولايتهم ، ووجدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمين ، وقد اهتدى على يدي ولاية عثمان مئات الألوف إلى الإسلام ، وبسبب فتوحاتهم انضمّ إلى ديار الإسلام أقاليم واسعة ، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة ، والدّين ما يحثهم على الجهاد ، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد ،

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٢٤٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه (١/٢٤٧)؛ تاريخ الطبري (٥/٤١٦) .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٢٤٧)؛ تاريخ الطبري (٥/٤١٦) .

(٤) تاريخ الطبري (٥/٤١٦) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٥/٣٥٥) .

(٦) البداية والنهاية (٧/١٧٨) .

وفيه مظنة الهلاك ، وفيه ترك الراحة ومتاع الدنيا ، وقد تتبعت سيرة هؤلاء الولاة ، فوجدت لكل واحد منهم فتحاً ، أو فتوحاً في الجهات التي تجاور ولايته ، مع مناقب وصفات حسنة تؤهله للقيادة ، وقد فصلت في كتابي عن عثمان رضي الله عنه في مبحث مستقل حقيقة ولاية عثمان^(١) رضي الله عنه .

إن الذي يرجع إلى الصحيح الممّخص من وقائع التاريخ ، ويتتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين ذو النورين - رضي الله عنهم - وما كان لجهادهم من جميل الأثر في تاريخ الدعوة الإسلامية ، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج في هناء الأمة ، وسعادتها ، فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الجهر بالإعجاب ، والفخر كلما أمعن في دراسة ذلك من أدوار التاريخ الإسلامي^(٢) .

إن عثمان رضي الله عنه وولاه انشغلوا بمداغة الأعداء ، وجهادهم ، وردّهم ، ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية ، ومدّ نفوذها في مناطق جديدة ، وقد كان للولاة تأثير مباشر في أحداث الفتنة ؛ حيث كانت التهمة موجهة إليهم ، وأنّهم اعتدوا على الناس ، ولكننا لم نلمس حوادث معينة يتّضح فيها هذا الاعتداء المزعوم ، والمشاع ، كما أنّهم عثمان بتولية أقاربه ، وقد دحضنا تلك الفرية ، وهكذا نرى : أنّ عثمان لم يألُ جهداً في نصّح الأمة ، وفي تولية من يراه أهلاً للولاية ، ومع هذا لم يسلم عثمان ، وولاه من اتهامات وجهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة في حينها .

كما أن عثمان رضي الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين في كتاباتهم غير المحقّقة عن عهد عثمان ، وخصوصاً الباحثين المحدثين الذين يطلقون أحكاماً لا تعتمد على التحقيق ، أو على وقائع محددة ، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة ، فقد تورّط الكثير منهم في الروايات الضعيفة ، وبنوا أحكاماً باطلة وجائرة في حق الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، مثل : طه حسين في كتابه : الفتنة الكبرى ، وراضي عبد الرحيم في كتابه : النظام الإداري والحربي ، وصبحي الصالح في كتابه : النظم الإسلامية ، ومولوي حسين في كتابه : الإدارة العربية ، وصبحي محمصاني في كتابه : تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء ، وتوفيق اليوزبكي في كتابه : دراسات في النظم العربية والإسلامية ، ومحمد الملحم في كتابه : تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري ، وبدوي عبد اللطيف في كتابه : الأحزاب السياسية في فجر الإسلام ، وأنور الرّفاعي في كتابه : النظم الإسلامية ، ومحمد الرّيس في كتابه : النظريات السياسية ، وعلي حسني الخربوطلي في كتابه : الإسلام والخلافة ، وأبي الأعلى المودودي في

(١) عثمان بن عفان ، للصلاحي ، (ص ٢٩٤) .

(٢) حاشية المنتقى من منهاج الاعتدال ، (ص ٣٩٠) .

كتابه: الملك والخلافة ، وسيد قطب في كتابه: العدالة الاجتماعية ، وغيرهم^(١) .
ولقد أكثر المؤرخون من الحديث عن محابة عثمان أقاربه ، وسيطرتهم على أزمة الحكم في عهده ، حتى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس ، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوي قرباه في شؤون الدولة^(٢) ، وأقارب عثمان الذين ولاهم رضي الله عنه أولهم معاوية بن أبي سفيان ، والثاني عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، والثالث الوليد بن عقبة ، والرابع سعيد بن العاص ، والخامس عبد الله بن عامر ، هؤلاء خمسة ولاهم عثمان ، وهم من أقاربه ، وهذا في زعمهم مطعن عليه ، فلو أخذنا إحصائية لوجدنا: أن عدد الولاة في عهد عثمان ستة وعشرون والياً ، ألا يصح أن يكون خمسة من بني أمية يستحقون الولاية وبخاصة إذا علمنا: أن النبي ﷺ كان يولي بني أمية أكثر من غيرهم؟! علماً بأن هؤلاء الولاة لم يكونوا كلهم في وقت واحد ، بل كان عثمان رضي الله عنه ولي الوليد بن عقبة ، ثم عزله ، فولى مكانه سعيد بن العاص ، فلم يكونوا خمسة في وقت واحد ، ولم يتوف عثمان إلا وقد عزل أيضاً سعيد بن العاص ، فعندما توفي عثمان لم يكن من بني أمية من الولاة إلا ثلاثة وهم: معاوية ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وعبد الله بن عامر بن كريز فقط ، عزل عثمان الوليد بن عقبة ، وسعيد بن العاص ، ولكنه عزلهما من أين؟ من الكوفة التي عزل منها عمر سعد بن أبي وقاص ، الكوفة التي لم ترض بوال أبدأ؛ إذ عزل عثمان رضي الله عنه لأولئك الولاة لا يعتبر مطعناً فيهم ، بل هو مطعن في أهل الشعب في المدينة التي وُلوا عليها^(٣) .

إن بني أمية كان رسول الله ﷺ يستعملهم في حياته ، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة فيهم أبو بكر ، وعمر ، رضي الله عنهما ، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس! لأنهم كانوا كثيرين وكان فيهم شرف وسؤدد ، فاستعمل النبي ﷺ عتاب بن أسيد بن أبي العاص على مكة ، وأبا سفيان بن حرب على نجران ، وخالد بن سعيد على صدقات بني مذحج ، وأبان بن سعيد على بعض السرايا ثم على البحرين ، فعثمان رضي الله عنه لم يستعمل إلا من استعمله النبي ﷺ ، ومن جنسهم ، وقبيلتهم ، وكذلك أبو بكر وعمر بعده؛ فقد ولي أبو بكر يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام ، وأقره عمر ، ثم ولي عمر بعده أخاه معاوية^(٤) .

والسؤال الذي يطرح نفسه: أثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا؟ والحقيقة العلمية التي أثبتتها في

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢٢٢ إلى ٢٣٢).

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٥٩).

(٣) حقبة من التاريخ ، (ص ٧٥).

(٤) منهاج السنة (٣/ ١٧٦ ، ١٧٥).

كتابي عن عثمان رضي الله عنه بأن ولاية عثمان أثبتوا كفاءتهم ، فالولاية الذين ولاهم عثمان رضي الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة في إدارة شؤون ولاياتهم ، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان ، وساروا في الرعية سيرة العدل والإحسان^(١).

فمثلاً معاوية رضي الله عنه كانت سيرته مع الرعية في ولايته من خير سير الولاية ، ممّا جعل الناس يحبونه ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال : «خيار أئمتكم - حكامكم - الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، وتصلون عليهم - تدعون لهم - ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ، ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم»^(٢).

وقد بين القاضي ابن العربي وأثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه ، وأن سند ولايته الأعمال في الدولة الإسلامية لم يكن لأحد قبله ، ولم يكن لأحد بعده ، حيث اجتمع على توليته : رسول الله ﷺ ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة ، ثم صالحه وأقر له بالخلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما^(٣).

١٣ - أسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه :

قال الزهري : ولي عثمان اثنتي عشرة سنة أميراً للمؤمنين ، أول ست سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئاً ، وإنّه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب ، لأنّ عمر كان شديداً عليهم ، أمّا عثمان ، فقد لان لهم ، وَوَصَلَهُمْ ، ثم حدثت الفتنة بعد ذلك ، وقد سمى المؤرّخون المسلمون الأحداث في النّصف الثاني من ولاية عثمان ٣٠ - ٣٥ هـ (الفتنة) ، التي أدّت إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه^(٤) ، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر ، وعمر ، وصدر من خلافة عثمان ، متّفقين ، لا تنازع بينهم ، ثم حدثت في أواخر خلافة عثمان أمور ، أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان ، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان^(٥) ، وكان المجتمع الإسلامي في خلافة الصديق ، والفاروق ، والنّصف الأوّل من خلافة عثمان يتّصف بالسّمات الآتية :

أ - أنه - في عمومه - مجتمع مسلم بكل معنى الإسلام ، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر ،

(١) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/٤١٧).

(٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، رقم (٦٥).

(٣) العواصم من القواصم ، (ص ٨٢).

(٤) طبقات ابن سعد (١/٣٩-٤٧) ؛ الخلفاء الراشدون للخالدي ، (ص ١١٢).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/٢٠).

مطبق الإسلام بجدية واضحة ، والتزام ظاهر ، وبأقل قدر من المعاصي وقع في أي مجتمع في التاريخ .

ب - أنه المجتمع الذي تحقّق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقيّ للأمة بمعناها الرّباني ، فهي الأمة التي تربط بينها رابطة العقيدة ، بصرف النظر عن اللغة ، والجنس ، واللّون ، ومصالح الأرض القريبة ، وهذه لم تتحقّق في التاريخ كما تحقّقت في الأمة الإسلامية .

ج - أنه مجتمع أخلاقيّ يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين ، وتوجيهاته .

د - أنه مجتمع جادّ ، مشغول بمعالي الأمور لا بسفاسفها ، وليس الجدّ بالضرورة عبوساً ، وصرامة ، ولكنه روح تبعث الهمة في الناس ، وتحثّ على النشاط ، والعمل ، والحركة .

هـ - أنه مجتمع مجتهد للعمل ، في كلّ اتجاه ، تلمس فيه روح الجندية واضحة لا في القتال في سبيل الله فحسب ، ولكن في جميع الاتجاهات ، فهو معبأً من تلقاء نفسه بدافع العقيدة وبتأثير شحنتها الدافعة لبذل النشاط في كلّ اتجاه^(١) .

و - أنه مجتمع متعبّد نلمس فيه روح العبادة واضحة في تصرفاته ليس فقط في أداء الفرائض ، والتطوّع بالتّوافل ابتغاء مرضات الله ، ولكن في أداء الأعمال جميعاً ، والعمل في حسّه عبادةً ، يؤدّيه بروح العبادة^(٢) .

هذه من أهم صفات عهد الخلفاء الراشدين - بصفة عامة - إلا أن تلك السّمات كانت أقوى كلّما اقتربنا من عهد النبوة ، وتضعف كلّما ابتعدنا عن عصر النّبوة ، وقد بدأ التّغير على عهد الخلافة الراشدة مع ظهور فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه ، وكان لظهور هذه المحنة العظيمة التي مرت بها الأمة أسباب ؛ منها :

أ - الرّخاء وأثره في المجتمع :

وغنيّ عن الإشارة : أنّ النّعم ، والخيرات ، وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع ، إذ تجلب الرّخاء وما يترتّب عليه من انشغال النّاس بالدُّنيا ، والافتتان بها ، كما أنّها مادة للتنافس ، والبغضاء خاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان نفوسهم ، ولم تهذبهم التّقوى من أعراب البادية ، وجفاتها ، ومن مسلمة الفتوحات ، وأبناء الأمم المترفة ، وقد أدرك عثمان رضي الله عنه هذه الظاهرة وأنذر بما سيؤول إليه أمر الأمة من التبدّل والتغيّر في كتابه

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ، (ص ١٠٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٠٢) .

الموجه إلى الرعية: فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثة فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن^(١).

وحدث ما توقعه عثمان رضي الله عنه، وبدأ أثر التغير يظهر أولاً على أطراف الدولة الإسلامية، ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، مما دفع عثمان رضي الله عنه، إلى تذكير المسلمين في خطبه بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا، وحطامها، فكان مما قاله في إحدى خطبه: إن الله إنما أعطاكم الدنيا، لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها، لتركنوا إليها، إن الدنيا تفسى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، ... واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً^(٢)، ثم قرأ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا نَفَرُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣ - ١٠٤].

وفي مثل هذه الظروف، والخيرات، فاضت الدنيا على المسلمين وتفرغ الناس بعد أن فتحوا الأقاليم واطمأنوا، فأخذوا ينقمون على خليفتهم^(٣). ومن هنا يُعلم أثر الرخاء في تحريك الفتنة، ومن هنا أيضاً يمكن فهم مقالة عثمان رضي الله عنه لعبد الرحمن بن ربيعة - له صحبة - وهو على الباب^(٤): إن الرعية قد أبتر كثيراً منهم البطنة، فقصر بهم، ولا تقتحم بالمسلمين، فإنني خاش أن يبتلوا^(٥).

ب - طبيعة التحول الاجتماعي في عهد عثمان رضي الله عنه:

حدثت تغيرات اجتماعية عميقة، ظلت تعمل في صمت وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجر بدءاً من النصف الثاني من خلافة عثمان، بلغت قمة فورانها في التمرّد الذي أدى إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه^(٦).

ولما توسّعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح، حصل تغير في تركيبة المجتمع،

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٢٤٥).

(٢) أحداث وأحاديث الهرج، (ص ٥٦٧).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/ ٣٦٢).

(٤) المقصود بالباب: منطقة في جهة أذربيجان. معجم البلدان (١/ ٣٠٣).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٦٢).

(٦) الدولة الأموية المفترى عليها، (ص ١٦٦).

والاختلالات في نسيجه ، لأنَّ هذه الدَّولة بتوسُّعها المكانيِّ ، والبشريِّ ، ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس ، وألوان ولغات ، وثقافات ، وعادات ، ونظم ، وأفكار ، ومعتقدات ، وفنون أدبية ، وعمرانية ، ومظاهر ، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة ، وخروقات غير منتظمة ، كما صيَّرت المجتمع غير متجانس في نسيجه التَّركيبيِّ ، وبالذات في الأمصار الكبرى المؤثِّرة: البصرة ، الكوفة ، والشَّام ، ومصر ، والمدينة ومكة ، فقد كانت الأمصار الكبيرة - بمواقعها وأهميتها - تدفع بجيوش الفتوح ، وتستقبلها وهي عائدة ، وقد نقص عددها بالموت والقتل ، وتستقبل بدلاً عنهم أو أكثر منهم أعداداً وفيرة من أبناء المناطق المفتوحة: فرس ، وترك ، وروم ، وقبط ، وكرد ، وبربر ، وكان أكثرهم من الفرس ، أو النَّصارى العرب ، أو غيرهم ، أو من اليهود^(١) ، وأكثر سكان هذه الأمصار الكبيرة هم ممَّن شاركوا في حركة الفتح الإسلامي ثم استقروا في هذه الأمصار ، وكان أغلب هؤلاء من القبائل العربيَّة من جنوبها ، وشمالها ، وشرقها ، والذين لم يكونوا - عادة - من الصَّحابة ، وبمعنى أدق: ليسوا ممَّن تلقَّوا التَّربية الكافية على يد رسول الله ﷺ أو على أيدي الجيل الأوَّل من الصحابة ، إمَّا لانشغالهم بالفتوح ، أو لقلَّة الصحابة .

وقد حصلت تغيراتٌ في نسيج المجتمع البشريِّ المكوَّن من الجيل السَّابقين ، وسكَّان البلاد المفتوحة ، والأعراب ، ومن سبقت لهم ردَّة ، واليهود ، والنَّصارى ، وفي تكوين نسيج المجتمع الثَّقافي ، وفي بسطة عيش المجتمع ، وفي ظهور لون جديد من الانحرافات ، وفي قبول الشائعات^(٢) .

ج - ظهور جيل جديد :

فقد حدث في المجتمع تغيُّر أكبر ، ذلك : أن جيلاً جديداً من الناس ظهر ، وأخذ يحتل مكانه في المجتمع ، وهو غير جيل الصحابة ، جيل يعيش في العصر غير الذي كانوا يعيشون فيه ، ويتَّصف بما لا يتَّصفون به ، فهو جيل^(٣) يعتبر في مجموعه أقلَّ من الجيل الأوَّل الذي حمل على كتفه عبء بناء الدَّولة ، وإقامتها ، فقد تميَّز الجيل الأوَّل من المسلمين بقوة الإيمان ، والفهم السَّليم لجوهر العقيدة الإسلاميَّة ، والاستعداد التَّام ، لإخضاع النَّفس لنظام الإسلام المتمثِّل في القرآن والسُّنة ، وكانت هذه الميَّزات أقلَّ ظهوراً في الجيل الجديد الذي وُجد نتيجة للفتوحات الواسعة ، وظهرت فيه المطامع الفرديَّة ، وبُعُثت فيه العصبيَّة للأجناس ، والأقوام ، وبعضهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهليَّة التي كانوا عليها ولم ينالوا من التربية الإسلاميَّة على

(١) دراسات في عهد النبوة ، (ص ٣٧٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٣٨٠) .

(٣) الدولة الأموية ، يوسف العش ، (ص ١٣٢) .

العقيدة الصحيحة السليمة مثل ما نال الرّاعيل الأوّل من الصّحابة رضي الله عنهم على يد رسول الله ﷺ ، وذلك لكثرتهم ، وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوحات الجديدة^(١) ، فالصّحابة كانوا أقلّ فتناً من سائر من بعدهم ، فإنّه كلما تأخّر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف^(٢) ، ووجد دعاة الفتنة في المنحرفين من الجيل الجديد بغيتهم .

د- استعداد المجتمع لقبول الشائعات :

ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس في نسيج المجتمع : أنه صار مهياً للهزّات ، مستعدّاً للاضطراب ، قابلاً لتلقّي الإذاعات ، والأقاويل والشائعات^(٣) ، ولهذا لما كان الناس في خلافة أبي بكر وعمر - اللذين أمر المسلمون بالاعتداء بهما ، كما قال رسول الله ﷺ : «اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر ، وعمر» - أقرب عهداً بالرّسالة ، وأعظم إيماناً ، وصلاحاً ، وأئمتهم أقوم بالواجب ، وأثبت في الطمأنينة ؛ لم تقع فتنة ، إذ كانوا في حكم القسط ، أي : النفوس المطمئنة^(٤) .

ولما كان في آخر خلافة عثمان ، وخلافة عليّ ، كثر أهل النفس اللّوامة التي تخلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً ، فصار فيهم شهوة ، وشبهة مع الإيمان ، والدّين ، وصار ذلك في بعض الولاة ، وبعض الرّعايا ، ثمّ كثر هذا القسم ، الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدّم من عدم تمحيص التّقوى ، والطّاعة في الطّرفين ، واختلاطهما بنوع من الهوى ، والمعصية في الطّرفين ، وكلّ منهم متأوّل أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأنّه مع الحقّ ، والعدل ، ومع هذا التأويل نوع من الهوى ، ففيه من الظنّ ، وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحقّ من الأخرى^(٥) ، ويوضّح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذي دار بين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، وأحد أتباعه ، قال الرّجل : ما بال المسلمين اختلفوا عليك ، ولم يختلفوا على أبي بكر ، وعمر؟ قال عليّ : لأنّ أبا بكر ، وعمر كانا واليين على مثلي ، وأنا اليوم والٍ على مثلك^(٦) .

وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان مدركاً لما يدور في وسط المجتمع ؛ حيث قال في رسالته إلى الأمراء : أمّا بعد ، فإن الرّعيّة قد طعنت في الانتشار ، ونزعت إلى الشرّ ، وأعدّوها على

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٣٥٦) .

(٢) ذو النورين عثمان بن عفان ، مال الله ، (ص ٩٩) .

(٣) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، (ص ٣٨٢) .

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/١٤٩) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٢٨/١٤٩) .

(٦) مقدمة ابن خلدون ، (ص ١٨٩) .

ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة ، وأهواء مسرعة ، وضغائن محمولة ، يوشك أن تنفر ، فتغير^(١).

هـ- مجيء عثمان بعد عمر ، رضي الله عنهما :

كان مجيء عثمان رضي الله عنه مباشرة بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه واختلاف الطبع بينهما مؤدياً إلى تغيير أسلوبهما في معاملة الرعية ، فبينما كان عمر قوي الشكيمة ، شديد المحاسبة لنفسه ، ولمن تحت يديه ، كان عثمان ألين طبعاً وأرق في المعاملة ، ولم يكن يأخذ نفسه ، أو يأخذ الناس بما يأخذ به عمر حتى يقول عثمان لنفسه : يرحم الله عمر ، ومن يطبق ما كان عمر يطبق؟!^(٢) لكن الناس ، وإن رغبوا في الشوط الأول من خلافته ، لأنه لا معهم ، وكان عمر رضي الله عنه شديداً عليهم حتى أصبحت محبته مضرب المثل ، فقد أنكروا عليه بعد ذلك ، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان في لطفه ، ولين عريكته ، ورقة طبعه ، ودماثة خلقه ، مما كان له بعض الأثر في مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده ، وعهد سلفه عمر بن الخطاب ، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم : أتدرون ما جرأكم علي؟ ما جرأكم علي إلا حلمي^(٣).

وحين بدت نوايا الخارجين وقد ألزمهم عثمان الحجة في رده على المآخذ التي أخذوها عليه أمام الملاء من الصحابة والناس ، أبى المسلمون إلا قتلهم ، وأبى عثمان إلا تركهم ، لحلمه ، ووداعته قائلاً : بل نفعو ، ونقبل ، ولنبرهم بجهدنا ، ولا نحاذ أحداً حتى يركب حداً ، أو يبدي كفر^(٤).

و- خروج كبار الصحابة من المدينة :

كان عمر رضي الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن ، وأجل ، فشكوه ، فبلغه ، فقام ، فقال : ألا إنني قد سننت الإسلام سنّ البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنيّاً ، ثم رباعياً ، ثم سدسياً ، ثم بازلاً^(٥) ، فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد بزل ، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادته ، ألا فأما وابن الخطاب حيّ فلا ، إني قائم دون شعب الحرّة ، آخذ بحلاقيم^(٦) قريش ، وحجّزها أن يتهافتوا في النار^(٧).

(١) التمهيد والبيان ، (ص ٦٤).

(٢) تاريخ الطبري (٤١٨/٥).

(٣) المصدر السابق نفسه (٢٥٠/٥).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (١/٣٦٤).

(٥) البازل : الذي انشق نابه بدخوله في التاسعة .

(٦) الحلاقيم : جمع حلقوم .

(٧) تاريخ الطبري (٤١٣/٥).

لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصَّحابة من انتشارهم في البلاد المفتوحة ، وتوسُّعهم في القطاع والضِّياع ؛ فكان يأتيه الرَّجل من المهاجرين ، وهو ممَّن حبس في المدينة ، فيستأذنه في الخروج ، فيجيبه عمر : لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك ، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدُّنيا ، ولا تراك^(١) ، وأمَّا عثمان فقد سمح لهم بالخروج ، ولأن معهم .

ز- العصبية الجاهلية :

يقول ابن خلدون : لما استكمل الفتح ، واستكمل للملَّة الملك ، ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة ، والكوفة ، والشَّام ، ومصر ، وكان المختصُّون بصحبة الرُّسول ﷺ والافتداء بهديه ، وآدابه : المهاجرين والأنصار ، وقريش ، وأهل الحجاز ، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم ، وأمَّا سائر العرب من بني بكر بن وائل ، وعبد القيس ، وسائر ربيعة ، والأزد ، وكندة ، وتميم ، وقضاعة ، وغيرهم فلم يكونوا في تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم . وكانت لهم في الفتوحات قدم ، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السَّابقة ، ومعرفة حقِّهم ، وما كانوا فيه من الذهول ، والدَّهش لأمر الثُّبوة ، وتردُّد الوحي ، وتنزل الملائكة ، فلَمَّا انحصر ذلك العباب ، وتنوسي الحال بعض الشيء ، وذل العدوُّ ، واستفحل الملك ، كانت عروق الجاهليَّة تنبض ، ووجدوا الرِّئاسة عليهم من المهاجرين ، والأنصار ، وقريش ، وسواهم ، فأنفَت نفوسهم منه ، ووافق ذلك في أيَّام عثمان ، فكانوا يظهرن الطعن في ولاته بالأمصار ، والمؤاخذه لهم باللَّحظات ، والخطوات ، والاستبطاء عليهم بالطاعات ، والتَّجنيُّ بسؤال الاستبداد منهم ، والعزل ويفضون في التَّكثير على عثمان ، وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم ، وتناولوا بالظُّلم في جهاتهم ، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصَّحابة بالمدينة ، فارتابوا ، وأفاضوا في عزل عثمان ، وحمله على عزل أمرائه ، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر . . فرجعوا إليه فقالوا : ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامُّهم^(٢) .

ح- توقُّف الفتوحات بسبب حواجز طبيعية أو بشرية :

حين توقَّفت الفتوح في أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها ، سواء في جهات فارس ، وشمال بلاد الشَّام ، أو في جهة إفريقية ، توقفت الغنائم على أثرها ، فتساءل الأعراب : أين ذهبت الغنائم القديمة ؟ أين ذهبت الأراضي المفتوحة التي يعدونها حقاً

(١) المصدر السابق نفسه (٥/ ٤١٤) .

(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٧٧) .

من حقوقهم^(١) ، وانتشرت الشائعات الباطلة التي اتهمت عثمان رضي الله عنه بأنه تصرف في الأراضي الموقوفة على المسلمين وفق هواه ، وأنه أقطع منها لمن شاء من الناس ، وقد كان لها أثر ، ووقع على الأعراب ، وخاصة وأن معظمهم بقي بدون عمل يقضون شطراً من وقتهم في الطعام والنوم ، والخطر الآخر بالخوض في سياسة الدولة ، والحديث عن تصرفات عثمان التي كانت تهوّلها السبئية ، وقد أدرك أحد عمّال عثمان هذا الأمر ، وهو عبد الله بن عامر ، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله - وهم وزراءه ، ونصحاؤه - أن يجتهدوا في آرائهم ، ويشيروا عليه ، فأشار عليه أن يأمر الناس بالجهاد ويجمهرهم في المغازي حتّى لا يتعدّى همّ أحدهم قمل فروة رأسه ، ودبرة دابته^(٢) .

وفي ذلك الجو من الحديث ، والفكر عند أفراد تعوّدوا الغزو ، ولم يفقهوا من الدين شيئاً كثيراً ؛ يمكن أن يتوقع كلّ سوء ، ويكفي أن يحرك هؤلاء الأعراب ، وأن يؤجّجوا توجيهاً ، فإذا هم يثورون ، ويحدثون القلاقل والفتن ، وهذا ما حدث بالفعل ، فإنّ الأعراب - بسبب توقف الفتوحات - ساهموا في بؤاد الفتنة الأولى ، وكان سبباً من أسباب اندلاعها^(٣) .

ط - المفهوم الخاطي للورع بتحريم الحلال :

الورع في الشريعة طيّبٌ ، وهو أن يُترك ما لا بأس به ، مخافة ممّا فيه بأس ، وهو في الأصل ترفع عن المباحات في الله ، والله ، والورع شيء شخصي يصحّ للإنسان أن يطالب به نفسه ، ولكن لا يصح أن يطالب به الآخرين ، ومن أخطر أنواع الورع : الورع الجاهل الذي يجعل المباح حراماً ، أو مفروضاً ، وهذا الذي وقع فيه أصحاب الفتنة^(٤) ، فقد استغلّ أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه ، ونفخوا فيها ، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحات ، أو المصالح خروجاً على الإسلام ، وتغييراً لسنة من سبقه ، وعظمت هذه المسائل في أعين الجهلة ، فاستباحوا - أو أعانوا من استباح - دم الخليفة الراشد عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم^(٥) .

ي - ظهور جيل جديد من الطامحين :

وجد في الجيل الثاني من أبناء الصحابة رضي الله عنهم من يعتبر نفسه جديراً بالحكم

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٤٤) .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٤٠) .

(٣) تحقيق موقف الصحابة في الفتنة (١/ ٣٥٣) .

(٤) الأساس في السنة (٤/ ١٦٧٦) .

(٥) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، (ص ٥١٧) .

والإدارة ، ووجد أمثال هؤلاء أنَّ الطريق أمامهم مغلق ، وفي العادة أنه متى وجد الطامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفساً ، فإنَّهم يدخلون في كل عملية تغيير ، ومعالجة أمر هؤلاء في غاية الأهمية^(١).

ك- وجود طائفة موتورة من الحاقدين :

لقد دخل في الإسلام منافقون موتورون اجتمع لهم من الحقد والذكاء والدَّهاء ، ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضَّعف التي يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة ، ووجدوا من يستمع إليهم بأذان صاغية ، فكان من آثار ذلك ما كان^(٢) ، فقد عرفنا سابقاً وجود يهود ، ونصارى ، وفرس ، وهؤلاء جميعاً معروف باعث غيظهم ، وحقدهم على الإسلام ، والدولة الإسلامية .

ولكننا هنا نضيف من وقع عليه حدُّ أو تعزيز لأمر ارتكبه في وسط الدولة ، وعاقبه الخليفة ، أو ولاته في بعض الأمصار وبالذات البصرة ، والكوفة ، ومصر ، والمدينة ، فاستغلَّ أولئك الحاقدون من يهود ، ونصارى ، وفرس ، وأصحاب الجرائم مجموعات من الناس كان معظمهم من الأعراب ، ممَّن لا يفقهون هذا الدِّين على حقيقته ، فتكوَّنت لهؤلاء جميعاً طائفة ، وصفت من جميع من قابلهم بأنَّهم أصحاب شرٍّ ، فقد وُصفوا بالغوغاء من أهل الأمصار ، ونزاع القبائل ، وأهل المياه ، وعبيد المدينة^(٣) ، وبأنَّهم ذُوبان العرب^(٤) ، وأنَّهم حثالة النَّاس ومُتَّفِقون على الشرِّ^(٥) ، وسفهاء عديمو الفقه^(٦) ، وأرذال من أوباش القبائل^(٧) ، فهم أهل جفاء ، وهمج ، ورعاع من غوغاء القبائل ، وسفلة الأطراف الأراذل^(٨) ، وأنَّهم آلة الشيطان^(٩) ، وقد تردَّد في المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصَّنْعاني اليهوديَّ ضمن هؤلاء الموتورين الحاقدين ، وأنه كان من اليهود ، ثمَّ أسلم ، ولم يُنْقَب أحد عن نواياه ، فتنقَّل بين البلدان الإسلامية باعتباره أحد أفراد المسلمين^(١٠) ، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله .

(١) الأساس في السنة (٤/١٦٧٦).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، (ص ٣٩٢).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) الطبقات (٧١/٣) هذا وصف ابن سعد.

(٦) دراسات في عهد النبوة ، (ص ٣٩٢).

(٧) شذرات الذهب (٤٠/١) ، هذا وصف ابن العماد.

(٨) شرح صحيح مسلم (١٥/١٤٨ ، ١٤٩).

(٩) تاريخ الطبري (٥/٣٢٧).

(١٠) دراسات في عهد النبوة ، (ص ٣٩٤).

ل- التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضي الله عنه :

كان المجتمع مهياً لقبول الأقاويل والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة ، وكانت الأرض مهياً ، ونسيج المجتمع قابلاً لتلقي الخروقات ، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطعن في الأمراء بحجة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، حتى استمالوا الناس إلى صفوفهم ، ووصل الطعن إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه نفسه باعتباره قائد الدولة ، وإذا ما حصرنا الدعاوى التي رُوِّجت ضد الخليفة ، وطعنوه بها ، فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات خمس :

١- مواقف شخصية له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات ، والمواقع).

٢- سياسته المالية: الأعطيات ، الحمى.

٣- سياسته الإدارية النافذة: توليته أقربائه ، طريقته في التولية.

٤- اجتهادات خاصة به ، أو بمصلحة الأمة (إتمام الصلاة بمنى ، جمع القرآن ، الزيادة في المسجد).

٥- معاملته لبعض الصحابة: عمار ، أبي ذر ، ابن مسعود.

وقد بينت موقف عثمان رضي الله عنه في كل ما وجه إليه في كتابي تيسير الكريم المنان في سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره. وقد حدث تزيّد في إبراز المطاعن على عثمان رضي الله عنه سواء في عهده ، وما واجهوه بها ، ورّده عليها في حينه ، أو ما تُقوّل عليه فيما بعد عند الزّواة ، والكتّاب ، فإنّها لم تصح ، ولم تصل إلى حدّ أن تكون سبباً في قتله^(١).

إن المآخذ السابق ذكرها والمدوّنة في تاريخ الطّبري ، وغيره من كتب التاريخ والمروية عن طريق المجاهيل ، والإخباريين الضّعفاء - خاصة الشيعة - كانت وما تزال بليّة عظيمة على الحقائق في سير الخلفاء والأئمّة ، خاصة في مراحل الاضطرابات والفتن ، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه من ذلك الحطّ الوافر ، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على النّهج الملتوي بعض ما نال تلك السيرة النيرة ، من تحريف المنحرفين ، وتشويه الغالين ، بغية التآليب عليه ، أو التشهير به ، وقد أدرك عثمان رضي الله عنه بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه: أمّا بعد ، فإن الرّعية طعنت في الانتشار ونزعت إلى الشرّ ، أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة ، وأهواء متسرّعة ، وضغائن محمولة^(٢) ، وقال ابن العربي على تلك المآخذ: قالوا متعدّين متعلّقين برواية كذّابين: جاء عثمان في ولايته بمظالم ، ومناكير ، ... هذا كله باطل سنداً ومتناً^(٣).

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، (ص ٤٠٠).

(٢) التمهيد والبيان ، (ص ٦٤).

(٣) العواصم من القواصم ، (ص ٦١-٦٣).

م- استخدام الأساليب والوسائل المهيّجة للنّاس :

وأهم هذه الأساليب : إشاعة الأراجيف ، حيث تردّدت كلمة الإشاعة والإذاعة كثيراً ، والتّحريض ، والمناظرة ، والمجادلة للخليفة أمام النّاس ، والطّعن على الولاة ، واستخدام تزوير الكتب ، واختلافها على لسان الصّحابة رضي الله عنهم ، كعائشة ، وعليّ ، وطلحة ، والزبير ، والإشاعة بأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأحق بالخلافة ، وأنّه الوصي بعد رسول الله ﷺ ، وتنظيم فرق في كل من البصرة ، والكوفة ، ومصر ، أربع فرق من كلّ مصر ممّا يدل على التّدبير المسبق ، وأوهموا أهل المدينة : أنهم ما جاؤوا إلا بدعوة الصّحابة ، وصعدوا الأحداث ، حتى وصل الأمر إلى القتل^(١).

وإلى جوار هذه الوسائل استخدموا مجموعة من الشعارات منها : التّكبير ، ومنها : أنّ جهادهم هذا ضدّ المظالم ، ومنها : أنّهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف ، والنّهي عن المنكر ، ومنها : المطالبة باستبدال الولاة ، وعزلهم ، ثمّ تطورت المطالبة إلى خلع عثمان ، إلى أن تبادوا في جرأتهم وطالبوا ، بل سارعوا إلى قتل الخليفة ، وخاصّة حينما وصلهم الخبر بأنّ أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة ، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة ، والتّشوّق إلى قتله بأيّة وسيلة^(٢).

ن- دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة :

في السّنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضي الله عنه بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلاميّ نتيجة عوامل التّغيير التي ذكرناها ، وأخذ بعض اليهود يتحيّنون فرصة الظهور مستغلّين عوامل الفتنة ، ومتظاهرين بالإسلام ، واستعمال التّفيّة ، ومن هؤلاء : عبد الله بن سبأ الملقّب بابن السّوداء ، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التّهويل من شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة^(٣) ، فإنه كذلك لا يجوز التّشكيك فيه ، أو الاستهانة بالدّور الذي لعبه في أحداث الفتنة ، كعامل من عواملها ، على أنّه أبرزها ، وأخطرها ، إذ إنّ هناك أجواء للفتنة مهّدت له ، وعوامل أخرى ساعدته ، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء ، ومعتقدات ادّعاها ، واخترعها من قبل نفسه ، وافتعلها من يهوديّة الحاقدة ، وجعل يروّجها لغاية ينشدها ، وغرض يستهدفه ، وهو الدس في المجتمع الإسلامي بغية النّيل من وحدته ، وإذكاء نار الفتنة ، وغرس بذور الشّقاق بين أفرادها ، فكان ذلك من جملة العوامل التي أدّت إلى قتل أمير

(١) دراسات في عهد النبوة ، (ص ٤٠١).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٠٢).

(٣) مثل سعيد الأفغاني في كتابه : عائشة والسياسة .

المؤمنين عثمان رضي الله عنه وتفرّق الأمة شيعاً وأحزاباً^(١).

وخلاصة ما جاء به أن أتى بمقدمات صادقة ، وبني عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السّدج ، والغلاة ، وأصحاب الأهواء من النَّاس ، وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبس فيها على من حوله ، حتى اجتمعوا عليه ، فطرق باب القرآن بتأوله على زعمه الفاسد ، حيث قال : لَعَجِبُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى يَرْجِعُ ، وَيَكْذِبُ بِأَن مُحَمَّدًا يَرْجِعُ ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [الفصص : ٨٥] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى^(٢) ، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادّعاء إثبات الوصية لعلي رضي الله عنه بقوله : إِنَّهُ كَانَ أَلْفَ نَبِيٍّ ، ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء . وعلي خاتم الأوصياء .

وحينما استقر الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم ، وهو خروج النَّاس على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فصادف ذلك هوى في نفوس بعض القوم ، حيث قال لهم : من أظلم ممن لم يُجِزْ وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة ، ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر ، فحرّكوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تستميلوا النَّاس ، وادعوهم إلى هذا الأمر^(٣) . وبثّ دعايته ، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يضعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم حتّى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرّون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر : إنّنا لفي عافية ممّا ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنّهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار ، فقالوا : إنّنا لفي عافية ممّا فيه النَّاس^(٤) .

ويظهر من هذا النصّ الأسلوب الذي تبعه ابن سبأ ، فهو أراد أن يوقع في أعين الناس بين اثنين من الصّحابة ؛ حيث جعل أحدهما مهضوم الحق وهو علي ، وجعل الثاني مغتصباً وهو عثمان ، ثم حاول بعد ذلك أن يحرك النَّاس - خاصّة في الكوفة - على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فجعل هؤلاء يشعرون لأصغر الحوادث على ولاتهم ، علماً بأنّه ركّز في جملة هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادة ملائمة لتنفيذ خطّته ، فالقرّاء منهم استهواهم عن

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٢٧).

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٣٤٧).

(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٤٨).

(٤) المصدر السابق نفسه .

طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأصحاب المطاعم منهم هيّج أنفسهم ، بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان ، مثل : تحيزه لأقاربه ، وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم ، وأنه حمى الحمى لنفسه ، إلى غير ذلك من التّهم ، والمطاعن التي حرك بها نفوس الغوغاء ضدّ عثمان رضي الله عنه ، ثمّ إنه أخذ يحضّ أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة مفعجة عن مصرهم إلى بقية الأمصار ، وهكذا يتخيل النّاس في جميع الأمصار: أنّ الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه ، والمستفيد من هذه الحال هم السبئية ، لأنّ تصديق ذلك من الناس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامي^(١).

هذا وقد شعر عثمان رضي الله عنه بأن شيئاً ما يحاك في الأمصار ، وأنّ الأمة تمخض بشراً ، فقال : والله إن رحي الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ، ولم يحركها^(٢).

على أن المكان الذي رتع فيه ابن سبأ هو مصر ، وهناك أخذ ينظّم حملته ضدّ عثمان رضي الله عنه ، ويحثّ على التوجّه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى : أنّ عثمان أخذ الخلافة بغير حقّ ، ووثب على وصيّ رسول الله ، يقصد عليّاً^(٣) ، وقد غشهم بكتب ادّعى أنها وردت من كبار الصحابة حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعاً ، تبرّؤوا ممّا نسب إليهم من رسائل تؤلّب النّاس على عثمان^(٤) ، وجدوا عثمان مقدّراً للحقوق ، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه ، وردّ عليهم افتراءهم وفسر لهم صدق أعماله ، حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك بن الأشتر التّخعي : لعله مُكر به وبكم^(٥) . ويعتبر الذهبي : أنّ عبد الله بن سبأ المهيج للفتنة بمصر ، وبأذر بذور الشّقاق والنّقمة على الولاة ثمّ الإمام- عثمان - فيها^(٦) ، ولم يكن ابن سبأ وحده وإمّا كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين ، وأخطبوطاً من أساليب الخداع ، والاحتيال ، والمكر ، وتجنيد الأعراب ، والقراء وغيرهم ، ويروي ابن كثير : أنّ من أسباب تألّب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ ، وذهابه إلى مصر ، وإذاعته بين النّاس كلاماً اخترعه من عند نفسه ، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر^(٧).

إنّ المشاهير من المؤرّخين والعلماء من سلف الأئمّة وخلفها يتفقون على أنّ ابن سبأ ظهر بين

(١) الدولة الأموية ، يوسف العش ، (ص ٦٨) ؛ تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠).

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٣٥٠).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠) ؛ تاريخ الطبري (٥/ ٣٤٨).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠) ؛ تاريخ الطبري (٥/ ٣٦٥).

(٥) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٣١).

(٦) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٨).

(٧) البداية والنهاية (٧/ ١٦٧ ، ١٦٨).

المسلمين بعقائد ، وأفكار ، وخطط سبئية ، ليلفت المسلمين عن دينهم ، وطاعة إمامهم ، ويوقع بينهم الفرقة ، والخلاف ، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكوّنت به الطائفة السبئية المعروفة التي كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه والذي يظهر من خطط السبئية أنها كانت أكثر تنظيماً ، إذ كانت بارعة في توجيه دعايتها ، ونشر أفكارها ، لامتلاكها ناصية الدعاية ، والتأثير بين الغوغاء والرّاع من الناس ، كما كانت نشيطة في تكوين فروع لها سواء في البصرة ، أم الكوفة ، أم مصر ، مستغلة العصبية القبلية ومتمكّنة من إثارة مكامن التّدثر عند الأعراب ، والعبيد ، والموالي ، عارفة بالمواضع الحساسة في حياتهم ، وبما يريدون^(١).

س- موقف معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في الفتنة :

في يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس والي الكوفة سعيد بن العاص في مجلسه العام ، وحوله عامّة الناس ، وكانوا يتحدثون ، ويتناقشون فيما بينهم ، فتسلّل الخوارج من السبئين إلى المجلس ، وعملوا على إفساده ، وعلى إشعال نار الفتنة وجرى كلام وحوار في المجلس بين سعيد بن العاص ، وبين أحد الحضور ، وهو خنيس بن حُبيش الأسدي ، واختلفا على أمر ، وكان سبعة من الخوارج أصحاب الفتنة جالسين ، منهم : جندب الأزدي ، الذي قتل ابنه السّارق بسبب تورطه في قضية قتل ، ومنهم الأشتر النّخعي ، وابن الكوّاء ، وصعصعة بن صحوان ، فاستغل أصحاب الفتنة المناسبة ، وقاموا بضرب خنيس الأسدي في المجلس ، ولمّا قام أبوه يساعده ، وينقذه ، ضربه ، وحاول سعيد منعهم من الضّرب ، فلم يمتنعوا ، وأغمي على الرّجل وابنه من شدّة الضّرب ، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر آبائهم ، وكادت الحرب تقع بين الفريقين ، ولكنّ سعيداً تمكّن من إصلاح الأمر^(٢).

ولمّا علم عثمان بالحادثة ، طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة ، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع ، وذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم ، وصاروا ينشرون الإشاعات ، ويذيعون الافتراءات والأكاذيب ضدّ سعيد والي الكوفة ، وضدّ عثمان ، وضدّ أهل الكوفة ، ووجوهها ، فاستاء أهل الكوفة منهم ، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم ، فقال له سعيد : إنّ عثمان قد نهاني عن ذلك ، فإذا أردتم ذلك ، فأخبروه ، وكتب أشرف أهل الكوفة ، وصلحاؤهم إلى عثمان بشأن هؤلاء الثّفر ، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة ، ونفيهم عنها ، فهم مفسدون مخربون فيها ، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة وكانوا

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/٣٣٩).

(٢) تاريخ الطبري (٥/٣٢٣).

بضعة عشر رجلاً ، وأرسلهم سعيد إلى معاوية في الشام بأمر عثمان ، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء ، فقال له : إنَّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة . فَرُغُهُمْ ، وَأَخْفَهُمْ ، وَأَذْبَهُمْ ، وأقم عليهم ، فإن آنست منهم رشداً ، فاقبل منهم ^(١) .

ومن الذين تمَّ نفيهم إلى الشام: الأشتر النَّخَعِيُّ ، وجندب الأزدي ، وصعصعة بن صوحان ، وكميل بن زياد ، وعمر بن ضابئ ، وابن الكواء ^(٢) . ولَمَّا قدموا على معاوية رحب بهم ، وأحسن ضيافتهم ، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يُجرى عليهم بالعراق ، وجعل لا يزال يتغذى ، ويتعشى معهم ، فقال لهم يوماً : إنكم قوم من العرب لكم أسنان ، وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً ، وغلبتم الأمم ، وحويتم مراتبهم ، ومواريتهم ، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً ، وإنَّ قريشاً لو لم تكن ، لعدتم أذلة كما كنتم ^(٣) .

كان عثمان رضي الله عنه يدرك : أنَّ معاوية للمعضلة ، فله من فصاحته وبلاغته ، وله من حلمه ، وصبره ، وله من ذكائه ، ودهائه ما يواجه به الفتن ، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتَّى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلَّها ، وفعلاً بذل معاوية رضي الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء الثَّغر : أكرمهم أولاً ، وخالطهم ، وجالسهم ، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نُقل عنهم ، وبعد أن أزال الوحشة عنهم ، وأزال الكلفة بينه وبينهم ، لاحظ أنَّ الثَّعرة القبلية هي التي تحرَّكهم ، وأنَّ شهوة الحكم والسُّلطة هي التي تثيرهم ، فكان لا بدَّ أن يلج عليهم من زاويتين اثنتين :

الأولى : أثر الإسلام في عزَّة العرب .

الثانية : دور قريش في نشر الإسلام وتحمل أعبائه .

فإن كان للإسلام أثرٌ في تكوينهم ، فلا بدَّ أن يرعَوْوا لهذا الحديث ، بعد هذا وضع أمامهم صورة لوضع العرب ، وقد انقلبوا بالإسلام أُمَّة واحدة تخضع لإمام واحد ، وودعوا حياة الفوضى ، وسفك الدِّماء ، والقبلية المنتنة ^(٤) .

ويتابع معاوية حديثه معهم ، فيقول : إنَّ أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة ^(٥) ، فلا تشذوا عن جُنَّتكم ، وإنَّ أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم المؤونة ، والله لتنتهنَّ

(١) المصدر السابق نفسه (٣٢٤/٥) .

(٢) الخلفاء الراشدون ، (ص ١٣١) .

(٣) تاريخ الطبري (٣٢٤/٥) .

(٤) معاوية بن أبي سفيان ، لمنير الغضبان ، (ص ١٠١) .

(٥) جنة : وقاية .

أو ليتليكنم الله بمن يسومكم ، ثم لا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتهم على الرعية في حياتكم ، وبعد موتكم ، فقال رجل من القوم : أما ما ذكرت من قريش ، فإنها لم تكن أكثر العرب ، ولا أمنعها في الجاهلية ، فتخوفنا ، وأما ما ذكرت من الجنة ، فإن الجنة إذا احترقت خلص إلينا . فقال معاوية : عرفتمكم الآن ، علمت : أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول ، وأنت خطيب القوم ، ولا أرى لك عقلاً ! أعظم عليك أمر الإسلام ، وأذكرك به ، وتذكرني الجاهلية ؟! وقد وعظتك وتزعم لما يُجثُّك : أنه يخرق ، ولا ينسب ما يخرق إلى الجنة ، أخزى الله أقواماً أعظموا أمرهم ، ورفعوا إلى خليفتمكم ^(١) .

وعرف معاوية أنَّ الإشارة العابرة لن تقنعهم ، ولا بد من شرح مسهب لواقع قريش أولاً ، فقال : افقهوا - ولا أظنكم تفقهون - أنَّ قريشاً لم تعزَّ في جاهلية ولا في إسلام إلا بالله - عزَّ وجلَّ - ، لم تكن أكثر العرب ، ولا أشدهم ، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً ، وأمحضهم أنساباً ، وأعظمهم أخطاراً ، وأكملهم مروءةً ، ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً ، إلا بالله الذي لا يُستدل من أعزَّ ، ولا يوضع من رفع ، هل تعرفون عرباً ، أو عجماً ، أو سوداً ، أو حمراً إلا قد أصابه الدهر في بلده ، وحرمة بدولة ، إلا ما كان من قريش ، فإنه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خده الأسفل ، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرم وأتبع دينه من هوان الدنيا ، وسوء مرد الآخرة ، فارتضى لذلك خير خلقه ، ثم ارتضى له أصحاباً ، فكان خيارهم قريشاً ، ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخلافة فيهم ، ولا يصلح ذلك إلا عليهم ، فكان الله يحوطهم وهم على دينه ، وقد حاطهم الله في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم .

أف لك ، ولأصحابك ، ولو أن متكلماً غيرك تكلم ، ولكنك ابتدأت ، فأما أنت يا صعصعة فإن قريتك شرُّ قرى عربية ، أنتنها نبئاً ، وأعمقها وادياً ، وأعرفها بالشَّرِّ ، ولأما جيراناً ، لم يسكنها شريف قط ولا وضع إلا سبَّ بها ، وكانت عليه هُجنة . ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً ، ولأما أصهاراً ، نزاع ^(٢) الأمم ، وأنتم جيران الخطِّ وفعلة فارس ، حتَّى أصابتكم دعوة النَّبي ﷺ ، ونكبتك دعوته ، وأنت نزيع شطير ^(٣) في عمان ، لم تسكن البحرين ، فتشركهم في دعوة النَّبي ﷺ ، فأنت شرُّ قومك ، حتى إذا أبرزك الإسلام ، وخلطك بالنَّاس ، وحملك على الأمم التي كانت عليك ، أقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع إلى اللأمة ، والدلة ، ولا يضع ذلك قريش ، ولن يضربهم ، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم . إنَّ الشَّيطان عنكم غير غافل ، قد عرفكم بالشَّرِّ من بين أممتكم ، فأغرى النَّاس ، وهو صارعكم ، لقد علم : أنه لا يستطيع أن يردَّ

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٤).

(٢) النزاع : جمع نزيع وهو الغريب .

(٣) الشطير : الغريب .

بكم قضاء الله ، ولا أمراً أرادَهُ الله ، ولا تدركون بالشَّرِّ أمراً إلا فتح الله عليكم شراً منه ، وأخرى .
ثم قام وتركهم فتذا مروا ، فتقاصرت إليهم أنفسهم^(١) .

وبذلك بذل معاوية كلَّ طاقاته الفكرية ، والثقافية ، والسياسية ، لإقناعهم :
- عرض لهم أولاً أمر قريش في الجاهلية والإسلام .

- تناول قبائل هؤلاء النفر ، ووضعها في الجاهلية ، حيث كانت تعاني سوء المناخ ، وتنبت المنبت من الناحية الطبيعية ، ثم الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية ، إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذلك ، وارتقت بعد هوان .

- تناول معاوية رضي الله عنه صعصعة بن صوحان خطيب القوم ، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة ، وقد دخل قومه بها ، ثم عاد وانضم إلى الإسلام ، ورفع الإسلام ثانية بعد انحدار .
- كشف معاوية رضي الله عنه مخططات صعصعة ، وأصحابه ، وكيف يبعون الفتنة ، ويبغون دين الله عوجاً .

- وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة ، ومحرك هذا الشر ، وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله ، ثم الإسلام والعقيدة ، ثم كشف عن زيف هؤلاء النفر ، وفضحهم عن آخرهم ، وأبان عن مخططاتهم ، وصلتها بدعوى الجاهلية^(٢) .

● جلسة أخرى :

ثم أتاهم القابلة فتحدت عندهم طويلاً ، ثم قال : أيُّها القوم ! ردُّوا عليَّ خيراً ، أو اسكتوا ، وتفكروا ، وانظروا فيما ينفعكم ، وينفع أهليكم ، وينفع عشائركم ، وينفع جماعة المسلمين ، فاطلبوه ، تعيشوا ، ونعش بكم . قال صعصعة : لست بأهل لذلك ، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله .

فقال معاوية : أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله ، وطاعته ، وطاعة نبيه ﷺ ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ، ولا تفرقوا؟ قالوا : بل أمرت بالفرقة ، وخلاف ما جاء به النبي ﷺ ! قال : إني أمركم الآن ، إن كنت فعلت ، فأتوب إلى الله ، وأمركم بتقواه ، وطاعته ، وطاعة نبيه ﷺ ، ولزوم الجماعة ، وكراهة الفرقة ، وأن توفروا أئمتكم ، وتدلُّوهم على كلِّ حسن ما قدرتم ، وتعظوهم في لينٍ ولطف في شيء إن كان معهم . قال صعصعة : فإننا نأمرك أن تعتزل عملك ، فإنَّ من المسلمين من هو أحقُّ به منك . قال معاوية : من هو؟ قالوا : من كان أبوه أحسن قدماً من أهلك ، وهو بنفسه أحسن قدماً منك في الإسلام .

(١) تاريخ الطبري (٣٢٦/٥) .

(٢) معاوية بن أبي سفيان للغضبان ، (ص ١١١) .

قال معاوية: والله إن لي في الإسلام قدماً ، ولغيري كان أحسن قدماً مني ، ولكنه ليس في زمانني أحد أقوى على ما أنا فيه مني ، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب ، فلو كان غيري أقوى مني ، لم يكن لي عند عمر هودة ، ولا لغيري ، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعزل عملي ، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ، لكتب بخط يده ، فاعتزلت عمله ، ولو قضى الله أن يفعل ذلك ؛ لرجوت ألا يعزم له علي ذلك إلا هو خير . فمهلاً فإن في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ، ويأمر ، ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم ، وأمانيتكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة ، ولكن الله يقضيها ، ويدبرها وهو بالغ أمره ، فعاودوا الخير ، وقولوه . قالوا : لست لذلك أهلاً . قال معاوية : أما والله إن الله سطوات ، ونقمت ، وإني لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تحلّكم مطاوعة الشيطان ، ومعصية الرحمن دار الهوان من نعم الله في عاجل الأمر ، والخزي الدائم في الآجل ، فوثبوا عليه ، فأخذوا بلحيته ، ورأسه ، فقال : مه ! إن هذه ليست بأرض الكوفة ، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم ، فلعمري إن صنعكم ليشبه بعضه بعضاً ، ثم قام من عندهم ، فقال : والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت ^(١) .

هذه المحاولة الأخيرة التي بذل فيها معاوية أمير الشام كل جهده واستعمل حلمه ، وثقافته ، وأعصابه كي ينشئهم عن الفتنة ، إنّه يدعوهم إلى تقوى الله ، وطاعته ، والاستمسك بالجماعة ، والابتعاد عن الفرقة ، وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين : ليس لك أن تطاع في معصية الله ^(٢) . وبحلمه الكبير ، وصدوره الواسع عاد ، فذكّرهم بأنّه لا يأمرهم إلا بطاعة الله ، وعلى حدّ زعمهم ، فهو يتوب من المعصية ، إن وقعت ، ثم يعود لدعوتهم إلى الطاعة ، والجماعة ، والابتعاد عن تفريق كلمة الأمة ، ولو كان الوعظ يجدي معهم ، لأمكن أن تتأثر قلوبهم لهذه المعاملة ، وهذا اللطف ، وهذا يوجّههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادي في العظة ، واللين في النصّح ، فوجدنا المجال رحباً أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم . فقالوا : فإنّا نأمرك أن تعزل عملك ، فإنّ في المسلمين من هو أحقّ به منك ، وانتبه معاوية انتبهاً مفاجئاً إلى ما يكتنون ، فأحبّ أن يتعرف جانباً غامضاً عليه لعلّ في هذا التعرف ما يوصله إلى من يحركهم ، ويبت في ذهنهم الأراجيف المغرضة ، ولكنهم أخفوا ما يكتنون واكتفوا بالإشارة إلى أنّهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه ، ولمن أبوه أفضل من أبيه ، ثم تحلّم عليهم أكثر فأكثر رغم الأسلوب الفجّ الذي سلّكوه معه ، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل .

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٣٣٠ ، ٣٣١) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٣٠) .

وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره في الحكم ، والإمارة ، والقيادة ، وقد لخص معاوية إجابته في ست نقاط أساسية ومهمّة ؛ هي :

١ - أنَّ له قِدماً ، وسابقة في الإسلام ، فهو حامي ثغر الشّام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما .

٢ - أنَّ هناك في المسلمين من هو أفضل منه ، وأكرم ، وأحسن سابقة ، وأكثر بلاءً ، وهو يرى أنّه أقوى من يحمي هذا الثّغر الإسلاميّ العظيم - الشّام - فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه ، وسياسته ، وفهم نفسيّات أهله حتّى أحبّوه .

٣ - أن الميزان الحساس ، والمعيّار الدّقيق الذي يقيّم الولاية هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلو وجد من معاوية شططاً ، أو انحرافاً أو ضعفاً ؛ لعزله ، ولما أبقي عليه يوماً واحداً ، فقد عمل له طيلة خلافته ، كما ولّاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله ، واستخدمه كاتباً بين يديه ، وولّاه أبو بكر الصّدّيق من بعده ، ولم يطعن في كفاءته أحد .

٤ - أنَّ اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال ، فما هي الحجّة التي يقدّمها دعاة الفتنة ، ليتمّ الاعتزال على أساسها ؟

٥ - أنَّ الذي يقرّر العزل عن العمل ، أو البقاء في الإمارة ليس هؤلاء الأعداء ، إنّ ذلك من حقّ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، وهو الذي له الحقّ في تعيين الولاية ، وعزلهم .

٦ - أنَّ أمير المؤمنين عثمان يوم يقرّر عزل معاوية ، فهو واثق أنّ أمره خير كلّ ، ولا غضاضة في ذلك فهو أمير مأمور ، وهو أمر خليفة المسلمين^(١) .

كان ختام الجلسة مؤسفاً أشدّ الأسف ، مؤلماً أشدّ الألم ، لقد حدّزهم نعمة الله ، وغضبه ، وحدّزهم الانقياد إلى أهوائهم وغرورهم ، فماذا كان منهم مقابل ذلك ؟ وثبوا عليه وأخذوا برأسه ولحيته ، وعندئذ زجرهم ، وقمعهم ، ووجّه لهم كلاماً قاسياً مبطناً بالتهديد ، وعرف : أنَّ هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحقّ ، فلا بدّ من إبلاغ أمرهم لأمر المؤمنين عثمان رضي الله عنه وكشف هويّاتهم ، وخطرهم ، ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر^(٢) .

ع - كتاب معاوية إلى عثمان رضي الله عنهما بشأن أهل الفتنة من الكوفة :

كتب معاوية إلى عثمان رضي الله عنهما قائلاً : بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنك بعثت إليّ أقواماً يتكلمون

(١) معاوية بن أبي سفيان ، صحابي كبير ، وملك مجاهد ، (ص ١١٤ إلى ١١٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ١١٧ ، ١١٨) .

بالسنة الشياطين وما يُملون عليهم ، ويأتون النَّاسَ - زعموا - من قِبَل القرآن فيشبهون على الناس ، وليس كل النَّاس يعلم ما يريدون ، وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة ، قد أثقلهم الإسلام وأضرَّهم ، وتمكنت رُفَى الشيطان من قلوبهم ، فقد أفسدوا كثيراً من النَّاس ممن كانوا بين ظهرائهم من أهل الكوفة ، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم ، فارددهم إلى مصرهم ، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقهم^(١) .

فكتب عثمان إلى سعيد بن العاص بالكوفة ، فردَّهم إليه ، فلم يكونوا إلا أطلق السنة منهم حين رجعوا ، وكتب سعيد إلى عثمان يضحج منهم ، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان أميراً على حمص^(٢) ، فلما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، استدعاهم ، وكلمهم كلاماً شديداً ، وكان ممَّا قاله لهم : يا آله الشيطان ! لا مرحباً بكم ، ولا أهلاً ، لقد رجع الشيطان محسوراً خائباً ، وأنتم ما زلتم نشيطين في الباطل ، خَسَرَ الله عبد الرحمن إن لم يؤدِّبكم ويخزكم ! يا معشر من لا أدري من أنتم أعرب ، أم عجم ؟ لن تقولوا لي كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية ، أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من قد عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقى الرِّدة ، والله لأذلتكم !

وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهراً كاملاً ، وعاملهم بمنتهى الحزم ، والشدة ، ولم يكن معهم كما لان سعيد ، ومعاوية ، وكان إذا مشى مشوا معه ، وإذا ركب ركبوا معه ، وإذا غزا غزوا معه ، وكان لا يدع مناسبة إلا ويدلُّهم فيها ، وكان إذا قابل زعيمهم صعصعة بن صوحان يقول له : يا بن الخطيئة ! هل تعلم أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشرُّ ، وأن من لم يصلحه اللين أصلحته الشدة ؟ وكان يقول لهم : لماذا لا تردُّون عليَّ ، كما كنتم تردُّون على سعيد في الكوفة ، وعلى معاوية بالشام ؟ لماذا لا تخاطبوني ، كما كنتم تخاطبونهما ؟ !

ونفع معهم أسلوب عبد الرحمن بن خالد ، وأخرسهم حزمه ، وشدَّته ، وقسوته ، وأظهروا له التَّوبة والتَّندم ، وقالوا له : نتوب إلى الله ، ونستغفره ، أَقْلَنَّا أَقَالَكَ اللهُ ، وسامحنا سامحك الله ! .

بقي القوم في الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد ، وأرسل عبد الرحمن أحد زعمائهم وهو الأشتر النَّخعي إلى عثمان ليخبره بتوبتهم ، وصلاحتهم ، وتراجعهم عمَّا كانوا عليه من الفتنة ، فقال عثمان للأشتر : احلِّ أنت ومن معك حيث شئتم ، فقد عفوت عنكم . قال الأشتر : نريد أن نبقي عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وذكر من فضل عبد الرحمن وحزمه ، فأقاموا عند عبد

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٣٣١) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

الرحمن في الجزيرة مدّة ، أظهر وافيها التوبة ، والاستقامة والصّلاح^(١) .

وسكت أصحاب الفتنة في الكوفة إلى حين ، وكان هذا في شهور سنة ثلاث وثلاثين ، بعدما تمّ نفي رؤوس الفتنة إلى معاوية في الشّام ، ثمّ إلى عبد الرّحمن بن خالد ، فرأى أصحاب الفتنة في الكوفة أنّ المصلحة تقتضي أن يسكتوا إلى حين^(٢) .

إلا أن بقية دعاة الفتنة كانوا يشتغلون في البصرة ، ومصر ، وغيرها ، وفي سنة أربع وثلاثين - السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان - أحكم عبد الله بن سبأ خطته ، ورسم مؤامراته ، ورتب مع جماعته السّبّيين الخروج على الخليفة ، وولاته ، فقد اتّصل ابن سبأ اليهودي من وكمر مؤامراته في مصر بالشّياطين من حزبه في البصرة ، والكوفة ، والمدينة ، واتفق معهم على تفاصيل الخروج ، وكاتبهم ، وكاتبوه ، وراسلهم ، وراسلوه ، وكان ممّن كاتبهم ، وراسلهم السّبّيون في الكوفة ، وقد كانوا بضعة عشر رجلاً منهم منفيين في الشّام ، ثمّ في الجزيرة عند عبد الرّحمن بن خالد بن الوليد ، وبعد نفي أولئك الخارجين ، كان زعيم السّبّيين الحاقدين في الكوفة يزيد بن قيس^(٣) .

وقد خلت الكوفة في سنة أربع وثلاثين من وجوهها ، وأشرفها ، لأنّهم توجّهوا للجهاد في سبيل الله ، ولم يبق إلا الرّعاع ، والغوغاء الذين أثر فيهم السّبّيون والمنحرفون ، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة ، وهيجوهم ضدّ والي عثمان على الكوفة سعيد بن العاص رضي الله عنه^(٤) .

واستطاع القعقاع بن عمرو التميمي أمير الحرب بالكوفة أن يقضي على التحرك الأول بقيادة يزيد بن قيس ، ولمّا رأى يزيد شدة القعقاع ويقظته ، وبصيرته ، لم يجاهره بهدفهم وخطتهم في الخروج على الخليفة عثمان ، وخلعه ، وأظهر له أنّ كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالي سعيد بن العاص ، والمطالبة بوال آخر مكانه ، فاستجيب لطلبهم ، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة ، لما سمع كلام يزيد ، ثمّ قال يزيد : لا تجلس لهذا الهدف في المسجد ، ولا يجتمع عليك أحد ، واجلس في بيتك واطلب ما تريد من الخليفة ، وسيحقّق لك ذلك بإذن الله^(٥) .

واستمر يزيد بن قيس في إشعال الفتنة ، واضطر إلى تعديل خطّته في الخروج ، وبعد كيد

(١) تاريخ الطبري (٣٢٧/٥) .

(٢) الخلفاء الراشدون للخالد ، (ص ١٣٤) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٣٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) تاريخ الطبري (٣٣٧/٥) .

ومكر وتدبير من أتباع السبئيين ، قرّر الغوغاء والرّعا ع بقاءة يزيد بن قيس منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة ، وكان سعيد بالمدينة^(١).

ولما خرج السبئيون ، والغوغاء طلباً للفتنة ، والتمرد ، وإحداث القلاقل ، بقي في المسجد وجوه المسلمين ، وأشرافهم ، وحلماءهم ، فصعد المنبر نائب الوالي عمرو بن حُرَيْث ، وطالب المسلمين بالأخوة ، والوحدة ، ونهاهم عن التفرّق ، والاختلاف ، والفتنة ، والخروج ، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين والتمرديين^(٢) ، قال القعقاع بن عمرو التميمي: أتردّ السّيل عن عبابه ، فاردد الفرات عن أدراجه ، هيهات: لا والله لا تُسكّن الغوغاء إلا المشرفيّة^(٣) ، ويوشك أن تُنتضى ، ثمّ يعجّون عجيج العتدان^(٤) ، ويتمنون ما هم فيه ، فلا يردّهم عليهم أبداً ، فاصبر ، فقال: أصبر ، وتحول إلى منزله^(٥).

واستطاع أهل الفتنة أن يمنعوا سعيد بن العاص من دخول الكوفة ورجع إلى المدينة ، وكان من رأيه: أن من الحكمة عدم مواجهتهم ، وعدم تأجيج نار الفتنة ، بل محاولة إخمادها ، أو تأجيل اشتعالها على الأقلّ ، وبعد رجوعه إلى المدينة أخبر سعيد عثمان بما حصل . قال له عثمان: ماذا يريدون؟ هل خلعوا يداً من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا؛ لقد أظهرُوا أنّهم لا يريدونني والياً عليهم ، ويريدون والياً آخر مكاني . قال له عثمان: من يريدون والياً؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعريّ ، قال عثمان: قد عيّنا ، وأثبتنا أبا موسى والياً عليهم ، والله لن نجعل لأحد عُذراً ولن نترك لأحد حجة ، ولنصبرنّ عليهم كما هو مطلوب منّا ، حتى نعرف حقيقة ما يريدون ، وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه والياً على الكوفة^(٦).

وكان أبو موسى رضي الله عنه يقوم بتهدئة الأمور ، وينهى الناس عن العصيان . وقال لهم: أيها الناس لا تخرجوا في هذه المخالفة ، ولا تعودوا المثل هذا العصيان ، والزموا جماعتكم ، والطاعة ، وإياكم والعجلة ، اصبروا ، فكأنّكم بأمر^(٧) . فقالوا: فصلّ بنا ، قال: لا ، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان ، قالوا: على السّمع ، والطاعة لعثمان^(٨).

(١) المصدر السابق نفسه (٣٣٨/٥).

(٢) الخلفاء الراشدون ، للخالدي ، (ص ١٣٩).

(٣) نوع من السيوف .

(٤) تنتضى: انتضى السّيف: أي أخرجه من غمده . العتدان: قيل الحولي من أولاد الماعز .

(٥) تاريخ الطبري (٣٣٨/٥).

(٦) المصدر السابق نفسه (٣٣٩/٥).

(٧) أي: بآتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان .

(٨) تاريخ الطبري (٣٣٩/٥).

وما كانوا صادقين في ذلك ، لكنَّهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقيَّة عن الآخرين ، وكان أبو موسى يسلِّي بالنَّاس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه والياً على الكوفة .

وكتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة : أما بعد فقد أُمِّرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيد ، والله لأفرسنَّ لكم عِرضي ، ولأبذلنَّ لكم صبري ، ولأستصلحنَّكم بجهدي ، واسألوني كلَّ ما أحببتم ، ممَّا لا يُعصى الله فيه ، فسأعطيه لكم ، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم ، حتَّى لا يكون لكم عليَّ حجة . وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار^(١) ، رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان ، ما أصلحه ! وأوسع صدره ! وكم ظلمه السَّبَّيُّون والخارجون الحاقدون ، واختلفوا عليه .

ف- مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأي معاوية في ذلك :

واجه عثمان بن عفان الفتنة بوسائل وأساليب متنوعة ؛ منها : إرسال لجان تفتيش وتحقيق إلى الولايات ، ومحاولة معرفة أغراض أهل الفتنة ، واستطاع أن يخترق صفوفهم ، وأقام الحجة على الغوغاء والمتمردين بالحوار والنقاش ، والاستجابة لبعض مطالبهم ، وقد فصلت الحديث عن سياسة عثمان في التعامل مع الفتنة في كتابي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ومن الأساليب التي اتخذها عثمان رضي الله عنه : مشورته لولاة الأمصار رضي الله عنهم ؛ حيث بعث إلى ولادة الأمصار واستدعاهم على عجل وكانوا : عبد الله بن عامر ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن سعد ، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص ، وعمر بن العاص ؛ وهم من الولاة السابقين وكانت جلسة مغلقة وخطيرة ، وقال فيها كل المشاركين برأيه ، وكان رأي معاوية : أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله ، وأكفيك أنا أهل الشام^(٢) .

وبعد أن سمع عثمان من المشاركين اقتراحاتهم قام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال : كل ما أشرتُم به عليَّ قد سمعت ، ولكلُّ أمر باب يؤتى منه ، إنَّ هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يغلق عليه ، فيُكفكف به : اللِّين ، والمؤاتاة والمتابعة ، إلا في حدود الله تعالى ذكره ، التي لا يستطيع أحد أن يبادي بغيب أحدها ، فإن سدَّه شيء فرفق ، فذاك والله ليُفتحنَّ ، وليست لأحد عليَّ حجة حقٌّ ، وقد علم الله أنَّي لم آل الناس خيراً ، ولا نفسي . والله إنَّ رحا الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ، كفكفوا النَّاس ، وهبوا لهم

(١) المصدر السابق نفسه (٣٤٣/٥) .

(٢) الكامل (٢٧٨/٢) ؛ تاريخ الطبري (٣٥١/٥) .

حقوقهم ، واغفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله ، فلا تُدهنوا فيها^(١).

فمنع عثمان رضي الله عنه الولاة من التَّنكيل بمثيري الشَّغب ، أو حبسهم ، أو قتلهم ، وقرَّر أن يعاملهم بالحسنى واللِّين^(٢) ، وطلب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم ، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التي كان كلُّ بصير يرى أنَّها قادمة^(٣).

وقبل أن يتوجه معاوية بن أبي سفيان إلى الشَّام أتى عثمان وقال له : يا أمير المؤمنين ! انطلق معي إلى الشَّام ، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قِبَل لك بها . قال عثمان : أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء ، ولو كان فيه قطع خيط عنقي . قال له معاوية : إذا أبعث لك جيشاً من الشَّام ، يقيم في المدينة ، لمواجهة الأخطار المتوقعة ، ليدافع عنك ، وعن أهل المدينة ، قال عثمان : لا حتى لا أفتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند تساكنتهم ، ولا أضيق على أهل الهجرة والنُّصرة . قال له معاوية : يا أمير المؤمنين ! والله لتُغتلنَّ ، أو لتُغزَيْنَّ . قال عثمان : حسبي الله ونعم الوكيل^(٤).

ولقد حدث كل ما توقعه معاوية ، فجاءت جموع أهل الفتنة لتحاصر عثمان رضي الله عنه وتغتاله في النهاية . وحين جاء هؤلاء الثوار من مختلف الأقاليم لا نجد من بينهم جماعة من أهل الشَّام^(٥).

من كل ما سبق نجد أننا أمام وال كبير يشق طريقه بجدارة من بين الولاة إلى ما هو أبعد من الولاية ؛ فقد استطاع أن يجعل من إقليم الشَّام الإقليم المهيأ لقيادة بقية الأقاليم في الدولة الإسلامية بما عمَّق فيه من حسن الطاعة للقيادة ، وبما ثبت فيه من دعائم الاستقرار ، وقطعه لأسباب الفتنة وعوامل الفرقة فيه . وهذا ما لا نجده في غيره من الأقاليم^(٦).

ص - مقتل عثمان رضي الله عنه وموقف الصحابة من ذلك :

اشتد الحصار على عثمان رضي الله عنه ، حتى منع من أن يحضر للصَّلَاة في المسجد ، وكان صابراً على هذه البلوى التي أصابته كما أمره رسول الله ﷺ بذلك ، وكان مع إيمانه القوي بالقضاء والقدر ، يحاول أن يجد حلاً لهذه المصيبة ، فنراه تارة يخطب الناس عن حرمة دم المسلم ، وأنه لا يحل سفكه إلا بحقه ، وتارة يتحدث في الناس ويظهر فضائله وخدماته الجليلة

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٣٥١).

(٢) خلافة عثمان ، د. السلمي ، (ص ٧٧).

(٣) الخلفاء الراشدون ، للخالدي ، (ص ١٥١).

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٣٥٣).

(٥) عبد الله بن سبأ ، للعودة ، (ص ١٥٢).

(٦) أثر العلماء في الحياة السياسية ، (ص ٧٦).

في الإسلام ، ويستشهد على ذلك ببقية العشرة رضوان الله عليهم^(١) ، وكأنه يقول : من هذا عمله وفضله هل من الممكن أن يطمع بالدنيا ويقدمها على الآخرة؟! وهل يعقل أن يخون الأمانة ويعبث بأموال الأمة ودماؤها وهو يعرف عاقبة ذلك عند الله؟! وهو الذي تربي على عين النبي ﷺ والذي شهد له وزكاه وكذلك أفاضل الصحابة ، ومتى بعدما تجاوز السبعين وقارب الثمانين من عمره . أهكذا تكون معاملته؟! .

واشتدت سيطرة المتمردين على المدينة حتى إنهم ليصلون بالناس في أغلب الأوقات^(٢) ، وحينها أدرك الصحابة أن الأمر ليس كما حسبوا ، وخشوا من حدوث ما لا يحمد عقباه ، وقد بلغهم أن القوم يريدون قتله ، فعرضوا عليه أن يدافعوا عنه ، ويخرجوا الغوغاء عن المدينة إلا أنه رفض أن يراق دم بسببه^(٣) ، وأرسل كبار الصحابة أبناءهم دون استشارة عثمان رضي الله عنه ، ومن هؤلاء الحسن بن علي ، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ، فقد كان عثمان يحب الحسن ويكرمه ، فعندما وقعت الفتنة وحوصر عثمان رضي الله عنه أقسم على الحسن رضي الله عنه بالرجوع إلى منزله وذلك خشية عليه أن يصاب بمكروه^(٤) ، وقد قال عثمان للحسن رضي الله عنهما : ارجع ابن أخي حتى يأتي الله بأمره^(٥) ، وقد صحت روايات أن الحسن حُمل جريحاً من الدار يوم الدار^(٦) ، كما جرح غير الحسن : عبد الله بن الزبير ، ومحمد بن حاطب ، ومروان بن الحكم ، كما كان معهم الحسين بن علي ، وابن عمر رضي الله عنهم^(٧) ، وقد كان علي رضي الله عنه من أدفع الناس عن عثمان رضي الله عنه ، وشهد له بذلك مروان بن الحكم^(٨) .

كما أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن علياً أرسل إلى عثمان فقال : إن معي خمسمئة دارع ، فائذن لي فأمنعك من القوم ، فإنك لم تحدث شيئاً يستحل به دمك ، فقال : جزيت خيراً ، ما أحب أن يهراق دم في سببي^(٩) .

وقد وردت روايات عديدة تفيد وقوفه بجانب عثمان رضي الله عنه أثناء الحصار؛ فمن ذلك :

- (١) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد علي ، (ص ٨٥) .
- (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥١٥) .
- (٣) فتنة مقتل عثمان (١/ ١٦٧) صحيح الإسناد .
- (٤) تاريخ المدينة ، لابن شبة (٤/ ١٢٠٨) .
- (٥) الرياض النضرة ، نقلاً عن الحسن بن علي ودوره السياسي : (ص ٤٦) .
- (٦) الطبقات لابن سعد (٨/ ١٢٨) بسند صحيح .
- (٧) تاريخ خليفة ، ص ١٧٤ .
- (٨) تاريخ الإسلام ، (ص ٤٦٠ - ٤٦١) ، إسناده قوي .
- (٩) تاريخ دمشق ، (ص ٤٠٣) .

أن الثائرين منعوا عن عثمان الماء حتى كاد أهله أن يموتوا عطشاً ، فأرسل علي رضي الله عنه إليه بثلاث قرب مملوءة ماء ، فما كادت تصل إليه ، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصلت ، ولقد تسارعت الأحداث فوثب الغوغاء على عثمان فقتلوه رضي الله عنه ، وأرضاه ، ووصل الخبر إلى الصحابة وأكثرهم في المسجد ، فذهبت عقولهم ، وقال علي لأبنائه وأبناء أخيه: كيف قتل عثمان وأنتم على الباب؟ ولطم الحسن ، وكان قد جرح^(١) ، وضرب صدر الحسين وشم ابن الزبير وابن طلحة ، وخرج غضبان إلى منزله وهو يقول: تبتاً لكم سائر الدهر ، اللهم إني أبرأ إليك من دمه أن أكون قتلته أو مألته على قتله^(٢).

وهكذا كان موقف علي رضي الله عنه ، نصيح وشورى ، سمع وطاعة ، ووقفة قوية بجانبه أثناء الفتنة ، ومن أدفع الناس عنه ، ولم يذكره بسوء قط ، يحاول الإصلاح وسد الخرق بين الخليفة والخارجين عليه ، لكن الأمر فوق طاقته ، وخارج إرادته ، إنها إرادة الله عز وجل أن يفوز أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بالشهادة^(٣) . . . ويؤء المفسدون بالإثم .

إن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنكر قتل عثمان ، وتبرأ من دمه ، وكان يقسم على ذلك في خطبه ، وغيرها: أنه لم يقتله ولا أمر بقتله ، ولا مالاً عليه ، ولا رضي ، وقد ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع^(٤) ، خلافاً لما تزعمه الشيعة من أنه كان راضياً بقتل عثمان رضي الله عنه^(٥).

وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة في مقتله رضي الله عنه: فأما الذي ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فإنه كذب وزور ، فقد تواترت الأخبار بخلافه^(٦) . وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على علي رضي الله عنه ، وافتراء عليه ، فعلي رضي الله عنه لم يشارك في دم عثمان رضي الله عنه ، ولا أمر ولا رضي ، وقد روي عنه ذلك وهو الصادق البار^(٧) ، وقد قال علي رضي الله عنه: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان^(٨).

وقد شوهت بعض كتب التاريخ مواقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان ، وذلك بسبب الروايات الضعيفة والموضوعة التي ذكرها كثير من المؤرخين ، والمتتبع لأحداث الفتنة في

(١) ابن أبي عاصم ، الأحاد والمثاني (١/١٢٥) ، نقلاً عن خلافة علي ، (ص ٨٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢٠٩/١٥) إسناده صحيح .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) البداية والنهاية (٧/٢٠٢).

(٥) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ، (ص ١٢٩).

(٦) المستدرک (٣/١٠٣).

(٧) منهاج السنة (٤/٤٠٦).

(٨) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ، (ص ٢٢٩)؛ الطبقات (٣/٣) إسناده حسن .

تاريخ الإمام الطبري ، وكتب التاريخ الأخرى من خلال روايات أبي مخنف ، والواقدي ، وابن أكرم ، وغيرها من الأخبار حبكت بطريقة ذات ميول عدائية للتاريخ الصحيح ، ويشعر أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة ، ويشيرون الفتنة ، فأبو مخنف ذو الميول الشيعية لا يتورع في اتهام عثمان بأنه الخليفة الذي كثرت سقطاته ، فاستحق ما استحق ، ويظهر طلحة في مروياته كواحد من الثائرين على عثمان ، والمؤلّبين ضده ، ولا تختلف روايات الواقدي عن روايات أبي مخنف ، وقد كثرت الروايات الشيعية التي تتهم الصحابة بالتآمر ضد عثمان رضي الله عنه ، وأنهم هم الذين حركوا الفتنة ، وأثاروا الناس ، وهذا كله كذب وزور^(١) ، وخلافاً للروايات الموضوعية والضعيفة فقد حفظت لنا كتب المحدثين - بحمد الله - ، الروايات الصحيحة التي يظهر فيها الصحابة من المؤازرين لعثمان والمنافحين عنه والمبشرين من قتله^(٢) ، والمطالبين بدمه بعد مقتله ، وبذلك يستبعد أي اشتراك لهم في تحريك الفتنة ، أو إثارتها^(٣) .

إن الصحابة جميعاً رضي الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضي الله عنه ، ومن قال خلاف ذلك فكلامه باطل ، ولا يستطيع أن يقيم عليه أي دليل ينهض إلى مرتبة الصحة ، ولذلك أخرج خليفة في تاريخه عن عبد الأعلى بن الهيثم ، عن أبيه ، قال : قلت للحسن : أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين ، والأنصار؟ قال : لا ، كانوا أعلاجاً^(٤) من أهل مصر .

وقال الإمام التّوي : ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة ، وإنما قتله همج ، ورعاع من غوغاء القبائل سفلة الأطراف والأراذل ، تحزّبوا ، وقصدوه من مصر ، فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم ، فحصره حتى قتل ، رضي الله عنه^(٥) ، وقد وصفهم الزبير رضي الله عنه بأنهم غوغاء من الأمصار ، ووصفتهم السيدة عائشة بأنهم نزاع القبائل^(٦) ، ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفسدون ضالون ، باغون معتدون^(٧) ، ووصفهم الذهبي بأنهم رؤوس شرّ ، وجفاء^(٨) ، ووصفهم ابن العماد الحنبلي في الشذرات بأنهم أراذل من أوباش القبائل^(٩) ،

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢٠/١٤ إلى ١٨) .

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي ، للصلاحي ، (ص ١٢٢) .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢٠/١٤ إلى ١٨) .

(٤) العليج : كل جاف شديد من الرجال . عثمان بن عفان ، للصلاحي ، (ص ٤٥٠) .

(٥) شهيد الدار عثمان بن عفان ، ص ١٤٨ .

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/١٤٨) .

(٧) منهاج السنة (٢/١٨٩ - ٢٠٦) .

(٨) دول الإسلام ، للذهبي (١/١٢) .

(٩) تحقيق مواقف الصحابة (١/٤٨٢) ؛ شذرات الذهب (١/٤٠) .

ويشهد على هذا الوصف تصرّف هؤلاء الرُّعاع منذ الحصار إلى قتل الخليفة رضي الله عنه ظمأً وعدواناً ، فكيف يمنع الماء عنه والطعام وهو الذي طالما دفع من ماله الخاص ما يروي ظمأ المسلمين بالمجان^(١) ، والذي يساهم بأموال كثيرة عندما يلتمّ بالناس مجاعة ، أو مكروه ، وهو الدائم العطاء عندما يصيب الناس ضائقة ، أو شدة من الشدائد^(٢) ؟! حتى إن علياً رضي الله عنه يصف هذا الحال ، وهو يؤنب المحاصرين بقوله : يا أيها الناس ! إن الذي تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين ، ولا أمر الكافرين ، فلا تمنعوا عن هذا الرجل الماء ، ولا المادة - الطعام - فإنّ الروم ، وفارس لتأسر وتطعم وتسقي^(٣) ، لقد صحّت الأخبار وأكدت حوادث التاريخ على براءة الصحابة من التحريض على عثمان أو المشاركة في الفتنة ضده^(٤).

ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابي : تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان^(٥).



(١) تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ، (ص ٤٥٠).

(٢) التمهيد والبيان ، (ص ٤٢٤).

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٤٠٠).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٨).

(٥) عثمان بن عفان ، للصلاحي ، (ص ٤٥١ إلى ٤٦٦).

المبحث الثالث

معاوية بن أبي سفيان في عهد أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

كان معاوية رضي الله عنه والياً على الشام في عهدي عمر وعثمان رضي الله عنهما ، ولما تولى علي رضي الله عنه الخلافة أراد عزله - ويبدو أن هناك ضغوطاً على علي رضي الله عنه من قبل الغوغاء لكي يعزل معاوية ، وخصوصاً أن الغوغاء يعرفون معاوية جيداً ، والذي جعلني أقول ذلك أن العلاقة بين علي ومعاوية قبل خلافة علي ، لا يوجد ما يشوبها ، بل كانت جيدة ، كما أن الغوغاء فيما بعد ضغطوا على أمير المؤمنين علي في عزل قيس بن سعد من مصر ونجحوا في ذلك وترتب على ذلك ضياع مصر ، وقد فصلت ذلك في كتابي أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

هذا وقد اختار أمير المؤمنين علي بدلاً من معاوية عبد الله بن عمر فأبى عليه عبد الله قبول ولاية الشام واعتذر في ذلك ، وذكر له القرابة والمصاهرة التي بينهما^(١) ، ولم يلزمه أمير المؤمنين علي ، وقبل منه طلبه بعدم الذهاب إلى الشام ، وأما الروايات التي تزعم أن علياً قام بالتهجم على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، لاعتزاله وعدم وقوفه إلى جانبه ، ففي ذلك الخبر تحريف وكذب^(٢) ، وأقصى ما وصل إليه الأمر في قضية عبد الله بن عمر وولاية الشام ما رواه الذهبي من طريق سفيان بن عيينة : عن ابن نافع ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : بعث إليَّ علي قال : يا أبا عبد الرحمن إنك رجل مطاع في أهل الشام ، فسرفقد أمرتكَ عليهم ، فقلت : أذكرك الله وقرابتي من رسول الله ﷺ ، وصحبتني إياه ، إلا ما أعفيتني ، فأبى علي ، فاستعنت بحفصة فأبى ، فخرجت ليلاً إلى مكة^(٣) . وهذا دليل قاطع على مبايعة ابن عمر ، ودخوله في الطاعة ، إذ كيف يوليه علي وهو لم يبايع ؟ !

(١) المصنف لابن أبي شيبه (٧/ ٤٧٢) إسناده صحيح .

(٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل ، (ص ١٦٠) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٤) رجاله ثقات .

وفي الاستيعاب لابن عبد البر ، من طريق أبي بكر بن أبي الجهم عن ابن عمر : أنه قال حين احتضر : ما آسى على شيء إلا تركي قتال الفئة الباغية مع علي رضي الله عنه ^(١) ، وهذا مما يدل أيضاً على مبايعته لعلي ، وإنه إنما ندم على عدم خروجه مع علي للقتال ، فإنه كان ممن اعتزل الفتنة ، فلم يقاتل مع أحد ، ولو كان قد ترك البيعة ، لكان ندمه على ذلك أكبر وأعظم ولصرح به ، فإن لزوم البيعة والدخول فيما دخل الناس فيه واجب ، والتخلف عنه متوعد عليه برواية ابن عمر نفسه : أن النبي ﷺ قال : «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» ^(٢) .

وهذا بخلاف الخروج للقتال مع علي ، فإنه مختلف فيه بين الصحابة ، وقد اعتزله بعض الصحابة ، فكيف يتصور أن يندم ابن عمر على ترك هذا القتال ، ولا يندم على ترك البيعة لو كان تاركاً لها ، مع ما فيه من الوعيد الشديد ، وبهذا يظهر بطلان قول بعض المؤرخين في زعمهم من ترك ابن عمر البيعة لعلي رضي الله عنه ؛ حيث ثبت أنه كان من المبايعين له ، بل من المقربين منه الذين كان يحرص على توليتهم ، والاستعانة بهم ، لما رأى فيه من صدق الولاء والنصح له ^(٣) ، وبعد اعتذار ابن عمر عن قبول ولاية الشام ، أرسل أمير المؤمنين علي سهيل بن حنيف بدلاً منه ، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية ، وقالوا له : إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك ، وإن كان بعثك غيره فارجع ^(٤) ، وكانت بلاد الشام تغلي غضباً على مقتل عثمان ظلماً وعدواناً .

أولاً: اختلاف الصحابة في الطريقة التي يؤخذ بها القصاص من قتلة عثمان :

إن الخلاف الذي نشأ بين أمير المؤمنين علي من جهة ، وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم من جهة أخرى ، ثم بعد ذلك بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ؛ لم يكن سببه ومنشؤه أن هؤلاء كانوا يقدحون في خلافة أمير المؤمنين علي وإمامته ، وأحقيته بالخلافة والولاية على المسلمين ، فقد كان هذا محل إجماع بينهم ، قال ابن حزم : ولم ينكر معاوية قط فضل علي ، واستحقاقه الخلافة ، ولكنَّ اجتهاده أذاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة ، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان ^(٥) .

وقال ابن تيمية : ومعاوية لم يدع الخلافة ، ولم يبايع له بها حين قاتل علياً ، ولم يقاتل على أنه خليفة ، ولا أنه يستحق الخلافة ، ويقرون له بذلك ، وقد كان معاوية يقرُّ بذلك لمن سألَه

(١) الاستيعاب (٣٢٦/٦) بحاشية كتاب الإصابة .

(٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، رقم (١٨٥١) .

(٣) الانتصار للصحب والآل ، (ص ٥٠٧) .

(٤) تهذيب تاريخ دمشق (٣٩/٤) ؛ خلافة علي ، لعبد الحميد ، (ص ١١٠) .

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/١٦٠) .

عنه ، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يتدنوا علياً وأصحابه بالقتال ، ولا فعلوا^(١) ، وقال أيضاً: وكل فرقة من المتشيعين مقرّة مع ذلك بأن معاوية ليس كفؤاً لعلي بالخلافة ، ولا يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي ، فإن فضل علي وسابقته وعلمه ودينه وشجاعته ، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معلومة ، كفضل إخوانه أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم^(٢) .

إن منشأ الخلاف لم يكن قدحاً في خلافة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وإنما اختلافهم في قضية الاقتصاص من قتلة عثمان ، ولم يكن خلافهم في أصل المسألة ، وإنما في الطريقة التي تعالج بها هذه القضية ، إذ كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه موافقاً من حيث المبدأ على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان ، وإنما كان رأيه أن يرجئ الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع وهدوء الأمور واجتماع الكلمة ، وهذا هو الصواب^(٣) .

قال النووي: واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة ، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهداهم وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف ، وأن مخالفه باغ ، فوجب عليهم نصرته ، وقاتل الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك ، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده ، وقسم عكس هؤلاء: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر ، فوجب عليهم مساعدتهم وقاتل الباغي عليه ، وقسم ثالث: اشتبعت عليهم القضية ، وتحيروا فيها ، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين ، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم ، لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك ، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين ، وأن الحق معه ، لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه^(٤) .

ثانياً: معركة صفين ٧٣هـ:

تسلسل الأحداث التي قبل المعركة:

١- أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ترسل النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام: لما قُتل عثمان رضي الله عنه: أرسلت أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى أهل عثمان: أرسلوا إليّ بثياب عثمان التي قُتل فيها ، فبعثوا إليها بقميصه مضرّجاً بالدم ، وبخصلة الشعر التي

(١) مجموع الفتاوى (٧٢/٣٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، (ص ١٥٨) .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٩/١٥) .

نتفت من لحيته ، ثم دعت النعمان بن بشير ، فبعثته إلى معاوية ، فمضى بذلك وبكتابها^(١) .

وجاء في رواية: خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بالدماء ، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين دافعت عنه بيدها^(٢) ، وكانت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوج عثمان كلبية شامية^(٣) ، فورد النعمان على معاوية بالشام ، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس ، وعلق الأصابع في كم القميص يرفع تارة ويوضع تارة ، والناس يتباكون حوله ، وحث بعضهم بعضاً على الأخذ بثأره^(٤) .

وجاء شرحبيل بن السمط الكندي وقال لمعاوية: كان عثمان خليفتنا ، فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا^(٥) ، وآلى رجال الشام ألا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش ، حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم^(٦) ، وكان ذلك ما يريده معاوية ، فقد كانت الصورة التي نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام كانت بشعة: مقتل الخليفة ، سيوف مصلطة من الغوغاء على رقاب الناس بالمدينة ، بيت المال منتهكاً مسلوباً ، وأصابع نائلة مقطوعة ، فهاجت النفوس والعواطف ، واهتزت المشاعر ، وتأثرت بها القلوب ، وذرفت منها العيون . ولذلك كان إصرار معاوية ومن معه من أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ، وتسليم القتلة للقصاص قبل البيعة . وهل تتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد المسلمين من حاquدين محتالين متآمرين ، ولا يتماوج العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه للقصاص من أصحاب هذه الجريمة البشعة؟!^(٧) .

٢- دوافع معاوية رضي الله عنه في عدم البيعة :

كان معاوية رضي الله عنه والياً على الشام في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما ، ولما تولى الخلافة علي رضي الله عنه أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، فاعتذر ابن عمر ، فأرسل علي سهل بن حنيف بدلاً منه ، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام - وادي القرى - حتى عاد من حيث جاء ، إذ لقيته خيل لمعاوية عليها حبيب بن مسلمة الفهري ، فقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيهلاً بك ، وإن كان بعثك غيره فارجع^(٨) .

(١) تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين ، (ص ٥٣٩) .

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٥٣٩) .

(٣) تاريخ الدعوة الإسلامية ، لمحمد جميل ، (ص ٣٩٨) .

(٤) البداية والنهاية (٧/ ٥٣٩) سندها ضعيف .

(٥) الأنساب (٤/ ٤١٨) ؛ تاريخ الدعوة الإسلامية ، (ص ٣٩٨) .

(٦) تاريخ الطبري (٥/ ٦٠٠) .

(٧) معاوية بن أبي سفيان ، للغضبان ، (ص ١٧٨ ، ١٨٣) .

(٨) تاريخ الطبري (٥/ ٤٦٦) .

لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ، ورأوا أن يقتصر علي رضي الله عنه من قتلة عثمان رضي الله عنه ثم يدخلون البيعة^(١) ، وقالوا: لا نبايع من يؤوي القتلة^(٢) . وتخوفوا على أنفسهم من قتلة عثمان رضي الله عنه الذين كانوا في جيش علي ، فرأوا أن البيعة لعلي لا تجب عليهم قبل القصاص ، وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين ، قالوا: لأن عثمان قتل مظلوماً باتفاق المسلمين ، وقتلته في عسكر علي ، وهم غالبون لهم شوكة ، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثمان ، وكان معاوية رضي الله عنه يرى أن عليه مسؤولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه ، فهو ولي دمه ، والله يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] .

لذلك جمع معاوية الناس ، وخطبهم بشأن عثمان ، وأنه قتل مظلوماً على يد سفهاء منافقين لم يقدروا الدم الحرام ، إذ سفكوه في الشهر الحرام في البلد الحرام ، فثار الناس ، واستنكروا وعلت الأصوات ، وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقام أحدهم واسمه مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت . . . وذكر الفتن وقربها ، فمر رجل متنقع في ثوب ، فقال: «هذا يومئذ على الهدى» ، فقامت إليه ، فإذا هو عثمان بن عفان ، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: «نعم»^(٣) .

وهناك حديث آخر له تأثيره في طلب معاوية القود من قتلة عثمان ، ويعد منشطاً ودافعاً قوياً للتصميم على تحقيق الهدف ، وهو: عن النعمان بن بشير ، عن عائشة رضي الله عنهما ، قالت: أرسل رسول الله ﷺ . . . فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه ، فقال: «يا عثمان! إن الله عسى أن يلبسك قميصاً ، فإن أراذك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني» . ثلاثاً ، فقلت لها: يا أم المؤمنين! فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيت والله ما ذكرته ، قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان ، فلم يرض بالذي أخبرته ، حتى كتب إلى أم المؤمنين: أن اكتبني إلي به ، فكتبت إليه به كتاباً^(٤) .

لقد كان الحرص الشديد في تنفيذ حكم الله في القتلة السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مقدم على البيعة ، وليست لأطماع معاوية في ولاية الشام فضلاً عن طلبه للخلافة ، إذ كان يدرك إدراكاً تاماً أن هذا الأمر في بقية الستة من أهل الشورى ، وأن علياً أفضل منه وأولى

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٢٩).

(٢) العواصم من القواصم ، (ص ١٦٢).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٤٠).

(٤) مسند أحمد ، رقم (٢٤٠٤٥) حديث صحيح .

بالأمر منه^(١) ، فعن أبي مسلم الخولاني : أنه قال لمعاوية : أنت تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال : لا والله إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني ، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنا ابن عمه ، والطالب بدمه ، فأتوه ، فقولوا له ، فليدفع إلي قتلة عثمان وأسلم له ، فأتوا علياً فكلّموه ، فلم يدفعهم إليه^(٢) .

وأما ما شاع بين الناس قديماً وحديثاً أن الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان سببه طمع معاوية في الخلافة ، وأن خروج هذا الأخير على عليّ وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام ، فهذه روايات لا تصح ولا تثبت ، فقد جاء في كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري ، وهو لا يثبت له وإنما صاحبه ذو أنفاس شيعية ، فقد ذكر أنّ معاوية ادّعى الخلافة ، وذلك من خلال الرواية التي ورد فيها ما قاله ابن الكواء لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه : اعلم أن معاوية طليق الإسلام ، وأنا أباه رأس الأحزاب ، وأنه ادّعى الخلافة من غير مشورة ، فإن صدقك فقد حلّ خلعه ، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه^(٣) . وهذا كلام لا يثبت عن أمير المؤمنين علي وإنما من كلام الشيعة ، وسيأتي الحديث عن كتاب الإمامة والسياسة وبيان كذبه وزوره ودوره في تشويه حقائق التاريخ في موضعه بإذن الله ، وقد امتلأت كتب التاريخ والأدب بالروايات الموضوعة والضعيفة التي تزعم أن معاوية اختلف مع علي من أجل الملك والزعامة والإمارة^(٤) .

والصحيح أن الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان حول مدى وجوب بيعة معاوية وأصحابه لعلي قبل توقيع القصاص على قتلة عثمان أو بعده ، وليس هذا في أمر الخلافة في شيء ، فقد كان رأي معاوية رضي الله عنه ومن حوله من أهل الشام أن يقتص عليّ رضي الله عنه من قتلة عثمان ، ثم يدخلون بعد ذلك في البيعة^(٥) .

يقول القاضي ابن العربي : إن سبب القتال بين أهل الشام وأهل العراق يرجع إلى تباين المواقف بينهما ؛ فهؤلاء - أي : أهل العراق - يدعون إلى عليّ بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام ، وهؤلاء - أي : أهل الشام - يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان ويقولون : لا نبايع من يؤوي القتلة^(٦) .

(١) خلافة علي بن أبي طالب ، لعبد الحميد ، (ص ١١٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٠) رجاله ثقات وإسناده جيد .

(٣) الإمامة والسياسة (١/ ١١٣) .

(٤) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢/ ١٤٥) .

(٥) البداية والنهاية (٨/ ١٢٩) ؛ فتح الباري (١٣/ ٩٢) .

(٦) العواصم من القواصم ، (ص ١٦٢) .

ويقول إمام الحرمين في (لمع الأدلة): إن معاوية وإن قاتل علياً ، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدّعيها لنفسه ، وإنما كان يطلب قتل عثمان ظاناً أنه مصيب ، وكان مخطئاً^(١).

ويقول الهيثمي: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أنّ ما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما من الحروب ، لم يكن لمنازعة معاوية لعلي في الخلافة للإجماع على أحقيتها لعلي ، فلم تهج الفتنة بسببها ، وإنما هاجت بسبب أن معاوية ابن عمّه أراد من علي تسليمه قتل عثمان للاقتصاص منهم ، فامتنع علي^(٢).

لقد تضافرت الروايات وأشارت إلى أنّ معاوية رضي الله عنه اتخذ موقفه للمطالبة بدم عثمان ، وأنه صرح بدخوله في طاعة علي رضي الله عنه إذا أقيم الحد على قتل عثمان ، ولو افترض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال علي وطمعاً في السلطة ، فماذا سيحدث لو تمكن علي من إقامة الحد على من قتل عثمان؟! حتماً ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلي ومبايعته له ، لأنه التزم بذلك في موقفه من تلك الفتنة ، كما أن كل من حارب معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتل عثمان ، على أن معاوية إذا كان يخفي في نفسه شيئاً آخر لم يعلن عنه ، سيكون هذا الموقف بالتالي مغامرة ، ولا يمكن أن يقدم عليها إذا كان ذا أطماع^(٣).

إن معاوية رضي الله عنه كان من كتاب الوحي ، ومن قادة الصحابة ، وأكثرهم حليماً ، فكيف يعتقد أن يقاتل الخليفة الشرعي ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل؟! وهو القائل: والله لا أخير بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه^(٤) ، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيه: «اللهم اجعله هادياً مهدياً ، واهد به»^(٥) ، وقال: «اللهم علمه الكتاب وقه العذاب»^(٦).

وأما وجه الخطأ في موقفه من مقتل عثمان رضي الله عنه ، فيظهر في رفضه أن يبايع لعلي رضي الله عنه قبل مبادرته إلى الاقتصاص من قتل عثمان ، ويضاف إلى ذلك خوف معاوية على نفسه لمواقفه السابقة من هؤلاء الغوغاء ، وحرصهم على قتله ، بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم ، مع العلم أن الطالب للدم لا يصح أن يحكم ، بل يدخل في الطاعة ويرفع دعواه إلى الحاكم ،

(١) لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة ، (ص ١١٥).

(٢) الصواعق المحرقة (٢/٦٢٢). هذا هو اجتهاد معاوية ، وإن كان الصواب هو أن يبايع معاوية علياً ، ويطالب بالدعوة للقصاص .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/١٥٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/١٥١).

(٥) صحيح سنن الترمذي للألباني ، رقم ٣٠١٨ (٣/٢٣٦).

(٦) فضائل الصحابة (٢/٣١٩) إسناده حسن .

ويطلب الحق عنده^(١)، وقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصر من أحد ويأخذ حقه دون السلطان، أو من نصبه السلطان لهذا الأمر، لأن ذلك يفضي إلى الفتنة وإشاعة الفوضى^(٢).

ويمكن القول: إن معاوية رضي الله عنه كان مجتهداً، متأولاً يغلب على ظنه أن الحق معه، فقد قام خطيباً في أهل الشام بعد أن جمعهم وذكّرهم أنه ولي عثمان - ابن عمه - وقد قتل مظلوماً، وقرأ عليهم الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. ثم قال: أنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان، فقام أهل الشام جميعهم وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهد والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفي الله أرواحهم^(٣).

وإذا قارنا بين طلحة والزبير رضي الله عنهما، ومعاوية؛ لاحظنا أنهما أقرب إلى الصواب من معاوية رضي الله عنه ومن معه من أربعة أوجه:

أولها: مبايعتهما لعلي رضي الله عنه طائعين مع اعتراضهما بفضله، ومعاوية لم يبايعه وإن كان معترفاً بفضله^(٤).

والثاني: منزلتهما في الإسلام وعند المسلمين وسابقتهما على معاوية، ولا شك أن معاوية دونهما فيها^(٥).

الثالث: أنهما أرادا قتل الخوارج على عثمان فقط، ولم يتعمدا محاربة علي ومن معه في وقعة الجمل^(٦)، بينما أصر معاوية على حرب علي ومن معه في صفين^(٧).

والرابع: لم يتهما علياً بالهوادة في أخذ القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية ومن معه اتهموه بذلك^(٨).

ونضيف نقطة خامسة: أن طلحة والزبير اقتنعا بصواب موقف علي ودخلا في الطاعة عندما اتفقا مع القعقاع بن عمرو، وإنما الحرب كانت بإثارة الغوغاء والسبئية لها.

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١٥١/٢).

(٢) تفسير القرطبي (٢٥٦/٢).

(٣) صفين، لابن مزاحم، ص ٣٢؛ تحقيق مواقف الصحابة (١٥٢/٢).

(٤) البداية والنهاية (١٢٩/٨)؛ وفتح الباري (٩٢/١٣).

(٥) كان طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة.

(٦) تحقيق مواقف الصحابة (١١٣/٢)؛ تاريخ الطبري (٤٧٥/٥).

(٧) تاريخ الطبري (٦١٢-٦١٥).

(٨) تحقيق مواقف الصحابة (١٣٩/٢)؛ البداية والنهاية (٢٥٩/٧).

٣- معاوية يرد على أمير المؤمنين علي رضي الله عنهما:

بعث علي رضي الله عنه كتباً كثيرة إلى معاوية ، فلم يرد عليه جوابها ، وتكرر ذلك مراراً إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان رضي الله عنه في صفر ، ثم بعث معاوية طوماراً^(١) مع رجل ، فدخل به على علي رضي الله عنه ، فقال له علي : ما وراءك؟ قال : جئتكم من عند قوم لا يريدون إلا القود^(٢) ، كلهم موتور^(٣) ، تركت ستين ألف شيخ يكون تحت قميص عثمان ، وهو على منبر دمشق ، فقال علي : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . ثم خرج رسول معاوية من بين يدي علي ، فهم به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله ، فما أفلت إلا بعد جهد^(٤) .

٤- تجهيز أمير المؤمنين علي لغزو الشام:

بعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين علي رضي الله عنهما ، عزم الخليفة على قتال أهل الشام ، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم ، وإلى أبي موسى الأشعري بالكوفة ، وبعث إلى عثمان بن حنيف بالبصرة بذلك ، وخطب الناس فحثهم على ذلك ، وعزم على التجّه ، وخرج من المدينة ، واستخلف عليها قثم بن العباس ، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاء وخرج عن أمره ولم يبايعه مع الناس ، وجاء إليه ابنه الحسين رضي الله عنهما فقال : يا أبتِ دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين ، ووقع الاختلاف بينهم ، فلم يقبل منه ذلك ، بل صمم على القتال ، ورتّب الجيش ، فدفع اللواء إلى محمد ابن الحنفية ، وجعل ابن عباس على الميمنة ، وعمر بن أبي سلمة على الميسرة ، وقيل : جعل علي الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد ، وجعل علي مقدمته أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخ أبي عبيدة ، واستخلف على المدينة قثم بن العباس ، ولم يبق شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصداً الشام ، جاءه ما يشغله عن ذلك^(٥) ، وقد تمّ تفصيل ذلك من خروج عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم إلى البصرة إلى معركة الجمل ، فليرجع إليه في كتاب : أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب^(٦) .

٥- إرسال أمير المؤمنين علي جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل:

ذكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين علي إلى فتنة السبئية الثانية ، أو ما يسمى البصرة ،

(١) الطومار : الصحيفة .

(٢) القود : القتل بالقتيل .

(٣) الموتور : صاحب الثأر .

(٤) البداية والنهاية (٧/ ٢٤٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٧/ ٢٤٠ ، ٢٤١) .

(٦) علي بن أبي طالب ، للصلابي ، (١/ ٤٩٨ إلى ٦٢٤) .

أو معركة الجمل ، خمسة أشهر وواحد وعشرون يوماً ، وبين دخوله الكوفة شهر ، وبين ذلك وخروجه إلى صفين ستة أشهر^(١) ، وروي شهران أو ثلاثة^(٢) ، وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين ، فقبل له : انزل بالقصر الأبيض . فقال : لا ؛ إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله ، فأنا أكره لذلك ، فنزل في الرحبة وصلى بالجامع الأعظم ركعتين ، ثم خطب الناس فحثهم على الخير ، ونهاهم عن الشر ، ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه ، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله ، وكان على همدان من زمان عثمان ، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على من هنالك ثم يقبلا إليه ، ففعلا ذلك ، فلما أراد علي أن يبعث إلى معاوية يدعو إلى بيعته ، قال جرير بن عبد الله البجلي : أنا ذاهب إليه يا أمير المؤمنين ، فإن بيني وبينه وُدّاً ، فأخذ لك البيعة منه ، فقال الأشتر : لا تبعه يا أمير المؤمنين ، فإني أخشى أن يكون هواه معه . فقال علي : دعه .

فبعثه وكتب معه كتاباً إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ويخبره بما كان في وقعة الجمل ، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، فلما انتهى إليه جرير بن عبد الله ، أعطاه الكتاب ، وطلب معاوية رضي الله عنه عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام ، فاستشارهم ، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان ، أو يسلم إليهم قتلة عثمان ، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم .

فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا ، فقال الأشتر : ألم أنهك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً؟! فلو كنت بعثني لما فتح معاوية باباً إلا أغلقته . فقال له جرير : لو كنت لقتلوك بدم عثمان . فقال الأشتر : والله لو بعثني لم يعنني جواب معاوية ولأعجلته عن الفكرة ، ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين ، لحبستك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة .

فقام جرير مغضباً فأقام بقرقيسياء وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وقيل له ، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه^(٣) . وهكذا كان الأشتر سبباً في إبعاد الصحابي جرير بن عبد الله ، الذي كان والياً على قرقيسياء وعلى غيرها ، ورأساً في قبيلته بجيلة ، ويضطره إلى مفارقة أمير المؤمنين علي ، وهذا الصحابي جرير بن عبد الله البجلي قال : ما رأي رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي ، وقال ﷺ : « يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذي يمن ، على وجهه مسحة ملك »^(٤) .

(١) مروج الذهب (٢/ ٣٦٠).

(٢) التاريخ الصغير ، للبخاري (١/ ١٠٢).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٥).

(٤) مسلم ، رقم (٢٤٧٥).

٦- مسيرة أمير المؤمنين علي إلى الشام:

استعد أمير المؤمنين علي لغزو الشام ، فبعث يستنفر الناس ، وجهاز جيشاً ضخماً اختلفت الروايات في تقديره ، وكلها روايات ضعيفة^(١) ، إلا رواية واحدة حسنة الإسناد ذكرت أنه سار في خمسين ألفاً^(٢).

وكان مكان تجمع جند أمير المؤمنين بالنخلة^(٣) ، وهو على ميلين من الكوفة آنذاك ، فتوافدت عليه القبائل من شتى أقاليم العراق^(٤) ، واستعمل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أبا مسعود الأنصاري ، وبعث من النخلة زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف مقاتل ، وبعث شريح بن هانئ في أربعة آلاف ، ثم خرج علي رضي الله عنه بجيشه إلى المدائن (بغداد) ، فانضم إليه من فيها من المقاتلة ، وولى عليها سعد بن مسعود الثقفي ، ووجه منها طليعة في ثلاثة آلاف إلى الموصل^(٥) ، وسلك علي رضي الله عنه طريق الجزيرة الرئيسي على شط الفرات الشرقي حتى بلغ قرب قرقيساء^(٦) ، فأثته الأخبار بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين ، فتقدم علي رضي الله عنه إلى الرقة^(٧) ، وعبر منها الفرات غرباً ونزل على صفين^(٨).

٧- خروج معاوية إلى صفين:

كان معاوية جاداً في مطاردة قتلة عثمان رضي الله عنه ؛ فقد استطاع أن يترصد جماعة ممن غزا المدينة من المصريين أثناء عودتهم ، وقتلهم ؛ ومنهم : أبو عمرو بن بديل الخزاعي^(٩) ، ثم كانت له أيد في مصر ، وشيعة في أهل (حربتا) تطالب بدم عثمان رضي الله عنه ، وقد استطاعت هذه الفرقة من إيقاع الهزيمة بمحمد بن أبي حذيفة في عدة مواجهات عام ٣٦ هـ ، كما استطاع أيضاً أن يوقع برؤوس مدبري ومخططي غزو المدينة من المصريين مثل : عبد الرحمن بن عديس ، وكنانة بن بشر ، ومحمد بن حذيفة ، فحبسهم في فلسطين ، وذلك في الفترة التي

(١) أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (٢/ ٦٣٠).

(٢) تاريخ خليفة ، (ص ١٩٣) ، بسند حسن .

(٣) النخلة : موقع قرب الكوفة من جهة الشام . معجم البلدان (٥/ ٣٧٨).

(٤) خلافة علي بن أبي طالب ، لعبد الحميد ، (ص ١٨٨).

(٥) تاريخ الطبري (٥/ ٦٠٣) بسند منقطع .

(٦) قرقيساء : بلد يقع على نهر الخابور عند مصبه في الفرات . معجم البلدان (٤/ ٣٢٨).

(٧) الرقة : مدينة مشهورة في سورية اليوم على نهر الفرات الشرقي . معجم البلدان (٣/ ١٥٣).

(٨) تاريخ الطبري (٥/ ٦٠٤).

(٩) المحن ، لأبي العرب التميمي ، ص ١٢٤ ؛ خلافة علي ، لعبد الحميد ، (ص ١٩١).

سبقت خروجه إلى صفين ، ثم قتلهم في شهر ذي الحجة عام ٣٦هـ^(١) .

وعندما علم معاوية بتحرك جيش العراق نحو صفين جمع مستشاريه من أعيان أهل الشام ، وخطب فيهم وقال : إن علينا نهد إليكم في أهل العراق ، . . فقال ذو الكلاع الحميري : عليك أم رأي وعلينا أم فعال^(٢) .

وكان أهل الشام قد بايعوا معاوية على الطلب بدم عثمان رضي الله عنه والقتال^(٣) ، وقد قام عمرو بن العاص رضي الله عنه بتجهيز الجيش وعقد الألوية ، وقام في الجيش خطيباً يحرضهم ، فقال : إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم ، وفلوا حدّهم ، ثم إن أهل البصرة المخالفين لعلي قد وترهم وقتلهم ، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل ، وإنما سار في شردمة قليلة ، ومنهم من قد قتل خليفتمكم ، فالله الله في حقكم أن تضعوه ، وفي دمكم أن تبطلوه^(٤) .

وسار معاوية في جيش ضخم ، اختلفت الروايات في تقديره وكلها روايات منقطعة أسانيدھا ، وهي عين الروايات التي قدرت جيش علي رضي الله عنه ، فقدر بمئة ألف وعشرين ألفاً^(٥) ، وقدر بسبعين ألف مقاتل ، وقدر بأكثر من ذلك بكثير؛ إلا أن الأقرب للصواب أنهم ستون ألف مقاتل ، فهي وإن كانت منقطعة الإسناد إلا أن راويها صفوان بن عمرو السكسكي ، حمصي من أهل الشام ولد عام ٧٢هـ وهو ثبت ثقة ، وقد أدرك خلقاً ممن شهد صفين ، كما تبين من دراسة ترجمته^(٦) ، والإسناد إليه صحيح^(٧) .

وكان قادة جيش معاوية على النحو التالي : عمرو بن العاص على خيول أهل الشام كلها ، والضحاك بن قيس على رجاله الناس كلهم ، وذو الكلاع الحميري على ميمنة الجيش ، وحبيب بن مسلمة على ميسرة الجيش ، وأبو الأعور السلمي على المقدمة ، هؤلاء هم القادة الكبار ، وتحت كل قائد من هؤلاء قادة وزعوا على حسب القبائل ، وكان هذا الترتيب عند مسيرهم إلى صفين ، ولكن أثناء الحرب تغير بعض القادة وظهر قادة آخرون مما اقتضته

(١) خلافة علي ، لعبد الحميد ، (ص ١٩١) .

(٢) الإصابة (١/ ٤٨٠) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، (ص ١٩٢) .

(٣) أنساب الأشراف (٥٢/ ٢) بسند منقطع ؛ وخلافة علي ، (ص ١٩٢) .

(٤) تاريخ الطبري (٦٠١/ ٥) بسند منقطع .

(٥) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، ص ١٩٤ ؛ المعرفة والتاريخ (٣/ ٣١٣) .

(٦) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٨٠) .

(٧) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، (ص ١٩٤) .

الظروف ، ولعل هذا يكون السبب في اختلاف أسماء القادة في بعض المصادر^(١).

وبعث معاوية أبا الأعور السلمي مقدمة للجيش ، وكان خط سيرهم إلى الشمال الشرقي من دمشق ، ولما بلغ صفين أسفل الفرات ، عسكر في مكان سهل فسيح ، إلى جانب شريعة ماء في الفرات ، ليس في ذلك المكان شريعة غيرها ، وجعلها في حيزه^(٢).

٨- القتال على الماء :

وصل جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى صفين ، حيث عسكر معاوية ، ولم يجد موضعاً فسيحاً سهلاً يكفي الجيش ، فعسكر في موضع وعراً نوعاً ما ؛ إذ أغلب الأرض صخور ذات كدى وأكمت^(٣) ، ففوجئ جيش العراق بمنع معاوية عنهم الماء ، فهرع البعض إلى علي رضي الله عنه يشكون إليه هذا الأمر ، فأرسل علي إلى الأشعث بن قيس فخرج في ألفين ، ودارت أول معركة بين الفريقين ، انتصر فيها الأشعث واستولى على الماء^(٤) ، إلا أنه قد وردت رواية تنفي وقوع القتال من أصله ؛ مفادها : أن الأشعث بن قيس جاء إلى معاوية فقال : الله الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ ! هبوا أنكم قتلتم أهل العراق ، فمن للبعوث والذراري؟! إن الله يقول : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : ٩] . قال معاوية : فما تريد؟ قال : خلوا بيننا وبين الماء ، فقال لأبي الأعور : خل بين إخواننا وبين الماء^(٥).

وقد كان القتال على الماء في أول يوم تواجهها فيه في بداية شهر ذي الحجة فاتحة شر على الطرفين من المسلمين ، إذا استمر القتال بينهما متواصلاً طوال هذا الشهر ، وكان القتال على شكل كتائب صغيرة ، فكان علي رضي الله عنه يخرج من جيشه كتيبة صغيرة يؤمر عليها أميراً ، فيقتتلان مرة واحدة في اليوم في الغداة أو العشي ، وفي بعض الأحيان يقتتلان مرتين في اليوم ، وكان أغلب من يخرج من أمراء الكتائب في جيش علي : الأشتر ، وحجر بن عدي ، وشبث بن ربعي ، وخالد بن المعتمر ، ومعقل بن يسار الرياحي ، ومن جيش معاوية أغلب من يخرج : حبيب بن مسلمة ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وأبو الأعور السلمي ، وشرحبيل بن السمط ، وقد تجنبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك

(١) امتداد العرب في صدر الإسلام ، صالح العلي ، خلافة علي ، (ص ١٩٤).

(٢) صفين ، لنصر بن مزاحم ، (ص ١٦٠-١٦١).

(٣) خلافة علي بن أبي طالب ، لعبد الحميد ، (ص ١٩٦).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٤/١٥) بسند حسن .

(٥) سير أعلام النبلاء (٤١/٢)؛ مرويات أبي مخنف ، (ص ٢٩٦).

والاستئصال ، وأملاً في وقوع صلح بين الطرفين تصان به الأرواح والدماء^(١) .

٩- المواقعة بينهما ومحاولات الصلح :

ما إن دخل شهر المحرم ، حتى بادر الفريقان إلى المواقعة والهدنة ، طمعاً في صلح يحفظ دماء المسلمين ، فاستغلوا هذا الشهر في المراسلات بينهم ، ولكن المعلومات عن مراسلات هذه الفترة- شهر المحرم - وردت من طرق ضعيفة^(٢) ، مشهورة ، إلا أن ضعفها لا ينفي وجودها .

كان البادي بالمراسلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأرسل بشير بن عمرو الأنصاري ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وشبث بن ربعي التميمي إلى معاوية رضي الله عنه يدعوه كما دعاه من قبل إلى الدخول في الجماعة والمبايعة ، فرد معاوية عليه برده السابق المعروف ، بتسليم قتلة عثمان أو القود منهم أولاً ، ثم يدخل في البيعة ، وقد تبين لنا موقف علي من هذه القضية^(٣) .

كما أن قُرَاء الفريقين قد عسكروا في ناحية من صفين ، وهم عدد كبير ، قد قاموا بمحاولات للصلح بينهما ، فلم تنجح تلك المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه^(٤) ، وقد حاول اثنان من الصحابة - وهما : أبو الدرداء ، وأبو أمامة رضي الله عنهما - الصلح بين الفريقين ، فلم تنجح مهمتهما ، فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما^(٥) ، وكذلك حضر مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين وخطب الناس في محاولة منه لرأب الصدع بينهم ؛ فقال : أيها الناس أنصتوا . . ثم قال : أرأيتم لو أن منادياً ناداكم من السماء فسمعتكم كلامه ورأيتموه فقال : إن الله ينهاكم عما أنتم فيه ، أكنتم مطيعيه ، قالوا : نعم . قال : فوالله لقد نزل بذلك جبرائيل على محمد . . فما زال يأتي من هذا . ثم تلا : ﴿ يَأْتِيهَا الذَّبَابُ مَنُوءًا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ مِجْرَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] . ثم انساب في الناس فذهب^(٦) .

(١) خلافة علي بن أبي طالب ، لعبد الحميد ، (ص ١٩٧ ، ١٩٨) ؛ تاريخ الطبري (٥/ ٦١٤) ؛ البداية والنهاية (٧/ ٢٦٦) .

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٦١٢ ، ٦١٣) ؛ خلافة علي بن أبي طالب ، (ص ١١٩) .

(٣) تاريخ الطبري (٥/ ٦١٣) خلافة علي بن أبي طالب ، (ص ١٩٩) .

(٤) المصدر السابق نفسه (٥/ ٦١٤) .

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٠) .

(٦) الطبقات (٦/ ٧٨) ، القراء دورهم في الحياة العامة في صدر الإسلام والخلافة الأموية ، هادي حسين حمود .

وقد انتقد ابن كثير التفصيلات الطويلة التي جاءت في روايات أبي مخنف ونصر بن مزاحم ، بخصوص المراسلات بين الطرفين فقال : . . . ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلاً جرى بينهم وبين علي ، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر ، فإن في مطاوي ذلك الكلام من علي ما ينتقص فيه معاوية وأباه ، وأنهم إنما دخلوا في الإسلام ولم يزلوا في تردد فيه ، وغير ذلك ، وأنه قال في غضون ذلك : لا أقول إن عثمان قُتل مظلوماً ولا ظالماً ، وهذا عندي لا يصح من علي رضي الله عنه^(١) . وموقف علي رضي الله عنه من قتل عثمان رضي الله عنه واضح ، وقد بينته في كتابي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وفي هذا الكتاب .

ثالثاً: نشوب القتال :

عادت الحرب على ما كانت عليه في شهر ذي الحجة من قتال الكتائب والفرق والمبارزات الفردية ، خشية الالتحام الكلي ، إلى أن مضى الأسبوع الأول منه ، وكان عدد الوقعات الحربية بين الفريقين إلى هذا التاريخ أكثر من سبعين وقعة ، وذكر أنها تسعون^(٢) ، إلا أن علياً أعلن في جيشه أن غداً الأربعاء سيكون الالتحام الكلي لجميع الجيش ، ثم نبذ إلى معاوية يخبره بذلك^(٣) ، فثار الناس في تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها ، وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فل سلاحه ، وهو يحرض الناس على الاستبسال في القتال^(٤) ، وبات جميع الجيش في مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية^(٥) .

١- اليوم الأول :

أصبح الجيشان في يوم الأربعاء قد نظمت صفوفهم ووزعوا حسب التوزيع المتبع في المعارك الكبرى: قلب ، وميمنة ، وميسرة ، فكان جيش علي رضي الله عنه على النحو التالي^(٦) : علي بن أبي طالب على القلب ، وعبد الله بن عباس على الميسرة ، وعمر بن ياسر على الرجال ، ومحمد ابن الحنفية حامل الراية ، وهشام بن عتبة (المرقال) حامل اللواء ، والأشعث بن قيس على الميمنة . وأما جيش الشام ، فمعاوية في كتيبة الشهباء أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع وهو أمير الجيش ، وعمرو بن العاص قائد خيل الشام كلها ، وذو الكلاع

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٩) .

(٢) الأبناء بتواريخ الخلفاء ، (ص ٥٩)؛ شذرات الذهب (١/ ٤٥) .

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٣) .

(٤) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٤٠) ضعيف .

(٥) علي بن أبي طالب ، للصلابي (٢/ ٦٣٥) .

(٦) تاريخ خليفة بن خياط ، (ص ١٩٣) ، بسند حسن إلى شاهد عيان .

الحميري على الميمنة على أهل اليمن ، وحبيب بن مسلمة الفهري على الميسرة على مضر ، والمخارق بن الصباح الكلاعي حامل اللواء^(١) ، وتقابلت الجيوش الإسلامية ومن كثرتها قد سدت الأفق ، ويقول كعب بن جعيل التغلبي أحد شعراء العرب^(٢) وذلك عندما رأى الناس في ليلة الأربعاء وقد وثبوا إلى نبأهم وسيوفهم يصلحونها استعداداً لهذا اليوم :

أَصْبَحَتِ الْأُمَّةُ فِي أَمْرٍ عَجَبٍ وَالْمُلْكُ مَجْمُوعٌ غَدًا لِمَنْ غَلِبَ
فَقُلْتُ قَوْلًا صَادِقًا غَيْرَ كَذِبٍ إِنَّ غَدًا تَهْلِكُ أَعْلَامُ الْعَرَبِ^(٣)

وتذكر بعض الروايات الضعيفة أن علياً خطب في جيشه ، وحرصهم على الصبر والإقدام والإكثار من ذكر الله^(٤) ، وتذكر أيضاً أن عمرو بن العاص قد استعرض جيشه ، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقامتها^(٥) ، وهذه الروايات لا يوجد مانع من الأخذ بها ، لأن كل قائد يحرض جيشه ويحمسه ، ويهتم بكل ما يؤدي به إلى النصر .

والتحم الجيشان في قتال عنيف ، استمر محتدماً إلى غروب الشمس لا يتوقف إلا لأداء الصلاة ، يصلي كل فريق في معسكره ، وبينهما جثث القتلى في الميدان تفصل بينهما ، وسأل أحد أفراد جيش علي رضي الله عنه حين انصرافه من الصلاة ، فقال : ما تقول في قتالنا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال : من قتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة^(٦) .

وقد صبر بعضهم على بعض فلم يغلب أحد أحداً ، ولم ير مولياً حتى انتهى ذلك اليوم . وفي المساء خرج علي رضي الله عنه إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام ، فدعا ربه قائلاً : اللهم اغفر لي ولهم^(٧) .

٢- اليوم الثاني :

في يوم الخميس تذكر الروايات : أن علياً رضي الله عنه قد غلس بصلاة الفجر واستعد للهجوم ، وغير بعض القيادات ، فوضع عبد الله بن بديل الخزاعي على الميمنة بدلاً من الأشعث بن قيس الكندي الذي تحول إلى الميسرة^(٨) ، وزحف الفريقان نحو بعضهما واشتبكوا

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) الأعلام ، للزركلي (٦/ ١٨٠) .

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٣) ؛ تاريخ الطبري (٥/ ٦٢٦) .

(٤) تاريخ الطبري (٥/ ٦٢٢) من طريق أبي مخنف .

(٥) الطبقات (٤/ ٢٥٥) من طريق الواقدي .

(٦) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٤٤-٣٤٥) بسند ضعيف .

(٧) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٩٧) بسند صحيح .

(٨) تاريخ الطبري (٥/ ٦٣٠) .

في قتال عنيف أشد من سابقه ، وبدأ أهل العراق في التقدم وأظهروا تفوقاً على أهل الشام ، واستطاع عبد الله بن بديل أن يكسر ميسرة معاوية وعليها حبيب بن مسلمة ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء) ، وأظهر شجاعة وحماساً منقطع النظير ، وصاحب هذا التقدم الجزئي تقدم عام لجيش العراق ، حتى إن معاوية ، قد حدثه نفسه بترك ميدان القتال ، إلا أنه صبر وتمثل بقول الشاعر:

أَبْتُ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلَاثِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالْثَمَنِ الرِّبِيحِ
وإِكْرَاهِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرَبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمَشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَأْتُ مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْرِيحِي^(١)

واستحث كتيبته الشهباء ، واستطاعوا قتل عبد الله بن بديل ، فأخذ مكانه في قيادة الميمنة الأشر ، وتماسك أهل الشام وباع بعضهم على الموت ، وكروا مرة أخرى بشدة وعزيمة وقتل عدد من أبرزهم ذو الكلاع ، وحوشب ، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وانقلب الأمر لجيش الشام ، وأظهر تقدماً ، وبدأ جيش العراق في التراجع ، واستحضر القتل في أهل العراق ، وكثرت الجراحات ، ولما رأى علي جيشه في تراجع ، أخذ يناديهم ويحمسهم ، وقاتل قتالاً شديداً واتجه إلى القلب حيث ربيعة ، فثارت فيهم الحمية وباعوا أميرهم خالد بن المعمر على الموت وكانوا أهل قتال^(٢).

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه قد جاوز الرابعة والتسعين عاماً ، وكان يحارب بحماس ، يحرض الناس ، ويستنهض الهمم ، ولكنه بعيد كل البعد عن الغلو ، فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كفر أهل الشام ، فهاء عمار عن ذلك وقال: إنما بغوا علينا ، فنحن نقاتلهم لبغيهم ، فإلها واحد ونبينا واحد وقبلتنا واحدة^(٣).

ولما رأى عمار رضي الله عنه تقهقر أصحابه ، وتقدم خصومه ، أخذ يستحثهم ويبين لهم أنهم على الحق ولا يغرنهم ضربات الشاميين الشديدة ، فيقول رضي الله عنه: من سره أن تكتفه الحور العين فليقدم بين الصنفين محتسباً ، فإني لأرى صفاً يضربكم ضرباً يرتاب منه المبطلون ، والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر ، لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل ، لعلمنا أن مصلحينا على الحق وأنهم على الباطل^(٤).

ثم أخذ في التقدم ، وفي يده الحربة ترعد - لكبر سنه - ويشدد على حامل الراية هاشم بن

(١) المصدر السابق نفسه (٦٣٦/٥).

(٢) الإصابة (٤٥٤/١)؛ أنساب الأشراف (٥٦/٢) بسند حسن إلى قتادة.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٠/١٥) الإسناد حسن لغيره.

(٤) مجمع الزوائد (٢٤٣)؛ خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، (ص ٢١٩) ، إسناده حسن.

عتبة بن أبي وقاص ويستحبه في التقدم ويرغبه ويطمعه فيما عند الله من النعيم ، ويطمع أصحابه أيضاً فيقول: أزفت الجنة وازينت الحور العين ، من سره أن تكتنفه الحور العين ، فليتقدم بين الصنفين محتسباً ، وكان منظراً مؤثراً؛ فهو صحابي جليل مهاجري بدري جاوز الرابعة والتسعين يمتلك كل هذا الحماس وهذا العزم والروح المعنوية العالية واليقين الثابت ، فكان عاملاً هاماً من عوامل حماس جيش العراق ورفع روحهم المعنوية ، مما زادهم عنفاً وضراوة وتضحية في القتال حتى استطاعوا أن يحولوا المعركة لصالحهم ، وتقدم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو يرتجز بقوله :

أَعُوْزُ يَغْيِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى مَلَأَ
لَا بَدَأَنْ يَقُلُّ أَوْ يُفَلِّأُ^(١)

وعمار يقول: تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت في أطراف الأسل^(٢) ، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين :
الْيَوْمَ أَلْقَى الْأَجْبَّةُ مُحَمَّداً وَحَزْبَهُ^(٣)
وعند غروب شمس ذلك اليوم الخميس ، طلب عمار شربة من لبن ثم قال : إن رسول الله ﷺ قال لي : إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن^(٤) . ثم تقدم واستحث معه حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري ، فلم يرجعا ، وقتلا^(٥) رحمهما الله ورضي عنهما .

٣- ليلة الهرير ويوم الجمعة :

عادت الحرب في نفس الليلة بشدة واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة ، وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم ، وقاتل أمير المؤمنين علي قتالاً شديداً وبإيع على الموت^(٦) ، وذكر أن علياً رضي الله عنه صلى بجيشه المغرب صلاة الخوف^(٧) ، وقال الشافعي : وحفظ عن علي أنه صلى صلاة الخوف ليلة الهرير^(٨) ، يقول شاهد عيان : اقتتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام ، ثم صرنا إلى المسايقة

(١) تاريخ الطبري (٥/٦٥٢) .

(٢) الأسل : الرماح .

(٣) تاريخ الطبري (٥/٦٥٢) .

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٢/١٥ ، ٣٠٣) بسند منقطع .

(٥) تاريخ الطبري (٥/٦٥٢) .

(٦) المستدرک (٣/٤٠٢) ، قال الذهبي : ضعيف ؛ خلافة علي ، (ص ٢٢٦) .

(٧) سنن الكبرى للبيهقي (٣/٢٥٢) قال الألباني : رواه البيهقي بصيغة التمریض . إرواء الغلیل (٣/٤٢) .

(٨) تلخیص الحبير (٢/٧٨) ؛ خلافة علي بن أبي طالب ، (ص ٢٢٧) .

فاجتلدنا بها إلى نصف الليل ، حتى صرنا نعانق بعضنا بعضاً ، ولما صارت السيوف كالمناجل تضاربنا بعمد الحديد فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم ، ثم ترامينا بالحجارة وتحاثينا بالتراب ، وتعاضضنا بالأسنان ، وتكادمننا بالأفواه ، إلى أن أصبحوا في يوم الجمعة وارتفعت الشمس وإن كانت لا ترى من غبار المعركة ، وسقطت الألوية والرايات وأنهك الجيش التعب وكَلَّتْ الأيدي وجفت الحلو^(١)ق .

ويقول ابن كثير في وصف ليلة الهرير ويوم الجمعة : وتعاضوا بالأسنان يقتتل الرجال حتى يشخنا ، ثم يجلسان يستريحان وكل واحد منهما ليهمر على الآخر ، ويهمر عليه ثم يقومان فيقتتلان كما كانا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك ، وصلى الناس الصبح إيماءً وهم في القتال ، حتى تضاحا النهار ، وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام^(٢) .

٤- الدعوة إلى التحكيم :

إن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة الهرير لم يكن يحتمل مزيداً قتال ، وجاءت خطبة الأشعث بن قيس زعيم كندة أصحابه ليلة الهرير فقال : قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فني فيه من العرب ، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيتم مثل هذا قط ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، إن نحن توافقنا غداً إنه لفناء العرب ، وضیعة الحرمات ، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحرب ، ولكني رجل مسن ، وأخاف على النساء والذراري غداً إذا نحن فنينا ، اللهم إنك تعلم أنني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم أَلْ^(٣) .

وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال : أصاب ورب الكعبة ، لئن نحن التقينا غداً لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ، ولتميلن أهل فارس على أهل العراق وذرائهم ، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى . ثم قال لأصحابه : اربطوا المصاحف على أطراف القنا^(٤) ، وهذه رواية عراقية لا ذكر فيها لعمر بن العاص ولا للمخادعة والاحتيال ، وإنما كانت رغبة كلا الفريقين ، ولن يضير معاوية أو عمرو بشيء أن تأتي أحدهم الشجاعة فيبادر بذلك وينقذ ما تبقى من قوى الأمة المتصارعة ، إنما يزعج ذلك أعداء الأمة الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة ، وتركوا لنا ركناً من الروايات المضللة بشأنها ، تحيل الحق باطلاً ، وتجعل الفضل كالمناداة بتحكيم القرآن لصون

(١) شذرات الذهب (١/٤٥)؛ وقعة صفين ، (ص ٣٦٩).

(٢) البداية والنهاية (٧/٢٨٣) .

(٣) وقعة صفين ، للمنفري ، (ص ٤٧٩).

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٨١ - ٨٨٤).

الدماء المسلمة جريمة ومؤامرة^(١) وحيلة ، ونسبوا لأمر المؤمنين علي أقوالاً مكذوبة تعارض ما في الصحيح على أنه قال: إنهم ما رفعوها ، ثم لا يرفعونها ، ولا يعملون بما فيها ، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة^(٢).

ومن الشتائم قولهم عن رفع المصاحف: إنها مشورة ابن العاهرة^(٣) ، وسَّعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو بن العاص رضي الله عنه حتى لم تعد تجد كتاباً من كتب التاريخ إلا فيه انتقاص لعمر بن العاص ، وأنه مخادع وماكر بسبب الروايات الموضوعة التي لفقها أعداء الصحابة الكرام ، ونقلها الطبري ، وابن الأثير وغيرهم ، فوقع فيها كثير من المؤرخين المعاصرين مثل حسن إبراهيم حسن في تاريخ الإسلام ، ومحمد الخضري بك في تاريخ الدولة الأموية ، وعبد الوهاب النجار في تاريخ الخلفاء الراشدين وغيرهم كثير ، مما ساهم في تشويه الحقائق التاريخية الناصعة.

إن رواية أبي مخنف تفترض أن علياً رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام ، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد^(٤) ، وهذه الرواية تحمل سباً من علي لمعاوية وصحبه يتنزه عنه أهل ذاك الجيل المبارك؛ فكيف بساداتهم وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي؟! ويكفي للرواية سقوطاً أن فيها أبا مخنف ، فهي رواية لا تصمد للبحث النزيه ولا تقف أمام روايات أخرى لا يتهم أصحابها بهوى ، مثل ما يرويه الإمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبي ثابت ، قال: أتيت أبا وائل - أحد رجال علي بن أبي طالب - فقال: كنا بصفين ، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى علي المصحف ، فادعه إلى كتاب الله ، فإنه لا يأبى عليك ، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِذَا نَادَىٰ عَلَيْهِمْ أَحَدُهُم أَن تَبِيعُوا قَالُوا وَقَبُولًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَرِضْوَانًا مِّنْهُ فَزَيَّنُوا لَهُ لَكِبًا فَدَفَعَهُ اللَّهُ بِالْحَقِّ ذُرِّيَّتَهُمْ فَكَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَهُمْ فَاعُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣] . فقال علي: نعم ، أنا أولى بذلك ، فقام القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج ، بأسيا فهم على عواتقهم ، فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا نمشي إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سهل بن حنيف الأنصاري رضي الله عنه فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم ، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، ولو نرى قتالاً لقاتلنا ، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ، ثم حدثهم عن معارضة عمر رضي الله عنه للصلح يوم الحديبية ،

(١) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ، (ص ٣١٦).

(٢) الكامل (٣٨٦/٢).

(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ٦٦٢ ، ٦٦٣).

(٤) المصدر السابق نفسه.

ونزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ ، فقال علي: أيها الناس إن هذا فتح ، فقبل القضية ورجع ، ورجع الناس^(١) .

وأظهر سهل بن حنيف رضي الله عنه اشمئزازاً ممن يدعون إلى استمرار الحرب بين الإخوة ، وقال: أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم^(٢) ، وبين لهم بأنه لا خيار عن الحوار والصلح ؛ لأن ما سواه فتنة لا تعرف عواقبها ، فقد قال: ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر يُفْطِننا إلا أسهلنا بنا إلى ما نعرفه قبل هذا الأمر ، ما نسدُّ منها خُصماً إلا تفجر علينا خُصم ما ندرى كيف نأتي له^(٣) .

وفي هذه الروايات الصحيحة رد على دعاة الفتنة ، ومبغضي الصحابة الذين يضعون الأخبار المكذوبة ، ويضعون الأشعار وينسبونها إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا في صفين ، ليظهرهم بمظهر المتحمس لتلك الحرب ، ليزرعوا البغضاء في النفوس ، ويعملوا ما في وسعهم على استمرار الفتنة^(٤) .

إن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية ، وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية في طاعة علي والبيعة له ، تطور فرضته أحداث حرب صفين ، إذ إن الحرب التي أودت بحياة الكثير من المسلمين ، أبرزت اتجاهاتاً جماعياً رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكة الأمة وصيانة قوتها أمام عدوها ، وهو دليل على حيوية الأمة ووعيتها وأثرها في اتخاذ القرارات^(٥) .

إن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه قبل وقف القتال في صفين ، ورضي التحكيم ، وعدَّ ذلك فتحاً ، ورجع^(٦) إلى الكوفة ، وعلق على التحكيم آمالاً في إزالة الخلاف وجمع الكلمة ، ووحد الصف ، وتقوية الدولة ، وإعادة حركة الفتوح من جديد .

إن وصول الطرفين إلى فكرة التحكيم ساهمت عدة عوامل للاستجابة له ؛ (للتحكيم) منها :

أ - أنه كان آخر محاولة من المحاولات التي بذلت لايقاف الصدام وحقن الدماء ؛ سواء تلك المحاولات الجماعية ، أم المحاولات الفردية التي بدأت بعد موقعة الجمل ولم تفلح ، أما

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٣٣٦)؛ مسند أحمد مع الفتوح الرباني (٨/ ٤٨٣) .

(٢) البخاري ، رقم (٤١٨٩) .

(٣) البخاري ، رقم (٤١٨٩) .

(٤) الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف ، (ص ٥٣٠) .

(٥) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، (ص ٣٨) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

الرسائل التي تبودلت بين الطرفين لتنفيذ وجهات نظر كل منهما ، ولم تُجَدِ هي الأخرى شيئاً ، وكان آخر تلك المحاولات ما قام به معاوية في أيام اشتداد القتال ؛ حيث كتب إلى علي رضي الله عنه يطالبه بتوقف القتال ، فقال : فإنني أحسبك أن لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك ما بلغت لم نجنها على أنفسنا ، فإننا إن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منا ما ينبغي أن نندم على ما مضى ونصلح ما بقي^(١).

ب - تساقط القتلى وإراقة الدماء الغزيرة ومخافة الفناء ، فصارت الدعوة إلى إيقاف الحرب مطلباً يرنو إليه الجميع .

ج - الملل الذي أصاب الناس من طول القتال ، حتى وكأنهم على موعد لهذا الصوت الذي نادى بالهدنة والصلح ، وكانت أغلبية جيش علي في اتجاه المهادنة ، وكانوا يرددون : قد أكلتنا الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في المهادنة^(٢) ، وهذا ينقض ذلك الرأي المتهافت الذي رُوج بأن رفع المصاحف كان خدعة من عمرو بن العاص . والحق أن فكرة رفع المصاحف لم تكن جديدة ، وليست من ابتكار عمرو بن العاص ، بل رفع المصحف في الجمل ورشق حامله كعب بن سور قاضي البصرة بسهم وقتل .

د - الاستجابة لصوت الوحي الداعي للإصلاح ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] ، ويؤيد هذا ما قاله علي بن أبي طالب حينما عرض عليه الاحتكام إلى كتاب الله ، قال : نعم أنا أولى بذلك ، بيننا وبينكم كتاب الله^(٣).

٥ - مقتل عمّار بن ياسر رضي الله عنه وأثره على المسلمين :

يعد حديث رسول الله ﷺ لعمّار رضي الله عنه : «تقتلك الفئة الباغية»^(٤) من الأحاديث الصحيحة والثابتة عن النبي ﷺ . وقد كان لمقتل عمّار رضي الله عنه أثر في معركة صفين ، فقد كان علماً لأصحاب رسول الله ﷺ يتبعونه حيث سار ، وكان خزيمة بن ثابت حضر صفين وكان كافاً سلاحه ، فلما رأى مقتل عمّار سل سيفه وقاتل أهل الشام ، وذلك لأنه سمع حديث رسول الله ﷺ في عمّار : «تقتله الفئة الباغية»^(٥) ، واستمر في القتال حتى قتل^(٦).

(١) الأخبار الطوال للدينوري ، (ص ١٨٧) ؛ دراسات في عهد النبوة ، (ص ٤٣٢).

(٢) صفين ، ص ٤٨٢ - ٤٨٥ ؛ دراسات في عهد النبوة ، (ص ٤٣٣).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٦/٨).

(٤) مسلم ، رقم (٢٩١٦).

(٥) مسلم ، رقم (٢٩١٦).

(٦) خلافة علي ، (ص ٢١١).

وكان لمقتل عمار أثر في معسكر معاوية ، فهذا أبو عبد الرحمن السلمي دخل في معسكر أهل الشام ، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو ، وأبو الأعور السلمي ، عند شرعة الماء يسقون ، وكانت هي شربة الماء الوحيدة التي يستقي منها الفريقان ، وكان حديثهم عن مقتل عمار بن ياسر ، إذ قال عبد الله بن عمرو لوالده : لقد قتلنا هذا الرجل ، وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال ، قال : وأي رجل ؟ قال : عمار بن ياسر . . قال فيه رسول الله ﷺ : «تقتله الفئة الباغية» . فقال عمرو لمعاوية : لقد قتلنا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال ! فقال معاوية : اسكت فوالله ما تزال تدحض^(١) في بولك ! أنحن قتلناه؟ ! إنما قتله من جاء به^(٢) ، فانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار في الهشيم .

وجاء في رواية صحيحة : أن عمرو بن حزم دخل على عمرو بن العاص فقال : قتل عمار ، وقد قال فيه رسول الله ﷺ : «تقتله الفئة الباغية» . فقام عمرو بن العاص فزعاً يسترجع حتى دخل على معاوية ، فقال له معاوية : ما شأنك ؟ فقال : قتل عمار ، فقال معاوية : قتل عمار ؛ فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول له : «تقتلك الفئة الباغية» فقال له معاوية : دحضت في بولك ، أو نحن قتلناه ؟ ! إنما قتله علي وأصحابه ، جاؤوا به حتى ألغوه بين رماحنا ، أو قال بين سيوفنا^(٣) .

وفي رواية صحيحة أيضاً : جاء رجلان عند معاوية يختصمان في رأس عمار يقول كل واحد منهما : أنا قتلتها ، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ليطب به أحكما نفساً لصاحبه ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «تقتله الفئة الباغية» . قال معاوية : فما بالك معنا ؟ قال : إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ ، فقال : «أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه» . فأنا معكم ولست أقاتل^(٤) .

من الروايات السابقة نلاحظ أن الصحابي الفقيه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما حريص على قول الحق ، والنصح ، فقد رأى أن معاوية وجنده ، هم الفرقة الباغية لقتلهم عماراً ، فقد تكرر منه هذا الاستنكار في مناسبات مختلفة ، ولا شك أن مقتل عمار رضي الله عنه قد أثر في أهل الشام بسبب هذا الحديث ، إلا أن معاوية رضي الله عنه أول الحديث تأويلاً غير مستساغ ولا يصح في أن الذين قتلوا عمار هم الذين جاؤوا به إلى القتال^(٥) ، وقد أثر مقتل عمار كذلك على عمرو بن العاص ، بل كان استشهاد عمار دافعاً لعمرو بن العاص للسعي لإنهاء

(١) الدحض : الزلق ، والداحض : من لا ثبات له ولا عزيمة في الأمور .

(٢) مسند أحمد (٢٠٦/٢) إسناده حسن .

(٣) مصنف عبد الرزاق (١١/٢٤٠) بسند صحيح .

(٤) مسند أحمد (١١/١٣٨ - ١٣٩) قال أحمد شاكر : سنده صحيح .

(٥) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، (ص ٣٢٥) .

الحرب^(١) ، وقد قال رضي الله عنه : وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة^(٢) .

وقد جاء في البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كنا نحمل لبنة لبنة وعمّار لبنتين لبنتين ، فرآه النبي ﷺ ، فينفض التراب عنه ويقول : «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» . قال عمّار : أعوذ بالله من الفتن^(٣) .

وقال ابن عبد البر : تواترت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال : «تقتل عماراً الفئة الباغية» ، وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوته ﷺ ، وهو من أصح الأحاديث^(٤) ، وقال الذهبي بعدما ذكر الحديث : وفي الباب عن عدة من الصحابة ، فهو متواتر^(٥) .

● فهم العلماء لحديث «تقتلك الفئة الباغية» :

أ - قال ابن حجر : وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وفضيلة ظاهرة لعلي وعمار ، وردّ على النواصب الزاعمين أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه^(٦) ، وقال أيضاً : دل الحديث : «تقتل عماراً الفئة الباغية» ، على أن علياً كان المصيب في تلك الحروب ، لأن أصحاب معاوية قتلوه^(٧) .

ب - يقول النووي : وكانت الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة لهذا الحديث^(٨) .

ج - قال ابن كثير : كان علي وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية ، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم ، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث شعبة ، عن أبي سلمة ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : حدثني من هو خير مني - يعني أبا قتادة - أن رسول الله ﷺ قال لعمار : «تقتلك الفئة الباغية»^(٩) . وقال أيضاً : وهذا مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنهما مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، قتله أهل الشام ، وبان

(١) معاوية بن أبي سفيان ، الغضبان ، (ص ٢١٥) .

(٢) أنساب الأشراف (١/ ١٧٠) ؛ عمرو بن العاص ، للغضبان ، (ص ٦٠٣) .

(٣) البخاري ، رقم (٤٤٧) .

(٤) الاستيعاب (٣/ ١١٤٠) .

(٥) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢١) .

(٦) فتح الباري (١/ ٦٤٦) .

(٧) المصدر السابق نفسه (١٣/ ٩٢) .

(٨) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٨) .

(٩) البداية والنهاية (٦/ ٢٢٠) .

وظهر بذلك سر ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية ، وبأن بذلك أن علياً محق ، وأن معاوية باغ ، وما في ذلك من دلائل النبوة^(١) .

د - وقال الذهبي : هم طائفة من المؤمنين ، بغت على الإمام علي ، وذلك بنص قول المصطفى صلوات الله عليه لعمار : «تقتلك الفئة الباغية»^(٢) .

هـ - قال القاضي أبو بكر بن العربي في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾ [الحجرات : ٩] : هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، والعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عوّل الصحابة ، وإليها لجأ الأعيان من هذه الملة ، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله : «تقتل عماراً الفئة الباغية»^(٣) .

و - وقال ابن تيمية : وهذا يدل على صحة إمامة علي ووجوب طاعته ، وأن الداعي إلى طاعته داع إلى الجنة ، والداعي إلى مقاتلته داع إلى النار - وإن كان متأولاً - وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال علي ، وعلى هذا فمقاتله مخطئ - وإن كان متأولاً - أو باغ - بلا تأويل - وهو أصح القولين لأصحابنا ، وهو الحكم بتخطئة من قاتل علياً ، وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين^(٤) . وقال أيضاً : مع أن علياً أولى بالحق ممن فارقه ، ومع أن عمار قتلته الفئة الباغية - كما جاءت به النصوص - فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله ، ولا يكون لنا هوى ، ولا نتكلم بغير علم ، بل نسلك سبل العلم والعدل ، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة ، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض ، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف^(٥) .

ز - وقال عبد العزيز بن باز : وقال ﷺ في حديث عمار : «تقتل عماراً الفئة الباغية» : فقتله معاوية وأصحابه في وقعة صفين ، فمعاوية وأصحابه بغاة ، لكن مجتهدون ظنوا أنهم مصيبون في المطالبة بدم عثمان^(٦) .

ح - وقال سعيد حوى : بعد أن قتل عمار الذي وردت النصوص مبينة أنه تقتله الفئة الباغية ، تبين للمتريدين أن علياً كان على حق ، وأن القتال معه كان واجباً ، ولذا عبّر ابن عمر عن تخلفه بأنه يأسى بسبب هذا التخلف ، وما ذلك إلا أنه ترك واجباً وهو نصره الإمام الحق على الخارجين عليه بغير حق كما أفتى بذلك الفقهاء^(٧) .

(١) المصدر السابق نفسه (٧/ ٢٧٧) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٠٩) .

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٧١٧) .

(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٧) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٤/ ٤٤٩ - ٤٥٠) .

(٦) فتاوى ومقالات متنوعة (٦/ ٨٧) .

(٧) الأساس في السنة (٤/ ١٧١٠) .

● الرد على قول معاوية رضي الله عنه : إنما قتله من جاء به^(١) :

إن جل الصحابة والتابعين قد فهموا من قول رسول الله ﷺ لعمار : «تقتلك الفئة الباغية»^(٢) ، أن المقصود جيش معاوية رضي الله عنه ، مع أنهم معذرون في اجتهادهم فهم يقصدون الحق ويريدونه ، ولكنهم لم يصيبوه ، وفئة علي أولى بالحق منهم كما قال ﷺ^(٣) ، ومع أن الأئمة لم يعجبهم تأويل معاوية - كما سأنقل - إلا أنهم عذروه في اجتهاده ، فهذا هو ابن حجر يقول في قوله ﷺ : «يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»^(٤) . فإن قيل : كان قتله بصفين وهو مع علي ، والذين قتلوه مع معاوية ، وكان معه جماعة من الصحابة ، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب : أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة ، وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم ، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها ، وهو طاعة الإمام ، وكذلك كان عمار يدعوهم إلى طاعة علي ، وهو الإمام الواجب الطاعة إذ ذاك ؛ وكانوا هم يدعون إلى خلاف ذلك ، لكنهم معذرون للتأويل الذي ظهر لهم^(٥) .

وقال القرطبي : وقال الإمام أبو المعالي في كتاب الإرشاد : فصل : علي رضي الله عنه ، كان إماماً حقاً في توليته ، ومقاتلوه بغاة ، وحسن الظن بهم يقتضي أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطؤوه^(٦) ، وقال أيضاً : وقد أجاب علي رضي الله عنه عن قول معاوية بأن قال : فرسول الله ﷺ إذن قتل حمزة حين أخرجه ، وهذا من علي رضي الله عنه إلزام ، لا جواب عنه ، وحجة لا اعتراض عليها ، قاله الإمام الحافظ أبو الخطاب ابن دحية^(٧) .

وقال ابن كثير : فقول معاوية : إنما قتله من قدمه إلى سيفونا ، تأويل بعيد جداً ، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يقتلون في سبيل الله ، حيث قدمهم إلى سيوف الأعداء^(٨) . وقال ابن تيمية : وهذا القول لا أعلم له قائلاً من أصحاب الأئمة الأربعة ونحوهم من أهل السنة ، ولكن هو قول كثير من المروانية ومن وافقهم^(٩) .

(١) مسند أحمد (٢٠٦/٢) إسناده حسن .

(٢) مسلم ، رقم (٢٩١٦) .

(٣) معاوية بن أبي سفيان ، (ص ٢١٠ - ٢١٤) .

(٤) البخاري ، رقم (٤٤٧) .

(٥) فتح الباري (١/٦٤٥) .

(٦) التذكرة (٢/٢٢٢) .

(٧) المصدر السابق نفسه (٢/٢٢٣) .

(٨) البداية والنهاية (٦/٢٢١) .

(٩) منهاج السنة (٤/٤٠٦) .

وقال ابن القيم معلقاً على هذا التأويل: نعم التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»^(١)، فقالوا: نحن لم نقتله إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا، فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قتله هو الذي باشر قتله، لا من استنصر به^(٢).

٦- من هو قاتل عمار بن ياسر؟

قال أبو الغادية الجهني وهو يحدث عن قتله لعمار: فلما كان يوم صفين، أقبل يستن أول الكتيبة رجلاً، حتى إذا كان بين الصفين فأبصر رجلاً عورة، فطعنه في ركبته بالرمح فعثر، فانكشف المغفر عنه، فضربته فإذا هو رأس عمار. ثم قتل عمار، واستسقى أبو غادية، فأتي بماء في زجاج، فأبى أن يشرب فيها، فأتي بماء في قدح فشرب، فقال رجل: يتورع عن الشرب في الزجاج ولم يتورع عن قتل عمار^(٣).

ويخبر عمرو بن العاص رضي الله عنه الخبر فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قاتل عمار وسالبه في النار»^(٤).

قال ابن كثير: ومعلوم أن عماراً كان في جيش علي يوم صفين، وقتله أصحاب معاوية من أهل الشام، وكان الذي تولى قتله يقال له: أبو الغادية، رجل من أفناد الناس، وقيل: إنه صحابي^(٥).

وقال ابن حجر: والظن بالصحابة في تلك الحروب أنهم كانوا متأولين، وللمجتهد المخطئ أجر، وإذا ثبت هذا في حق آحاد الناس فثبوتة للصحابة بالطريق الأولى^(٦).

وقال الذهبي: وابن ملجم عند الروافض أشقى الخلق في الآخرة، وهو عندنا أهل السنة ممن نرجو له النار، ونجوز أن الله يتجاوز عنه، لا كما يقول الخوارج، وحكمه حكم قاتل عثمان، وقاتل الزبير، وقاتل طلحة، وقاتل سعيد بن جبير، وقاتل عمار، وقاتل خارجة، وقاتل الحسين، فكل هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم في الله، ونكل أمورهم إلى الله عز وجل^(٧).

(١) مسلم، رقم (٢٩١٦).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٨٤، ١٨٥).

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٤) السلسلة الصحيحة (٥/ ١٨-١٩).

(٥) البداية والنهاية (٦/ ٢٢٠).

(٦) الإصابة (٧/ ٢٦٠).

(٧) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، (ص ٦٥٤).

وقد وفق الألباني في تعليقه على قول ابن حجر: هذا حق ، لكن تطبيقه على كل فرد من أفرادهم مشكل ، لأنه يلزم تناقض القاعدة المذكورة بمثل حديث الترجمة ، أي: «قاتل عمار وسالبة في النار»^(١) ، إذ لا يمكن القول بأن أبا غادية القاتل لعمار مأجور ، لأنه قتله مجتهداً ، ورسول الله ﷺ يقول: «قاتل عمار في النار»^(٢) ، فالصواب أن يقال: إن القاعدة صحيحة ، إلا ما دل الدليل القاطع على خلافها ، فيستثنى ذلك منها كما هو الشأن هنا ، وهذا خير من ضرب الحديث الصحيح بها^(٣).

وقد ترجم لأبي الغادية الجهني ابن عبد البر فقال: اختلف في اسمه ، فقليل: يسار بن سبيع ، وقيل: يسار بن أضر ، وقيل: إن اسمه مسلم . سكن الشام ونزل في واسط ، يعد في الشاميين ، أدرك النبي ﷺ وهو غلام ، روي عنه أنه قال: أدركت النبي ﷺ وأنا أيفع ، أرد على أهلي الغنم ، وله سماع من النبي ﷺ ؛ قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٤) ، وكان محباً لعثمان ، وهو قاتل عمار بن ياسر ، وكان يصف قتله إذا سئل عنه ، لا يباليه ، وفي قصته عجبٌ عند أهل العلم^(٥).

٧- المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة :

إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين . . كانت هذه الوقعات من الغرابة إلى حد أن القارئ لا يصدق ما يقرأ ، ويقف مشدوهاً أمام طبيعة النفوس عند الطرفين ، فكل منهم كان يقف وسط المعركة شاهراً سيفه وهو يؤمن بقضيته إيماناً كاملاً ، فليست معركة مدفوعة من قبل القيادة يدفعون الجنود إلى معركة غير مقتنعين بها ، بل كانت معركة فريدة في بواعثها وفي طريقة أدائها وفيما خلفتها من آثار ؛ فبواعثها في نفوس المشاركين يعبر عنها بعض المواقف التي وصلت إلينا في المصادر التاريخية ، فهم إخوة يذهبون معاً إلى مكان الماء فيستقون جميعاً ، ويزدحمون وهم يغرفون الماء وما يؤدي إنسان إنساناً^(٦) ، وهم إخوة يعيشون معاً عندما يتوقف القتال ، فهذا أحد المشاركين يقول: كنا إذا تواعدنا من القتال دخل هؤلاء في معسكر هؤلاء ، وهؤلاء في معسكر هؤلاء . . وتحذروا إلينا وتحذرننا إليهم^(٧) ، وهم أبناء قبيلة واحدة ولكل منهما

(١) السلسلة الصحيحة (١٨/٥ - ١٩).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه (١٩/٥).

(٤) مسند أحمد (٧٦/٤) وسنده حسن.

(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، رقم (٣٠٨٩).

(٦) تاريخ الطبري (٥/٦١٠)؛ سير أعلام النبلاء (٢/٤١)؛ مرويات أبي مخنف ، (ص ٢٩٦).

(٧) البداية والنهاية (٧/٢٧٠)؛ دراسات في عهد النبوة ، (ص ٤٢٣).

اجتهاده ، فيقاتل أبناء القبيلة الواحدة كل في طرف^(١) ، قتالاً مريراً ، وكل منهما يرى نفسه على الحق ، وعنده الاستعداد لأن يُقتل من أجله ، فكان الرجلان يقتتلان حتى يُثخنا (وهناً وضعفاً) ثم يجلسان يستريحان ، ويدور بينهما الكلام الكثير ، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا^(٢) ، وهما أبناء دين واحد يجمعهما ، وهو أحب إليهما من أنفسهما ، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها^(٣) ، ويوم قتل عمار بن ياسر صلى عليه الطرفان^(٤) .

ويذكر شاهد عيان اشترك في صفين : تنازلنا بصفين ، فاقتلنا أياماً ، فكثر القتلى بيننا حتى عقرت الخيل ، فبعث علي إلى عمرو بن العاص أن القتلى قد كثروا فأمسك حتى يدفن الجميع قتلاهم فأجابهم ، فاختلط بعض القوم ببعض حتى كانوا هكذا وشبك بين أصابعه ، وكان الرجل من أصحاب علي يشد فيقتل في عسكر معاوية ، فيستخرج منه ، وقد مر أصحاب علي بقتيل لهم أمام عمرو ، فلما رآه بكى ، وقال : لقد كان مجتهداً أخشن في أمر الله^(٥) .

وكانوا يسارعون إلى التناهي عن المنكر حتى في مثل هذه المواقع ، فكانت هناك مجموعة عرفوا بالقراء ، وكانوا من تلامذة عبد الله بن مسعود من أهل العراق ومن أهل الشام معاً ، فلم ينضموا إلى أمير المؤمنين علي ، ولا إلى معاوية بن أبي سفيان ، وقالوا لأمر المؤمنين : إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم ، ونعسكر على حدة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام ، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له ، أو بدا منه بغي كنا عليه ، فقال علي : مرحباً وأهلاً ، هذا هو الفقه في الدين ، والعلم بالسنة ؛ من لم يرضَ بهذا فهو جائر خائن^(٦) .

والحقيقة أن هذه المواقف منبعثة من قناعات واجتهادات استوثقوا منها في قرارة أنفسهم وقاتلوا عليها^(٧) .

٨- معاملة الأسرى عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

إن المعاملة الحسنة للأسير وإكرامه في صفين من الأمور البديهية بعدما استعرضنا المعاملة الكريمة أثناء القتال ، وقد بين الإسلام معاملة الأسرى ، فقد حث رسول الله ﷺ على إكرام

(١) تاريخ الطبري ، نقلاً عن دراسات في عهد النبوة ، (ص ٤٢٤) .

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٢٧٢) .

(٣) تاريخ الطبري ، نقلاً عن دراسات في عهد النبوة ، (ص ٤٢٤) .

(٤) تاريخ دمشق (٨/ ٢٣٣) ؛ دراسات في عهد النبوة ، (ص ٤٢٤) .

(٥) أنساب الأشراف (٦/ ٥٦) بسند حسن .

(٦) صفين ، (ص ١١٥) ؛ دراسات في عهد النبوة ، (ص ٤٢٤) .

(٧) دراسات في عهد النبوة ، (ص ٤٢٤) .

الأسير ، وإطعامه أفضل الأطعمة الموجودة ، هذا مع غير المسلمين فكيف إذا كان الأسير مسلماً ، لا شك إن إكرامه والإحسان إليه أولى ، ولكن الأسير في هذه المعركة يعتبر فئة وقوة لفرقة^(١) ، ولذلك كان علي رضي الله عنه يأمر بحبسه ، فإن بايع أخلى سبيله ، وإن أبى أخذ سلاحه ودابته ، أو يهبها لمن أسره ويحلفه إلا يقاتل ، وفي رواية: يعطيه أربعة دراهم^(٢) . وغرض الخليفة الراشد من ذلك واضح ، وهو إضعاف جانب البغاة ، وقد أتى بأسير يوم صفين فقال الأسير: لا تقتلني صبراً ، فقال علي رضي الله عنه: لا أقتلك صبراً إنني أخاف الله رب العالمين ، فحلى سبيله ثم قال: أفيك خير تبائع^(٣) .

ويبدو من هذه الروايات أن معاملته للأسرى كما يلي :

- إكرام الأسير والإحسان إليه .

- يعرض عليه البيعة والدخول في الطاعة ، فإن بايع أخلى سبيله .

- إن أبى البيعة أخذ سلاحه ويحلفه أن لا يعود للقتال ويطلقه .

- إن أبى القتال تحفظ عليه في الأسر ولا يقتله صبراً^(٤) .

وقد أتى رضي الله عنه مرة بخمسة عشر أسيراً ، ويبدو أنهم جرحى ، فكان من مات منهم غسله وكفنه وصلى عليه^(٥) .

ويقول محب الدين الخطيب معلقاً على هذه الحرب : ومع ذلك ، فإن هذه الحرب المثالية هي الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ الذي جرى فيها المتحاربان معاً على مبادئ الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم ولو في القرن الحادي والعشرين ، وإن كثيراً من قواعد الحرب في الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب ، والله في كل أمر حكمة^(٦) ، قال ابن العديم: قلت: وهذا كله حكم أهل البغي ، ولهذا قال أبو حنيفة: لولا ما سار علي فيهم ، ما علم أحد كيف السيرة في المسلمين^(٧) .

(١) كتاب قتال أهل البغي من الحاوي الكبير ، (ص ١٣٣ ، ١٣٤) .

(٢) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، (ص ٢٤٣) .

(٣) الأم ، للشافعي (٢٢٤/٤) (٢٥٦/٨) .

(٤) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، (ص ٢٤٣) .

(٥) تاريخ دمشق ، تحقيق المنجد (٣٣١/١) ؛ خلافة علي بن أبي طالب ، (ص ٢٤٣) .

(٦) العواصم من القواصم ، (ص ١٦٨ - ١٦٩) ؛ من تعليق الخطيب في الحاشية .

(٧) بغية الطالب في تاريخ حلب (٣٠٩/١) ؛ خلافة علي ، (ص ٢٤٥) .

٩- عدد القتلى :

تضاربت أقوال العلماء في عدد القتلى ، فذكر ابن أبي خيثمة أن القتلى في صفين بلغ عددهم سبعين ألفاً ، من أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً ، ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألف مقاتل^(١) ، كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى في صفين بلغ سبعين ألفاً أو أكثر^(٢) ، ولا شك أن هذه الأرقام غير دقيقة ، بل أرقام خيالية ، فالقتال الحقيقي والصدام الجماعي استمر ثلاثة أيام مع وقف القتال بالليل إلا مساء الجمعة فيكون مجموع القتال حوالي ثلاثين ساعة^(٣) ، ومهما كان القتال عنيفاً ، فلن يفوق شدة القادسية التي كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمئة^(٤) ، وبالتالي يصعب عقلاً أن نقبل تلك الروايات التي ذكرت الأرقام الكبيرة .

١٠- تفقد أمير المؤمنين علي القتلى وترحمه عليهم :

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بعد نهاية الجولات الحربية يقوم بتفقد القتلى ، فيقول شاهد عيان: رأيت علياً على بغلة النبي ﷺ الشهداء ، يطوف بين القتلى^(٥) ، وأثناء تفقده القتلى ومعه الأشر ، مر برجل مقتول - وهو أحد القضاة والعباد المشهورين بالشام - فقال الأشر - وفي رواية أخرى عدي بن حاتم - : يا أمير المؤمنين أحابس^(٦) معهم؟ عهدي والله به مؤمن . فقال علي: فهو اليوم مؤمن . ولعل هذا الرجل المقتول هو القاضي الذي أتى عمر بن الخطاب وقال: يا أمير المؤمنين ، رأيت رؤيا أفضتني ، قال: ما هي؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين ، قال: فمع أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس ، فقال عمر: قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمُحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢] فانطلق فوالله لا تعمل لي عملاً أبداً ، قال الراوي: فبلغني أنه قتل مع معاوية بصفين^(٧) .

وقد وقف علي على قتلاه وقتلى معاوية فقال: غفر الله لكم ، غفر الله لكم ، للفريقين جميعاً^(٨) .

وعن يزيد بن الأصم قال: لما وقع الصلح بين علي ومعاوية ، خرج علي فمشى في قتلاه فقال: هؤلاء في الجنة ، ثم خرج إلى قتلى معاوية فقال: هؤلاء في الجنة ، ويصير الأمر إلي وإلى

(١) الأنباء ، للقضاعي ، (ص ٥٩)؛ نقلاً عن خلافة علي ، (ص ٢٤٥) .

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣٧٧) بدون سند ، تحقيق محمد دخیل الله .

(٣) الدولة الأموية ، ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

(٤) تاريخ الطبري (٤/ ٣٨٨) .

(٥) مصنف ابن أبي شيبة .

(٦) حابس بن سعد الطائي : مخضرم ، قتل بصفين .

(٧) مصنف ابن أبي شيبة (١١/ ٧٤) بسند منقطع .

(٨) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، (ص ٢٥٠)؛ تنزيه لخال المؤمنين .

معاوية^(١) ، وكان يقول عنهم : هم المؤمنون^(٢) ، وقوله رضي الله عنه في صفين لا يكاد يختلف عن قوله في أهل الجمل^(٣).

١١ - موقف لمعاوية مع ملك الروم :

استغل ملك الروم الخلاف الذي وقع بين أمير المؤمنين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، وطمع في ضم بعض الأراضي التي تحت هيمنة معاوية إليه ، قال ابن كثير : . . . وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان أخشاه وأذله ، وقهر جندهم ودحاهم ، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيها ، فكتب معاوية إليه : والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك ، ولأخرجنك من جميع بلادك ، ولأضيقرن عليك الأرض بما رحبت ، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف ، وبعث يطلب الهدنة^(٤) . وهذا الأثر يدل على أن الخلاف الذي بينه وبين علي رضي الله عنه لن يبقى لحظة واحدة فيما لو تعرض أمن الدولة الإسلامية في الشام للخطر ، ولولا أن الروم يعلمون أن هذه الخلافات قابلة للنسيان المطلق ما أخذوا تحذير معاوية مأخذ الجد وكفوا أيديهم^(٥)

١٢ - قصة باطلة في حق عمرو بن العاص بصفين :

قال نصر بن مزاحم الكوفي : وحمل أهل العراق وتلقاهم أهل الشام فاجتلدوا ، وحمل عمرو بن العاص . . . فاعترضه علي وهو يقول :

قَدْ عَلِمْتُ ذَاتُ الْقُرُونِ الْمِيلَ وَالْخَصْرِ وَالْأَنَامِلِ الطُّفُولِ^(٦)

إلى أن يقول : ثم طعنه فصرعه واثقاه عمرو برجله ، فبدت عورته ، فصرف علي وجهه عنه وارثت . فقال القوم : أفلت الرجل يا أمير المؤمنين . قال : وهل تدرون من هو؟ قالوا : لا . قال : فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي^(٧) ، وذكر القصة - أيضاً - ابن الكلبي كما ذكر ذلك السهيلي في الروض الأنف : وقول علي : إنه اتقاني بعورته فأذكرني الرَّحِمَ إلى أن قال : . . . ويروى مثل ذلك عن عمرو بن العاص مع علي رضي الله عنه يوم صفين ، وفي ذلك يقول الحارث بن النضر الشهمي ، رواه ابن الكلبي وغيره :

(١) مصنف بن أبي شيبة (٣٠٣/١٥) بسند حسن .

(٢) تاريخ دمشق (٣٣١/١ ، ٣٢٩) ؛ خلافة علي ، (ص ٢٥١) .

(٣) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، ص ٢٥١ ؛ تنزيه خال المؤمنين معاوية ، (ص ١٦٩) .

(٤) البداية والنهاية (٨/١٢٢) .

(٥) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام ، (ص ٢١١) .

(٦) الطفول : جمع طفل ، بالفتح ، وهو الرخص الناعم .

(٧) وقعة صفين (ص ٤٠٦ - ٤٠٨) ؛ قصص لا تثبت ، سليمان الخراشي (١٦/٦) .

أفي كل يوم فارسٌ غيرُ منتهٍ وَعَوْرَتُهُ وَسَطَ الْعَجَاجَةِ بَادِيَةً
يَكْفُ لَهَا عَنْهُ عَلِيٌّ سِنَانُهُ وَيُضْحِكُ مِنْهُ فِي الْخَلَاءِ مُعَاوِيَةَ^(١)
والرد على هذا الافتراء والإفك المبين كالآتي ، فراوي الرواية الأولى: نصر بن مزاحم
الكوفي ، صاحب وقعة صفين ، شيعي جلد لا يستغرب عنه كذبه وافتراؤه على الصحابة ، قال
عنه الذهبي في الميزان: نصر بن مزاحم الكوفي: رافضي جلد ، تركوه . قال عنه العقيلي:
شيعي ، في حديثه اضطراب وخطأ كثير ، وقال أبو خيثمة: كان كذاباً^(٢) ، وقال عنه ابن حجر:
قال العجلي: كان رافضياً غالباً . . . ليس بثقة ولا مأمون^(٣) ، وأما الكلبي ، هشام بن محمد بن
السائب الكلبي ، اتفقوا على غلوه في التشيع ، قال الإمام أحمد: من يحدث عنه؟! ما ظننت أن
أحدًا يحدث عنه ، وقال الدارقطني: متروك^(٤) .

وعن طريق هذين الرافضيين سارت هذه القصة في الآفاق وتلقفها من جاء بعدهم من مؤرخي
الشيعة وبعض أهل السنة؛ ممن راجت عليهم أكاذيب الرافضة^(٥) ، وتعد هذه القصة أنموذجاً
لأكاذيب الشيعة الروافض وافتراءاتهم على صحابة رسول الله ﷺ ، فقد اختلق أعداء الصحابة من
مؤرخي الرافضة مثالب لأصحاب رسول الله ﷺ وصاغوها على هيئة حكايات وأشعار لكي يسهل
انتشارها بين المسلمين ، هادفين إلى الغض من جناب الصحابة الأبرار - رضي الله عنهم - في
غفلة من أهل السنة الذين وصلوا متأخرين إلى ساحة التحقيق في روايات التاريخ الإسلامي بعد
أن طارت تلكم الأشعار والحكايات بين القصاص ، وأصبح كثير منها من المسلمات ، حتى عند
مؤرخي أهل السنة للأسف^(٦) .

١٣ - مرور أمير المؤمنين علي بالمقابر بعد رجوعه من صفين :

لما انصرف علي أمير المؤمنين رضي الله عنه من صفين مرّ بمقابر ، فقال: السلام عليكم أهل
الديار الموحشة ، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، أنتم
لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبعٌ ، وبكم عمّا قليل لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز
بعفوك عنا وعنهم ، الحمد لله الذي جعل الأرض كفاتاً ، أحياء وأمواتاً ، الحمد لله الذي خلقكم

(١) الروض الأنف (٥/٤٦٢)؛ قصص لا تثبت (٦/١٩) .

(٢) ميزان الاعتدال (٤/٢٥٣-٢٥٤) .

(٣) لسان الميزان (٦/١٥٧) .

(٤) كتاب المجروحين ، لابن حبان (٣/٩١)؛ تذكرة الحفاظ (١/٣٤٣)؛ معجم الأدباء (١٩/٢٨٧)؛
قصص لا تثبت (١/١٨) .

(٥) قصص لا تثبت (١/٢٠) .

(٦) المصدر السابق نفسه (١/١٠) .

وعليها يحشركم ، ومنها يبعثكم ، وطوبى لمن ذكر المعاد وأعدّ للحساب ، وقنع بالكفاف^(١) .

١٤ - إصرار قتلة عثمان رضي الله عنه على أن تستمر المعركة :

إن قتلة عثمان كانوا حريصين على أن تستمر المعركة بين الطرفين ، حتى يتفانى الناس ، وتضعف قوة الطرفين ، فيكونوا بمنأى عن القصاص والعقاب ، ولذلك فإنهم فزعوا وهم يرون أهل الشام يرفعون المصاحف ، وعلي رضي الله عنه يجيبهم إلى طلبهم فيأمر بوقف القتال وحسن الدماء فسعوا إلى ثني أمير المؤمنين عن عزمه ، لكن القتال توقف ، فسقط في أيديهم ، فلم يجدوا بداً من الخروج على علي رضي الله عنه فاخترعوا مقولة (الحكم لله) وتحصنوا بعيداً عن الطرفين ، والغريب أن المؤرخين لم يركزوا على ما فعله هؤلاء في هذه المرحلة ، كما فعلوا في معركة الجمل ، رغم أنهم كانوا موجودين في جيش علي ، وعن سر إخفاق تلك المفاوضات التي دامت أشهر عديدة ، وعن الدور الذي يمكن أن يكون قتلة عثمان قد قاموا به في معركة صفين لإفشال كل محاولة صلح بين الطرفين ، لأن اصطلاح علي مع معاوية هو أيضاً اصطلاح على دمائهم ، فلا يعقل أن يجتهدوا في الفتنة في وقعة الجمل ، ويتركوا ذلك في صفين^(٢) .

١٥ - نهى أمير المؤمنين علي عن شتم معاوية ولعن أهل الشام :

روي أن علياً - رضي الله عنه - لما بلغه أن اثنين من أصحابه يظهران شتم معاوية ولعن أهل الشام ، أرسل إليهما أن كفا عما يبلغني عنكما ، فأتيا فقالا : يا أمير المؤمنين ! ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال : بلى ورب الكعبة المسدنة ، قالوا : فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ قال : كرهت لكم أن تكونوا لعانين ، ولكن قولوا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وأبعدهم من ضلاتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي من لجج به^(٣) .

وأما ما قيل من أن علياً كان يلعن في قنوته معاوية وأصحابه ، وأن معاوية إذا قنت لعن علياً وابن عباس والحسن والحسين ، فهو غير صحيح ، لأن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أكثر حرصاً من غيرهم على التقيد بأوامر الشارع الذي نهى عن سباب المسلم ولعنه^(٤) ، فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله : «من لعن مؤمناً فهو قاتله»^(٥) ، وقوله ﷺ : «ليس المؤمن بطعان

(١) البيان والتبيين ، للجاحظ (٣/١٤٨) ؛ فرائد الكلام للخلفاء الكرام ، (ص ٣٢٧) .

(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ، (ص ١٤٧) .

(٣) الأخبار الطوال ، (ص ١٦٥) ، نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢/٢٣٢) .

(٤) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٢٣٢) .

(٥) البخاري ، كتاب الأدب (٧/٨٤) .

ولا بلعان^(١) ، وقوله ﷺ : « لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة »^(٢) .

كما أن الرواية التي جاء فيها لعن أمير المؤمنين في قنوته لمعاوية وأصحابه ، ولعن معاوية لأمر المؤمنين وابن عباس والحسن والحسين لا تثبت من ناحية السند؛ حيث فيها أبو مخنف لوط بن يحيى الذي لا يوثق في رواياته . كما أن في أصح كتب الشيعة عندهم النهي عن سب الصحابة ، فقد أنكر علي من يسب معاوية ومن معه ، فقال : إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتهم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم^(٣) ، فهذا السب والتكفير لم يكن من هدي علي باعتراف أصح كتاب في نظر الشيعة^(٤) .

رابعاً: التحكيم:

تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين ، وهو أن يحكم كل واحد منهما رجلاً من جهته ، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين ، فوكل معاوية عمرو بن العاص ، ووكل علي أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما جميعاً ، وكتب بين الفريقين وثيقة في ذلك ، وكان مقر اجتماع الحكمين في دومة الجندل في شهر رمضان سنة ٣٧هـ ، وقد رأى قسم من جيش علي رضي الله عنه أن عمله هذا ذنب يوجب الكفر؛ فعليه أن يتوب إلى الله تعالى ، وخرجوا عليه فسموا الخوارج ، فأرسل علي رضي الله عنه إليهم ابن عباس رضي الله عنهما فناظرهم وجادلهم ، ثم ناظرهم علي رضي الله عنه بنفسه فرجع طائفة منهم وأبت طائفة أخرى ، فجرت بينهم وبين علي رضي الله عنه حروب أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه ، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة .

تعتبر قضية التحكيم من أخطر الموضوعات في تاريخ الخلافة الراشدة ، وقد تاه فيها كثير من الكتاب ، وتخبط فيها آخرون وسطروها في كتبهم ومؤلفاتهم ، وقد اعتمدوا على الروايات الضعيفة والموضوعة التي شوهت الصحابة الكرام وخصوصاً: أبا موسى الأشعري الذي وصفوه بأنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعاً في القول ، وبأنه كان على جانب كبير من الغفلة ، ولذلك خدعه عمرو بن العاص في قضية التحكيم ، ووصفوا عمرو بن العاص رضي الله عنه بأنه كان صاحب مكر وخداع ، فكل هذه الصفات الذميمة حاول المغرضون والحاقدون على الإسلام

(١) السلسلة الصحيحة للألباني، رقم (٣٢٠)؛ صحيح سنن الرمزي (١٨٩/٢)، رقم (١١١٠) .

(٢) مسلم (٢٠٠٦/٤)، رقم (٢٥٩٨) .

(٣) نهج البلاغة، ص ٣٢٣ .

(٤) أصول مذهب الشيعة (٩٣٤/٢) .

إلصاقها بهذين الرجلين العظيمين اللذين اختارهما المسلمون ليفصلا في خلاف كبير أدى إلى قتل الكثير من المسلمين .

وقد تعامل الكثير من المؤرخين والأدباء والباحثين مع الروايات التي وضعها خصوم الصحابة الكرام على أنها حقائق تاريخية ، وقد تلقاها الناس منهم بالقبول دون تمحيص لها وكأنها صحيحة لا مرية فيها ، وقد يكون لصياغتها القصصية المثيرة وما زعم فيها من خداع ومكر أثر في اهتمام الناس بها وعناية المؤرخين بتدوينها ، وليعلم أن كلامنا هذا ينصب على التفاصيل لا على أصل التحكيم ؛ حيث إن أصله حق لا شك فيه^(١) .

خامساً: نص وثيقة التحكيم :

بسم الله الرحمن الرحيم .

١ - هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما ، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

٢ - قضية علي على أهل العراق شاهدهم وغائبهم ، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم .

٣ - إنّا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته ، نُحيي ما أُحيى ونُميم ما أُمات . على ذلك تقاضينا وبه تراضينا .

٤ - وإن علياً وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظراً وحاكماً ، ورضي معاوية بعمر بن العاص ناظراً وحاكماً .

٥ - على أن علياً ومعاوية أخذوا على عبد الله بن قيس وعمر بن العاص عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ، أن يتخذا القرآن إماماً ولا يعدوا به إلى غيره في الحكم بما وجده فيه مسطوراً ، وما لم يجدوا في الكتاب ردّاه إلى سنة رسول الله ﷺ الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافاً ، ولا يبغيان فيها بشبهة .

٦ - وأخذ عبد الله بن قيس وعمر بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه ، وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره .

٧ - وهما آمانان في حكومتهم على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما ، لم يعدوا الحق ، رضي به راضٍ أو سخط ساخط ، وإن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله .

(١) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ، (ص ٣٧٨)؛ تنزيه خال أمير المؤمنين معاوية ، (ص ٣٨) .

٨- فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة ، فليشيعة وأنصاره أن يختاروا مكانه رجلاً من أهل المعدلة والصلاح ، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق .

٩- وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية ، فليشيعة أن يؤلّوا مكانه رجلاً يرضون عدله .

١٠- وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح .

١١- وقد وجبت القضية على ما سَمّيناه في هذا الكتاب ، من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين ، والله أقرب شهيد ، وكفى به شهيداً ، فإن خالفاً وتعدّياً ، فالأمة بريئة من حكمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمّة .

١٢- والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم إلى انقضاء الأجل ، والسلاح موضوعة ، والسبل آمنة ، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر .

١٣- وللحكمين أن ينزلا منزلاً متوسطاً عدلاً بين أهل العراق والشام .

١٤- ولا يحضرهما فيه إلا من أحبّا عن تراضٍ بينهما .

١٥- والأجل إلى انقضاء شهر رمضان ، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة عجلّاهما ، وإن رأيا تأخيرها إلى آخر الأجل أخرّاهما .

١٦- فإن هما لم يحكما بما في كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل ، فالفريقان على أمرهم الأول في الحرب .

١٧- وعلى الأمة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر ، وهم جميعاً يد واحدة على من أراد في هذا الأمر إلحاداً أو ظلماً أو خلافاً .

وشهد على ما في هذا الكتاب: الحسن والحسين ، ابنا علي ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، والأشعث بن قيس الكندي ، والأشتر بن الحارث ، وسعيد بن القيس الهمداني ، والحصين والطفيل ابنا الحارث بن عبد المطلب ، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاري ، وعبد الله بن خباب بن الأرت ، وسهل بن حنيف ، وأبو بشر بن عمر الأنصاري ، وعوف بن الحارث بن عبد المطلب ، ويزيد بن عبد الله الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمر بن الحمق الخزاعي ، والنعمان بن عجلان الأنصاري ، وحجر بن عدي الكندي ، ويزيد بن حجية النكري ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيع بن شرحبيل ، والحارث بن مالك ، وحجر بن يزيد ، وعلبة بن حجية .

ومن أهل الشام: حبيب بن مسلمة الفهري ، وأبو الأعور السلمي ، وبسر بن أرطاة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحارث الزبيدي ، ومسلم بن عمرو

السكسكي ، وعبد الله بن خالد بن الوليد ، وحزمة بن مالك ، وسبيع بن يزيد الحضرمي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلقمة بن يزيد الحضرمي ، ويزيد بن أبجر العبسي ، ومسروق بن حبله العكي ، وبسر بن يزيد الحميري ، وعبد الله بن عامر القرشي ، وعتبة بن أبي سفيان ، ومحمد بن أبي سفيان ، ومحمد بن عمرو بن العاص ، وعمار بن الأحوص الكلبي ، ومسعدة بن عمرو العتبي ، والصباح بن جلهمة الحميري ، وعبد الرحمن بن ذي الكلاع ، وتامة بن حوشب ، وعلقمة بن حكم .

وكتب يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين^(١) .

سادساً: قصة التحكيم المشهورة وبطلانها من وجوه :

لقد كثر الكلام حول قصة التحكيم ، وتداولها المؤرخون والكتاب على أنها حقيقة ثابتة لا مرية فيها ، فهم بين مطيل في سياقها ومختصر ، وشارح ومستنبط للدروس وبانٍ للأحكام على مضامينها ، وقلما تجد أحداً وقف عندها فاحصاً محققاً ، وقد أحسن ابن العربي في ردها إجمالاً وإن كان غير مفصل ، وفي هذا دلالة على قوة حاسته النقدية للنصوص ، إذ إن جميع متون قصة التحكيم لا يمكن أن تقوم أمام معيار النقد العلمي ، بل هي باطلة من عدة وجوه^(٢) :

١ - أن جميع طرقها ضعيفة : وأقوى طريق وردت فيه هو ما أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند رجاله ثقات عن الزهري مرسلاً قال : قال الزهري : فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم ، ودعوا إلى ما فيها ، فهاب أهل العراق ، فعند ذلك حكموا الحكمين ، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فتفرق أهل صفين حين حكم الحكمان ، فاشترط أن يرفعا ما رفع القرآن ويخفضا ما خفض القرآن ، وأن يختارا لأمة محمد ﷺ ، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل ، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح .

فلما انصرف عليّ خالفت الحرورية وخرجت - وكان ذلك أول ما ظهرت - فآذنوه بالحرب ، وردوا عليه : أن حكم بني آدم في حكم الله عز وجل ، وقالوا : لا حكم إلا لله سبحانه ، وقاتلوا ، فلما اجتمع الحكمان بأذرح ، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس ، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير ، ووافى معاوية بأهل الشام ، وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا ، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الرأي من قريش : أترون أحداً من الناس برأي يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم

(١) انظر: الوثائق السياسية، (ص ٥٣٨، ٥٣٧)؛ الأخبار الطوال، للدينوري، (ص ١٩٦-١٩٩)؛ أنساب الأشراف (١/٣٨٢)؛ تاريخ الطبري (٥/٦٦٥، ٦٦٦)؛ البداية والنهاية (٧/٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، (ص ٤٠٤).

يفترقان؟ قالوا: لا نرى أحداً يعلم ذلك ، قال: فوالله إني لا أظن أنني سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأرجعهما .

فدخل عمرو بن العاص وبدأ به فقال: يا أبا عبد الله ، أخبرني عما أسألك عنه ، كيف ترانا معشر المعتزلة ؟ فإننا قد شككنا في الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال ، ورأينا أن نستأني ونتثبت حتى تجتمع الأمة ، قال: أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار ، وأمام الفجار ، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك ، حتى دخل على أبي موسى فقال له مثل ما قال لعمرو ، فقال أبو موسى : أراكم أثبت الناس رأياً ، فيكم بقية المسلمين ، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك ، فلفي الذين قال لهم ما قال من ذوي الرأي من قريش ، فقال: لا يجتمع هذان على أمر واحد .

فلما اجتمع الحكماء وتكلموا قال عمرو بن العاص: يا أبا موسى ، رأيت أول ما تقضي به من الحق أن تقضي لأهل الوفاء بوفائهم ، وعلى أهل الغدر بغدرهم ، قال أبو موسى : وما ذاك؟ قال: أأست تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وفوا ، وقدموا للموعد الذي واعدناهم إياه؟ قال: بلى ، قال عمرو: اكتبها ، فكتبها أبو موسى ، قال عمرو: يا أبا موسى ، أأنت على أن نسمي رجلاً يلي أمر هذه الأمة؟ فسمه لي ، فإن أقدر على أن أتابعك فلك عليّ أن أتابعك وإلا فلي عليك أن تتابعني ، قال أبو موسى : أسمي لك معاوية بن أبي سفيان ، فلم يبرحاً مجلسهما حتى استبا .

ثم خرجا إلى الناس ، فقال أبو موسى : إني وجدت مثل عمرو كمثّل الذي قال الله عز وجل : ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَخْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] . فلما سكّت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيها الناس وجدت مثل أبي موسى كمثّل الذي قال الله عز وجل : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَاراً﴾ [الجمعة: ٥] . وكتب كل واحد منهما مثله الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار^(١) .

والزهري لم يدرك الحادثة فهي مرسلّة ، ومراسيله كأدراج الرياح لا تقوم بها حجة^(٢) ، كما قرّر العلماء ، وهناك طريق أخرى أخرجها ابن عساكر بسنده إلى الزهري وهي مرسلّة ، وفيها أبو بكر بن أبي سبرة؛ قال عنه الإمام أحمد: كان يضع الحديث^(٣) . وفي سنده أيضاً الواقدي ، وهو متروك^(٤) ، وهذا نصّها :

... رفع أهل الشام المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله والحكم بما فيه ، وكان ذلك مكيدة من عمرو بن العاص ، فاصطلحوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يوافوا رأس الحول أذرح ،

(١) المصنف (٥/٤٦٣)؛ مرويات تاريخ الطبري ، (ص ٤٠٦) .

(٢) المراسيل لأبي حاتم ، (ص ٣)؛ الجرح والتعديل (١/٢٤٦) .

(٣) تهذيب التهذيب (١٢/٢٧)؛ مرويات تاريخ الطبري ، (ص ٤٠٦) .

(٤) مرويات تاريخ الطبري ، (ص ٤٠٦) .

وحكموا حكمين ينظران في أمور الناس فيرضوا بحكمهما ، فحكم علي أبا موسى الأشعري ، وحكم معاوية عمرو بن العاص ، وتفرق الناس . فرجع علي إلى الكوفة بالاختلاف والدغل ، واختلف عليه أصحابه ، فخرج عليه الخوارج من أصحابه ممن كان معه ، وأنكروا تحكيمه وقالوا: لا حكم إلا لله . ورجع معاوية إلى الشام بالإلفة واجتماع الكلمة عليه ، ووافى الحكماء بعد الحول بأذرح في شعبان سنة ثمان وثلاثين ، واجتمع الناس إليهما ، وكان بينهما كلام اجتماعاً عليه في السر خالفه عمرو بن العاص في العلانية ، فقدم أبا موسى فتكلم وخلع علماً ومعاوية ، ثم تكلم عمرو بن العاص فخلع علماً وأقر معاوية ، فتفرق الحكماء ومن كان اجتماع إليهما ، وبايع أهل الشام معاوية في ذي القعدة سنة ثمان وثلاثين^(١) .

وأما طرق أبي مخنف فهي معلولة به ، وبأبي جناب الكلبي ؛ فالأول : وهو أبو مخنف لوط بن يحيى ، ضعيف ليس بثقة^(٢) ، وأخباري تالف ، وأما الثاني قال فيه ابن سعد : كان ضعيفاً^(٣) ، وقال البخاري : وأبو حاتم كان يحيى القطان يضعفه^(٤) . وقال عثمان الدارمي : ضعيف^(٥) ، وقال النسائي : ضعيف^(٦) .

هذه طرق قصة التحكيم المشهورة ، والمناظرة بين أبي موسى وعمرو بن العاص المزعومة ، أفبمثل هذا تقوم حجة ؟! أو يعول على مثل ذلك في تاريخ الصحابة الكرام وعهد الخلفاء الراشدين ، عصر القدوة والأسوة ؟! ولو لم يكن في هذه الروايات إلا الاضطراب في متونها لكفاها ضعفاً ؛ فكيف إذا أضيف إلى ذلك ضعف أسانيدها ؟!^(٧) .

٢- أهمية هذه القضية في جانب الاعتقاد والتشريع : ومع ذلك لم تنقل لنا بسند صحيح ، ومن المحال أن يطبق العلماء على إهمالها مع أهميتها وشدة الحاجة إليها^(٨) .

٣- وردت رواية تناقض تلك الروايات تماماً : وذلك فيما أخرجه البخاري في تاريخه مختصراً بسند رجاله ثقات ، وأخرجه ابن عساكر مطولاً ، عن الحصين بن المنذر : أن معاوية أرسله إلى عمرو بن العاص فقال له : إنه بلغني عن عمرو بعض ما أكره ، فائته فاسأله عن الأمر الذي اجتمع

(١) تاريخ دمشق (١٦/٥٣) .

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٢٢٣) .

(٣) مرويات أبي مخنف ، (ص ٤٠٧) .

(٤) التاريخ الكبير (٤/٢/٢٦٧) ؛ الجرح والتعديل (٩/١٣٨) .

(٥) التاريخ ، للدارمي ، (ص ٢٣٨) ؛ تحقيق مواقف الصحابة (٢/٢٢٣) .

(٦) الضعفاء والمتروكون ، (ص ٢٥٣) .

(٧) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ، (ص ٤٠٨) .

(٨) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٠٨) .

عمرو وأبو موسى فيه ؛ كيف صنعتما فيه؟ قال : قد قال الناس وقالوا ، ولا والله ما كان ما قالوا ، ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له : ما ترى في هذا الأمر؟ قال : أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ ، قال : فقلت : أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية؟ قال : إن يستعن بكما ففيكما معونة ، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما^(١).

وقد روى أبو موسى عن تورّع عمرو ومحاسبته لنفسه ، وتذكّره سيرة أبي بكر وعمر ، وخوفه من الإحداث بعدهما ، قال أبو موسى : قال لي عمرو بن العاص : والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحلّ لهما ، لقد غُبنّا وأخطأ أو نقص رأيهما ، والله ما كانا مغبونين ولا مخطئين ولا ناقصي الرأي . والله ما جاءنا الوهم والضعف إلا من قبلنا^(٢).

٤- أن معاوية كان يقر بفضل علي عليه ، وأنه أحق بالخلافة منه : فلم ينازعه الخلافة ولا طلبها لنفسه في حياة علي؛ فقد أخرج يحيى بن سليمان الجعفي بسند جيد^(٣) ، عن أبي مسلم الخولاني : أنه قال لمعاوية : أنت تنازع علياً في الخلافة أو أنت مثله؟ قال : لا وإنني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر ، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه؟ فأثتوا علياً فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان وأسلم له ، فأثتوا علياً فكلّموه فلم يدفعهم إليه^(٤).

فهذا هو أصل النزاع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، فالتحكيم من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها لا اختيار خليفة أو عزله^(٥).

ويقول ابن حزم في هذا الصدد بأن علياً قاتل معاوية لامتناعه من تنفيذ أوامره في جميع أرض الشام ، وهو الإمام الواجب طاعته ، ولم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه الخلافة ، لكن اجتهد أذاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة ، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه من أولاد عثمان وأولاد الحكم بن أبي العاص لستّه وقوته على الطلب بذلك ، وأصاب في هذا ، وإنما أخطأ في تقديمه ذلك على البيعة فقط^(٦).

وفهم الخلاف على هذه الصورة - وهي صورته الحقيقية - يبين إلى أي مدى تخطى الروايات السابقة عن التحكيم في تصوير قرار الحكمين ، إن الحكمين كانا مفوضين للحكم في الخلاف بين علي ومعاوية ، ولم يكن الخلاف بينهما حول الخلافة ومن أحق بها منهما ، وإنما كان حول

(١) التاريخ الكبير (٣٩٨/٥).

(٢) العواصم من القواصم ، (ص ١٧٨ - ١٨٠).

(٣) فتح الباري (٨٦/١٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٤٠/٣).

(٥) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ، (ص ٤٠٩).

(٦) الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٦٠/٤).

توقيع القصاص على قتلة عثمان ، وليس هذا من أمر الخلافة في شيء ، فإذا ترك الحكمان هذه القضية الأساسية ، وهي ما طلب إليهما الحكم فيه ، واتخذوا قراراً في شأن الخلافة كما تزعم الرواية الشائعة ، فمعنى ذلك أنهما لم يفهما موضوع النزاع ، ولم يحيطا بموضوع الدعوى ، وهو مستبعد جداً^(١).

٥- أن الشروط التي يجب توفرها في الخليفة هي العدالة والعلم : والرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح ، وأن يكون^(٢) قرشياً ، وقد توفرت هذه الشروط في علي (رضي الله عنه) فهل بيعته منعقدة أم لا؟ فإن كانت منعقدة - ولا شك وقد بايعه المهاجرون والأنصار أهل الحل والعقد ، وخصومه يقرون له بذلك - فقول معاوية السابق يدل عليه بأن الإمام إذا لم يخل عن صفات الأئمة ، فرام العاقدون له عقد الإمامة أن يخلعوه ، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً باتفاق الأئمة ، فإن عقد الإمام لازم ، لا اختيار في حله من غير سبب يقتضيه ، ولا تنتظم الإمامة ولا تنفيذ الغرض المقصود منها إلا مع القطع بلزومها ، ولو تخير الرعايا في خلع إمام الخلق على حكم الإيثار والاختيار لما استتب للإمام طاعة ، ولما استمرت له قدرة واستطاعة ، ولما صح لمنصب الإمام معنى^(٣).

وإذا فليس الأمر بهذه الصورة التي تحكيها الروايات : كل من لم يرضَ بإمامه خلعه ، فعقد الإمامة لا يحله إلا من عقده ، وهم أهل الحل والعقد ، وبشرط إخلال الإمام بشروط الإمامة ، وهل علي رضي الله عنه فعل ذلك واتفق أهل الحل والعقد على عزله عن الخلافة وهو الخليفة الراشد حتى يقال : إن الحكمين اتفقا على ذلك ؟! فما ظهر منه قط إلى أن مات رضي الله عنه ، شيء يوجب نقض بيعته ، وما ظهر منه قط إلا العدل ، والجد والبر والتقوى والخير^(٤).

٦- أن الزمان الذي قام فيه التحكيم زمان فتنة : وحالة المسلمين مضطربة مع وجود خليفة لهم ، فكيف تنتظم حالتهم مع عزل الخليفة ؟! لا شك أن الأحوال ستزداد سوءاً ، والصحابة الكرام أحذق وأعقل من أن يقدموا على هذا ، وبهذا يتضح بطلان هذا الرأي عقلاً ونقلاً.

٧- أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حصر الخلافة في أهل الشورى : وهم الستة ، وقدر رضي المهاجرون والأنصار بذلك ، فكان ذلك إذناً في أن الخلافة لا تعدوا هؤلاء إلى غيرهم ما بقي

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢/ ٢٢٥).

(٢) الأحكام السلطانية ، للماوردي ، (ص ٦)؛ الأحكام السلطانية ، لأبي يعلى ، (ص ٢٠)؛ غياث الأمم ، (ص ٧٩) وما بعدها.

(٣) غياث الأمم ، (ص ١٢٨)؛ مرويات أبي مخنف ، (ص ٤١٠).

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ٢٣٨).

منهم واحد ، ولم يبق منهم في زمان التحكيم إلا سعد بن أبي وقاص وقد اعتزل الأمر ورغب عن الولاية ، والإمارة ، وعلي بن أبي طالب القائم بأمر الخلافة وهو أفضل الستة بعد عثمان فكيف يتخطى بالأمر إلى غيره؟! ^(١).

٨ - أوضحت الروايات أن أهل الشام بايعوا معاوية بعد التحكيم : والسؤال : ما المسوغ الذي جعل أهل الشام يبايعون معاوية؟ إن كان من أجل التحكيم فالحكماء لم يتفقا ولم يكن ثمة مبرر آخر حتى ينسب عنهم ذلك ، مع أن ابن عساكر نقل بسند رجاله ثقات عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي ^(٢) ، أعلم الناس بأمر الشام ^(٣) : أنه قال : كان علي بالعراق يدعى أمير المؤمنين ، وكان معاوية بالشام يدعى الأمير ، فلما مات علي دعي معاوية بالشام أمير المؤمنين ^(٤).

فهذا النص يبين أن معاوية لم يبايع بالخلافة إلا بعد وفاة علي ، وإلى هذا ذهب الطبري ، فقد قال في آخر حوادث سنة أربعين : وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء ^(٥) ، وعلق على هذا ابن كثير بقوله : يعني لما مات علي قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين ؛ لأنه لم يبق له عندهم منازع ^(٦) ، وكان أهل الشام يعلمون بأن معاوية ليس كفتاً لعلي بالخلافة ، ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي رضي الله عنه ، فإن فضل علي وسابقته وعلمه ، ودينه ، وشجاعته ، وسائر فضائله : كانت عندهم ظاهرة معروفة ، كفضل إخوانه : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم ^(٧) ، وإضافة إلى ذلك فإن النصوص تمنع من مبايعة خليفة مع وجود الأول ، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما» ^(٨) ، والنصوص في هذا المعنى كثيرة ^(٩) ، ومن المحال أن يطبق الصحابة على مخالفة ذلك ^(١٠).

٩ - أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال : دخلت على حفصة ونسواتها تنطف ،

(١) مرويات أبي مخنف ، (ص ٤١١).

(٢) سعيد بن عبد العزيز التنوخي ، ثقة إمام (التقريب).

(٣) تهذيب التهذيب (٤/ ٦٠).

(٤) تاريخ الطبري (٦/ ٧٦).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) البداية والنهاية (٨/ ١٦).

(٧) الفتاوى (٣٥/ ٧٣).

(٨) صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠).

(٩) سنن البيهقي (٨/ ١٤٤).

(١٠) مرويات أبي مخنف ، (ص ٤١٢).

قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين ، فلم يجعل لي من الأمر شيء ، فقالت : الحق فإنهم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة ، فلم تدعه حتى ذهب ، فلما تفرق الناس خطب معاوية قال : من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه ، فلنحن أحق به منه ومن أبيه ، قال حبيب بن مسلمة : فهلا أجبتة؟ قال عبد الله : فحللت حبوتي وهممت أن أقول : أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام ، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عني غير ذلك ، فذكرت ما أعد الله في الجنان . قال حبيب : حُفِظَتْ وَعُصِمَتْ^(١) .

هذا الحديث قد يفهم منه مبايعة معاوية بالخلافة ، وليس فيه تصريح بذلك ، وقد قال بعض العلماء : إن هذا الحديث كان في الاجتماع الذي صالح فيه الحسن بن علي رضي الله عنهما معاوية رضي الله عنه .

وقال ابن الجوزي : إن هذه الخطبة كانت في زمن معاوية لما أراد أن يجعل ابنه يزيد ولي عهده ، ويرى ابن حجر أنه في التحكيم^(٢) ، ودلالة النص على القولين الأولين أقوى . فقله : فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم . دليل على اجتماع الكلمة على معاوية ، وأيام التحكيم أيام فرقة واختلاف لا أيام جمع وائتلاف^(٣) .

١٠ - حقيقة قرار التحكيم : ليس من شك في أن أمر الخلاف الذي رأى الحكماء رده إلى الأمة أو إلى أهل الشورى ليس إلا أمر الخلاف بين علي ومعاوية حول قتلة عثمان ، ولم يكن معاوية مدعياً للخلافة ولا منكرأ حق عليّ فيها كما تقرر سابقاً ، وإنما كان ممتنعاً عن بيعته وعن تنفيذ أوامره في الشام ؛ حيث كان متغلباً عليها بحكم الواقع لا بحكم القانون ، مستفيداً من طاعة الناس له بعد أن بقي والياً فيها زهاء عشرين سنة^(٤) ، وقد قال ابن دحية الكلبي في كتابه (أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين) : قال أبو بكر محمد بن الطيب الأشعري - الباقلاني - في مناقب الأئمة : فما اتفق الحكماء قط على خلعه - علي بن أبي طالب . . . وعلى أنهما لو اتفقا على خلعه لم ينخلع أو أحد منهما على ما شرطاً في الموافقة بينهما ، أو إلى أن يبين ما يوجب خلعه من الكتاب والسنة ، ونصّ كتاب عليّ - عليه السلام - اشترط على الحكمين أن يحكما بما في كتاب الله عز وجلّ من فاتحته إلى خاتمته لا يجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه ، ولا يميلان إلى هوى ولا إدهان ، وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق ، وإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله فلا حكم لهما . . . والكتاب والسنة يثبتان إمامته ، ويعظمانه ويثنيان عليه ،

(١) البخاري (٤٨/٥) .

(٢) فتح الباري (٤٦٦/٧) .

(٣) مرويات أبي مخنف .

(٤) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (٢/٢٣٤) .

يشهدان بصدقه وعدالته ، وإمامته ، وسابقتها في الدين ، وعظيم جهاده في جهاد المشركين ، وقرابته من سيد المرسلين ، وما خص به من القدم في العلم ، والمعرفة بالحكم ، ووفور العلم ، وأنه حقيق بالإمامة ، وأهل لحمل أعباء الخلافة^(١).

١١ - مكان انعقاد المؤتمر : كان الموعد المحدد لاجتماع الحكامين - كما جاء في الوثيقة - في رمضان في عام ٣٧ هـ ، إذا لم تحدث عوائق ، في موضع وسط بين العراق والشام ، وهذا الموضوع المختار هو دومة الجندل^(٢) ، في روايات موثقة ، وأذرح^(٣) في روايات أخرى دونها في الإتقان ، ولعل لقرب المكانين من بعضهما أثر في اختلاف الروايات ، إذ يقول خليفة بن خياط^(٤) : ويقال : بأذرح ، وهي من دومة الجندل قريب ، وقد تم الاجتماع في الموعد المحدد بدون عوائق^(٥).

إن المكان الذي اجتمع فيه الحكماء هو دومة الجندل ، وهذا بخلاف ما جزم به ياقوت الحموي من أن التحكيم حدث في أذرح ، واستدل على ذلك ببعض روايات لم يبينها ، وبالأشعار ، وبخاصة بشعر ذي الرمة^(٦) في مدح بلال بن أبي بردة^(٧) ؛ وهو قوله :
أبوك تلافى الدين والناس بعدما تشاءوا وبيت الدين منقلع الكسر
فشداً إصاراً للدين أيام أذرح ورداً حروباً قد لقحن إلى عُقر^(٨)

١٢ - هل حضر سعد بن أبي وقاص اجتماع الحكامين؟ : اجتمع الحكماء في مواعدهما المحدد ، ومع كل واحد منهما بضع مئات يمثلون وفدين : وفد عن أهل العراق ، والآخر يمثل أهل الشام ، وطلب الحكماء من عدد من أعيان قريش وفضلائهم الحضور لمشاورتهم والاستئناس برأيهم ، ولم يحضر الاجتماع عدد من كبار الصحابة كانوا قد اعتزلوا القتال منذ بدايته ، وأفضل هؤلاء : سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه فإنه لم يحضر التحكيم ولا أراد ذلك ولا هم به^(٩) ، فعن عامر بن سعد : أن أخاه عمر أنطلق إلى سعد في غنم له خارجاً من المدينة ،

(١) أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين ، (ص ١٧٧).

(٢) دومة الجندل : غرب مدينة الجوف في شمال الجزيرة العربية.

(٣) أذرح : اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البلقاء.

(٤) تاريخ خليفة ، (ص ١٩١-١٩٢).

(٥) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، (ص ٢٦٧).

(٦) ذي الرمة : غيلان بن عقبة ، توفي ١١٧ هـ. سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٧).

(٧) بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري . تهذيب تاريخ دمشق (٣/٣٢١).

(٨) ديوان ذي الرمة ، (ص ٣٦١-٣٦٢) ، نقلاً عن خلافة علي ، (ص ٢٧٢).

(٩) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد ، (ص ٢٧٢).

فلَمَّا أتاه رآه سعد قال: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرِّكْبِ ، فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ: يَا أَبُةَ ، أَرْضَيْتَ أَنْ تَكُونَ أَعْرَابِيًّا فِي غَنَمِكَ وَالنَّاسُ يَتَنَازَعُونَ فِي الْمَلِكِ بِالْمَدِينَةِ؟ فَضَرَبَ سَعْدُ صَدْرَ عُمَرَ وَقَالَ: اسْكُتْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»^(١).

سابعاً: هل يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية؟

يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية؛ وذلك بتحمل قادة البلاد الإسلامية جميعاً مسؤولياتهم ومن ورائهم الأمة الإسلامية التي يحكمونها في الضغط الجادّ الصادق ، على الطرفين المتنازعين ، لكي يوقفا بينهما القتال ، ويلجأ إلى التحكيم الشرعي في الإسلام ، فيرسل هذا الطرف حكماً من قبله ، وذلك حكماً آخر من قبله أيضاً ، للفصل في النزاع القائم ، وذلك على ضوء ما يلي:

١ - تحديد صلاحيات الحكّمين في إصدار الأحكام التي لا بُدَّ منها لحل المشكلات التي هي سبب النزاع.

٢ - جعل مصادر التشريع الإسلامي هي المرجع الوحيد لإصدار تلك الأحكام والحلول ، التي تفصل في مسائل النزاع.

٣ - أخذ العهد على كل طرف من طرفي النزاع ، وأخذ العهد على جميع قادة البلاد الإسلامية بقبول ما يصدره الحكماء من أحكام وحلول مشروعة لإنهاء النزاع الزاهن ، على أنها واجبة التنفيذ بحكم الإسلام ، وأن الخروج عليها ، أو الرضا بذلك الخروج يترتب عليه الإثم شرعاً.

٤ - إذا أصدر الحكماء ما اتَّفَقَا عليه من أحكام ، وحلول ، وانقاد لها الطرفان المتنازعان - قُضِيَ الأمر ، وكفى الله المؤمنين القتال .

٥ - إذا رفض أحد الطرفين ، أو كلاهما الانقياد لقضاء الحكّمين اعتبر الطرف الرافض هو الطرف الباغي ، سواء صدر الرفض من أحدهما ، أو من كليهما ، ووجب شرعاً على القوات الإسلامية في الأقطار الأخرى أن تضع نفسها تحت تصرّف ما يصدره الحكماء من قرارات عسكرية ، من أجل التدخل لحسم النزاع بالقوة على وجه لا تترتب عليه أضرار ومخاطر هي أكبر من ضرر النزاع القائم .

٦ - ويكون من صلاحيات الحكّمين - بالاتّفاق - إصدار القرارات التي تخص كيفية تحريك

(١) المسند (١/١٦٨) ، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (٣/٢٦)؛ خلافة علي بن أبي طالب ، للسلمي ، (ص ١٠٧).

القوات المسلحة في الأقطار الإسلامية الأخرى ، من أجل حل النزاع القائم على ضوء ما سلف بيانه^(١) .

ولعلّ اللجوء إلى مثل هذه الطريقة في حل المنازعات بين الأقطار الإسلامية ، كفيل بسد الطريق على أية قوة خارجية تتدخل في نزاعات المسلمين بحجة أنّ بعض أطراف النزاع دعاها إلى هذا التدخل . . ومن ثم تستغل هذه الفرصة لكي تتآمر على المسلمين ، فتعمل على تصعيد تلك النزاعات ، وفرض الحلّ الذي يخلو لها ، ويكون فيه مصلحتها فقط ، وليعان المسلمون - بعدئذ - من آثار ذلك الحلّ أسوأ ممّا كانوا يُعانون من فتنة النزاع نفسها ، فهذه المعاناة لا تهمها في شيء ، لا بل إنّ هذه المعاناة هي من جملة الاهتمامات التي فرضت من أجل تفجيرها ذلك الحلّ المشؤوم .

قلنا: لعلّ اللجوء إلى التحكيم ، على نحو ما سلف بيانه ، يسد الطريق في وجه تلك القوى الخارجية التي تبغي في صفوف المسلمين الفساد .

هذا ، وإن الصفة الإلزاميّة شرعاً للحل عن طريق التحكيم الذي عرضناه - تستند إلى إجماع الصحابة ، فقد أجمع الصحابة كلهم في عهد النزاع الذي نشب بين علي ومعاوية على اللجوء إلى التحكيم ، والقبول به . . سواء في ذلك الصحابة الذين كانوا مع علي ، والصحابة الذين كانوا مع معاوية ، والصحابة الذين اعتزلوا الطريقتين ، كسعد بن أبي وقاص ، وابن عمر ، وغيرهما - رضي الله عنهم أجمعين^(٢) .

ثامناً: موقف أهل السنة من تلك الحروب :

إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم رضي الله عنهم ؛ لما يسببه الخوض في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين ، وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويترضى عنهم ويترحم عليهم ويحفظ لهم فضائلهم ، ويعترف لهم بسوابقهم ، وينشر مناقبهم ، وأن الذي حصل بينهم إنما كان عن اجتهد ، والجميع مثابون في حالي الصواب والخطأ ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ في اجتهد ، وأن القاتل والمقتول من الصحابة في الجنة ، ولم يجزّز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم ، وقبل أن أذكر طائفة من أقوال أهل السنة التي تبين موقفهم فيما شجر بين الصحابة أذكر بعض النصوص التي فيها الإشارة إلى

(١) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (٣/ ١٦٦٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

ما وقع بين الصحابة من الاقتتال ، وبما وصفوا به فيها ، وتلك النصوص هي^(١) :

١ - قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفُتِّلُوا إِلَىٰ بَعْضِ النَّبِيِّينَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتَةً فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] .

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال ؛ لأنهم إخوة ، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله - عز وجل - مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم ، وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية ؛ فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيماناً حقيقياً ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال ؛ لأنه كان عن اجتهاد^(٢) .

٢ - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»^(٣) . والفرقة المشار إليها في الحديث هي ما كان من الاختلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، وقد وصف ﷺ الطائفتين معاً بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق ، والحديث علم من أعلام النبوة : إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام ، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين : أهل الشام وأهل العراق ، لا كما يزعمه بعض فرق الشيعة من تكفيرهم أهل الشام ، وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة : أن علياً هو المصيب ، وإن كان معاوية مجتهداً وهو مأجور إن شاء الله ، ولكن علي هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(٤) .

٣ - وعن أبي بكره قال : بينما النبي ﷺ يخطب ، جاء الحسن فقال النبي : «ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(٥) . ففي هذا الحديث شهادة من النبي ﷺ بإسلام الطائفتين أهل العراق وأهل الشام ، والحديث فيه رد واضح على الخوارج الذين كفروا علياً ومن

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (٢/٧٢٧) ؛ تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان من الظلم والفسق في مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان ، (ص ٤١) .

(٢) العواصم من القواصم ، ص ١٦٩ - ١٧٠ ؛ أحكام القرآن (٤/١٧١٧) .

(٣) مسلم (٢/٧٤٥) .

(٤) البخاري مع شرحه في فتح الباري (١٣/٣١٨) .

(٥) البخاري ، كتاب الفتن رقم (٧١٠٩) .

معه ، ومعاوية ومن معه ، بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام ، ولذا كان يقول سفيان بن عيينة : قوله : فئتين من المسلمين ؛ يعجبنا جداً . قال البيهقي : وإنما أعجبه لأن النبي ﷺ سماهم جميعاً مسلمين ، وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن علي بعد وفاة علي في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان^(١) .

فهذه الأحاديث المتقدم ذكرها فيها الإشارة إلى أهل العراق الذين كانوا مع علي ، وإلى أهل الشام الذين كانوا مع معاوية بن أبي سفيان ، وقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم من أمته^(٢) . كما وصفهم بأنهم جميعاً متعلقون بالحق لم يخرجوا عنه ، كما شهد لهم ﷺ بأنهم مستمررون على الإيمان ولم يخرجوا عنه بسبب القتال الذي حصل بينهم ، وقد دخلوا تحت عموم قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا ۖ ﴾ [الحجرات : ٩] ، وقد قدمنا : أن مدلول الآية ينظمهم رضي الله عنهم أجمعين ، فلم يكفروا ولم يفسقوا بقتالهم ، بل هم مجتهدون متأولون ، وقد بين الحكم في قتالهم ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما مر معنا .

فالواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم مسلك الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة ؛ وهو الإمساك عما حصل بينهم رضي الله عنهم ، ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم ، وكتب أهل السنة مملوءة ببيان عقيدتهم الصافية النقية في حق أولئك الصفوة المختارة ، وقد حددوا موقفهم من تلك الحرب التي وقعت بينهم في أقوالهم الحسنة التي منها^(٣) :

١ - سئل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن القتال الذي حصل بين الصحابة ، فقال : تلك دماء طهر الله يدي منها أفلا أظهر منها لساني ؟ ! مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون ، ودواء العيون ترك مسها^(٤) . قال البيهقي معلقاً على قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : هذا حسن جميل ؛ لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب^(٥) .

٢ - سئل الحسن البصري رحمه الله تعالى عن قتال الصحابة فيما بينهم ، فقال : قتال شاهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا ، وعلّموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا^(٦) . ومعنى قول

(١) الاعتقاد للبيهقي ، (ص ١٩٨) ؛ فتح الباري (١٣/٦٦) .

(٢) في صحيح مسلم (٢/٧٤٦) : تكون في أمي فرقان .

(٣) عقيدة أهل السنة في الصحابة (٢/٧٣٢) .

(٤) الإنصاف ، للباقلاني ، (ص ١٦) ؛ الطبقات (٥/٣٩٤) .

(٥) مناقب الشافعي ، (ص ١٣٦) .

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٦/٣٣٢) .

الحسن هذا: أن الصحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، وما علينا إلا أن نتبعهم فيما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا فيه ، ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله - عز وجل - إذ كانوا غير متهمين في الدين^(١).

٣- سئل جعفر بن محمد الصادق عما وقع بين الصحابة ، فأجاب بقوله : أقول ما قال الله : ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^(٢) [طه : ٥٢] .

٤- قال الإمام أحمد رحمه الله بعد أن قيل له : ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية ؟ قال : ما أقول فيهم إلا الحسن^(٣) ، وعن إبراهيم بن آرز الفقيه قال : حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية ؟ فأعرض عنه ، فقيل له : يا أبا عبد الله ! هو رجل من بني هاشم ، فأقبل عليه فقال : اقرأ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤١] .

٥- وقال ابن أبي زيد القيرواني في صدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم في أصحاب رسول الله ﷺ وما ينبغي أن يذكروا به ، فقال : وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر ، والإمساك عما شجر بينهم ، وأنهم أحق الناس أن يلتبس لهم أحسن المخارج ، ويظن بهم أحسن المذاهب^(٤).

٦- وقال أبو عبد الله بن بطة أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة : ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ ؛ فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل ، فقد غفر الله لهم ، وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم ، وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم ، وأنهم سيقتلون ، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم ، وكل ما شجر بينهم مغفور لهم^(٥).

٧- قال أبو بكر بن الطيب الباقلاني : ويجب أن يعلم : أن ما جرى بين أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم من المشاجرة ؛ نكف عنه وترحم على الجميع ، ونثني عليهم ، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان ، ونعتقد أن علياً عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران ، وأن الصحابة رضي الله عنهم ما صدر منهم كان باجتهاد ، فلهم الأجر ، ولا يفسقون

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) الإنصاف ، للباقلاني ، (ص ١٦٤) .

(٣) مناقب الإمام أحمد ، لابن الجوزي ، (ص ١٦٤) .

(٤) رسالته المشهورة مع شرحها الثمر الداني ، (ص ٢٣) .

(٥) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ، (ص ٢٦٨) .

ولا يبدعون ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] ، وقوله ﷺ : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» . فإذا كان الحاكم في وقتنا له أجران على اجتهداه ؛ فما ظنك باجتهد من رضي الله عنهم ورضوا عنه ؟! ويدل على صحة هذا القول : قوله ﷺ للحسن رضي الله عنه : «إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(١) ، فأثبت العظمة لكل واحدة من الطائفتين وحكم لهما بصحة الإسلام ، وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧] . . . ، إلى أن قال : ويجب الكف عما شجر بينهم والسكوت عنه^(٢) .

٨ - وقال ابن تيمية في صدد عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة : ويمسكون عما شجر بين الصحابة ، ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساوئهم منها ما هو كذب ، ومنها ما هو زيد فيه ونقص وغير عن وجهه ، والصحيح منه هم فيه معذورون ؛ إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون^(٣) .

٩ - وقال ابن كثير : أما ما شجر بينهم بعده عليه الصلاة والسلام ؛ فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل ، ومنه ما كان عن اجتهد كيوم صفين ، والاجتهد يخطئ ويصيب ، ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ، وما جور أيضاً ، وأما المصيب فله أجران^(٤) .

١٠ - وقال ابن حجر : واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ، ولو عرف المحق منهم ؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهد ، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً ، وأن المصيب يؤجر أجريْن^(٥) .

فأهل السنة مجمعون على وجوب السكوت عن الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم بعد قتل عثمان والترحم عليهم ، وحفظ فضائل الصحابة ، والاعتراف لهم بسوابقهم ، ونشر محاسنهم رضي الله عنهم وأرضاهم^(٦) .

(١) البخاري . كتاب الفتن ، رقم (٧١٠٩) .

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، (ص ٦٧ - ٦٩) .

(٣) العقيدة الواسطية مع شرحها ، لمحمد خليل هراس ، (ص ١٧٣) .

(٤) الباعث الحثيث ، (ص ١٨٢) .

(٥) فتح الباري (١٣/ ٦٣٤) ؛ عقيدة أهل السنة (٢/ ٧٤٠) .

(٦) عقيدة أهل السنة (٢/ ٧٤٠) .

تاسعاً: تغيير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين :

بعد معركة صفين بدأت الموازين تتبدل لصالح معاوية رضي الله عنه ، فقد خرج الخوارج من جيش علي رضي الله عنه ، وانشغل بقتالهم ، بينما ازداد أمر معاوية قوة لا سيما بعد انتهاء أمر التحكيم ، وعدم الوصول إلى حل جزري ، وكان معاوية رضي الله عنه يعمل بشتى الوسائل سرّاً وعلانية على إضعاف جانب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، واستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف ، فأرسل جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وسيطر عليها وضمها إليه ، وقد ساعده على ذلك عدة أمور ؛ منها :

١- انشغال أمير المؤمنين علي بالخوارج .

٢- عامل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على مصر - محمد بن أبي بكر - لم يكن على قدر من الدهاء كسلفه قيس بن سعد الساعدي الأنصاري ، فدخل في حرب مع المطالبين بدم عثمان ولم يساهم كما كان يصنع الوالي السابق ، فهزموه .

٣- اتفاق معاوية مع المطالبين بدم عثمان رضي الله عنه في مصر في الرأي ، فساعده في السيطرة عليها^(١) .

٤- بُعد مصر عن مركز أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وقربها من الشام .

٥- طبيعتها الجغرافية ؛ فهي متصلة بأرض الشام عن طريق سيناء وتمثل امتداداً طبيعياً .

وقد أضافت مصر قوة كبيرة لمعاوية رضي الله عنه ؛ قوة بشرية واقتصادية كبيرة ، وكذلك أرسل معاوية بعوثة إلى شمال الجزيرة العربية ، ومكة والمدينة ، وإلى اليمن ، ولكن لم تلبث هذه البعوث أن ردت على أعقابها عندما أرسل أمير المؤمنين عليّ من يصدّها^(٢) .

وعمل معاوية رضي الله عنه على استمالة كبار أعيان القبائل وعمال علي رضي الله عنه ، فقد حاول سحب قيس بن سعد رضي الله عنه - عامل علي على مصر - إليه فلم يستطع ، ولكنه استطاع أن يثير شك حاشية علي رضي الله عنه ومستشاريه فيه فعزله^(٣) ، وكان عزل سعد عن ولاية مصر مكسباً كبيراً لمعاوية . كما حاول سحب زياد بن أبيه عامل علي رضي الله عنه على فارس ففشل في ذلك^(٤) .

(١) الطبقات (٣/ ٨٣) ، خلافة علي ، لعبد الحميد ، (ص ٣٥١) ، بسند صحيح .

(٢) تاريخ خليفة ، (ص ١٩٨) ، بدون سند .

(٣) ولاية مصر ، (ص ٤٥ ، ٤٦) .

(٤) الاستيعاب (٢/ ٥٢٥ ، ٥٢٦) .

وقد استطاع معاوية رضي الله عنه أن يؤثر على بعض الأعيان والولاة بسبب ما يمنيهم ويعددهم به ، ولما يرونه من علو أمر معاوية وتفرق أمر علي رضي الله عنه ؛ إذ يقول في إحدى خطبه : ألا إن بسراً قد اطلع من قبل معاوية ، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون عليكم باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وبطاعتهم أميرهم ومعصيتكم أميركم ، وبأدائهم الأمانة وبخيانتكم ، استعملت فلاناً ففعلٌ وغدر وحمل المال إلى معاوية ، واستعملت فلاناً فخان وغدر وحمل المال إلى معاوية ، حتى لو ائتمنت أحدهم على قدح خشيت على علاقته ، اللهم إني أبغضتهم ، وأبغضوني فأرحهم مني وأرحني منهم^(١) .

ولم يستسلم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لهذه المصائب ، وهذا التقاعس ، والتخاذل ؛ فقد بذل جهده في استنهاض همة جيشه بكل ما أوتي من علم وفصاحة وبيان ، فخطبه الحماسية المشهورة التي اشتهرت عنه ، وتعتبر من عيون التراث لم يقلها من فراغ أو خيال ، بل مَرَّ تجربته ، وواقع أليم عاصره ، ولقد ذكرت منها في كتابي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه^(٢) .

عاشراً: المهادنة بين أمير المؤمنين علي ومعاوية رضي الله عنهما :

بالرغم من كل هذه المحاولات والجهود المضنية لم يستطع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن يحقق ما يريد ؛ إذ لم يستطع أن يغزو الشام بسبب التفكك والتصدع الذي حدث في داخل جيشه وتفرق كلمتهم وظهور الأهواء ، فاضطر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في سنة أربعين للهجرة أن يوافق لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه على أن يكون العراق له ، والشام لمعاوية ، ولا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو^(٣) . قال الطبري في تاريخه : وفي هذه السنة - ٤٠ هـ - جرت بين علي وبين معاوية رضي الله عنهما المهادنة بعد مكاتبات جرت بينهما - يطول بذكرها الكتاب - على وضع الحرب بينهما ، ويكون لعلي العراق ، ولمعاوية الشام ، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو^(٤) ، ويبدو أن هذه الهدنة لم تستمر ، فمعاوية أرسل بسر بن أرطاة إلى الحجاز واليمن في العام الذي استشهد فيه علي رضي الله عنه^(٥) .

(١) التاريخ الصغير (١/ ١٢٥) بسند منقطع وله شواهد .

(٢) أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، (ص ٩٤٨) وما بعدها .

(٣) تاريخ الطبري (٦/ ٥٦) ؛ خلافة علي ، عبد الحميد ، (ص ٣٥٦) .

(٤) المصدر السابق نفسه (٦/ ٥٦) .

(٥) التاريخ الصغير ، للبخاري (١/ ٤١) ؛ وخلافة علي بن أبي طالب ، (ص ٤٣١) .

حادي عشر: استشهاد أمير المؤمنين علي واستقبال معاوية خبر مقتله:

ولما لم يتمكن علي رضي الله عنه من تجهيز الجيش بما يصبو ويريد ، ورأى خذلانهم ، كره الحياة وتمنى الموت ، وكان يتوجه إلى الله بالدعاء ، ويطلب منه عز وجل أن يعجل منيته ، فمما روي عنه أنه خطب يوماً فقال: اللهم إني قد سئمتهم وسئمتوني ، وملتتهم وملوني ، فأرحني منهم وأرحهم مني ، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم . ووضع يده على لحيته^(١).

وقد ألح علي رضي الله عنه في الدعاء في أيامه الأخيرة ، فعن جندب قال: ازدحموا علي رضي الله عنه حتى وطئوا على رحاله فقال: اللهم إني قد ملتتهم وملوني ، وأبغضتهم وأبغضوني ، فأرحني منهم وأرحهم مني^(٢).

وفي رواية أخرى: عن أبي صالح قال: شهدت علياً وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تققع الورق ، فقال: اللهم إني سألتهم ما فيه فمنعوني ، اللهم إني قد ملتتهم وملوني ، وأبغضتهم وأبغضوني ، وحملوني على غير أخلاقي ، فأبدلهم بي شراً مني ، وأبدلني بهم خيراً منهم ، ومث قلوبهم ميثة الملح في الماء^(٣).

وفي رواية: فلم يلبث إلا ثلاثاً أو نحو ذلك ، حتى قتل رحمه الله^(٤). وقال الحسن بن علي: قال لي علي رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ سنع لي الليلة في منامي ، فقلت: يا رسول الله! ماذا لقيت من أمتك من الأود واللد؟^(٥) قال: ادع عليهم ، قلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير منهم ، وأبدلهم بي من هو شر مني لهم . قال الحسن رضي الله عنه: فخرج فضربه الرجل^(٦).

ولما جاء خبر قتل علي إلى معاوية رضي الله عنهما جعل يبكي ، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدريين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم^(٧)! وكان معاوية يكتب فيما ينزل به يسأل له علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ذلك ، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب ، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام ، فقال له: دعني عنك^(٨).

(١) مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١٥٤) بإسناد صحيح؛ الطبقات (٣/ ٤).

(٢) الآحاد والمثاني ، لابن أبي عاصم (١/ ٣٧) بإسناد حسن؛ خلافة علي ، (ص ٤٣٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٤).

(٤) المحن ، لأبي العرب ، (ص ٩٩)؛ وخلافة علي ، لعبد الحميد ، (ص ٤٣٢).

(٥) الأود: العوج. اللدد: الخصومة.

(٦) تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين ، (ص ٦٤٩).

(٧) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).

(٨) الاستيعاب (٣/ ١١٠٨).

وقد طلب معاوية رضي الله عنه في خلافته من ضرار الصُّدائي أن يصف له علياً رضي الله عنه ، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين ، قال: لتصفته ، قال: أما إذا لا بد من وصفه فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً^(١) ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، ويستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن والله - مع تقربه إيانا وقربه منا - لا نكاد نكلمه هيبه له ، يعظم أهل الدين ، ويقرّب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد أنه لقد رأيته في بعض مواقفه - وقد أرحى الليل سدوله^(٢) ، وغارت نجومه - قابضاً على لحيته ، يتململ تلملم السقيم ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول: يا دنيا غُري غيري ، إلي تعرضت أم إلي تشوّفت؟! هيهات هيهات ، قد بايتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك كثير ، آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق .

فبكي معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها وهو في حجرها^(٣) .

وعن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، وأبو بكر وعمر جالسان عنده ، فسلمت عليه وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتني بعلي ومعاوية فأدخلنا بيتاً وأجيف^(٤) الباب ، وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة ، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة^(٥) .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه (٣/١١٠٧) .

(٢) سدوله : سدلته .

(٣) الاستيعاب (٣/١١٠٨) .

(٤) أجيف الباب : رُدَّ وأغلق .

(٥) البداية والنهاية (٨/١٣٣) .

المبحث الرابع

معاوية رضي الله عنه في عهد الحسن بن علي

ابن أبي طالب رضي الله عنهما

كانت بيعة الحسن بن علي رضي الله عنهما في شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي^(١) ، وقد اختار الناس الحسن بعد والده ، ولم يعين أمير المؤمنين أحداً من بعده ، فعن عبد الله بن سبيع قال : سمعت علياً يقول : لَتُخْضِبْنَ هذه من هذا^(٢) فما ينتظر بي الأشتى^(٣) . قالوا : يا أمير المؤمنين ، فأخبرنا به نبي^(٤) عترته ، قال : إذا والله تقتلون بي غير قاتلي . قالوا : فاستخلف علينا ، قال : لا ، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ ، قالوا : فما تقول لربك إذا أتيت ؟ قال وكيع^(٥) مرة : إذا لقيته قال : أقول : اللهم تركتني فيهم ما بدا لك ، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم ، فإن شئت أصلحتهم ، وإن شئت أفسدتهم^(٦) . وفي رواية : أقول : اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك ، ثم قبضتني وتركتك فيهم^(٧) .

وبعد مقتل علي صلي عليه الحسن بن علي رضي الله عنهما وكبر عليه أربع تكبيرات ، ودفن بالكوفة ، وكان أول من بايعه قيس بن سعد ، قال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه ؛ وقاتل المُحَلِّين ، فقال له الحسن رضي الله عنه : على كتاب الله وسنة نبيه ؛ فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط : فبايعه وسكت ، وبايعه الناس^(٨) .

(١) الطبقات (٣/ ٣٥-٣٨) ، تحقيق د. إحسان عباس .

(٢) أي : لتخضبن لحيته من دم رأسه .

(٣) مجمع الزوائد (٩/ ١٣٩) ؛ مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره .

(٤) نبي^(٤) عترته : نهلك أقرباءه . لسان العرب (٤/ ٥) ، (٥٣٨) .

(٥) وكيع بن الجراح ، ثقة حافظ عابد . التقريب ، (ص ٥٨١) .

(٦) مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره . الموسوعة الحديثية .

(٧) كشف الأستار عن زوائد البزار (٣/ ٢٠٤) .

(٨) تاريخ الطبري (٦/ ٧٧) .

وقد اشترط الحسن بن علي على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت^(١)، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت^(٢). وفي رواية ابن سعد: إن الحسن بن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد علي على بيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه، ويرضوا بما رضي به^(٣).

ويستفاد من الروايات السابقة: ابتداء الحسن رضي الله عنه في التمهيد للصلح فور استخلافه، وقد باشر الحسن بن علي سلطته كخليفة، فرتب العمال وأمر الأمراء وجند الجنود وفرق العطايا، وزاد المقاتلة في العطاء مئة مئة فاكتسب بذلك رضاهم^(٤)، وكان في وسعه أن يخوض حرباً لاهوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته الفذة من الناحية العسكرية، والأخلاقية، والسياسية، والدينية تساعده على ذلك مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد بن عباد، وعدي بن حاتم الطائي وغيرهم في صفه من الذين لهم من القدرات القيادية الشيء الكثير، إلا أن الحسن بن علي مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، والرغبة فيما عند الله، وزهده في الملك... وغير ذلك من الأسباب، وقد قاد الحسن بن علي مشروع الإصلاح الذي توج بوحدة الأمة.

وقد تنازل الحسن بن علي من موقف قوة، وهناك دلائل تشير إلى ذلك؛ منها:

١- الشرعية التي كان يملكها الحسن:

لقد اختير الحسن بن علي بعد والده اختياراً شورياً، وأصبح الخليفة الشرعي على الحجاز واليمن والعراق، وكل الأماكن التي كانت خاضعة لوالده، وقد استمر في خلافته ستة أشهر، وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ بأن مدتها ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً، فقد روى الترمذي بإسناده إلى رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»^(٥).

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمي (١/ ٢٨٧، ٢٨٦).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٣١٧، ٣١٦).

(٤) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، (ص ٦٧)؛ مقاتل الطالبين، (ص ٥٥).

(٥) سنن الترمذي مع شرحها تحفة الأحوذ (٦/ ٣٩٧-٣٩٥) حديث حسن.

موت رسول الله ﷺ ؛ فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وهذا من دلائل نبوة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً^(١) ، وبذلك يكون الحسن بن علي خامس الخلفاء الراشدين^(٢) .

وقد تحدث عن شرعية الحسن بن علي بالخلافة كثير من علماء أهل السنة؛ منهم: أبو بكر بن العربي^(٣) ، والقاضي عياض^(٤) ، وابن كثير^(٥) ، وشارح الطحاوية^(٦) ، والمناوي^(٧) ، وابن حجر الهيتمي^(٨) ، ولو أراد الحسن أن يتعب معاوية بحكم أن الشرعية معه لأمكن ذلك ، ولقام بترتيب حملة إعلامية منظمة في أوساط أهل الشام ، لكسب ثقتهم أو على الأقل زعزعة موقف معاوية بينهم ، فقد كان يملك قوةً معنويةً ونفوذاً روحياً لا يستهان به بحكم الشرعية التي يستند إليها ، ولكونه حفيد الرسول ﷺ .

٢ - تقييم الحسن بن علي للموقف وقدراته القيادية :

فعندما قال له نفي بن الحضرمي: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة ، فقال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالم ، ويحاربون من حاربت ، فتركها ابتغاء وجه الله^(٩) . فهذه شهادة الحسن رضي الله عنه ، بأنه كان في وضع قوي ، وبأن أتباعه على استعداد لمحاربة من يريد أو مسالمتهم .

كما كان رضي الله عنه يملك من الملكات الخطابية والفصاحة البيانية ، وصدق العاطفة وقوة التأثير والقرب من رسول الله ﷺ ما يجعله أكثر قوة وتماسكاً ، ودليلنا على ذلك: ما قام به من استنفار أهل الكوفة للخروج مع والده ، وكان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قد ثبط الناس ونهاهم عن الخروج والقتال والفتنة ، وأسمعهم ما سمعه من رسول الله ﷺ من التحذير من

(١) البداية والنهاية (١١/١٣٤) .

(٢) مآثر الإنافة (١/١٠٥)؛ مرويات خلافة معاوية ، (ص ١٥٥) .

(٣) أحكام القرآن ، لابن العربي (٤/١٧٢٠) .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/٢٠١) .

(٥) البداية والنهاية (١١/١٣٤) .

(٦) شرح الطحاوية ، (ص ٥٤٥) .

(٧) فيض القدير (٢/٤٠٩) .

(٨) الصواعق المحرقة (٢/٣٩٧) .

(٩) البداية والنهاية (١١/٢٠٦) .

الاشتراك في الفتنة^(١) ، فقد أرسل علي رضي الله عنه قبل الحسن محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن جعفر ، ولكنهما لم ينجحا في مهمتهما ، وأرسل علي بعد ذلك هشام بن عقبة بن أبي وقاص ، ففشل في مهمته لتأثير أبي موسى عليهم^(٢) ، وأتبعه علي بعبد الله بن عباس ، فأبطؤوا عليه ، فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن^(٣) ، وكان للحسن أثر واضح ، فقد قام في الناس خطيباً وقال : أيها الناس ، أجيئوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يليه أولو النهى^(٤) ، أمثل في العاجلة وخير في العاقبة ، فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به^(٥) وابتليتيم . ولبي كثير من أهل الكوفة وخرجوا مع عمار والحسن إلى علي ما بين الستة إلى سبعة آلاف رجل^(٦) . ولا ننسى أن أبا موسى الأشعري كان والياً على الكوفة ومن قيادات العراق المحبوبين من عهد عمر ، وهو من هو في علمه وزهده ومكانته عند الناس ، ومع ذلك فقد استطاع الحسن أن يكسب أهل الكوفة لصفه ، وخرجوا معه .

٣- وجود بعض القيادات الكبيرة في صفه :

كان معسكر الحسن بن علي فيه من القيادة الكبيرة ، كأخيه الحسين ، وابن عمه عبد الله بن جعفر ، وقيس بن سعد بن عبادة - وهو من دهاة العرب - ، وعدي بن حاتم وغيرهم ، فلو أراد الخلافة لأعطى المجال لقياداته للتحرك نحو تعبئة الناس والدخول في الحرب مع معاوية ، وعلى الأقل يكون خليفة على دولته إلى حين .

٤- معرفته لنفسية أهل العراق :

كانت له قدرات خاصة في التعامل مع أهل العراق ومعرفة نفوسهم ، ولذلك زاد لهم في العطاء منذ بداية خلافته ، كما أن مهمته التي قادها في نجاح مشروعه الإصلاحية كانت أصعب من حربه لمعاوية ، ومع ذلك تغلب على الكثير من العوائق التي واجهته ، فقد حاولوا قتله ، ورفض بعض الناس الصلح ، وغير ذلك من العوائق ، إلا أنه تغلب عليها كلها وحقق الأهداف التي رسمها من حقن الدماء ، ووحد الأمة ، وأمن السبيل ، وعودة حركة الفتوح . . . إلخ ؛ مما يدل على قدراته القيادية الفذة .

(١) تاريخ الطبري (٥/٥١٤)؛ مصنف ابن أبي شيبة (١٥/١٢) إسناده حسن .

(٢) خلافة علي بن أبي طالب ، لعبد الحميد (ص ١٤٤)؛ سير أعلام (٣/٤٨٦) .

(٣) فتح الباري (١٣/٥٣)؛ علي بن أبي طالب ، للصلاحي (٢/٦٠) .

(٤) تاريخ الطبري (٥/٥١٦) . أولو النهى : أصحاب العقول .

(٥) تاريخ الطبري (٥/٥١٦) .

(٦) مصنف عبد الرزاق (٥/٤٥٦ - ٤٥٧) بسند صحيح للزهري .

٥- تقييم عمرو بن العاص ومعاوية لقوات الحسن رضي الله عنهم :

فقد جاء في البخاري: استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال ، فقال عمرو بن العاص: إني أرى كتائب لا تُؤلي حتى تقتل أقرانها. فقال معاوية - وكان والله خير الرجلين -: أي عمرو ، إن قتل هؤلاء من لي بأمور الناس؟! من لي بنسائهم؟! من لي بضيعتهم؟! فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس - عبد الرحمن بن سمرة ، وعبد الله بن عامر بن كريز - فقال: اذهبوا إلى هذا الرجل فاعرضوا عليه وقولوا له ، واطلبوا إليه^(١).

أ- فعمر بن العاص رضي الله عنه ، القائد العسكري الشهير ، والسياسي المحنك ، والذي عركته الحروب يقول: إني أرى كتائب لا تؤلي حتى تقتل أقرانها.

ب - وأما معاوية رضي الله عنه ، فتقييمه للموقف العسكري بأنه لا يستطيع أحد أن ينتصر ويحقق حسمًا عسكرياً إلا بعد خسائر فادحة للطرفين ، ولا يستطيع معاوية حتى لو كان هو المنتصر أن يتحمل تركة الحرب من أرامل وأيتام وقتل خير المسلمين ، وما يترتب على ذلك من مفسدات كبرى اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية للأمة الإسلامية ، ولذلك اختار معاوية شخصيتين كبيرتين من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أصحاب النفوذ في المجتمع الإسلامي ، ولهم حضور واحترام عند الحسن ، وهما من قريش ، فالشخصيتان اللتان أرسلهما معاوية رضي الله عنه تدل على حرصه على نجاح الصلح مع الحسن بأي ثمن ممكن ، وقد ظل زمام الموقف بيد الحسن بن علي رضي الله عنهما ويد أنصاره ، ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية إلى أن يفاوضه ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات ، وكان عرف ضعف جانب الحسن ، وانحلال قوته عن طريق عيونه ، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد أو ينزل على شروطه ومطالبه^(٢).

كان الحسن بن علي رضي الله عنهما ذا خلق يجنح إلى السلم ، وكان رضي الله عنه يملك رؤية إصلاحية واضحة المعالم ، خضعت لمراحل وبواعث ، وتغلب على العوائق ، وكتب شروطه ، وترتب على صلحه نتائج ، وأصبح هذا الصلح من مفاخر الحسن على مر العصور وتوالي الأزمان ، فكان في صلحه مع معاوية وحققه لدعاء المسلمين ، كعثمان في جمعه للقرآن ، وكأبي بكر في حربه للمرتدين^(٣) ، ولا أدل على ذلك في كون هذا الفعل من الحسن يعدُّ علماً من أعلام النبوة ، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أبي بكر رضي الله عنه

(١) البخاري ، كتاب الصلح رقم (٢٧٠٤).

(٢) دراسة في تاريخ خلفاء الدولة الأموية ، (ص ٦١).

(٣) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ١٣٤).

قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر والحسن بن علي على جنبه وهو يقبل على الناس مرة ، وعليه أخرى ، ويقول: «إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(١).

أولاً: أهم مراحل الصلح:

مر الصلح بمراحل ؛ من أهمها:

المرحلة الأولى: دعوة رسول الله ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، فتلك الدعوة المباركة دفعت الحسن رضي الله عنه إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم^(٢).

المرحلة الثانية: شرط البيعة الذي وضعه الحسن رضي الله عنه أساساً لقبول مبايعة أهل العراق له ، ذلك الشرط الذي نص على أنهم يسالمون من يسالم ويحاربون من يحارب^(٣).

المرحلة الثالثة: وقوع المحاولة الأولى لاغتيال الحسن رضي الله عنه بعد أن كشف عن نيته في الصلح مع معاوية رضي الله عنه ، وهذه المحاولة يبدو أنها قد جرت بعد استخلافه بقليل^(٤).

المرحلة الرابعة: خروج الحسن بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن ، وإرساله للقوة الضاربة من الجيش ، وهي الخميس إلى مسكن بقيادة قيس بن سعد بن عباد^(٥).

المرحلة الخامسة: خروج معاوية رضي الله عنه من الشام وتوجهه إلى العراق بعد أن وصل خبر خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه.

المرحلة السادسة: تبادل الرسل بين الحسن و معاوية ، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

المرحلة السابعة: محاولة اغتيال الحسن رضي الله عنه ، فبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما ، شرع الحسن رضي الله عنه في تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذي تم ، فقام فيهم خطيباً ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية ، وفيما هو يخاطب هجم عليه بعض عسكره محاولين قتله ، لكن الله سبحانه وتعالى أنجاه كما أنجاه من قبل^(٦).

(١) البخاري ، رقم (٧١٠٩).

(٢) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٣١٧).

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٥٦).

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٢٦).

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٢٨).

(٦) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٣٩).

المرحلة الثامنة: تنازل الحسن بن علي عن الخلافة ، وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهم أجمعين: بعد أن أنجى الله سبحانه وتعالى الحسن بن علي من الفتنة التي وقعت في معسكره ، ترك المدائن وسار إلى الكوفة ، وخطب في أهلها فقال: أما بعد فإن أكيس الكيس^(١) الثَّقِي ، وإن أحق الحمق الفجور ، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما كان حقاً لي تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقق دمائهم ، أو يكون حقاً كان لامرئ كان أحق به مني ، ففعلت ذلك ﴿ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّكُمْ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينَ ﴾^(٢) [الأنبياء: ١١١] .

ثانياً: أهم أسباب ودوافع الصلح:

وأما أهم الأسباب والدوافع للصلح الذي تم بين الحسن ومعاوية ؛ فهي:

١- الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة:

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما رداً على نفي بن الحضرمي عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدي ، يسالمون من سالم ، ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله^(٣) .

٢- دعوة الرسول ﷺ له:

إن دعوة الرسول ﷺ بأن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين^(٤) دفعت الحسن إلى التخطيط والاستعداد النفسي للصلح والتغلب على العوائق التي في الطريق ، فقد كان هذا الحديث الكلمة الموجهة الرائدة للحسن في اتجاهاته وتصرفاته ومنهج حياته ، فقد حلت في قرارة نفسه ، واستولت على مشاعره وأحاسيسه ، واختلطت بلحمه ودمه ، ومن خلال هذا التوجيه واستيعابه وفهمه له بنى مشروعه الإصلاحية ، وقسم مراحلها ، وكان متيقناً من نتائجها ، فالحديث النبوي كان دافعاً أساسياً وسبباً مركزياً في اندفاع الحسن للإصلاح .

٣- حقن دماء المسلمين:

قال الحسن رضي الله عنه: . . . خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً ، أو أكثر أو أقل كلهم تنضج أوداجهم دماً ، كلهم يستعدي الله: فيم هُريقَ دمه؟^(٥) وقال رضي الله عنه: ألا أن أمر

(١) أكيس: أعقل ، والكيس: العقل . لسان العرب (١٦/ ٢٠١) ، ومن أراد التوسع فليراجع: مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ١٢٦ إلى ١٤٩) .

(٢) المعجم الكبير (٢٦/ ٣) إسناده حسن .

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٦) .

(٤) البخاري ، رقم (٧١٠٩) .

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٦) .

الله واقع ، إذ ما له دافع وإن كره الناس ، إني ما أحببت أن لي من أمة محمد مثقال حبة من خردل يهراق فيه محجمة من دم ، قد علمت ما ينفعني ممّا يضرني ، الحقوا بطيبتكم^(١) .

٤ - الحرص على وحدة الأمة :

قام الحسن بن علي رضي الله عنهما خطيباً في إحدى مراحل الصلح ، فقال : أيها الناس ! إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة^(٢) ، وإني ناظر لكم كنظري لنفسي ، وأرى رأياً فلا تردوا علي رأياً ، إن الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة^(٣) .

وقد تحقق بفضل الله ثم حرص الحسن على وحدة الأمة ذلك المقصد العظيم ، فقد ارتأى رضي الله عنه أن يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين ، وتجنباً للمفاسد العظيمة التي ستلحق الأمة كلها في المال إذا بقي مصراً على موقفه ، من استمرار الفتنة ، وسفك الدماء ، وقطع الأرحام ، واضطراب السبل ، وتعطيل الثغور وغيرها ، وقد تحققت - بحمد الله - وحدة الأمة بتنازله عن عرض زائل من أعراض الدنيا ، حتى سمي ذلك العام عام الجماعة^(٤) ، وهذا يدل على فقه الحسن في معرفته لاعتبار المآلات ، ومراعاته التصرفات .

٥ - مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

ومن الأسباب التي دعت أمير المؤمنين الحسن بن علي إلى الصلح ما روّع به من مقتل أبيه ، فقد ترك ذلك فراغاً كبيراً في جبهة العراق ، وأثر اغتياله على نفسية الحسن رضي الله عنه ، فترك فيها حزناً وأسى شديدين ، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق ، ولم يرع الخوارج سابقته في الإسلام وأفضاله العظيمة ، ولخدماته الجليلة التي قدمها للإسلام فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب .

لقد كان علياً رضي الله عنه معلماً من معالم الهدى وفارقاً بين الحق والباطل ، فكان من الطبيعي أن يتأثر المسلمون لفقده ، ويشعروا بالفراغ الكبير الذي تركه ، فقد كان وقع مصيبة مقتله على المسلمين عظيماً ، فجلّ لهم الحزن ، وفاضت مآقيهم بالدموع ، ولهجت ألسنتهم بالثناء والترحّم عليه ، وكان مقتله سبباً في تهديد الحسن في أهل العراق ؛ أولئك الذين غمرتهم مكارم أخلاق أمير المؤمنين وشرف صحبته ، فأضلتهم الفتن والأطماع ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، ونسئني من أولئك الصادقين المخلصين لدينهم وخليفتهم الزّاحل العظيم رضي الله

(١) تاريخ دمشق (١٤/٨٩) . بطيبتكم : جهتكم ونواذكهم .

(٢) الضغينة : الحقد .

(٣) الأخبار الطوال ، (ص ٢٠٠) .

(٤) اعتبارات المآلات ومراعاة نتائج التصرفات ، (ص ١٦٧) .

عنه وأرضاه ، فقد كان مقتله ضربة قوية وجهت لعهد الخلافة الراشدة ، وكانت من أسباب زوالها فيما بعد .

٦ - شخصية معاوية :

إن تسليم الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية ؛ مع أنه كان معه أكثر من أربعين ألفاً بايعوه على الموت ، فلو لم يكن أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه ، ولحاربه ^(١) ، فقد ذكر المترجمون والمؤرخون لسيرته فضائل كثيرة وأعمال جليلة يأتي ذكرها بإذن الله تعالى في هذا الكتاب .

٧ - اضطراب جيش العراق وأهل الكوفة :

كان لخروج الخوارج أثر في إضعاف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، كما أن الحروب في الجمل وصفين والنهروان تسببت في ملل أهل العراق للحرب ، ونفورهم منها ، وخاصة أهل الشام في صفين ، فإن حربهم ليست كحرب غيرهم ، فمعركة صفين الطاحنة لم تفارق مخيلتهم ؛ فكم يَتَمَتُّ من الأطفال ، ورَمَلت من النساء ، بدون أن يتحقق مقصودهم ، ولولا الصلح أو التحكيم الذي رحب به أمير المؤمنين علي وكثير من أصحابه لكانت مصيبة علي العالم الإسلامي لا يتخيل آثارها السيئة ، فكان هذا التخاذل عن المسير مع علي رضي الله عنه إلى الشام مرة أخرى إلى فريق منهم ؛ تميل إليه نفوسهم وإن كانوا يعلمون أن علياً على حق ^(٢) ، فقد استلم الحسن رضي الله عنه الخلافة ، وجيش العراق مضطرب وأهل الكوفة مترددون في أمرهم ^(٣) ، وهذا ليس على إطلاقه ؛ فجيش الحسن يمكن تقويته ، كما أن هناك فضائل منه على استعداد للقتال ؛ وعلى رأسهم قيس بن سعد الخزرجي وغيره من القادة ^(٤) .

٨ - قوة جيش معاوية :

وفي الجانب الآخر كان معاوية رضي الله عنه يعمل بشتى الوسائل سرّاً وعلانية على إضعاف جانب أهل العراق منذ عهد علي رضي الله عنه ، فاستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف ، واجتمعت لمعاوية رضي الله عنه عوامل ساعدت على قوة جبهته ؛ منها : طاعة الجيش له ، واتفاق الكلمة عليه من أهل الشام ، وخبرته الإدارية في ولاية الشام ، وثبات مصادره المالية ، وعدم تحرجه من دفع الأموال من أجل تحقيق أهدافه التي يراها مصلحة للأمة .

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية ، (ص ٥٧) .

(٢) خلافة علي بن أبي طالب ، عبد الحميد علي ، (ص ٣٤٥) .

(٣) الشيعة وأهل البيت ، (ص ٣٧٩) ؛ نقلاً عن الاحتجاج ، للطبرسي ، (ص ١٤٨) .

(٤) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي ، للصلاحي ، (ص ٣٥٨) .

ثالثاً: شروط الصلح:

تحدثت الكتب التاريخية والمصادر الحديثة وأشارت إلى حصول الصلح وفق شروط وضعها الطرفان ، وقد تناثرت تلك الشروط بين كتاب التاريخ ، وحاول بعض العلماء جمعها وترتيبها . واستثناساً إلى ما وصلوا إليه نذكر أهم شروط الصلح ؛ منها :

١ - العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء :

وقد ذكر هذا الشرط مجموعة من العلماء ؛ منهم : ابن حجر الهيتمي ، حيث ذكر صورة الصلح بين الحسن ومعاوية وجاء فيها : صالحه على أن يُسلم إليه ولاية المسلمين ، وأن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين^(١) ، وحتى بعض كتب الشيعة ذكرت هذا الشرط ، وهذا دليل على توقير الحسن بن علي لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي إلى حد جعل من إحدى الشروط على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم : أن يعمل ويحكم في الناس بكتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة الخلفاء الراشدين^(٢) ، وفي النسخة الأخرى : الخلفاء الصالحين^(٣) ، ففي هذا الشرط ضبط لدولة معاوية مرجعيتها ومنهجها في الحياة .

٢ - الأموال :

ذكر البخاري في صحيحه أن الحسن قال لو فد معاوية ؛ عبد الرحمن بن سمرة ، وعبد الله بن عامر بن كريز : إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال . . فمن لي بهذا؟ قالوا : نحن لك به^(٤) .

فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بني عبد المطلب ، يريد الحسن أن لا يطالبهم معاوية ، ولا ذُكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه من قادم^(٥) ، وأما الروايات التي تشير بأن يجري معاوية للحسن كل عام مليون درهم ، وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليوني درهم في كل عام ، ويفضل بني هاشم في العطاء والصلوات على بني عبد شمس ، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية ، فهذه الروايات ، وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها ، لأنها تصور إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفاً أمام مصالحه الخاصة^(٦) . أما

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٣٩٩) .

(٢) الشيعة وأهل البيت ، (ص ٥٤) .

(٣) منتهى الآمال (٢/ ٢١٢) ؛ نقلاً عن الشيعة وأهل البيت ، (ص ٥٤) .

(٤) البخاري ، كتاب الصلح رقم (٢٧٠٤) .

(٥) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، (ص ٦٤) .

(٦) المصدر السابق نفسه (ص ٦٣) .

حقه من العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين ، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره ، ولكنه لا يصل إلى عشر معشار ما ذكرته الروايات^(١).

٣- الدماء :

ويتضمن اتفاق الصلح بين الجانبين أن الناس كلهم آمنون ؛ لا يؤخذ أحد منهم بهفوة أو إحنة ، ومما جاء في رواية البخاري : أن الحسن قال لو فد معاوية : . . . وإن هذه الأمة عاثت في دمائها ، فكفل الوفد للحسن العفو للجميع فيما أصابوا من الدماء^(٢) ، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان في أيام علي ؛ وهي قاعدة بالغة الأهمية تحاول دون الالتفات إلى الماضي ، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل^(٣) ، وقد تمّ التوافق المبني على الالتزام والشرعية ؛ حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق من كل ما كان بين الفريقين ، قبل إبرام الصلح ، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحداً بذنب سابق ، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو ، وتأليف القلوب .

٤ - ولاية العهد ، أم ترك الأمر شورى بين المسلمين :

قيل : ومما اتفق الجانبان عليه من الشروط : أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن^(٤) ، وأن معاوية وعد إن حدث به حدث والحسن حي يُسميَنه وليجعلن الأمر إليه^(٥) ، ولكن ابن أكرم روى في هذا الخصوص عن الحسن أنه قال : أما ولاية الأمر من بعده ، فما أنا بالراغب في ذلك ، ولو أردت هذا الأمر لم أسلمه^(٦) ، وجاء في نص الصلح الذي ذكره ابن حجر الهيتمي : . . بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين^(٧).

وعند التدقيق في روايات طلب الحسن الخلافة بعد معاوية ، نجد أنها تتنافى مع أنفة وقوة وكرم الحسن ، فكيف يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وابتغاء مرضاة الله ، ثم يوافق على أن يكون تابعاً يتطلب أسباب الدنيا ، وتشرئبُ عنقه للخلافة مرة أخرى ؟ ! والدليل على أن هذا غير صحيح ما ذكره جبير بن نفير قال : قلت للحسن بن علي : إن الناس يزعمون أنك تريد

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) البخاري ، كتاب الصلح (٢/٩٦٣) .

(٣) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام ، (ص ٣٤١) .

(٤) فتح الباري (١٣/٧٠) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/٢٦٤) .

(٦) الفتوح (٣ ، ٤/٤٩٣) .

(٧) الصواعق المرسلة (٢/٢٩٩) .

الخلافة ، فقال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمته ويحاربون من حاربت ، فتركها ابتغاء مرضاة الله^(١) .

ومن الملاحظ أن أحداً من أبناء الصحابة أو الصحابة لم يذكروا خلالبيعة يزيد شيئاً من ذلك ، فلو كان الأمر كما تذكر الروايات عن ولاية عهد الحسن بعد معاوية ، لاتخذها الحسين بن علي رضي الله عنهما حجة ، ولكن لم نسمع شيئاً من ذلك على الإطلاق ، مما يؤكد على أن مسألة خلافة الحسن لمعاوية لا أساس لها من الصحة ، ولو كان الحسن رضي الله عنه أسند إليه منصب ولاية العهد في الشروط لكان قريباً في عهد معاوية من إدارة الدولة أو تولى إحدى الأقاليم الكبرى ، لا أن يذهب إلى المدينة وينعزل عن إدارة شؤون الحكم ، كما أن روح ذلك العصر يشير إلى مبدأ اختيار الأمة للحاكم عن طريق الشورى هو الأصل .

رابعاً: نتائج الصلح :

إن أهم نتائج الصلح هي :

- ١- توحيد الأمة تحت قيادة واحدة .
- ٢- عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه .
- ٣- تفرغ الدولة للخوارج .
- ٤- انتقال العاصمة الإسلامية إلى بلاد الشام .

* * *

الفصل الثاني

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

المبحث الأول

بيعة معاوية وأهم صفاته وثناء العلماء عليه

أولاً: بيعة معاوية رضي الله عنه :

بتنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما اكتملت عوامل تولي معاوية الخلافة ، وتهيأت له جميع أسبابها ، فبويع أميراً للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة ، وسُمي هذا العام بعام الجماعة^(١) ، وسجل في ذاكرة الأمة عام الجماعة ، وأصبح هذا الحدث من مفاخرها التي تزهو به على مر العصور ، وتوالي الدهور ، فقد التقت الأمة على زعامة معاوية ، ورضيت به أميراً عليها ، وابتهج خيار المسلمين بهذه الوحدة الجامعة ، بعد الفرقة المشتتة ، وكان الفضل في ذلك لله ثم للسيد الكبير مهندس المشروع الإصلاحي العظيم الحسن بن علي بن أبي طالب .

ويعد عام الجماعة من علامة نبوة المصطفى ﷺ ، وفضيلة باهرة من فضائل الحسن ، ولا يلتفت إلى ما قاله العقاد من فهم غير صحيح عن عام الجماعة في هجومه الخاطيء على المؤرخين الذين سمو سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة ، فقد قال: فليس أضل ضللاً ، ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سمو سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة ؛ لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها ، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها^(٢) ، والعقاد رحمه الله لم يأت بجديد في حكمه الخاطيء بل سبقه إليه كثير من مؤرخي

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١٣٧)؛ تاريخ خليفة ، (ص ٢٠٣).

(٢) معاوية بن أبي سفيان ، للعقاد ، (ص ٢٥).

الشيعية ، ويكفي معاوية فخراً أن كل الصحابة الأحياء في عهده بايعوه ، فقد أجمعت الأمة على معاوية وبايعه علماء الصحابة والتابعين ، وعدوا خلافته شرعية ، ورضوا إمامته ، ورأوا أنه خير من يلي أمر المسلمين ويقوم به خير قيام في تلك المرحلة ، فروي عن الأوزاعي أنه قال: أدركت خلافة معاوية عدة من أصحاب رسول الله ﷺ ؛ منهم: سعد ، وأسامة ، وجابر ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت ، ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدري ، ورافع بن خديج ، وأبو أمامة ، وأنس بن مالك ، ورجال أكثر مما سميت بأضعاف مضاعفة ، كانوا مصابيح الهدى ، وأوعية العلم ؛ حضروا من الكتاب تنزيله ، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويله ، ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله ، منهم: المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعبد الله بن محيريز في أشباه له ، لم ينزعوا يده عن مجامعة في أمة محمد ﷺ^(١) .

وقال ابن حزم: فبويع الحسن ثم سلم الأمر إلى معاوية ، وفي بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق قبل الفتح وقاتل ، وكلهم أولهم عن آخرهم بايع معاوية ، ورأى إمامته^(٢) .

فالصحابة لم يبايعوا معاوية رضي الله عنه إلا وقد رأوا فيه شروط الإمامة متوفرة ، ومنها العدالة ، فمن يطعن في عدالة معاوية وإمامته فقد طعن في عدالة هؤلاء الصحابة جميعهم وخونهم وتنقصهم . فمن رضي هؤلاء لدينهم ودنياهم ألا نقبله ونرضى به نحن؟! ومن قال: لعلمهم بايعوا خوفاً فقد اتهمهم بالجبن وعدم الصدق بالحق ، وهم القوم المعلوم من سيرتهم الشجاعة والشهامة وعدم الخوف في الله لومة لائم^(٣) .

وفي مبايعة سبط رسول الله ﷺ الحسن بن علي لمعاوية درس بليغ وفهم عميق لآيات النهي عن الاختلاف ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعام: ١٥٣] . فالصراط المستقيم هو: القرآن ، والإسلام ، والفطرة التي فطر الناس عليها ، والسبل هي: الأهواء ، والفرق ، والبدع ، والمحدثات ، قال مجاهد: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾: يعني البدع ، والشبهات والضلالات^(٤) .

ونهى الله سبحانه وتعالى هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتفرق من بعد ما جاءتهم البينات ، وأنزل الله إليهم الكتب ، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا

(١) البداية والنهاية (١١/٤٣٤ ، ٤٣٥) .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٦/٥) .

(٣) من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية ، (ص ١٢٠) .

(٤) تفسير مجاهد ، (ص ٢٢٧)؛ دراسات في الأهواء والفرق والبدع ، (ص ٤٩) .

وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْيَبْتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٥] . وقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله ، قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

لقد تحقق بفضل الله تعالى ثم بنجاح الحسن بن علي في صلحه مع معاوية مقصد عظيم من مقاصد الشريعة من وحدة المسلمين واجتماعهم ، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى ، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، فلا بد من تضافر الجهود بين الدعاة ، وقادة الحركات الإسلامية ، وبين علماء المسلمين ، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً ، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح .

وقد تحدث الشيخ السعدي على الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الإلفة ، واتفق الكلمة ، وبعد أن ذكر الآيات ، والأحاديث الدالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم قال : فإن من أعظم الجهاد السعي في تأليف قلوب المسلمين ، واجتماعهم على دينهم ، ومصالحهم الدينية والدنيوية^(١) .

ولا ينظر للحديث الضعيف الذي رواه ابن عدي من طريق علي بن زيد ، وهو ضعيف ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، ومن حديث مجالد^(٢) ، وهو ضعيف أيضاً ، عن أبي الوداك عن أبي سعيد : أن رسول الله ﷺ قال : «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»^(٣) . أسنده أيضاً من طريق الحكم بن ظهير^(٤) ، وهو متروك . وهذا الحديث كذب بلا شك ، ولو كان صحيحاً لبادر الصحابة إلى فعل ذلك ، لأنهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم^(٥) .

١ - انتهاء عهد الخلافة الراشدة :

انتهى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بتنازل الحسن بن علي لمعاوية رضي الله عنه ، فقد قال رسول الله ﷺ : «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاصياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» ثم سكت^(٦) .

(١) وجوب التعاون بين المسلمين ، (ص ٥) .

(٢) الكامل في الضعفاء (٦/٢٤١٦) .

(٣) البداية والنهاية (١١/٤٣٤) ؛ الكامل في الضعفاء (٢/٦٢٦) .

(٤) الكامل (٢/٦٢٦ - ٦٢٧) .

(٥) البداية والنهاية (١١/٤٣٤) .

(٦) مسند أحمد (٤/٣٧١ - ٣٧٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة .

وقد بين رسول الله ﷺ : خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله الملك أو ملكه من يشاء^(١) ، وقوله ﷺ : الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك^(٢) . وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن ، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ ، فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وهذا من دلائل نبوة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً^(٣) ، وبذلك تكون مرحلة خلافة النبوة قد انتهت بتنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية في شهر ربيع الأول من سنة ٤١ هـ^(٤) ؛ فالحديث النبوي الكريم أشار إلى مراحل تاريخية ، وهي :

أ- عهد النبوة .

ب- عهد الخلافة الراشدة .

ج- عهد الملك العضوض^(٥) .

د- عهد الملك الجبري .

هـ- ثم تكون خلافة على منهاج النبوة .

وقد بين رسول الله ﷺ بأنه ستكون خلافة نبوة ورحمة ، ثم يكون ملك ورحمة^(٦) ، ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكاً ، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء ، بدليل ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، وستكون خلفاء فتكثر » ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : « وفوا بيعة الأول ، فالأول ، ثم أعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم »^(٧) . فقله : « فتكثر » دليل على من سوى الراشدين ؛ فإنهم - أي : الراشدين - لم يكونوا كثيراً ، وأيضاً قوله : « وفوا بيعة الأول فالأول » دل على أنهم يختلفون والراشدون لم يختلفوا ، وقوله : « فأعطوهم حقهم » ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم دليل على مذهب أهل السنة ، في إعطاء الأمراء حقهم من المال والمغنم^(٨) .

(١) سنن أبي داود شرح عون المعبود (١٢/٢٥٩) ؛ صحيح سنن الألباني (٣/٨٧٩) .

(٢) سنن الترمذي شرح تحفة الأحوزي (٦/٣٩٥-٣٩٧) حديث حسن .

(٣) البداية والنهاية (٨/١٦) .

(٤) مرويات خلافة معاوية ، (ص ١٦٥) .

(٥) العضوض : الشديد ، فيه عسف وعنف وظلم .

(٦) سنن الدارمي ، الأشربة (٢/١١٤) ؛ الفتاوى (٣٥/١٤) .

(٧) البخاري ، رقم (٣٤٥٥) .

(٨) الفتاوى (٣٥/١٥) .

فمعاوية رضي الله عنه أفضل ملوك هذه الأمة ، والذين كانوا قبله خلفاء نبوة ، وأما هو فكانت خلافته ملك ، وكان ملكه ملكاً ورحمة ، وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين ، ما يعلم أنه كان خيراً من ملك غيره^(١).

ومعاوية رضي الله عنه كان عالماً ورعاً عدلاً ، دون الخلفاء الراشدين في العلم والورع والعدل ، كما ترى من التفاوت بين الأولياء ، بل الملائكة والأنبياء ، وإمارته وإن كانت صحيحة بإجماع الصحابة وتسليم الحسن - رضي الله عنه - ، إلا أنها ليست على منهاج خلافة من قبله ، فإنه توسع في المباحات ، وتحرز عنها الخلفاء الأربعة ، وأما رجحان الخلفاء الأربعة في العبادات والمعاملات فظاهر مما لا ستره فيه^(٢).

وقد حدد ابن خلدون مدى التغير الذي حدث ، فقدر أنها خلافة وإن كانت تحولت إلى ملك ، فإن معاني الخلافة بقيت - بعضها - وإنما كان التغير في الوازع ، فبعد أن كان ديناً انقلب عصبية وسيفاً؛ يقصد بذلك : أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين ، والخلافة شورى ، صار الحكم مستنداً إلى العصبية والقوة ، ولكن معاني الخلافة - أي : مقاصدها وأهدافها - بقيت ، أي أن غايات هذا الملك كانت لا تزال تحقيق مقاصد الدين والحكم وفق الشريعة الإسلامية بالعدل ، وتنفيذ الواجبات التي يأمر بها الإسلام؛ أي أن الحكم أو الملك استمر إسلامياً وشرعياً^(٣).

ولخص الأدوار التي مرت بها الخلافة فقال: فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً ، ثم التبست معانيها واختلطت بالملك ، ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبية الخلافة ، والله مقدر الليل والنهار^(٤). فالدور الأول الذي يشير إليه هو عصر الخلفاء الراشدين؛ وهو عصر الخلافة الخالصة أو الكاملة ، والدور الثاني هو عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين - ولا يمنع كذلك العثمانيين - وهذا عصر الخلافة المختلطة بالملك ، أو الملك المختلط بالخلافة: أي الذي يحقق في الوقت نفسه مقاصد الخلافة ، أما الدور الثالث فهو عصر الملك المحض الذي صار بقصد لذات الملك والأغراض الدنيوية ، وانفصل عن حقيقة الخلافة أو معانيها الدينية^(٥). فهذا وصف أو تفسير ابن خلدون المؤرخ الفقيه للتطور الذي حدث ، والأدوار التي مرت بها الخلافة.

(١) المصدر السابق نفسه ، (٤/ ٢٩٢).

(٢) النهاية عن طعن أمير المؤمنين معاوية ، (ص ٧٨).

(٣) النظريات السياسية للرئيس ، (ص ١٩٤) ، نقلاً عن المقدمة لابن خلدون.

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٩٥).

(٥) المصدر السابق نفسه.

إن الخلافة الحقيقية أو الكاملة ، أو خلافة النبوة استمرت ثلاثين عاماً ، وهو عصر الخلفاء الراشدين ، ثم تحولت إلى ملك ، ولكن لكي نعبر عن الحقيقة يجب أن يراعى هذا التحديد ، وهو أن الخلافة لم تنته أو تذهب كلية ، وإنما بقيت معانيها أو مقاصدها ، وأن التغيير حصل في الأساس التي قامت عليه ، أما حقيقتها فقد بقيت ، فالتغيير إذن لم يكن كلياً ، ولكن جزئياً: أي أن الخلافة في العصر الأول كانت هي الخلافة الكاملة المثالية ، ثم نقصت عن المثال من وجه أو بعض الوجوه ، لكن معظم عناصره بقيت ، فهي خلافة أقل في الرتبة ، أو خلافة مختلطة بالملك^(١) ، والرأي العام في الإسلام يتمسك بالمثال ، أو خلافة النبوة ، أو الخلافة الكاملة ، وهي تلك التي تقوم على الشورى والاختيار التام من الأمة ، وأنه إذا كان الظروف الواقعية والعوامل الاجتماعية قد حتمت أو أدت إلى هذا التطور ، فإن تحمل ذلك أو قوله لا يكون إلا مؤقتاً أو من باب الضرورة ، ولكن لا يلزم أن يكون المثل الكامل حاضراً دائماً في فكر الرأي العام ، وبمجرد أن تزول تلك العوامل والظروف تجب العودة إلى تحقيق المثل الكامل ، ولذا فإن الكتابات الإسلامية الأصيلة ظلت ملتزمة ومتشبثة بالمثال الكامل ، ولا تستخلص مبادئها إلا منه ، وتفرق بين الخلافة وهي الخلافة الحقيقية الشرعية ، والخلافة الواقعية التي بعدت قليلاً أو كثيراً عن الحقيقية^(٢).

وقد ذكر ابن تيمية: أن مصير الأمر - أي الخلافة - إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة الأمراء ليس لنقص فيهم فقط ، بل لنقص في الراعي والرعية جميعاً ، فإنه كما تكونوا يولّ عليكم ، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَصَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]. لقد ذهبت دولة الخلفاء الراشدين ، وصار ملكاً ظهر النقص في الأمراء ، وكذلك في أهل العلم والدين ، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة ، حتى إنه لم يبق من أهل بدر إلا نفر قليل وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك ، وجمهور تابعي التابعين انقرضوا في أواخر الدولة الأموية ، وأوائل الدولة العباسية^(٣).

٢- هل يعتبر معاوية رضي الله عنه أحد الخلفاء الاثني عشر؟

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: دخلت مع أبي على النبي ﷺ ، فسمعتة يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة» ، قال: ثم تكلم بكلام خفي عليّ ، قال: فقلت لأبي: ما قال ، قال: «كلهم من قريش»^(٤) ، وفي رواية أخرى عن جابر: «لا يزال

(١) النظريات السياسية ، (ص ١٩٦).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٩٧).

(٣) الفتاوى (٢٠٧/١٠).

(٤) صحيح مسلم على شرح النووي (٥٠٢/١٢).

الإسلام عزيزاً إلى اثني عشرة خليفة . . . كلهم من قریش»^(١). وفي رواية أخرى عنه: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة . . . كلهم من قریش»^(٢) ، زاد أبو داود في سننه بإسناده عن جابر رضي الله عنه قال: فلما رجع إلى منزله أتته قریش فقالوا: ثم يكون الهرج^(٣).

وقد شرح ابن كثير هذا الحديث فقال: ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم ، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم ، بل قد وجد منهم أربعة على نسق؛ وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة ، وبعض بني العباس ، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة ، والظاهر أن منهم المهدي المُسرَّ به في الأحاديث الواردة بذكره . . . وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الإمامية وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء^(٤) ، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية ، بل هو من هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة ، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر ، الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الإثنا عشرية^(٥).

وبالتأمل في النص بكل حيدة وموضوعية نجد أن هؤلاء الاثني عشر وصفوا بأنهم يتولون الخلافة ، وأن الإسلام في عهدهم يكون في عزة ومنعة وأن الناس تجتمع عليهم ، ولا يزال أمر الناس ماضياً وصالحاً في عهدهم ، وكل هذه الأوصاف لا تنطبق على من تدعي الإثنا عشرية فيهم الإمامة ، فلم يتول الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين علي والحسن^(٦) . . .

ثم إنه ليس في الحديث حصر لأئمة بهذا العدد ، بل نبوءة منه ، بأن الإسلام لا يزال عزيزاً في عصور هؤلاء ، وكان عصر الخلفاء الراشدين وبني أمية عصر عزة ومنعة^(٧) ، ولهذا قال ابن تيمية: إن الإسلام وشرائعه في بني أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم^(٨) ، وعدّ معاوية من الأئمة المقصودين بالحديث^(٩).

(١) المصدر السابق نفسه (١٢/٥٠٣).

(٢) المصدر السابق نفسه (١٢/٢٠٣).

(٣) صحيح سنن الألباني (٣/٨٠٧) ، هرج الناس: وقعوا في فتنه واختلاط وقتل.

(٤) سامراء: مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة.

(٥) تفسير ابن كثير (٢/٣٤).

(٦) منهاج السنة (٤/٢١٠)؛ المنتقى ، (ص ٥٣٣).

(٧) أصول الشيعة (٢/٨١٦).

(٨) منهاج السنة (٤/٢٠٦).

(٩) المصدر السابق نفسه.

ثانياً: أهم صفات معاوية رضي الله عنه :

اشتهر معاوية رضي الله عنه بصفات كثيرة؛ من أهمها :

١- العلم والفقه :

استفاد معاوية رضي الله عنه من ملازمته لرسول الله ﷺ علماً وتربية ، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة قد ذكرت بعضها ، وقد روى له البخاري ومسلم مع شرطهما ألا يرويان إلا عن ثقة ضابط صدوق^(١).

وشهد له ابن عباس بالفقه ، فعن ابن أبي مليكة قال: قيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل لك في أمير المؤمنين معاوية؟ فإنه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: أصاب؛ إنه فقيه. رواه البخاري^(٢). قال الشراح: أي مجتهد.

وفي رواية أخرى للبخاري: عن أبي مليكة قال: أوتر معاوية رضي الله عنه بعد العشاء بركة وعنده مولى لابن عباس رضي الله عنهما ، فأتى ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: دَعُهُ فإنه صحب رسول الله ﷺ.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما؛ من فضلاء الصحابة ، ويُلقَّب: البحر ، لسعة علمه ، وحبر الأمة ، وترجمان القرآن ، وقد دعا له الرسول ﷺ بالعلم والحكمة والتأويل ، فاستجيب له. وكان من خواص أصحاب علي رضي الله عنه ، وشديد الإنكار على أعدائه ، وأرسله علي رضي الله عنه ليحاج الخوارج ، فحاجهم حتى لم يبق لهم حجة ، فإذا شهد مثله لمعاوية بأنه مجتهد وكفّ مولاه عن الإنكار مستدلاً بأنه من الصحابة^(٣) ، فيكفيه ذلك مكرمة.

كما أنه كان كاتب رسول الله ﷺ ، وذكر مفتي الحرمين أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري في خلاصة السير: أن كتَّابه ﷺ ثلاثة عشر: الخلفاء الأربعة ، وعامر بن فهيرة ، وعبد الله بن أرقم ، وأبي بن كعب ، وثابت بن قيس بن شماس ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وحنظلة بن الربيع الأسلمي ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وكان معاوية وزيد ألزمهم لذلك وأخصهم به^(٤).

كما أن الفقهاء يعتمدون على اجتهاده ، ويذكرون مذهبه كسائر الصحابة ، كقولهم: ذهب

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية ، (ص ٤١).

(٢) البخاري ، رقم (٣٧٦٤ ، ٣٧٦٥).

(٣) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية ، (ص ٤١).

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤١).

معاذ بن جبل ، ومعاوية ، وسعيد بن المسيب إلى أن المسلم يرث الكافر ، وقولهم: روي^(١) استلام الركنتين اليمانيين عن الحسن أو الحسين ، وصح عن معاوية . وقال أبو الدراء الصحابي لأهل الشام: ما رأيت أحداً أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ ، من إمامكم هذا - يعني معاوية^(٢) .

وكان رضي الله عنه حريصاً على تعليم الناس العلم ، فعن أبي أمانة سهل بن حنيف قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان وهو جالس على المنبر حين أذن المؤذن قال: الله أكبر الله أكبر ، قال معاوية: الله أكبر الله أكبر . قال: أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال معاوية: وأنا ، فقال: أشهد أن محمداً رسول الله ، فقال معاوية: وأنا . فلما قضى التأذين قال: يا أيها الناس ، إني سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس - حين أذن المؤذن - يقول ما سمعتم مني من مقالي^(٣) .

وكان رضي الله عنه يحث الناس على الفقه في الدين ، ويروي لهم الأحاديث الدالة على أهمية التفقه في الدين ، فعن الزهري قال: أخبرني حميد قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يخطب ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، ويعطي الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة . أو حتى يأتي أمر الله»^(٤) .

وكان رضي الله عنه يكتتب أصحاب الرسول ﷺ ليتعلم منهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ ، فعن وراد مولى المغيرة بن شعبه قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلي ما سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة ، فأملئ علي المغيرة ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» . وقال ابن جريج: أخبرني عدة أن وراداً أخبره بهذا . ثم وفدت بعد إلى معاوية فسمعت يأمُر الناس بذلك القول^(٥) .

وكان رضي الله عنه حريصاً على اتباع السنة النبوية ، فعن سعيد بن المسيب ، وعن حمد بن عبد الرحمن بن عوف: أن معاوية لما قدم المدينة في آخر مقدمة قدمها ، قال على منبر رسول الله ﷺ: أين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول الله ﷺ في هذا اليوم - يوم عاشوراء - يقول: «من شاء منكم أن يصومه فليصمه» . وفي رواية: «وإني صائم» ، فصام الناس^(٦) ، قال:

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ٥٧) .

(٢) منهاج السنة (٣/ ١٨٥) .

(٣) فتح الباري (٢/ ٤٦٢) .

(٤) المصدر السابق نفسه (١٣/ ٣٠٦) .

(٥) فتح الباري (١١/ ٥٢١) .

(٦) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٨٧) .

وسمعت رسول الله ﷺ : ينهي عن مثل هذا. وأخرج قصة من شعر من كفه ، فقال : إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم^(١) - يعني وصل المرأة شعرها بشعر آخر ، وقد صح في عدد من الأحاديث لعن الواصلة والمستوصلة . وفي رواية أخرى : أنه قال لهم : إنكم أحدثتم - أي حدث سوء - نهى رسول الله ﷺ عن (الزور)^(٢) . سماه الرسول زوراً لما فيه من التزوير والتغيير . فهنا نراه حريصاً على إحياء سنة كصوم عاشوراء الذي رأى أن الناس أهملوه ، كما نراه حريصاً على إماتة بدعة ظهرت في الناس ، وهي تقليد اليهوديات بوصل الشعر^(٣) .

وروى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج : أن العباس بن عبد الله بن عباس أنكح عبد الرحمن بن الحكم ابنته ، وأنكحه عبد الرحمن ابنته ، وقد جعلاً - أي : العقدين - صداقاً (أي : كل منهما صداق الأخرى) ، فكتب معاوية بن أبي سفيان - وهو خليفة - إلى مروان ، يأمره بالتفريق بينهما ، وقال في كتابه : هذا الشغار الذي نهى عنه رسول الله ﷺ^(٤) ، فهو يراعي إقامة السنة في حياة الناس في الأمور كلها ، أمور الفرد ، وأمور الأسرة ، وأمور الجماعة^(٥) .

وكان رضي الله عنه لا يروي الحديث عن رسول الله ﷺ إلا بمناسبة اقتضته ، فقد ورد أنه دخل على عبد الله بن الزبير وابن عامر ، فقام ابن عامر له ، ولم يقم ابن الزبير ، فقال معاوية : مه ؛ قال رسول الله ﷺ : «من أحب أن يُمثل له عباد الله قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار»^(٦) .

وعن مجاهد وعطاء عن ابن عباس : أن معاوية أخبره أن رسول الله ﷺ قصر من شعره - أي : في العمرة - بمشَقَص ، فقلنا لابن عباس : ما بلغنا هذا إلا عن معاوية . فقال : ما كان معاوية على رسول الله ﷺ متهماً^(٧) .

وكان رضي الله عنه يهتم بمذاكرة العلم ويحرص عليه ، فعن عبد الله بن الحارث قال : دخلت مع ابن عباس على معاوية فأجلسه على السرير ، وفي تلك القصة سأله معاوية عن مسألة فقهية ، وكان رضي الله عنه يعلم الناس ويحثهم على سؤاله والاستفادة من علمه ، فقد خطب يوم الجمعة وقال : أيها الناس اعقلوا قلوبي ، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة مني ، أقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة ، فلتقيمن وجوهكم وصفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم ، خذوا على

(١) الفتح (٦/٥٩١) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٦/٥٩٥) .

(٣) تاريخنا المفترى عليه ، للقرضاوي ، (ص ٧١) .

(٤) مسند أحمد ، رقم (١٦٨٥٦) إسناده حسن .

(٥) تاريخنا المفترى عليه ، للقرضاوي ، (ص ٧١) .

(٦) البخاري ، رقم (٣٤٨٨) .

(٧) مسند أحمد ، رقم (١٦٨١٣) إسناده صحيح .

أيدي سفهائكم أو ليسلطنهم الله عليكم ، فليسومونكم سوء العذاب ، تصدقوا ؛ لا يقولنَّ الرجل : إني مقلٌّ . فإن صدقة المقلِّ أفضل من صدقة الغني ، إياكم وقذف المحصنات ، وأن يقول الرجل : سمعت . . وبلغني ، فلو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسُئل عنها يوم القيامة^(١) .

وكان رضي الله عنه حريصاً على متابعة رسول الله ﷺ ، فعندما دخل مكة سأل ابن عمر : أين صلى رسول الله ﷺ ؟ فقال : اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة^(٢) .

وله اجتهداد في تعيين ليلة القدر ، فقد روى ابن أبي شيبه بإسناد صحيح عن معاوية قال : ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين^(٣) .

وكان يعترف بالحجة والبرهان لغيره ، فعن ابن عباس : أنه طاف مع معاوية ، وكان معاوية يستلم الأركان بالبيت ، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : إنه لا يستلم هذان الركنان . فقال : ليس شيء من البيت مهجوراً^(٤) ، وجاء في رواية : فقال له ابن عباس : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، فقال معاوية : صدقت^(٥) .

ومن الأحكام التي قضاها معاوية رضي الله عنه ما أخرجه ابن أبي شيبه من طريق عبد الله بن معقل ، قال : ما رأيت قضاء أحسن من قضاء قضى به معاوية : نرث أهل الكتاب ولا يرثونا ، كما يحل النكاح فيهم ولا يحل لهم^(٦) .

ومن المسائل الفقهية التي أثرت عن معاوية رضي الله عنه :

أ- أثر عنه رضي الله عنه أنه أوتر بركعة^(٧) .

ب- أثر عنه رضي الله عنه الاستسقاء بمن ظهر صلاحه^(٨) .

ج- أنه يجزئ إخراج نصف صاع من البر في زكاة الفطر^(٩) .

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٧) .

(٢) الفتح (٣/ ٥٤٤) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ٣١١) .

(٤) الخلافة الرائدة والدولة الأموية من فتح الباري ، (ص ٥٨٥) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ٥٨٦) .

(٦) مصنف ابن أبي شيبه (١١/ ٣٧٤) ؛ سنن سعيد (١/ ٤٥) .

(٧) فتح الباري (٧/ ١٣٠) .

(٨) المغني (٣/ ٣٤٦) .

(٩) زاد المعاد (٢/ ١٩) .

د- استحباب تطيب البدن لمن أراد الإحرام^(١).

هـ- جواز بيع وشراء دور مكة^(٢).

و- التفريق بين الزوجين بسبب العنة^(٣).

ز- وقوع طلاق السكران^(٤).

ح- عدم قتل المسلم بالكافر قصاصاً^(٥).

ط- حبس القتال حتى يبلغ ابن القتيل^(٦).

وأما علومه في الفقه السياسي والسياسة الشرعية ، ومقاصد الشريعة ، وفقه الجهاد ، فالكاتب سوف يحدثنا عن الكثير من فقهه في إدارة الدولة وتحقيق أهدافها .

٢- الحلم والعفو :

اشتهر أمير المؤمنين معاوية بصفة الحلم ، وكان يضرب به المثل في حلمه رضي الله عنه ، وكظم غيظه وعفوه عن الناس ، وقد ذكر ابن كثير ما كان يتصف به أمير المؤمنين معاوية من الحلم ؛ حيث قال : وقال بعضهم : أسمع رجلٌ معاويةَ كلاماً سيئاً شديداً ، ف قيل له : لو سطوت عليه . فقال : إني لأستحيي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي ، وفي رواية : قال له رجل : يا أمير المؤمنين ما أحلمك !! فقال : إني لأستحيي أن يكون جرم أحد أعظم من حلمي ، وقال الأصمعي : عن الثوري قال : قال معاوية : إني لأستحيي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، أو جهل أكبر من حلمي ، أو تكون عورة لا أوارئها بستري .

وقال معاوية : يا بني أمية فارقوا قريشاً بالحلم ، فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسع حلماً ، وأرجع وهو لي صديق ، إن استنجدته أنجدني ، وأثور به فيثور معي ، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ، ولا زاده إلا كرمًا ، وقال : لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله ، وصبره شهوته ، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم^(٧).

(١) المغني (٥/ ٧٧).

(٢) المصدر السابق نفسه (٦/ ٣٦٦).

(٣) العنة : هي عجز الرجل عن إتيان زوجته . القاموس المحيط ، (ص ١٥٧٠) ؛ زاد المعاد (٥/ ١٨١).

(٤) المصدر السابق نفسه (٥/ ٢١١).

(٥) المغني (١١/ ٤٦٦).

(٦) المصدر السابق نفسه (١١/ ٥٧٧) ؛ مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢٨ ، ٢٩).

(٧) البداية والنهاية (١١/ ٤٤١).

وسئل معاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفساً حين يسأل ، وأحسنهم في المجالس خلقاً ، وأحلمهم حين يستجهل^(١).

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيراً:

فما قَتَلَ السَّفَاهَةَ مثلاً حِلْمٌ يعودُ به على الجَهْلِ الحَلِيمُ
فلا تَسْفَهْه وإن ملَّتْ غِيظاً على أَحَدٍ فَإِنَّ الفُحْشَ لُؤْمٌ
ولا تَقْطَعْ أَخاكَ عِنْدَ ذَنْبٍ فَإِنَّ الذَّنْبَ يَغْفِرُهُ الكَرِيمُ^(٢)

وكتب معاوية إلى نائب زياد: إنه لا ينبغي أن يُساسَ الناسَ سياسةَ واحدة باللين فيمرحوا ، ولا بالشدّة فيَحْمَلَ الناسَ على المهالك ، ولكن كن أنت للشدّة والفظاظة والغلظة ، وأنا لللين والألفة والرحمة ، حتى إذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه^(٣).

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه تبين لنا شيئاً مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم ، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيته ، أو يصارحونه بقوة بما يروونه حقاً وهو يخالفهم في ذلك ، وكان لتخلقه بخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعف أثر في نجاحه في تثبيت أركان دولته ، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين ، وتحويلهم إلى الرضا والقناعة بسياسته ، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة ، وقد أبان في هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شيء من الدلّ كما أن النصر يخالطه شيء من العز ، ولكن أبدى سروره بذلك الدلّ لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء والأنصار^(٤).

وفي كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التي تخيف المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن ، ولكنها في الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة^(٥).

ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره ، وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة الحلم ، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وقال عبد الملك بن مروان - يوماً - وذكر

(١) المصدر السابق نفسه (١١/٤٤٢).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه (١١/٤٤٣).

(٤) التاريخ الإسلامي (١٧/٢٦).

(٥) المصدر السابق نفسه.

معاوية: ما رأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه^(١)، وقال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحداً أعظم حلماً، ولا أكثر سوءداً، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجاً، ولا أرحب بالمعروف من معاوية^(٢).

وقال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: لله در ابن هند، إن كنا لَنُفَرِّقُهُ^(٣)، وما الليث على برائته بأجراً منه، فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه، فيتخادع لنا، والله لوددت أنا مُتَعَنَّا به ما دام في هذا الجبل حجر - وأشار إلى أبي قبيس^(٤). وفي قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جريء شجاع، ولكن يظهر العكس عمداً ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدي لديهم، وهو أدهى أهل الأرض في زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقيمتهم عليه، وهو في ذلك كله يخدم هدفاً سامياً؛ وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية، ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير الأحوال من بعده^(٥).

ويصف حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سياسياً معاوية بكلام موجز، لكنه يعني خلاصة تفكير عميق؛ حيث يقول: قد علمت بما غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقع طاروا^(٦). وهذا يعني أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفسح لها حتى تمر، ثم يحتوي الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرختها، وإذا أرخوها جذبتها.

ومن مواقفه في الحلم: أنه جرى بين رجل يقال له: أبو جهم، وبين معاوية كلام، فتكلم أبو جهم بكلام فيه غَمَزٌ لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم! إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبيان ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبي الجهم بمال، فقال أبو الجهم في ذلك يمدح معاوية:

نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا نَمِيلُ إِذَا نَمِيلُ عَلَى أَيْبِنَا

(١) البداية والنهاية (١١/٤٣٩).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) نخرقه: نخوفه.

(٤) البداية والنهاية (١١/٤٤٢).

(٥) التاريخ الإسلامي (١٧/٢٧).

(٦) البداية والنهاية (١١/٤٤٣).

نُقِّلَ بِهِ لِنَجْبَرِ حَالَتَيْهِ فَنَجْبَرُ مِنْهُمَا كَرَمًا وَلِينًا^(١)

وهكذا كان لحلم معاوية رضي الله عنه وحسن خلقه ومبادلته بالإساءة بالإحسان الأثر الكبير في نفس أبي الجهم ، فقال هذين البيتين في الثناء على معاوية ، ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقاً لقوله الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿ [فصلت : ٣٤ - ٣٥] .

ونظراً لحلم معاوية الكبير وما يتصف به من الشجاعة والعزة ؛ فإن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أثنى عليه^(٢) بقوله : دعوا فتى قريش وابن سيدها ، إنه لمن يضحك في الغضب ، ولا يُنال منه إلا على الرضا ، ومن لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه^(٣) . فهذا قول دقيق من عمر في وصف معاوية ، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم ، والعزة التي تجعله منيعاً لا ينال ما عنده على قهر منه ، وهذه الصفة من صفاته التي جعلت أمير المؤمنين عمر يبقيه أميراً على الشام لخطورة ذلك الثغر^(٤) .

وقال معاوية رضي الله عنه : العقل والحلم أفضل ما أعطي العبد ، فإذا ذُكِّرَ ذكر ، وإذا أُعْطِيَ شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا غضب كظم ، وإذا قدر غفر ، وإذا أساء استغفر ، وإذا وعد أنجز^(٥) . ففي هذا الخبر جمع أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه درراً من الحكم ، وهي : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند الابتلاء ، والتحكم في السلوك عند الغضب ، والعفو عند المقدرة ، والوفاء بالوعد ، والاستغفار عند الإساءة ، فهذا الخبر على قصره قد جمع ستة موضوعات ، كل موضوع يحتاج إلى أن يكتب عنه في صفحات ، وهذا من جوامع الكلم ، وهو يعتبر من أعلى أنواع البلاغة ، وذلك في جمع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة ، وقد اشتهر في هذا البيان عدد من الصحابة رضي الله عنهم تتلمذوا في ذلك على رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم^(٦) .

٣- الدهاء والحيلة :

ومن الصفات التي تميز بها معاوية رضي الله عنه صفة الدهاء والحيلة ، ومما يروى من دهائه

(١) التاريخ الإسلامي (١٧/٢٨) ؛ البداية والنهاية (١١/٤٤٠) .

(٢) التاريخ الإسلام (١٧/٢٩ ، ٣٠) .

(٣) البداية والنهاية (١١/٤١٥) .

(٤) التاريخ الإسلامي (١١/٣٠) .

(٥) أنساب الأشراف (٥/٣٣٦) .

(٦) التاريخ الإسلامي (١٩/٢٠ ، ٣٥٥) .

وحسن إدارته وتدبيره ، أن المسلمين غزوا في أيامه فأسر جماعة منهم ، فوقفوا بين يدي ملك الروم بقسطنطينية ، فتكلم بعض أسارى المسلمين ، فدنا منه بعض البطارقة^(١) ممن كان واقفاً بين يدي الملك ؛ فلطم حرّ وجهه^(٢) ، وكان رجلاً من قریش فصاح : وإسلاماه ! أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا وأضعت ثغورنا وحكمت العدو في دماننا وأعراضنا ؟! فمني ذلك الخبر إلى معاوية ، فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب ، فخلا بنفسه ، وامتنع عن الناس ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين ، ثم أعمل الحيلة في إقامة الفداء بين المسلمين والروم ، إلى أن فدى ذلك الرجل ، ومن أسرمعه من المسلمين ، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام ، دعاه معاوية فبره وأحسن إليه ، ثم قال له : لم نهملك ، ولم نضيعك ، ولا أبحنأ دمك وعرضك .

ومعاوية أثناء ذلك يدبّر الرأي ويعمل الحيلة ، ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور ، وكان عارفاً بكثير الغزوات في البحر ، صُمك^(٣) من الرجال ، مرطان بالرومية ، فأحضره وخلا به ، وأخبره بما قد عزم عليه وسأله إعمال الحيلة فيه ، والتأني له ، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالاً عظيماً ، ليبْتَاع به أنواعاً من الطرف والملح والجهاز من الطيب والجوهر وغير ذلك ، وأنشأ له مركباً لا يلحق في جريه سرعة ، ولا يدرك في سيره ، إنشاءً عجيباً ، فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها وأخبره أن معه حاجة للملك ، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية ، قاصداً إلى الملك وخواصه بذلك ، فروسل^(٤) الملك بشأنه ، فأذن له ، فدخل خليج القسطنطينية ، فلما وصلها أهدى للملك وجميع بطارقتها ، وبايعهم وشاراهم ، وقصدهم ، إلا ذلك البطريق الذي لطم القرشي ، وتأنى الصوري من الأمور على حسب ما رسمها له معاوية .

وأقبل الرجل من القسطنطينية إلى الشام ، وقد أمره أكثر البطارقة أن يبتاع حوائج ذكروها ، وأنواعاً من الأمتعة وصفوها ، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سراً ، وذكر له من الأمر ما جرى ، فابتيع له ما طلب منه ، وما علم أن رغبتهم فيه ، وتقدم إليه معاوية فقال : إن ذلك البطريق إذا عدت في كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره ، واستعانتك به ، فاعتذر إليه ولاطفه بالقول والهدايا ، واجعله القيم بأمرك ، والتفقد لأحوالك تزداد عندهم ، فإذا أتقت جميع ما أمرتك به ، وعلمت ما غرض البطريق وإيش الذي يأمرك بابتياعه فعد به إلينا لتكون الحيلة على حسبه ، فلما رجع الصوري إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه والزيادة مما لم

(١) البطارقة : جمع بطريق ، وهو رئيس الأساقف ، والأسقف : رجل الكنيسة .

(٢) لطم حر وجهه : ما ظهر منه .

(٣) الصمك والسموك : القوي الشديد ، والغليظ الجافي .

(٤) الشهب اللامعة ، (ص ٤٨٧) .

يطلب؛ زادت منزلته ، وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية ، فلما كان في بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك ، قبض عليه ذلك البطريق في دار الملك ، وقال له: ما ذنبك إليك؟ وبم استحق غيري أن تقصده ، وتقضي حوائجه وتعرض عني؟ قال الصوري: أكثر من ذكرت ابتدأني وأنا رجل غريب ، وأرحل إلى هذا البلد كالمتنكر من أسارى المسلمين ، وجواسيسهم؛ لئلا يئتمو خبري ويوشوا بأمرى إلى المسلمين فيكون في ذلك بوارى ، والآن فإذا قد علمت ميلك إليّ فلست أحب أن يعتني بأمرى سواك ، ولا يقوم بحالي عند الملك وغيره غيرك ، فمرني بحوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام. وأهدى إلى ذلك البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجوهر والطرف والثياب .

ولم يزل هذا فعله ، يتردد من الروم إلى معاوية ، ومن معاوية إلى الروم ، ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج الجليلة ، والحيلة لا تتوجه إلى معاوية ، حتى مضى على ذلك سنين ، فلما كان في بعضها قال البطريق للصوري ، وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام: قد اشتفيت أن تعمدني بقاء حاجة ، وتمنّ بها عليّ ، وهي أن تبتاع لى بساط سوسنجرى بمخاده ووسائده ، ويكون فيه من أنواع الألوان الحمرية والزرقة وغيرها ، ويكون من صفة كذا وكذا ، ولو بما بلغ ثمنه كل مبلغ ، فأنعم له بذلك ، وكان من شأن الصوري أن يكون مركبه إذا ورد القسطنطينية بالقرب من موضع ذلك البطريق ، وكان للبطريق ضيعة سرية ، وفيها قصر مشيد ، ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية راكمه على الخليج ، وكان البطريق أكثر أوقاته في ذلك المنتزه ، وكانت الضيعة فيما بين قسم الخليج مما يلي بحر الروم والقسطنطينية ، فانصرف الصوري إلى معاوية سرّاً ، فأخبره بالحال ، فأحضر معاوية بساطاً بوسائد ومخاد ومجلس حسن^(١) ، فانصرف به مع جميع ما طلب منه من أرض الإسلام ، وقد تقدم إليه معاوية بالحيلة ، وكيفية إيقاعها ، وكان الصوري فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم في المؤانسة والعشرة ، وفي الروم طمع وشره ، فلما دخل من البحر إلى خليج القسطنطينية ، وقد طابت له الريح ، وقرب من ضيعة البطريق ، أخذ الصوري أخبار البطريق من أصحاب القوارب والمراكب ، فأخبر أن البطريق في ضيعته ، وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلاثمئة وخمسين ميلاً ، والضياع والعمائر على حافته ، والمراكب والقوارب تختلف بأنواع المتاع والأقوات إلى القسطنطينية من هذه العمائر ، بحيث لا تحصى كثرة .

فلما علم الصوري أن البطريق في ضيعته ، فرش البساط ونصّد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد في صحن المركب ومجلسه ، والرجال تحت المجلس بأيديهم المقاذيف مشكلة قائمة غير قاذفين بها ، ولا يعلم بهم أنهم في بطن المركب إلا من ظهر منهم في عمله ،

(١) الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، (ص ٤٨٩).

والريح في القلع ، والمركب مار في الخليج كأنه سهم خرج عن كبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه لسرعة سيره واستقامته في جريه ، فأشرفه على قصر البطريق ، وهو جالس في مستشفه مع حرمه ، وقد أخذت منه الخمر ، وعلاه الطرب ، وذهب به الفرح والسرور كل مذهب ، فلما رأى البطريق مركب الصوري زعق طرباً ، وصاح فرحاً و سروراً وابتهاجاً بقدومه ، فدنا من أسفل القصر فحط القلع ، وأشرف البطريق على المركب فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط ، ونظم تلك الفرش ، كأنه رياض يزهر ، فلم يستطع اللبث في موضعه ، حتى نزل قبل أن يخرج الصوري من مركبه إليه ، فطلع إلى المركب ، فلما استقر قدمه على المركب ودنا من المجلس ، وضرب الصوري بعقبه على من تحت البساط وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب ، فما استقر دقه في المركب بقدمه ، حتى اختطف المركب ، بالمقاذيف ، وإذا هو وسط الخليج يطلب البحر لا يلوي على شيء ، وارتفع الصوت ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر ، فلم يكن الليل حتى خرج عن الخليج وتوسط البحر ، وقد أوثق البطريق كثافاً ، وطابت له الريح ، وأسعده الجد ، وحمله المقدار في ذلك اللج ، فتعلق في اليوم السابع بساحل الشام ، ورأى البر ، وحمل الرجل فكان في اليوم الثالث عشر مأسوراً بين يدي معاوية .

فسر بذلك معاوية^(١) . وقال: عليّ بالرجل القرشي ، فأتى به وقد حضره خواص الناس ، فأخذوا مجالسهم ، وغص المجلس بأهله ، فقال معاوية للقرشي : قم فاقصص من هذا البطريق الذي لطم وجهك على بساط معظم الروم ، فإننا لم نضيعك ولا أبحنأ دمك ولا عرضك ، فقام القرشي فدنا من البطريق ، فقال معاوية : انظر لا تتعدى ما جرى عليك ، واقتصص منه على حسب ما صنع بك ولا تعتد ، وارع ما أوجب الله عليك من المماثلة ، فلطمه القرشي لطمات ووكزه في حلقه ، ثم أكب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها ، وقال: ما ضاع من سؤدك ، ولا خاب فيك من رأسك ، أنت ملك لا يستضام^(٢) ؛ تمنع حماك ، وتصون رعيتك . . . وأرق في وصفه ودعائه .

وأحسن معاوية إلى البطريق ، وخلع عليه وبرّه ، وحمل معه البساط ، وأضاف إلى ذلك أشياء كثيرة وهدايا إلى الملك ، وقال له : ارجع إلى ملكك ، وقل له : تركت ملك المسلمين^(٣) يقيم الحدود على بساطك ، ويقتصص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك وعزك ، وقال للصوري : سر معه حتى تأتي الخليج فتطرحه فيه ومن أسر معه ، ممن كان بادر فصعد إلى المركب من غلمان

(١) الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، (ص ٤٩٠) .

(٢) الضيم : الإذلال والقهر ، أي : ملك لا يقهر ولا يزل .

(٣) أصل الكلمة في الأصل : العرب .

البطريق ، وخاصته ، فحملوا إلى صورٍ مكرمين ، وحمل الجميع في المركب ، وطابت لهم الرياح ، فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين بأرض الروم ، فقربوا من الخليج ، فإذا قد أحكم فمه بالسلاسل والمنعة من الموكولين به ، فطرح البطريق ، وحمل من وقته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة ، وتباشرت الروم بقدومه ، وتلقوه مهئين له بخلاصه من الأسر ، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله في أمر البطريق والهدايا ، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين في أيامه ، وقال الملك : هذا أدهى العرب وأمر الملوك ، ولهذا قدمته العرب عليها ، فأساس أمورها ، ولو همَّ بأخذي لتمت له الحيلة علي^(١).

وهذه القصة دليل على دهاء معاوية رضي الله عنه وحسن سياسته واهتمامه بأمور رعيته ، والمحافظة على حقوق كل فرد فيها وصيانة^(٢) كرامته .

٤ - عقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب :

امتاز معاوية رضي الله عنه بالعقلية الفذة ، فإنه كان يتمتع بالقدرة الفائقة على الاستيعاب ، فكان يستفيد من كل ما يمر به من الأحداث ، ويعرف كيف يتوقاها ، وكيف يخرج منها إذا تورط فيها ، وكانت خبراته الواسعة وممارسته لأعباء الحكم على مدى أربعين سنة ، منذ ولاه عمر رضي الله عنه الشام ، فكانت ولايته على الشام عشرين سنة أميراً ، وعشرين سنة خليفة^(٣) ، هذه الفترة الطويلة التي تقلب فيها بين المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبته خبرة في سياسة البلاد ، والاستفادة من كل الظروف والأوضاع التي تمر بها ، حتى استطاع أن يسير بالدولة عشرين سنة دون أن ينارعه منازع^(٤).

يقول الشيخ الخضري : أما معاوية نفسه ، فلم يكن أحد أوفر منه يداً في السياسة ، صانع رؤوس العرب ، وكانت غايته في الحلم لا تدرك ، وعصابته فيه لا تنزع ، ومراقاته فيه تزل عنها الأقدام^(٥).

ومن المعلوم أن السياسة الناجحة تتوقف على القدرة على ضبط النفس عند الغضب ، واحتواء الشدائد حتى تنجلي ، ولمعاوية في ذلك نصيب وافر - رضي الله عنه - ، وكانت تلك سياسته مع العامة والخاصة ، وهذه طريقته مع الملوك والسوقة ، وهذه أمثلة من سياسته في معاملة الناس :

(١) الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، (ص ٤٩١).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٩١)، تعليق محقق الكتاب السيد سليمان معتوق الرفاعي رحمه الله .

(٣) الطبقات الكبرى (٧/٤٠٦).

(٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/٨٢).

(٥) الدولة الأموية ، للخضري ، (ص ٣٧٧).

أ- المسور بن مخرمة رضي الله عنه واعتراضه على معاوية :

عن عروة بن الزبير : أن المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافداً على معاوية بن أبي سفيان ، ففضى حاجته ، ثم دعاه فأخلاه فقال : يا مسور ! ما فعل طعنك على الأئمة؟ فقال المسور : دعنا من هذا ، وأحسن فيما قدمنا له . قال معاوية : لا والله لتكلمنَّ بذات نفسك ، والذي تعيب عليّ . قال المسور : فلم أترك شيئاً أعيبه عليه إلا بينته له . قال معاوية : لا بريء من الذنب ، فهل تعد يا مسور ما لي من الإصلاح في أمر العامة ، فإن الحسنة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات . قال المسور : لا والله ما نذكر إلا ما ترى من هذه الذنوب . قال معاوية : فلنا نعرف الله بكل ذنب أذنبناه؟ فهل لك يا مسور ذنب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور : نعم! قال معاوية : فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة مني؟ فوالله لما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي ، ولكن والله لا أخير بين أمرين ، وبين الله وغيره إلا اخترت الله تعالى على ما سواه ، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل ، ويجزي فيه بالحسنات ، ويجزي فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء ، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها ، وأوازي أموراً عظماً لا أحصيها ولا تحصيها من عمل الله في إقامة صلوات المسلمين ، والجهاد في سبيل الله عز وجل ، والحكم بما أنزل الله تعالى ، والأمور التي لست تحصيها وإن عدتها لك . قال المسور : فعرفت أن معاوية قد خصمني حين ذكر لي ما ذكر . قال عروة : فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا استغفر له^(١) .

وفي هذا الخبر مثل جيد في فن الإقناع ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم ، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه أن يقنع المسور بن مخرمة رضي الله عنه بتقبل سياسته التي يسير عليها ، وعاد مادحاً داعياً له بعدما كان منتقداً مهاجماً له ، وفي هذا الخبر لفظة تربوية من معاوية ؛ حيث أبان أن من العدل في الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم إلى حسناته وصوابه ، مع النظر إلى سيئاته وخطئه ، ثم يوازن بين الجانبين ، فلعل هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لا تعد أخطاؤه إلى جانبها شيئاً مذكوراً^(٢) .

ب- ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري رضي الله عنه :

كان ثابت بن قيس بن الخطيم ، شديد النفس ، وكان له بلاء مع علي بن أبي طالب ، واستعمله علي بن أبي طالب على المدائن ، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة ، وكان معاوية يتقي مكانه .

(١) تاريخ بغداد (١/٢٠٩ ، ٢٠٨)؛ سير أعلام النبلاء (٣/١٥١) .

(٢) التاريخ الإسلامي (١٧/٥٣٩) .

انصرف ثابت بن قيس إلى منزله فوجد الأنصار مجتمعين في مسجد بني ظفر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية في حقوقهم أول ما استخلف ، . . . فقال: ما هذا؟ فقالوا: نريد أن نكتب إلى معاوية. فقال: ما تصنعون أن يكتب إليه جماعة؟! يكتب إليه رجل منا؛ فإن كانت كائنة برجل منكم فهو خير من أن تقع بكم جميعاً وتقع أسماؤكم عنده ، فقالوا: فمن ذلك الذي يبذل نفسه لنا؟ قال: أنا. قالوا: فثأرك.

فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء؛ منها: نصرة النبي ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست حقوقنا واعتديت علينا وظلمتنا ، وما لنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبي ﷺ. فلما قدم كتابه إلى معاوية دفعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما الرأي؟ فقال: تبعث فتصلبه على بابه ، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم ، فقالوا: تبعث إليه حتى تقدم به هاهنا وتقفه لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه ، ثم تصلبه. فقال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا ، فكتب إليه: قد فهمت كتابك ، وما ذكرت النبي ﷺ ، وقد علمت أنها كانت ضجرة لشغلي وما كنت فيه من الفتنة التي شهرت فيها نفسك ، فأنظرني ثلاثاً. فقدم كتابه على ثابت فقرأه على قومه ، وصبّحهم العطاء في اليوم الرابع^(١).

فهذا الخبر فيه موقف كبير لأمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه في الحكمة والسياسة ، فهو بعد أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعجبه رأيهم ولم يوافقهم على أخذ الناس بالشدة والعنف والجبروت ، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار رضي الله عنهم ، ولم يؤاخذ ثابت بن قيس رضي الله عنه على شدة اللهجة في كتابه إليه ، وبهذا التصرف الحكيم والسياسة الرشيدة لم يخسر شيئاً بل كسب رضا الأنصار عنه ورضاً غيرهم ممن يطلع على خبره معهم ، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار ، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم في الإسلام^(٢).

جـ- الأحنف بن قيس - رحمه الله -:

ذكر ابن خلكان في ترجمته: ثم إن عبيد الله - يعني ابن زياد أمير العراق - جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف ، وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية ، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق ، فقال: أدخلهم عليّ أولاً فأؤل على قدر مراتبهم عندك ، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية ، وآخر من دخل الأحنف ، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إليّ يا أبا بحر ، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبه ، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحدثه ، وأعرض عن بقية الجماعة.

(١) تاريخ بغداد (١/١٧٦).

(٢) التاريخ الإسلامي (١٧/٥٣٧).

قال: ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر في عبيد الله والثناء عليه ، والأحنف ساكت ، فقال له معاوية: لِمَ لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم ، فقال له معاوية: اشهدوا عليّ أنني قد عزلت عبيد الله عنكم ، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليّ بعد ثلاثة أيام .

قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم ، وفيهم من عيّن غيره ، وسعوا في السّر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك ، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية ، والأحنف معهم ، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول ، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة ، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصاً ، وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال ، والأحنف ساكت ، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء ، فقال له معاوية: لِمَ لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن وليت أحداً من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدّه ، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك ، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الثناء على عبيد الله ، من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم . قال: فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا عليّ أني قد أعدت عبيد الله إلى ولايته ، فكل منهم ندم على عدم تعيينه ، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه ، بل كما جرت العادة في حق المتولي .

قال: فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل - يعني: الأحنف - فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية ، وهو ساكت ، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم ، فمثل الأحنف من يتخذ الإنسان عوناً وذخراً .

قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره^(١) .

وفي هذا الخبر موقف لمعاوية رضي الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس رحمه الله وأدرك رفعة منزلته ، فرفعه وأداناه منه ، وأظهر له كثيراً من الاهتمام والاحترام ، وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل؛ فهو يعتبر من السياسة الجيدة في احتواء أهل القوة والتأثير على الناس^(٢) واستيعابهم .

ومن القصص التي حدثت بين معاوية والأحنف والتي تدل على سعة صدر معاوية ومعرفته بعواقب الأمور: فعندما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة؟ فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٥٠٣ ، ٥٠٤) .

(٢) التاريخ الإسلامي (١٧/ ٢٤) .

القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها ، وإن تدن من الحرب فترا ندن منه شبراً ، وإن تمش إليها نهول إليها ، ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟ قال : هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مئة ألف من تميم لا يدرون فيم غضب^(١) .

د- أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه :

ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب : وجاء بالسند ، فقال : من جامع معمر رواية عبد الرزاق^(٢) قال : حدثنا معمر ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل : أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري ، فقال له معاوية : يا أبا قتادة ، لم يكن معنا دواب ، قال معاوية : فأين التواضع؟ قال أبو قتادة : عقراها في طلبك ، وطلب أبيك يوم بدر ، قال : نعم يا أبا قتادة . قال أبو قتادة : إن رسول الله ﷺ قال لنا : إننا سنرى بعده أثرة ، قال معاوية : فما أمركم به عند ذلك؟ قال : أمرنا بالصبر ، قال : فاصبروا حتى تلقوه^(٣) .

هـ - تواضعه وورعه :

ومن صفات معاوية رضي الله عنه التي اشتهر بها : صفة التواضع ؛ فقد كان في خطبه العامة يعترف بأن في الناس من هو خير منه وأفضل ، وكان ذلك بعد أن تولى أمر المسلمين ، واجتمع عليه الناس ، فأصبح الأمير الذي لا ينازع ، خطب مرة فقال : أيها الناس ! ما أنا بخيركم ، وإن منكم لمن هو خير مني . عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما من الأفاضل ، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولأية ، وأنكاكم في عدوكم ، وأدرككم حلباً^(٤) .

وروى الإمام أحمد بسنده إلى علي بن أبي حملة ، عن أبيه ، قال : رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه قميص مرقوع^(٥) . وعن يونس بن ميسر الحميري قال : رأيت معاوية في سوق دمشق ، وهو مردف وراءه وصيفاً ، وعليه قميص الجيب ، يسير في أسواق دمشق^(٦) .

(١) وفيات الأعيان (٢/ ١٨٦) .

(٢) مصنف عبد الرزاق ، رقم (١٩٩٠٩) ، وهو مرسل ، فإن عبد الله بن محمد بن عقيل لم يدرك معاوية وأبا قتادة ، وابن عقيل ليس بذلك ، وأما إخبار النبي ﷺ للأنصار بأنهم سيرون بعده أثرة ، وأمره لهم بالصبر حتى يأتوه ؛ فثبت من حديث أسيد بن حضير عند البخاري ، رقم (٣٧٩٢) ؛ ومسلم ، رقم (١٨٤٥) . الاستيعاب ، (ص ٦٧٠) .

(٣) الاستيعاب ، (ص ٦٧٠) ، رقم الترجمة (٢٣٤٦) .

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٦) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٢) ؛ الزهد ، (ص ١٧٢) .

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٢) ؛ من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية ، (ص ١٢٩) .

وبلغ من ورعه أنه لما رأى إحدى جواريه ، ونظر إليها بشهوة ، ولكنه شعر بعجزه عن وطئها ، قال لمن أحضرها إليه : اذهب بها إلى يزيد بن معاوية ، ثم قال : لا ؛ ادع لي ربيعة بن عمرو الجرشي - وكان ربيعة فقيهاً - فلما دخل عليه قال : إن هذه أتيت بها مجردة ، وقد رأيت منها ذلك وذلك ، وإني أردت أن أبعث بها إلى يزيد . فقال ربيعة : لا تفعل يا أمير المؤمنين ! فإنها لا تصلح له ، فقال معاوية : نعم ما رأيت ، ثم وهب معاوية الجارية لعبد الله بن مسعدة الفزاري ، مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وكان أسود ، فقال له : بيض بها ولدك^(١) . ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله : وهذا من فقه معاوية وتحريه ، حيث كان نظر إليها بشهوة ، ولكن استعفف نفسه عنها ، فخرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِمَّنْ نَزَّلَ إِلَيْكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٢٢] ، وقد وافقه على ذلك ربيعة بن عمرو الجرشي الدمشقي^(٢) .

٦ - بكاؤه من خشية الله :

روي في مجلس معاوية رضي الله عنه حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، في أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة من أمة محمد : القارئ المرائي ، والمنفق المرائي ، والمجاهد المرائي ، وبين رسول الله ﷺ ذلك حيث قال : «إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم ، وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل يقتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما علمت؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت . ويقول الله : بل أردت أن يقال : إن فلاناً قارئاً ! فقد قيل ذلك ، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال : بلى يا رب . قال : فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت . ويقول الله تعالى : بل أردت أن يقال : فلان جواد ، فقد قيل ذلك ، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله ، فيقول الله له : فيماذا قتلت؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت . فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذاك» ، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : «يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة» .

فعندما سمع معاوية هذا الحديث ؛ قال : قد فعل بهؤلاء هذا ؛ فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظن من حوله أنه هالك ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه ، وقال :

(١) البداية والنهاية (١١/٣٩٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

صدق الله ورسوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [١٥] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ [هود: ١٥-١٦].^(١)

هذه أهم صفات معاوية التي خرجت لي عند البحث في سيرته .

ثالثاً: ثناء العلماء على معاوية ، ودخول دولة بني أمية في خير القرون :

١- عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية؟!^(٢) وقال أبو محمد الأموي: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية في موكب يتلقاه ، وراح إليه في موكب ، فقال له عمر: يا معاوية ، تروح في موكب وتغدو في مثله ، وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك؟! قال: يا أمير المؤمنين ! إن العدو بها قريب منا ، ولهم عيون وجواسيس ، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً ، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب ، أو خدعة رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين ، مرني بما شئت أصر إليه؛ قال: ويحك ! ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري أمرك أم أنهاك^(٣) .

٢- علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا تكرهوا إمارة معاوية؛ فوالله لئن فقدتموه لترون رؤوساً تندر عن كواهلها كأنها الحنظل^(٤) . فهذا توجيه من أمير المؤمنين علي لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية .

٣- عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

قال: ما رأيت أحداً أسود من معاوية ، قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيراً منه ، وكان معاوية أسود^(٥) منه . وفي رواية: ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية . قيل: ولا أبا بكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيراً منه ، وهو أسود منهم^(٦) .

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٣) والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني (١٧١٣) .

(٢) المعجم الكبير (٥/ ٣٣٠)؛ مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٨٣) .

(٣) أنساب الأشراف (٤/ ١٤٧)؛ الاستيعاب ، رقم الترجمة (٢٣٤٦)؛ مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٨٤) .

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه (١١/ ٤٣٨) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

٤- عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

قال : ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية^(١) . وفي صحيح البخاري : أنه قيل لابن عباس : هل لك في أمير المؤمنين معاوية ؛ فإنه ما أوتر إلا بواحدة ؟ قال : إنه فقيه^(٢) ، وذكر ابن عباس معاوية فقال : لله درُّ ابن هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته ، والله ما شتمنا على منبر قط ، ولا بالأرض ، ضناً منه بأحسابنا وحسبه^(٣) . وحين عزى معاوية عبد الله بن عباس في الحسن بن علي بقوله : لا يخزيك الله ولا يسوءك في الحسن ، فقال له ابن عباس : أما ما أبقي الله لي أمير المؤمنين ، فلن يسوءني الله ولن يخزيني^(٤) .

٥- سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب ، يعني : معاوية^(٥) .

٦- أبو هريرة رضي الله عنه :

كان يمشي في سوق المدينة وهو يقول : ويحكم تمسكوا بصدغي معاوية ، اللهم لا تدركني إمارة الصبيان^(٦) .

٧- أبو الدرداء رضي الله عنه :

ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا - يعني معاوية^(٧) - قال ابن تيمية بعد أن أورد أثر ابن عباس السابق ، وأثر أبي الدرداء هذا : فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه ؛ والشهادة بالفقه ابن عباس ، وبحسن الصلاة أبو الدرداء ؛ وهما هما ، والآثار الموافقة لهذا كثيرة^(٨) .

(١) المصدر السابق نفسه (٤٣٩/١١) .

(٢) البخاري ، رقم (٣٧٦٥) .

(٣) تاريخ دمشق (١٢٨/٦٢ ، ١٢٩) .

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٦٧/٢٥ ، ٦٨) .

(٥) سير أعلام النبلاء (١٥٠/٣) .

(٦) مختصر تاريخ دمشق (٧٩/٢٥) ؛ أثر العلماء ، (ص ٨٤) .

(٧) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٣٥٧/٩) ، رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح غير قيس بن الحارث المدحجي .

(٨) منهاج السنة (٢٣٥/٦) .

٨- سعيد بن المسيب رحمه الله :

قال ابن وهب: عن مالك ، عن الزهري ، قال: سألت سعيد بن المسيب عن أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال لي: اسمع يا زهري ، من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وشهد للعشرة بالجنة ، وترحم على معاوية ؛ كان حقيقاً على الله أن لا يناقشه الحساب^(١).

٩- عبد الله بن المبارك رحمه الله :

قال: معاوية عندنا محنة ، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً ، اتهمناه على القوم ، يعني: الصحابة^(٢). وسئل ابن المبارك عن معاوية ، فقال: ما أقول في رجل قال رسول الله ﷺ: «سمع الله لمن حمده». فقال خلفه: ربنا ولك الحمد؟! فقل: أيُّهما أفضل: هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبد العزيز^(٣).

١٠- عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

قال ابن المبارك: عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة ، قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية ، فإنه ضربه أسواطاً^(٤).

١١- وقال محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي وغيره :

سئل المعافى بن عمران: أيُّهما أفضل: معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين ، معاوية صاحبه وصهره ، وكاتبه ، وأمينه على وحي الله^(٥).

١٢- أحمد بن حنبل رحمه الله :

سئل الإمام أحمد: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول: إن معاوية كاتب الوحي ، ولا أقول: إنه خال المؤمنين؛ فإنه أخذها بالسيف غضباً؟ قال أبو عبد الله: هذا قول سوء رديء ، بجانب هؤلاء القوم ، ولا يجالسون ، ونبين أمرهم للناس^(٦).

(١) البداية والنهاية (١١/٤٤٩).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه (١١/٤٥١).

(٥) المصدر السابق نفسه (١١/٤٥٠).

(٦) السنة (٢/٤٣٤) إسناده صحيح.

١٣- الربيع بن نافع الحلبي رحمه الله :

قال : معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ ، فإذا كشف الرجل الستر ، اجتراً على ما وراءه^(١) .

١٤- قال ابن أبي العز الحنفي :

وأول ملوك المسلمين : معاوية ، وهو خير ملوك المسلمين^(٢) .

١٥- القاضي ابن العربي المالكي رحمه الله :

تحدث ابن العربي عن الخصال التي اجتمعت في معاوية رضي الله عنه ، فذكر منها : . . . قيامه بحماية البيضة ، وسد الثغور ، وإصلاح الجند ، والظهور على العدو ، وسياسة الخلق^(٣) ، وقال في موضع آخر من كتابه العواصم من القواصم : فعمر ولده ، وجمع له الشّامات كلها ، وأقرّه عثمان ، بل إنّما ولده أبو بكر الصّديق ، لأنّه ولي أخاه يزيد ، واستخلفه يزيد ، فأقرّه عمر ، فتعلّق عثمان بعمر وأقرّه ، فانظر إلى هذه السّلسلة ما أوثق عُراها^(٤) ! وثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه . . . ، ثمّ صالحه وأقرّه له بالخلافة الحسن بن عليّ سبط رسول الله ﷺ^(٥) .

١٦- يقول ابن تيمية رحمه الله :

واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة ، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك ، كان ملكه ملكاً ورحمة^(٦) ، وقال : فلم يكن من ملوك المسلمين خيراً منهم في زمان معاوية^(٧) إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده ، أما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل ، وذكر ابن تيمية قول الأعمش عندما ذكر عنده عمر بن عبد العزيز ، فقال : فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا : في حلمه ، قال : لا والله في عدله .

١٧- وقال الذهبي رحمه الله :

أمير المؤمنين ، ملك الإسلام^(٨) . وقال : ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٠) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، (ص ٧٢٢) .

(٣) العواصم من القواصم ، (ص ٢١٠ ، ٢١١) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ٨٢) .

(٥) عثمان بن عفان ، للصلابي ، (ص ٣٠٠)؛ المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦) .

(٦) الفتاوى (٤/ ٤٧٨) .

(٧) منهاج السنة (٦/ ٢٣٢ ، ٣/ ١٨٥) .

(٨) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠) .

ومعاوية لم يطلب الملك ولا أبهته للاستكثار في الدنيا ، وإنما ساقه أمر العصبية بطابعها لما استولى المسلمون على الدولة كلها ، وكان هو خليفتهم ، فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستفحل العصبية وتدعو لطبيعة الملك ، وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده ، إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه ، والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار ، لا الواهي ، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي ﷺ في المسلمين ، ومن خرجت أفعاله من ذلك فهو من ملوك الدنيا ، وإن سمي خليفة بالمجاز .

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة أنهم كانوا أهل نسب واحد ، وعظيمهم معاوية ، فجعل مع أهل نسبه ، والخلفاء الأولون مختلفون الأنساب ، فجعلوا في نمط واحد ، وألحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريباً في الفضل^(١) .

وكلام ابن خلدون ليس على إطلاقه ، وفيه نوع من المبالغة ؛ فهذه بعض أقوال علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم في الثناء على معاوية رضي الله عنه ؛ فهو من ملوك المسلمين ومن خيارهم الذين غلب عدلهم ظلّمهم ، وما هو بربيء من الهنات ، والله يعفو عنه ، وهو على دين كما قال عن نفسه: يقبل الله فيه العمل ويجزي فيه بالحسنات ، ويجزي فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء .

ولقد تعرّض معاوية رضي الله عنه ودولته ودولة بني أمية عموماً لسهام بعض الكتاب ، وزعم بعضهم أنها دولة مدنية ، وقال بعضهم: إنها كانت دولة عربية ولم تكن دولة إسلامية ؛ بل قال بعضهم: إنها دولة علمانية لا صلة لها بالدين ، ولا بالأخلاق ، وهذه فرية تكذبها حقائق الدين وشواهد التاريخ ، أما حقائق الدين ، فقد بدأت دولة بني أمية سنة ٤٠ هـ من الهجرة ، واستمرت إلى سنة ١٣٢ هـ . فقد شملت القرون الثلاثة التي هي خير قرون الأمة: قرن الصحابة ، وقرن التابعين ، وقرن أتباع التابعين^(٢) ، وهي التي جاءت بها الأحاديث الصحاح المستفيضة عن رسول الله ﷺ : مثل حديث ابن مسعود: «خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»^(٣) ، ومثله حديث عمران بن حصين: «خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» قال عمران: لا أدري أذكر النبي بعد قرنين أو ثلاثة^(٤) ، وكذلك حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً قال: «يأتي زمان يغزو فئام من الناس فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي

(١) تاريخ ابن خلدون ، (ص ٥٢٨ ، ٥٢٩) .

(٢) تاريخنا المفترى عليه ، يوسف القرضاوي ، (ص ٦٢) .

(٣) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، رقم (١٦٤٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، رقم (١٦٤٦) .

ﷺ؟ فيقال: نعم ، فيفتح . ثم يأتي زمان ، فيقال: فيكم من صحب من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم ، فيفتح^(١).

ومعنى قوله: «قُرْني» أي: أهل عصري . وهم الصحابة ، ثم قرن التابعين ، ثم قرن الأتباع ، وبعض الشراح حددوا القرن بزمان ، فقال بعضهم: القرن أربعون سنة ، وبعضهم قال: ثمانون سنة . وبعضهم جعله مئة سنة ، وهو الذي اشتهر في الاستعمال الآن ، وأمسى حقيقة عرفية . وتكون القرون المفضلة والموصوفة بالخيرية على هذا: ثلاثمئة سنة . وهذا غير منسجم مع منطق الواقع التاريخي ، فالراجح تفسيره بما ذكرنا ، من عصر الصحابة ، وعصر التابعين ، وعصر الأتباع^(٢).

ومن الأحاديث الصحيحة التي يستدل بها على منزلة الدولة الأموية من الإسلام: ما رواه البخاري في صحيحه عن خالد بن مهران: أن عمير بن الأسود العنسي حدثه: أنه أتى عبادة بن الصامت ، وهو نازل في ساحة حمص ، وهو في بناء له ، ومعه أم حرام (زوجه) قال عمر: حدثتنا أم حرام: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا» . (أي: فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة) قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله ، أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم» . ثم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا»^(٣) ، ومدينة قيصر هي القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية^(٤).

قال الشراح: في هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر ، وذلك في خلافة عثمان؛ ما زال معاوية يغريه بالغزو في البحر ، حتى استجاب له ، وبدأ الأسطول الإسلامي منذ عهد عثمان ، ثم اتسع وازداد في عهد معاوية^(٥) ، وفي هذه الغزوة مات أبو أيوب الأنصاري وكان في هذا الجيش رضي الله عنه ، فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية ، والذي يهمناهو أن هذا الجيش المغفور له بالجملة ، كان في عهد بني أمية؛ إذ كانت هذه الغزوة سنة اثنتين وخمسين من الهجرة النبوية ، أي: في عهد معاوية .

ومن نظر في سيرة معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة ، وبعد تنازل الحسن السبط رضي الله عنه له ، وتأمل هذه السيرة بإنصاف: وجد الرجل حريصاً على إقامة الإسلام في شعائره وشرائعه ، وعلى اتباع السنة النبوية في مجالات الحياة المختلفة .

(١) المصدر السابق نفسه ، رقم (١٦٤٧) .

(٢) تاريخنا المفترى عليه ، يوسف القرضاوي ، (ص ٦٣) .

(٣) البخاري ، رقم (٢٩٢٤) .

(٤) تاريخنا المفترى عليه ، يوسف القرضاوي ، (ص ٦٣) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

المبحث الثاني

العلاقة بين الأمة ومعاوية كرئيس للدولة الإسلامية

للخليفة كما للأمة حقوق ، كما أن على كل منهما واجبات مطالب بها محاسب عليها ، وإليك شيئاً من الإيضاح :
أولاً : واجبات الخليفة :

بيّن الفقهاء الواجبات الملقة على عاتق رئيس الدولة ، وحدودها التحديد الذي يوضح مدى ما هو موكول إليه من المهام ، ومهما اختلفت أساليب العلماء في التعبير عن هذه الواجبات وتعدادها ، فإنه يمكن القول بأن هذه الواجبات في حقيقتها لا تتعدى المحافظة التامة على المصالح الدينية والدنيوية ، وإليك هذه الواجبات :

١ - العمل بشتى الوسائل على أن يكون الدين مصوناً عن كل ما يسيء إليه ، سواء في هذا ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية ، أو ما يتعلق بغيرها ، وهذا الواجب ما عبّر عنه الماوردي قائلاً : حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة ؛ فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة ، وبيّن له الصواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكن الدين محروساً من خلل ، والأمة ممنوعة من زلل^(١) .

٢ - نصب القضاة ليحكموا بين الناس بشريعة الله ، حتى لا يكون هناك معتد لا يخاف جزاء ، ولا مظلوم لا يستطيع وصولاً إلى حق كفه الشارع له^(٢) ، وسوف نتعرف على مؤسسة القضاء في عهد الدولة الأموية في هذا الكتاب .

٣ - توفير الأمن لكل آحاد الأمة ، حتى يستطيع كل فرد أن ينصرف إلى سبيل عيشه آمناً على نفسه وأهله وماله .

(١) الأحكام السلطانية ، (ص ١٥) .

(٢) رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي ، (ص ٣٥٦) .

٤ - إقامة الحدود التي بيّنها الله سبحانه على مقترفي كل جريمة تستأهل حدّاً ، لا يفرق في ذلك بين شريف وحقير حتى تصان محارم الله من الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده عن إتلاف واستهلاك كما هو تعبير الماوردي^(١).

٥ - إحاطة ثغور البلاد بسياج منيع من القوة ، حتى لا يجد أعداء الإسلام ثغرة يتسللون منها إلى ضرب الأمة على حين غفلة ، فيجب على رئيس الدولة أن يعمل على استكمال كل الوسائل التي تكفل للأمة الحماية التامة من شرور الأعداء.

٦ - جهاد أعداء الإسلام الذين عاندوا دعوتهم إليه ، حتى يدخلوا في الإسلام ، أو يدخلوا في الذمة.

٧ - جباية الأموال المستحقة ، سواء أكانت هذه الأموال صدقات أم فيئاً ، وإخضاع ذلك إلى القواعد التي أوجبها الشارع نصّاً واجتهاداً من غير زيادة أو نقصان في الجباية ، إذ إن الزيادة تفضي إلى خسران من تجب عليهم الزكوات ، والنقصان مفضٍ إلى تضيق مجال الصرف على الفقراء والمساكين والعاملين ونحوهم.

٨ - تقدير الحقوق والرواتب المستحقة في بيت مال المسلمين ، كإعانات الاجتماعية للأسر المحتاجة ، ورواتب الجند والموظفين ، والعمل على إرساء قواعد تكون ضابطة لكل ما يتصل بهذا الواجب.

٩ - اختيار الأكفاء الذين يثق في قدرتهم ودينهم وصلاحهم للمناصب القيادية التي توكل إليهم ، حتى يسير دولا ب الأعمال بيد الأمناء الذين يخافون الله ولا يثبتون على حقوق الناس.

١٠ - الإشراف بنفسه على ما هو متصل بما يجب عليه نحو الأمة ، ولا يترك الأمور تسير بدون إشراف مباشر منه ، إذ إن كل تقصير من أي من عماله الذين وكل إليهم بعض الأمور ، منسوب إليه متحمل خطأه ، محاسب عليه أمام الله إن قصر في المتابعة ، فإن الإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته كما بين ذلك رسول الله ﷺ .

١١ - الشورى ، لأنها من سمات الحكم الإسلامي^(٢).

وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف تعامل معاوية رضي الله عنه والخلفاء الأمويون من بعده مع هذه الواجبات ، ولا نريد أن نستعجل الأحداث ، وسنتقف مع كل واجب من هذه الواجبات في موقفه ، ونرى قرب الخلفاء الأمويين وبعدهم من تطبيق هذه الواجبات.

(١) الأحكام السلطانية، (ص ١٦)؛ رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي، (ص ٣٥٧).

(٢) الدولة في الفقه الإسلامي، (ص ٣٥٨).

ثانياً: حقوق الخليفة:

إن الخليفة له حقوقٌ على الأمة من شأنها أن تعينه على القيام بما هو موكول إليه من المهام ، وقد بين علماء الإسلام هذه الحقوق ؛ وأهمها :

١ - طاعته والانقياد له في كل ما أمر به ونهى عنه ما دامت هذه الأوامر والنواهي في المعروف ، ولم تتعارض مع الأحكام التي بينها شريعة الإسلام ، فما دام الخليفة أو رئيس الدولة قد التزم في أوامره ونواهيه جانب الشرع ؛ فلم يحد في ذلك عن الحدود التي رسمتها له الشريعة ، فله حق ولاء المواطنين جميعاً ، سواء في ذلك أهل الحل والعقد الذين بايعوه رئيساً للأمة ، وسائر المواطنين الذين يلزمهم الانقياد له بمجرد تمام هذه البيعة .

٢ - القيام بنصرته إذا احتاج الأمر إلى ذلك ، فما دام يسير في حكمه على طريق الحق فقد وجب على سائر الأمة نصرته على البغاة وكل من رفع عليه السلاح ، . . . لأن نصرة الإمام الحق في الواقع ما هي إلا نصرة للمسلمين ، وتأيداً له في العمل على أن يكون الدين قائماً ، وكفاً للمعتدين عن كل ما يمكن أن يصدر عنهم من جرائم .

٣ - جعل راتب له مع مخصصات له ، تكفيه ومن يعوله ، فإن رئيس الدولة سيشغل نفسه بواجبات الرياسة التي ستستحوذ على وقته ، مما لا يترك له فرصة السعي في اكتساب رزقه ، فيجب أن يجعل له راتب يغنيه ويليق بهذا المنصب ؛ بحيث لا يكون فيه تقتير ولا إسراف لأن رواتب الولاة والقضاة من أموال المسلمين التي يحتاط في وجوه صرفها .

٤ - إخباره بأحوال من ولاهم المناصب العامة ؛ كالولاة والقضاة إذا انحرفوا عن الطريق الذين كلفوا بسلوكه ، وذلك لأن الإمام مكلف شرعاً بمتابعة أعمال هؤلاء لإصلاح ما اعوجَّ من أفعالهم ، وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه من وجوه المصلحة ، وهو محاسب أمام الله على ما ارتكبه هؤلاء من أخطاء في حق الله والأمة إذا هو قصّر في منع ذلك ، ولا طاقة له على متابعة أعمالهم ومراقبة سيرهم إلا إذا عاونته الأمة في ذلك .

٥ - تقديم كافة المساعدات إليه إن احتاج إلى ذلك في أداء ما تحمله من أعباء مصالح الأمة لقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ وولاة الأمور أحق من أعين على ذلك ^(١) .

والأمة في عمومها لم تبخل على أمير المؤمنين معاوية بحقوقه وعلى الخلفاء الذين جاؤوا من بعده ، ولم يخل الأمر من ثورات ضد الخلفاء سنيينها في موضعها بإذن الله تعالى .

ثالثاً: عاصمة الدولة الأموية ، وأحاديث الرسول ﷺ في فضائل الشام :

كانت الشام إحدى الولايات الهامة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية البيزنطية ، بل كانت

(١) رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي ، (ص ٣٧٠ إلى ٣٧٤) .

لقربها من بيت المقدس ، وتاريخها القديم ، إحدى المراكز الحضارية في هذه الإمبراطورية ، وكان العرب قبل الإسلام ينظرون إليها نظرة كبيرة ، لما تحتويه من حضارة ، فضلاً عما بها من خيرات وخضرة وأسواق ، وتعتبر مدينة دمشق المدينة الأولى في بلاد الشام ، فهي قاعدتها ومدينتها العظمى ، ولعبت دوراً كبيراً في تاريخ المنطقة ، لذلك اتخذها الحاكم الروماني قاعدة حكمه .

ولما دخل الإسلام الشام ودمشق خاصة ، حافظ عليها ، واحتفظ الولاة لها بميزاتهما ، وظل معاوية الوالي يعتني بها طوال فترة ولايته عليها ، وأقام علاقات وطيدة مع سكانها^(١) ، وعرف أهمية القبائل اليمنية في دمشق والشام ، فتزوج من إحداها وهي بني كلب؛ وأنجب من زوجته الكلبي ابنه يزيد ، فضمن ولاءهم له ولأبنائه من بعده ، لأن الخوالة من أبرز ما تتحزب له القبائل العربية ، هذا فضلاً عن أن التصاهر عند العرب بمثابة التحالف السياسي^(٢) ، وقد كان معاوية ذكياً في اعتماده على القبائل اليمنية بدمشق والشام^(٣) .

ولما قامت الدولة الأموية ، رأى معاوية أن الدولة الإسلامية توسعت وامتدت شرقاً وغرباً؛ فلم يجد أفضل من دمشق عاصمة للخلافة الأموية ، وذلك لأنها تقع بين جزأي العالم الإسلامي؛ الجزء الشرقي الذي يشمل العراق وفارس ، والجزء الغربي الذي يشمل مصر والمغرب ، فضلاً عن أن القبائل التي ارتبطت به أيدته ودعمت موقفه وصارت يده الطولى في تدعيم حكمه ، أي أنها كانت القوة العسكرية والسياسية التي استند عليها الحكم والدولة الأموية ، كما قدم له سكان البلد ما يمكن أن يقدموه من خبرة وعمل إداري^(٤) ، فقد وجد معاوية في دمشق تقاليد عريقة في الحكم والإدارة ، كما وجد جهازاً إدارياً متمرساً ساعده على تأسيس مهمته في فترة التأسيس هذه التي لا تحتاج الإرادة الطيبة فحسب ، بل الخبرة والمران اللذين وفرهما له جهاز الموظفين الذين كانوا يعملون في ظل الإدارة البيزنطية في الميدانين الإداري والمالي .

كما أنه لا بد لنا أن نلاحظ أن حظ الشام من الحضارة كان أوفر من حظ الأمصار الأخرى ، فالقبائل العربية التي هاجرت إليها واستقرت فيها قبل الفتح كانت قد اعتادت فكرة الحكم المركزي وفكرة الدولة عموماً ، على عكس عرب العراق مثلاً الذين لم يتقبلوا هذه الفكرة بسهولة ، وينطبق هذا على من سكن العراق منهم قبل الفتح وبعده ، فالذين سكنوا العراق قبل

(١) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية ، (ص ١٣٥ ، ١٣٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) الدولة الإسلامية في العصر العباسي ، (ص ٤٢) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

الفتح كانوا في خصومة وصراع دائمين مع الحكم الفارسي^(١) ، وسكان بلاد الشام كانوا قد اعتادوا الخضوع والتعايش مع البيزنطيين ، كما أن العرب الذين هاجروا إلى الشام بعد الفتح لم يعيشوا في معسكرات مستقلة ، كما كانت الحال في العراق (البصرة والكوفة) ، بل عاشوا جنباً إلى جنب مع السكان المحليين والقبائل التي كانت تقطن الشام قبلاً ، وقد ساعد هذا الاختلاط على كسر حدة التمرد القبلي^(٢) .

وقد ساعد على تحقيق انتصارات معاوية في الخارج الجيش الشامي الذي جمعه ونظمه ودربه منذ أن كان والياً ، والذي أغدق عليه العطاء ، ولم يبخل عليه بكل ما يوفر له سبل الرضا والإخلاص بعد أن غدا خليفة ، وتعددت لقاءاته في البر والبحر مع الإمبراطورية البيزنطية ، وقد ساعدت هذه اللقاءات المستمرة على إعطاء جيش الشام فرصاً كثيرة للتدريب العملي ، وقدمت له الخبرة اللازمة^(٣) كما كان لأحاديث رسول الله ﷺ أثرها في هجرة الناس للشام ، واعتزاز أهلها بالإسلام وحرصهم على زعامة العالم الإسلامي ، فالنبي ﷺ ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر ، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر ، فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة^(٤) .

وقد كان معاوية يحتج لأهل الشام بحديث رسول الله ﷺ ؛ حيث قال : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم ، حتى تقوم الساعة »^(٥) ، فقام ملك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذاً يقول : « وهم بالشام » ، فقال معاوية : وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذاً يقول : وهم^(٦) بالشام . وما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين »^(٧) ، قال الإمام أحمد : وأهل الغرب هم أهل الشام^(٨) . وذلك أن النبي ﷺ كان مقيماً بالمدينة فما يغرب عنها فهو غربه ، وما يشرق عنها فهو شرقه^(٩) . . . فقد أخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب ؛ وهو الشام

(١) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية ، (ص ١٣٦) .

(٢) تاريخ خلافة بني أمية ، نبيه عال ، (ص ٦٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه ؛ الجذور التاريخية للأسرة الأموية ، د . إحسان صدقي العمدة ، (ص ٩٤) .

(٤) رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية ، (ص ١٣٦) .

(٥) البخاري ، رقم (٧٣١١) ؛ مسلم ، رقم (١٩٢٠ ، ١٩٢١) .

(٦) الفتاوى (٤/ ٢٧٣) ؛ مالك بن يخامر ذكره ابن حبان في الثقات . تهذيب التهذيب (١/ ٢٣ ، ٢٥) .

(٧) مسلم ، في الإمارة .

(٨) الفتاوى (٤/ ٢٧٣) .

(٩) المصدر السابق نفسه .

وما يغرب عنها... وكان أهل المدينة يُسمُّون أهل الشام ، أهل المغرب ، ويقولون عن الأوزاعي: إنه إمام أهل المغرب^(١) ، فإذا دلت النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التي لا يضرها خلاف المخالف ، ولا خذلان الخاذل هي بالشام ، فهذا لا يعارض قوله ﷺ: «تقتل عماراً الفتنه الباغية»^(٢) ، وقوله ﷺ في الخوارج: «تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»^(٣).

ولا ريب أن هذه النصوص لا بد من الجمع بينها ، فيقال: أما قوله ﷺ: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين»^(٤) ، ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم ، فهذا وقع وهذا هو الأمر؛ فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين^(٥) ، وأما قوله عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله»^(٦) ، والذي هو ظاهر ، فلا يقتضي ألا يكون فيهم من فيه بغى ومن غيره أولى بالحق منهم ، بل فيهم هذا وهذا^(٧). وأما قوله: «تقتلهم أولى الطائفتين بالحق» فهذا دليل على أن علياً ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى ، وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحاً في بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائماً بأمر الله ، وأن يكون ظاهراً بالقيام بأمر الله عن طاعة الله ورسوله ، وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه ، وأما كون بعضهم باغياً في بعض الأوقات ، مع كون بغيه خطأ مغفوراً له ، أو ذنباً مغفوراً ، فهذا أيضاً لا يمنع ما شهدت به النصوص ؛ وذلك أن النبي ﷺ أخبر عن جملة أهل الشام وعظمتهم ، ولا ريب أن جملتهم كانوا أرجح في عموم الأحوال^(٨).

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفضلهم في مدة خلافته على أهل العراق ، حتى قدم الشام غير مرة وامتنع من الذهاب إلى العراق ، واستشار فأشار عليه أنه لا يذهب إليها ، وكذلك حين وفاته أدخل عليه أهل المدينة أولاً وهم كانوا إذ ذاك أفضل الأمة ، ثم أدخل عليه أهل الشام ، ثم أدخل عليه أهل العراق ، وكانوا آخر من دخل عليه^(٩).

وكذلك الصديق كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق حتى قال: لكفر الشام أحب إلى من فتح مدينة العراق^(١٠).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البخاري ، رقم (٤٤٧).

(٣) مسلم ، في الزكاة.

(٤) مسلم ، في الإمارة.

(٥) الفتاوى (٢٧٤/٤).

(٦) البخاري ، رقم (٧٣١١).

(٧) الفتاوى (٢٧٤/٤).

(٨) المصدر السابق نفسه.

(٩) المصدر السابق نفسه (٢٧٥/٤).

(١٠) المصدر السابق نفسه.

والنصوص التي في كتاب الله وسنة رسوله وأصحابه في فضل الشام وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق ، أكثر من أن تذكر هنا ، بل عن النبي ﷺ من النصوص الصحيحة في ذم المشرق وإخباره بأن الفتنة ورأس الكفر منه ما ليس هذا موضعه ، وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين علي ، وذلك كان أمراً عارضاً ، ولهذا لما مات علي رضي الله عنه ظهر منهم من الفتن ، والنفاق ، والردة ، والبدع ، ما يعلم به أن أولئك كانوا أرجح^(١) . وكذلك - أيضاً - لا ريب أن في أعيانهم من العلماء والصالحين من هو أفضل من كثير من أهل الشام ، كما كان علي وابن مسعود ، وعمار وحذيفة ونحوهم ، أفضل من أكثر من بالشام من الصحابة ، لكن مقابلة الجملة وترجيحها لا يمنع اختصاص الطائفة الأخرى بأمر راجح ، وهذا يبين رجحان الطائفة الشامية من بعض الوجوه ، مع أن علياً رضي الله عنه كان أولى بالحق ممن فارقه ، ومع أن عماراً قتلته الفئة الباغية كما جاءت به النصوص ، فعلياً أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ، ونقر بالحق كله ، ولا يكون لنا هوى ، ولا نتكلم بغير علم ، بل نسلك سبل العلم والعدل ، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة ، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض ، فهذا منشأ الفرق والاختلاف^(٢) .

رابعاً: أهل الحل والعقد في عهد معاوية رضي الله عنه :

كان المجتمع الإسلامي في عصر الراشدين يتطور تطوراً سريعاً وخطيراً بشكل يهدد المحافظة على السمات الأساسية لحكمهم ، والتي تظهر في ذلك الحب والانسجام والحرص المتبادل بين الخليفة والرعية ، وخوف الله في معاملة بعضهم لبعض ، وقد تمثل ذلك التطور في تقلص دور أهل الحل والعقد المقيمين في المدينة بوفاة معظمهم أو بترفعهم في الأمصار ، وباكتساب تلك الأمصار مكانة ضخمة تفوق مكانة الحجاز مقر الخلافة نتيجة نمو دور القبائل العربية التي أسلمت متأخراً ، ولكنها حملت على أكتافها عبء الفتوحات الإسلامية الكبرى ، التي أدت إلى إثراء المجتمع الإسلامي بصورة لم يعرفها من قبل ، تغيرت معها بعض النفوس والأخلاق^(٣) ، وبدأت تدريجياً تتغير بعض المفاهيم ، كمفهوم أهل الحل والعقد ، فلم يعودوا هم أهل بدر ، أو جماعة السابقين إلى الإسلام في المدينة ، التي تقلصت أعدادها بمضي الزمن ، وبرز إلى ساحة التأثير والفاعلية زعماء الأمصار ، وزعماء الشام من بينهم .

فحين نحتكم إلى أحداث التاريخ نجدها تؤكد قدرة أهل الأمصار آنذاك على الحسم السياسي ، وعجز أهل المدينة عن ذلك ، ثم تؤكد بعد ذلك تميز أهل الشام بقدر هائل من الطاعة

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) الدولة والمجتمع في العصر الأموي ، (ص ١٢٧) .

والتوحد الاجتماعي والتعود على الخضوع لنظم الدولة ، وأساليب الإدارة وأنماط الحضارة ، وقد مكنتها هذه المؤهلات من فرض اختيارها على العراق وسائر الأمصار الإسلامية حتى بايعت معاوية ، ثم استطاعت الاحتفاظ بهذه القدرات أكثر من تسعين عاماً هي عمر الدولة الأموية . مما يؤكد أن قادتها أصبحوا هم بحكم الواقع السياسي جل أهل الحل والعقد في المجتمع الإسلامي ، والقادرين على اختيار الخليفة ، وإقناع بقية الأمصار بذلك الاختيار - إن سلماً أو عنفاً - في ذلك المجتمع الذي أصبحت تحكمه عصبية مختلفة الرغبات والأهواء والمطامع^(١).

١- رأي الفقهاء في معنى أهل الحل والعقد:

وحين نحتكم إلى أقوال علمائنا في معنى أهل الحل والعقد؛ نجدهم يختلفون إلى عدة أقوال^(٢) ، ويذكرون مصطلحات متعددة؛ منها:

أ- أولو الأمر: وهو مصطلح شرعي جاء بنص القرآن الكريم ، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ، وقد اختلف في المراد بهم على أقوال؛ من أشهرها:

- أنهم الأمراء: ورجحه الإمام الطبري^(٣) ، وقال النووي: هو قول جمهور السلف والخلف^(٤).

- أنهم العلماء: وبه قال بعض السلف؛ منهم: جابر بن عبد الله ، والحسن البصري ، والنخعي وغيرهم .

- أنهم أصحاب محمد ﷺ .

- أنهم أبو بكر وعمر .

- أنها عامة في كل أولي الأمر والعلماء: ومال إليه الإمام ابن كثير^(٥) ، وابن القيم^(٦) ، والشوكاني^(٧) وغيرهم .

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٢٨).

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٥٠٢) ، تحقيق محمود شاكر .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢٢٣).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

(٦) الرسالة النبوية ، (ص ٤١).

(٧) فتح القدير ، للشوكاني (١/ ٤٨١).

- أنهم العلماء والأمراء والزعماء وكل من كان متبوعاً: وهو رأي ابن تيمية^(١) ، ومحمد عبده^(٢) ، وقال: إنهم هم أهل الحل والعقد^(٣) ، ولعل القولين الخامس والسادس هما الأقرب إلى الصواب ، وليس بينهما فرق كبير^(٤) .

ب- العلماء: والمراد بهم علماء الشريعة: وهو لفظ قرآني: قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ، وربما جاء بلفظ: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] . وفي السنة النبوية جاء هذا المصطلح في أحاديث لا تكاد تحصر ، ومن ذلك الحديث المشهور: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يموت العلماء»^(٥) .

ج- أهل الاختيار: وهم الذين يوكل إليهم اختيار الإمام ومبايعته ، وهم أهل الحل والعقد^(٦) ، وهو مصطلح اجتهادي اصطلاح عليه بعض أهل العلم^(٧) .

د- أهل الاجتهاد؛ وهم: العلماء الذين بلغوا درجة الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ، ويكونون مؤهلين للأعمال المهمة: كالإمامة الكبرى ، والقضاء ، والفتوى ونحو ذلك ، وممن أطلق هذا المصطلح: البغدادي^(٨) ، والقرطبي^(٩) .

هـ- أهل الشورى؛ وهم: الذين يستشارون في أمر المسلمين وفق الآية الكريمة ، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] .

و- أهل الشوكة؛ وهم: أصحاب القدرة والسلطان ، لتوافر القدرة والبأس لديهم ، وممن استعمل هذا المصطلح ابن تيمية^(١٠) .

ز- أهل الرأي والتدبير؛ وهم: من يتسمون بالعقل والفكر الناضج مع القدرة على تصريف

(١) الحسبة ، (ص ١٨٥) .

(٢) تفسير المنار (٥/ ١٨١) .

(٣) أهل العقد والحل ، عبد الله الطريقي ، (ص ١٢) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) مسلم ، رقم (١٣) .

(٦) الموسوعة الفقهية ، إصدار وزارة الأوقاف بالكويت (٧/ ١١٥) .

(٧) أهل الحل والعقد ، عبد الله الطريقي ، (ص ١٣) ، وهذا الكتاب فريد في بابه .

(٨) أهل الحل والعقد ، (ص ١٣)؛ أصول الدين ، (ص ٢٧٩) .

(٩) تفسير القرطبي (١/ ٢٦٥) .

(١٠) منهاج السنة (١/ ٥٥٠) .

الأمر وتسييرها ، وممن استعمل هذا المصطلح ابن عابدين^(١) .

فأهل الحل والعقد هم الذين لهم القدرة على عقد نظام جماعة المسلمين في شؤونهم العامة ، والسياسية ، والإدارية ، والتشريعية ، والقضائية ، ونحوها ، ثم حل هذا النظام لأسباب معينة ليعاد ترتيب هذا النظام وعقده من جديد^(٢) .

والذي تحقق في عهد معاوية رضي الله عنه : أن أهل الحل والعقد في دولته كانوا هم الولاة ، وزعماء القبائل ، وقادة الجيوش ونحوهم ، وتركزت الشوكة والقوة الفعلية في أهل الشام ، حيث كانوا قادرين على الاختيار وتحقيق إرادتهم ، وإمضاء رغبتهم على مخالفيهم ، وهذا ما تحقق في ذلك الظرف التاريخي في أهل الشام ، وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافاً ، قلنا : إنه كان يجب أن تتسع دائرة أهل الحل والعقد هذه لتشمل بجانب زعماء الشام بقية زعماء الأمصار الإسلامية في العراق والحجاز ، ومصر وغيرهم ، وأن تضم بجوار أصحاب العصبية القوية ، أصحاب الرأي من علماء الأمة وأهل الديانة فيهم ، وأن يوكل إلى هذه الطائفة منهم اختيار الخليفة أو عزله ، علاوة على الفصل في المسائل المهمة في حياة الأمة . . ولو حدث ذلك في مسيرة الدولة الأموية لتجنب الأمة كثيراً من الاختلاف وإراقة الدماء . . ولكن الذي حدث فعلاً هو انفراد أهل الشام باختيار الخلفاء في العصر الأموي من الأسرة الأموية ذاتها ، وكانت بداية ذلك هي البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد من أبيه ، وبعد خطوط شتى أصبح تسلسل الخلفاء من البيت الأموي أمراً واقعاً ، رضيت بذلك بقية الأمصار أم عارضت^(٣) . وسيأتي الحديث عن ولاية العهد في حينه بإذن الله تعالى .

خامساً: الشورى في عهد معاوية رضي الله عنه :

عندما آلت الخلافة إلى بني أمية ، لم يكن معاوية بن أبي سفيان ممن يجهل فوائد الشورى ويهمل الأخذ بها ، وما كان يصدر في المهمات إلا عن مشورة ، فقد كان يشاور ذوي الرأي من الولاة ووجوه الناس وأشرف القوم وأهل العلم ، وكان ذلك سنة من جاء بعده من الخلفاء من بني أمية .

وكان من كبار مستشاري معاوية رضي الله عنه : عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وكان يستشير الوفود التي كانت تأتيه^(٤) ، وكان الناس يتكلمون بحرية فيعرضون آراءهم ، ويهتـم

(١) حاشية ابن عابدين (٢٦٣/٤) .

(٢) أهل الحل والعقد ، (ص ١٥) .

(٣) الدولة والمجتمع في العصر الأموي ، (ص ١٢٨) .

(٤) في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، (ص ٥٥) .

الخليفة بها كل الاهتمام ، ويناقشهم فيها ، ويحقق ما يمكن تحقيقه منها .

والحكم يعتمد على مستشارين أكفاء وكتاب قادرين ، أطلقت يدهم في العمل ، ومنحهم الخليفة ثقته ، وشدهم بسطوانه ، والحكم لم يكن متمركزاً في شخص الخليفة ، فمملكته واسعة ولا يستطيع أن يضطلع بكل أمر ، وهو يرسل ولاته على الأقطار ويطلق لهم اليد في شؤونها ، وهو لا يولي إلا من يثق به ، ولا يعطي السلطان إلا لمن لا يخشاه^(١) ، وولاته يستشيرهم في حدود معينة .

وأما أمر الخلافة فحصر في بني أمية ، وأصبح أمرها خاصاً بالبيت الأموي ، يفتى فيها بالمجامع الأموية خاصة من دون الناس ، وكان الخلفاء من بني أمية يرجعون في شورى استخلاف السلطان ورد الطامعين به إلى الجماعة الأموية غالباً^(٢) .

ومن هنا يمكن القول بوجود نوعين من الشورى في عهد بني أمية :

أولهما: شورى تتعلق بالأمر والمصالح العامة ، وكان الخلفاء من بني أمية يرجعون فيها إلى ذوي الرأي من أشرف القوم والولاة وغيرهم .

وثانيهما: شورى تتعلق بالسلطان خاصة ، وكان الخلفاء من بني أمية يفزعون فيها إلى آل بيتهم ويقضون فيها بينهم^(٣) .

وقيادة معاوية للدولة لم تكن فردية خالصة ، فاللامركزية في الحكم والإدارة في الأغلب ، ومشاركة الرجال من أهل الرأي والخبرة في حمل المسؤولية والقيام بأعباء الدولة في السلم والحرب ، وفي المركز والولايات ، ووجود الإسلام في حياة الفرد والمجتمع والدولة سلوكاً ونظام حكم منذ عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ، تقلل من مظهر القيادة الفردية ومساوئها ، وتعزز مظهر الشورى وغلبة الاتجاه العام الثابت في السياسة والقيادة والإدارة وتصريف الأمور ورعاية المصالح^(٤) .

كما أن تحول الخلافة الراشدة إلى ملك وراثي لم يكن يعني تحولاً كاملاً عن شورى الراشدين أو ارتداداً عن أوامر الإسلام ومنهجه في الحكم ، وقد كان لذلك ما يبرره من تطور اجتماعي وسياسي ، ولقد بقيت - في عهد معاوية - والعصر الأموي - كما يقرر ابن خلدون - : معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه ، والجري على مذاهب الحق ، ولم يظهر التغير إلا في الوازع

(١) الدولة الأموية ، يوسف العش ، (ص ١٣٩) .

(٢) في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، (ص ٥٦) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٥٧) .

(٤) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، (ص ١٠٢) .

الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً ، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ، ثم ذهب معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها^(١).

وما ذهب إليه ابن خلدون ليس على إطلاقه ؛ ففي عهد الدولة العثمانية في زمن محمد الفاتح انتعشت بعض معاني ومقاصد الخلافة ، من الفتوحات ، والدعوة ، وإعزاز الإسلام ، والعدل ، ولم يذم الشرع العصبية أو الملك لما كان القصد منها إقامة الدين ، وإظهار الحق ، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه فقال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي ﴾ [ص: ٣٥] ، لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك^(٢).

وعلى ذلك فإن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هو الجبروتية^(٣) ، التي يقصد بها قهر الناس بغير حق ، ولم يكن ذلك شأن معاوية في خلافته ، وقد استرعى انتباه بعض فقهاءنا ومؤرخينا ذلك القرب الشديد بين مقاصد خلافة معاوية ومقاصد خلافة الراشدين ، لذلك فقد رأى ابن تيمية : . . فهذا يقتضي أن شوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا ، وأن ذلك لا ينافي العدل ، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل^(٤).

ولن نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا: إن معاوية وبعض خلفاء بني أمية كان يود لو سار سيرة الراشدين كاملة ، ولكنهم لم يكونوا قادرين على ذلك في تفاعلهم مع أحوال رعيته وظروف عصرهم ، وإن ذلك الأفق العالي والمثل الرفيع الذي قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية والإنسانية كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على السواء ، ولكنه كان أيضاً يستعلي على قدراتهم ، فيجهدون أنفسهم لتحقيقه ، ثم يعودون إلى جذبة الواقع مقرين بصعوبة المحاولة والتجربة^(٥).

ولقد سأل معاوية يوماً ولده وولي عهده يزيد: كيف سيعمل بعد استخلافه؟ فقال: أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب ، فتبسم معاوية وقال: والله لقد جهدت أن أعمل فيها عمل عثمان فلم أقدر ، أتعلم أنت فيهم بعمل عمر بن الخطاب؟!^(٦).

ولا يعني ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين أمر مستحيل ، ولكن

(١) مقدمة ابن خلدون ، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ٢٧٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الفتاوى (١٨/٣٥).

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ٢٧٦).

(٦) البداية والنهاية ، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ٢٧٦).

لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته ، وعظمت عزمته ، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق والانسجام بين الراعي والرعية؛ حيث يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب ، وطريق ذلك طويل وشاق ويحتاج إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية على كمال الإيمان ، ويعطون القدوة في ذلك والمثل ، ويستفرغون في ذلك وذاك وقتهم وجهدهم^(١) ، وقد كان ابن تيمية يعبر عن هذه الحقيقة حين يرى أنه إن ساء الحكم في مجتمع ما كان ذلك لنقص في الراعي والرعية^(٢) معاً.

إن الشورى في عهد معاوية والدولة الأموية تقلصت عما كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة ، وبقيت في عهد معاوية بعض جوانبها ولم تنعدم كلياً كما يطرح البعض .

سادساً: حرية التعبير في عهد معاوية رضي الله عنه (المعارضة السلمية):

كان معاوية رضي الله عنه يفرق بين المعارضة السلمية والمسلحة؛ فهو يطلق حرية الكلام والتعبير عن الرأي ما دام ذلك في حدود التعبير عن الرأي ، أما إذا انقلب الأمر إلى حمل السلاح وسلّ السيوف ، فإنه لا يجد مفرّاً من مواجهة هذه الثورات كما فعل مع الخوارج ، وسيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى ، فقد روي عن معاوية أنه قال: إني لا أحول بين الناس وألستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا^(٣).

وقال عامله على العراق زياد بن أبيه في خطبته لأهل البصرة: إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له سترأ ، حتى يبدي لي صفحته ، فإذا فعل لم أنظره^(٤) ، ويقول عن أحد معارضيه: لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضي ما هجته حتى يخرج علي^(٥).

وإليك الكثير من المواقف التي تدل على حرية التعبير ، وحق المعارضة السلمية ، والأمر

(١) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ٢٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/٣٥)؛ الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ٢٧٧).

ذكر الدكتور خالد الغيث في كتابه القيم (مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري) (ص ٢٨١ ، ٢٨٢): أن في إسناد هذه الرواية اجتمعت علتان: الأولى: أن عبد الله بن صالح الجهني لم يدرك عبد الملك بن عمير ، وذلك أن مولد عبد الله بن صالح كان بعد وفاة عبد الملك بن عمير بسنة ، والعلة الثانية: تشيع هشام بن سعد ، وكراهية الشيعة لبني أمية أمر معلوم ، لذا لا يؤخذ منه في هذا المقام لأنه يروي ما يوافق هواه.

(٣) تاريخ الطبري ، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ٣٠٣).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) سير أعلام النبلاء (١٣/٤)؛ أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، (ص ٢٧٤).

بالمعروف والنهي عن المنكر لمعاوية ، وكيف كان يستقبل تلك الانتقادات .

١- أبو مسلم الخولاني :

فقد كان رحمه الله من العلماء الربانيين ، وكان ممن لا يجامل ولا يدهن ، فقد قام أمام معاوية فوعظه وقال : إياك أن تميل على قبيلة من العرب فيذهب حيفك بعدلك^(١) . وكان يذكر معاوية بمسؤولياته تجاه رعيته ، ويحثه على أداء حقوقه ، فقد دخل ذات يوم على معاوية فقال : السلام عليك أيها الأجير . فقال الناس : الأمير . فقال معاوية : دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول . قال أبو مسلم : إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيراً فولاه ماشيته ، وجعل له الأجر على أن يحسن الرعية ، ويوفر جزازها وألبانها ، فإن أحسن رعيته ووفر جزازها حتى تلحق الصغيرة ، وتسمن العجفاء ، أعطاه أجره وزاده من قبله زيادة ، وإن هو لم يحسن رعيته وأضاعها حتى تهلك العجفاء وتعجف السمينة ولم يوفر جزازها وألبانها غضب عليه صاحب الأجر . فقال معاوية : ما شاء الله^(٢) ! .

فانظر كيف حث أبو مسلم الخولاني معاوية رضي الله عنه على الاهتمام بأمر الرعية ، وحذره من التهاون أو التفريط في إصلاح شؤونهم ، وذلك عن طريق ضرب المثل تقريباً للصورة وتشبيهاً للحال .

وهناك موقف عملي آخر لأبي مسلم الخولاني مع معاوية أيضاً ، وذلك عندما صعد معاوية المنبر - وكان قد حبس العطاء - فقام أبو مسلم وقال له : لم حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك ، ولا كد أمك حتى تحبس العطاء ، فغضب معاوية غضباً شديداً ، ونزل عن المنبر ، وقال للناس : مكانكم ، وغاب عن أعينهم ساعة ثم عاد إليهم فقال : إن أبا مسلم كلمني بكلام أغضبني ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الغضب من الشيطان ، والشيطان خلق من نار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليغتسل»^(٣) ، وإني دخلت فاغتسلت ، وصدق أبو مسلم : إنه ليس من كدي ولا كد أبي ، فلهما إلى أعطياتكم^(٤) .

٢- الفرزدق يهجو معاوية :

هجا الفرزدق معاوية وافتخر عليه بنسبه وآبائه وذلك لغرض شخصي ، حيث أعطى معاوية

(١) فضيلة العادلين من الولاة ، للأصفهاني ، (ص ٣٠٦) .

(٢) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، (ص ٣٠٦) .

(٣) سنن أبي داود (٤/٢٤٩) .

(٤) مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء ، (ص ٣٠٧)؛ أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، (ص ٣٠٧) .

عم الفرزدق الحتات بن يزيد المجاشعي - وكان ضمن وفد أتى معاوية - جائزة أقل من الآخرين ، ولما مات الحتات بن يزيد المجاشعي في الطريق ، أخذ معاوية تلك الجائزة وردها إلى بيت المال ، فقال الفرزدق يخاطب معاوية :

فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت أن المرء قليل جلائبه
ولو كان هذا الأمر في غير ملككم لأبديته أو غصن بالماء شاربته
وكم من أب لي يا معاوي لم يكن أبوك الذي من عبد شمس يقاربته
فما زاد معاوية على أن بعث إلى أهل الحتات بجائزته^(١) .

وقد ظفر معاوية بتقدير زعماء المسلمين من أبناء الصحابة رغم نقد بعضهم المرير له ، وكان كثيراً ما يقول : إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل أكثر من حلمي ، أو عورة لا أواريتها بستري ، أو إساءة أكثر من إحساني^(٢) ، وكان أحياناً يتمثل بهذه الأبيات :

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها
ولقد تُعاقب في السير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها ويخاف شدة نكلها^(٣)

٣- أم سنان بنت خيثمة في مجلس معاوية :

كانت أم سنان بنت خيثمة المذحجية من أنصار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وفي عهد معاوية قدمت على دمشق واستأذنت عليه فأذن لها ، فانتسبت له فعرفها ، وأمرها بالجلوس ، فلما جلست قال لها : مرحباً يابنة خيثمة ، ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تبغضين قومي ، وتحضين عليّ عدوي؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسفهون بعد حلم ، ولا يتعقبون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع سنن آبائه لأنت . قال معاوية رضي الله عنه : صدقت يا أم سنان ، نحن كذلك ، ثم سادت فترة صمت ، قطعها بسؤال لأم سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه ، فقال لها : كيف قولك :

عزب الرُّقَادُ فمُقلتي ما ترقدُ والليل يُصدِرُ بالهموم ويُوردُ
يا آل مذحج لا مُقامَ فشَمروا إن العَدُوَّ لا أَحمدَ يقصِدُ
هذا عليّ كالهِلال تحفُّهُ وسَطَ السماء من الكواكب أسعدُ
ما زال مُدَّ شهد الحروب مظفراً والنصرُ فوق لوائه ما يُفقدُ

(١) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ٣٠٤)؛ تاريخ الطبري (١٥٩/٦) .

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ٣٠٤)؛ تاريخ الطبري .

(٣) تاريخ الطبري (٢٥٣/٦) .

وكانت أمّ سنان - رحمها الله - تصغي لما ينشده معاوية من شعرها ، ولما انتهى قالت له : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وإنّا لنطمع أن تكون لنا خلفاً بعده ، فمثلك جدير بذلك ، وقبل أن يتكلم معاوية بكلمة ، قال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ، وأنا أحفظ من شعرها خلاف ما تقول لك الآن ؟ فهي القائلة :

إمّا هلكت أبا الحسين فلم تزل بالحقّ تُعرف هادياً مهديّاً
فاذهبْ عليك صلاة ربك ما دعت فوق العُصون حمامةً قمريةً
فاليوم لا خلف يؤمل بعده هيهات نمدح بعده إنسيّاً^(١)

عندئذ قالت أمّ سنان وعلائم الحزم والصدق ترسم على وجهها وهي تعرّض بجلسائه : يا أمير المؤمنين ، لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقّق فيك ما ظننا فحطّك الأوفر ، والله ما ورثك الشّناة - البغض - في قلوب المسلمين إلا هؤلاء - وأشارت إلى بعض جلسائه - فادحض مقالتهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك ازددت من الله عز وجل قرباً ، ومن المسلمين حباً . وتعجب معاوية مما تقول ، فقطع عليها مقالتها قائلاً : وإنك لتقولين ذلك يا أمّ سنان ؟

قالت : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! والله ما مثلك مدح باطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا ، كان والله عليّ رضي الله عنه أحب إلينا منك إذ كان حياً ، وأنت أحب إلينا من غيره إذ أنت باقٍ .

فسألها معاوية : وممن أنا أحب إليكم ما دمت باقياً ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنت أحب إلينا من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم استحققت بذلك عليهما ؟ قالت : بحسن حلمك ، وكرم عفوك^(٢) .

وبعد حديث انتهى الحوار ، سألها : ما حاجتك الآن يا أمّ سنان ؟ فسألته حاجتها في حفيدها بالمدينة أن يفك أسره ، فلبى معاوية طلبها ، وأكرمها ووصلها وردّها إلى المدينة ، وقد قضيت حاجتها ، وكان لسانها يلهج بالدعاء لمعاوية^(٣) .

هذه أمّ سنان المذحجيّة ، إحدى نساء عصر التابعين ، وممن فطرت نفسها على الصّفاء والصّراحة ، وأوتيت شطراً من البلاغة والحكمة ما جعلها في سجل ناصع يحكي خلودها وخلود

(١) العقد الفريد (١٠٨/٢) ؛ نساء من عصر التابعين ، (ص ٢٧٥ ، ٢٧٨) .

(٢) العقد الفريد (١٠٨/٢) ؛ تاريخ دمشق نقلاً عن نساء من عصر التابعين ، أحمد جمعة ، (ص ٢٧٨) ؛ شاعرات العرب ، (ص ١٧٦ ، ١٧٧) .

(٣) نساء من عصر التابعين ، (ص ٢٨٠) ؛ شاعرات العرب ، (ص ١٧٦ ، ١٧٧) .

أمثالها^(١) ، ولم تكن أم سنان المذحجية وحدها التي كانت تعبر عن رأيها ، وتكلم بوضوح عن معتقداتها ، بل كانت مثيلاتها كثيرات ؛ مثل : الزرقاء بنت عدي^(٢) ، وأم الخير بنت الحريش^(٣) .

لقد كان معاوية رضي الله عنه ، يجزئ الناس على الصدع بمعتقداتهم وآرائهم ، ويشجعهم على حرية الرأي والتعبير وحق النقد والمعارضة السلمية .



(١) نساء من عصر التابعين ، (ص ٢٨٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٩٦) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٤٨) .

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضي الله عنه

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة ٤١ هـ، فأخذ يعمل بكل ما أوتي من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار في ربوع العالم الإسلامي ، فانتهج سياسة داخلية ، تقوم على عدة أمور :

المبحث الأول

الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم وبخاصة بنو هاشم

فقد خطب مرة في أهل الحجاز بعد توليه الخلافة ، فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله ، فقال : وأين مثل هؤلاء؟! ومن يقدر على أعمالهم؟! هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم ! رحمة الله ورضوانه عليهم ، غير أنني سلكت بها طريقاً لي فيه منفعة ، ولكم فيه مثل ذلك ، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ، ومشاركة جميلة ، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة ، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه ، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذني ، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا مني بعضه . وإياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة ، وتورث الاستئصال ، أستغفر الله لي ولكم^(١).

وبمثل هذه السيرة صار خليفة المسلمين وانقاد له أبناء المهاجرين والأنصار ، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة ، كان رضي الله عنه ، يهتم بغزو القلوب والإحسان إليها ، مع الوعي والحذر الشديدين ألا تنتقض الأمة عليه ، لقد كان يبذل المال بلا حساب لكبار الشخصيات

القيادية في المجتمع ، ويعتبر أن عليها مسؤوليات ضخمة تجاه رعاياها من أبناء الأمة ، فلا بد أن تكون مليئة لسد الخلة ، وتلبي الحاجة ، وتحل المعضلة ، ولعل أشرف بني هاشم كانوا في هذا الصدد أكثر قيادات الأمة إغداقاً عليهم بالمال ، ولا بدع فهم لا يزالون في عرف الناس القيادات الشعبية التي تمثل جماهير الأمة ، وتلجأ الأمة إليهم أكثر مما تلجأ إلى الولاة والأمراء ، وهذه القيادات لم تشارك في الحكم ولم تكن لها رغبة في ذلك^(١).

أولاً: العلاقة بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما بعد الصلح :

كان الحسن بن علي يقدم على معاوية في خلافته ، فقدم عليه ذات مرة ، فقال له معاوية : لأجيزنك بجائزة ما أجزت بها أحداً قبلك ، ولا أجيز بها أحداً بعدك ، فأعطاه أربعمئة ألف ، فقبلها^(٢).

وجاء في رواية : أن الحسن بن علي كان يفد كل سنة إلى معاوية ، فيصله بمئة ألف درهم ، فقعد سنة عنه ولم يبعث إليه معاوية بشيء ، فدعا بدواة ليكتب إليه ، فأغفى قبل أن يكتب ، فرأى النبي ﷺ في منامه كأنه يقول : يا حسن أتكتب لمخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك؟! قال : فما أصنع يا رسول الله وقد كثر ديني؟ قال : قل : اللهم إني أسألك من كل أمر ضعفت عنه قوتي وحيلتي ، ولم تنته إليه رغبتى ، ولم يخطر ببالي ، ولم يبلغه أملى ، ولم يجر على لساني من اليقين الذي أعطيته أحداً من المخلوقين الأولين والمهاجرين الآخرين إلا أخصصتني به يا أرحم الراحمين . قال الحسن : فانتبهت وقد حفظت الدعاء ، فكنت أدعو به ، فلم يلبث معاوية أن ذكرني ، فقبل له : لم يقدم السنة ، فأمر لي بمئتي ألف درهم^(٣).

وجاء في رواية : بأن الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ للحسن في المنام هو : «اللهم اقذف في قلبي رجاءك ، واقطع رجائي عمن سواك ، لا أرجو أحداً غيرك ، اللهم وما ضعفت عنه قوتي وقصر عنه عملي ولم تنته إليه رغبتى ، ولم تبلغه مسألتي ، ولم يجر على لساني مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين فخصني به يا رب العالمين» قال : فوالله ما ألححت به أسبوعاً حتى بعث إليّ معاوية بألف ألف وخمسمئة ألف ، فقلت : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، ولا يخيب من دعاه ، فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال : يا حسن كيف أنت؟ فقلت : بخير يا رسول الله ، وحدثته حديثي فقال : يا بني هكذا من رجا الخالق ولم يرج المخلوق^(٤).

(١) معاوية بن أبي سفيان ، للغضبان ، (ص ٣١٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦٩).

(٣) تاريخ دمشق (٨/ ١٤).

(٤) المصدر السابق نفسه (٨/ ١٤).

وروى الزهري: لما قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجاء الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية ، فقال له معاوية: لو لم يكن لك فضل على يزيد إلا أن أملك امرأة من قريش وأمه امرأة من كلب لكان لك عليه فضل ، فكيف وأملك فاطمة بنت رسول الله ﷺ^(١).

ثانياً: صلوات معاوية للحسن وابن الزبير رضي الله عنهم:

عن جعفر بن محمد ، عن أبيه: أن الحسن والحسين رضي الله عنهما كانا يقبلان جوائز معاوية رضي الله عنه^(٢) ، وكان يرسل للحسن والحسين ، فقد أمر معاوية مرة للحسن بن علي بمئة ألف ، فذهب بها إليه فقال لمن حوله: من أخذ شيئاً فهو له ، وأمر للحسين بن علي بمئة ألف ، فذهب بها إليه وعنده عشرة فقسّمها عليهم عشرة آلاف ، عشرة آلاف ، وأمر لعبد الله بمئة ألف^(٣).

وكان معاوية رضي الله عنه إذا لقي الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: مرحباً بابن رسول الله وأهلاً ، ويأمر له بثلاثمائة ألف ، ويلقي ابن الزبير رضي الله عنه فيقول: مرحباً بابن عمّة رسول الله وابن حواريه ، ويأمر له بمئة ألف^(٤) ، وقد أشاد ابن الزبير بذكر معاوية بعد وفاته ، فقد حدث هشام بن عروة بن الزبير قال: صلى يوماً عبد الله بن الزبير ، فوجم بعد الصلاة ساعة ، فقال الناس: لقد حدث نفسه ، ثم التفت إلينا فقال: لا يبعدن ابن هند: إن كانت فيه لمخارج لا نجدها في أحد بعده أبداً ، والله إن كنا لنفرقه - أي نخوفه - وما الليث في الحرب على برائته بأجراً منه فيتفارق لنا ، وإنا كنا لنخدعه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا ، والله لوددت أنا متعنا به ما دام في هذا حجر - وأشار إلى أبي قبيس^(٥) . وقول ابن الزبير هذا قاله عندما حُصر في عهد عبد الملك بن مروان^(٦).

ثالثاً: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مع معاوية:

وكان معاوية يحترمه ويقدره ، وكان يفد على معاوية ، فيكرمه ويقربه ويحترمه ويعظمه ، وكان يلقي عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعاً ، فكان معاوية يقول: ما رأيت أحداً أحضر جواباً منه . ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن علي اتفق كون ابن عباس عند معاوية فعزّاه فيه

(١) الشريعة ، للأجري (٢٤٧٠/٥) إسناده حسن .

(٢) الشريعة ، (٢٤٧٠/٥) ، إسناده حسن .

(٣) تاريخ دمشق (١٣٣/٦٢) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) عيون الأخبار (١١/١) ، (١٢) .

(٦) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (ص ١١٥) .

بأحسن تعزية ، وردّ عليه ابن عباس ردّاً حسناً^(١) ، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدي ابن عباس وعزّاه بعبارة فصيحة وجيزة شكره عليها ابن عباس^(٢) .

أما تعزية معاوية رضي الله عنه وإجازته لابن عباس ، فكما رواها قتادة : ثم قال لابن عباس : لا يسوءك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي ، فقال ابن عباس لمعاوية : لا يحزنني الله ولا يسوءني ما أبقي الله أمير المؤمنين . قال : فأعطاه ألف ألف درهم وعروضاً وأشياء وقال : خذها فاقسمها في أهلك^(٣) .

وكان ابن عباس رضي الله عنهما من سادات المجتمع الإسلامي ، وقائد من قادتها الكبار ، وكان معاوية رضي الله عنه يعرف مكانته الاجتماعية والعلمية ، فابن عباس كان بمثابة المستشار للشؤون العلمية للخليفة ، وقد كان معاوية رضي الله عنه يعترف بفضل بني هاشم على بني أمية ، فقد قيل له : أيكم كان أشرف ، أنتم أو بنو هاشم ؟ قال : كنا أكثر أشرافاً ، وكانوا أشرف واحداً ، لم يكن في عبد مناف مثل هاشم ، فلما هلك كنا أكثر عدداً ، وأكثر أشرافاً ، وكان فيهم عبد المطلب ، ولم يكن فينا مثلهم ، فصرنا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً ، ولم يكن فينا واحد كواحدهم ، فلم يكن إلا كقرار العين حتى جاء شيء لم يسمع الأولون بمثله ، ولن يسمع الآخرون بمثله ، محمد ﷺ^(٤) .

وكان معاوية رضي الله عنه يحذر بني أمية من الإساءة إلى آل علي بن أبي طالب قائلاً : إن الحرب أولها نجوى ، وأوسطها شكوى ، وآخرها بلوى . وكان يطلب من خالصاء علي رضي الله عنه ، وصفه وسرد روائع خصاله وأعماله^(٥) .

رابعاً : هل عمّم معاوية سبّ أمير المؤمنين علي على منابر الدولة الأموية ؟

تذكر كتب التاريخ أن الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون عليّاً ، وهذا الأثر الذي ذكره ابن سعد لا يصحّ ، قال ابن سعد : أخبرنا علي بن محمد ، عن لوط بن يحيى ، قال : كان الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون رجلاً رضي الله عنه ، فلما ولي هو - عمر بن عبد العزيز - أمسك عن ذلك ، فقال كثير عزة الخزاعي :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتَمْ عَلِيّاً وَلَمْ تُخَفِّ بَرِيّاً وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَۀَ مُجْرِمٍ
تَكَلَّمْتَ بِالْحَقِّ الْمَبِينِ وَإِنَّمَا تَبَيَّنُ آيَاتُ الْهُدَى بِالتَّكَلُّمِ

(١) البداية والنهاية (١١/٦٤٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه (١١/٤٤٦) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) الدور السياسي للصفوة ، (ص ١٧٢) .

فَصَدَّقَتْ مَعْرُوفَ الَّذِي قُلَّتْ بِالَّذِي فَعَلَتْ فَأُضْحَى رَاضِياً كُلُّ مُسْلِمٍ^(١)

فهذا الأثر واهٍ ، فعلي بن محمد هو المدائني فيه ضعف ، وشيخه لوط بن يحيى واهٍ بمرة ، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة ، وقال أبو حاتم: متروك الحديث ، وقال الدارقطني: أخباري ضعيف ، ووصفه في الميزان: أخباري تالف لا يوثق به^(٢) ، وعامة روايته عن الضعفاء والهللكى والمجاهيل^(٣) .

وقد اتهم الشيعة معاوية رضي الله عنه بحمل الناس على سب علي ولعنه فوق منابر المساجد ، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة ، والذي يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل ، حتى صارت عند المتأخرين من المسلمّات التي لا مجال لمناقشتها ، ولم يثبت قط في رواية صحيحة ، ولا يعول على ما جاء في كتب الدميري ، واليعقوبي ، وأبي الفرج الأصفهاني ، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء^(٤) ؛ من احترام وتقدير معاوية لأمر المؤمنين علي وأهل بيته الأطهار ، فحكاية لعن علي على منابر بني أمية لا تتفق مع منطق الحوادث ، ولا طبيعة المتخاصمين ، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبني أمية ، فإننا لا نجد فيها ذكراً لشيء من ذلك أبداً ، وإنما نجده في كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم في عصر بني العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بني أمية في نظر الجمهور الإسلامي ، وقد كتب ذلك المسعودي في مروج الذهب وغيره من كتّاب الشيعة ، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ، ولا يوجد فيها رواية صحيحة صريحة ، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل ، وسلامة السند من الجرح ، والمتن من الاعتراض ، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين ، ومعاوية رضي الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله في الدين ، وكان محمود السيرة في الأمة ، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين ، وشهدوا له بالدين والعلم ، والعدل والحلم ، وسائر خصال الخير^(٥) .

وقد ثبت هذا في حق معاوية - رضي الله عنه - كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته ، أن يحمل الناس على لعن علي رضي الله عنه على المنابر وهو من هو في الفضل ، ومن علم سيرة معاوية رضي الله عنه في الملك ، وما اشتهر به من الحلم والصفح ، وحسن السياسة

(١) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٧) .

(٢) الميزان (٣/٤١٩) .

(٣) دفاعاً عن السلفية ، (ص ١٨٧) .

(٤) الحسن والحسين ، محمد رضا ، (ص ١٨) ، كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب .

(٥) الانتصار للصحب والآل ، (ص ٣٦٧) ، للرحيلي .

للعربية؛ ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه ، فقد بلغ معاوية رضي الله عنه في الحلم مضرب الأمثال ، وقدوة الأجيال^(١) ، وقد فصلنا في صفة الحلم في شخصية معاوية فيما مضى .

وأما ما استدلل به الشيعة على تلك الفرية من صحيح مسلم ؛ فليس ما يدل على زعمهم ، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، قال : أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال : ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال : أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه ، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم^(٢) .

قال النووي : قول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعداً بسبه ، وإنما سألته عن السب المانع له من السب . كأنه يقول : هل امتنعت تورعاً أو خوفاً ، أو غير ذلك ، فإن كان تورعاً وإجلالاً له عن السب ، فأنت مصيب محسن ، ولعل سعد رضي الله عنه وقد كان في طائفة يسبون فلم يسب معهم ، وعجز عن الإنكار؛ أن ينكر عليهم ، فسأله هذا السؤال : قالوا : ويحتمل تأويلاً آخر أن معناه : ما منعك أن تخطئه في رأيه واجتهاده وتظهر للناس حسن رأينا واجتهادنا وأنه أخطأ^(٣) .

وقال أبو العباس القرطبي صاحب المفهم معلقاً على وصف ضرار الصُّدائي لعلي رضي الله عنه وثناؤه عليه بحضور معاوية ، وبكاء معاوية من ذلك وتصديقه لضرار ، فيما قال : وهذا الحديث يدل على معرفة معاوية بفضل علي رضي الله عنه ومنزلته ، وعظيم حقه ومكانته ، وعند ذلك يبعد عن معاوية أن يصرح بلعنه وسبّه ، لما كان معاوية موصوفاً به من العقل والدين ، والحلم وكرم الأخلاق ، وما يروى عنه من ذلك فأكثره كذب لا يصح ، وأصح ما فيه قوله لسعد بن أبي وقاص : ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟ وهذا ليس بالتصريح بالسب ، وإنما هو سؤال عن سبب امتناعه ليستخرج من عنده من ذلك ، أو من نقيضه ، كما قد ظهر من جوابه ، ولما سمع ذلك معاوية ، سكن وأذعن ، وعرف الحق لمستحقه^(٤) .

قال الدكتور الرحيلي في كتابه الصحب والآل : والذي يظهر لي في هذا والله أعلم : أن معاوية إنما قال ذلك على سبيل المداعبة لسعد ، وأراد من ذلك استظهار بعض فضائل علي رضي الله عنه ؛ فإن معاوية رضي الله عنه كان رجلاً فطناً ذكياً ، يحب مطارحة الرجال واستخراج ما عندهم ، فأراد أن يعرف ما عند سعد في علي - رضي الله عنه - فألقى سؤاله بهذا الأسلوب المشير . وهذا مثل قوله رضي الله عنه لابن عباس : أنت على ملة علي؟ فقال له ابن عباس : ولا

(١) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب ، (ص ٣٥٣) .

(٢) مسلم ، كتاب : فضائل الصحابة (٤/ ١٨٧١) .

(٣) شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٧٥) .

(٤) المفهم ، للقرطبي (٦/ ٢٧٨) .

على ملة عثمان ، أنا على ملة رسول الله ﷺ^(١). فظاهر أن قول معاوية هنا لابن عباس جاء على سبيل المداعبة ، فكذلك قوله لسعد هو من هذا الباب ، وأما ما ادّعى الشيعة من أمر السب فحاشا لمعاوية رضي الله عنه أن يصدر منه مثل ذلك^(٢) ، والمانع من هذا عدة أمور:

١ - أن معاوية رضي الله عنه ما كان يسب علياً رضي الله عنه كما تقدم حتى يأمر غيره بسبه ، بل كان معظماً له ، معترفاً له بالفضل والسبق إلى الإسلام ، كما دلت على ذلك أقواله الثابتة عنه ، فقد قال ابن كثير: وقد ورد من غير وجه: أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: هل تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل ، وأحق بالأمر مني^(٣) ، وعن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي ، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: «ويحك إنك لا تدريين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم»^(٤) ، فهل يسوغ في عقل ودين أن يسب معاوية علياً، بل ويحمل الناس على سبه وهو يعتقد فيه هذا؟!^(٥).

٢ - أنه لا يعرف بنقل صحيح عن معاوية رضي الله عنه تعرض لعلي رضي الله عنه بسب أو شتم أثناء حربه له في حياته ، فهل من المعقول أن يسبه بعد انتهاء حربه معه ووفاته ، فهذا من أبعد ما يكون عند أهل العقول ، وأبعد منه أن يحمل الناس على سبه وشتمه .

٣ - أن معاوية رضي الله عنه كان رجلاً ذكياً مشهوراً بالعقل والدهاء ، فلو أراد حمل الناس على سب علي - حاشاه ذلك - أفكان يطلب ذلك من مثل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وهو من هو في الشجاعة والفضل والورع ، مع عدم دخوله في الفتنة أصلاً ، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وتديباً ، فكيف بمعاوية؟! .

٤ - أن معاوية رضي الله عنه انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما له ، واجتمعت عليه الكلمة ودانت له الأمصار بالملك ، فأى نفع له في سب علي؟ بل الحكمة وحسن السياسة تقتضي عدم ذلك ، لما فيه من تهدئة النفوس ، وتسكين الأمور ، ومثل هذا لا يخفى على معاوية .

٥ - أنه كان بين معاوية رضي الله عنه بعد استقلاله بالخلافة وأبناء علي من الألفة والتقارب ،

(١) الإبانة (١/٣٥٥)، شرح أصول اعتقاد اللالكائي (١/٩٤).

(٢) الانتصار للصاحب والآل ، (ص ٣٧٥).

(٣) البداية والنهاية (٨/١٣٣).

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) الانتصار للصاحب والآل ، (ص ٣٧٦).

ما هو مشهور في كتب السير والتاريخ^(١) ، ومن ذلك أن الحسن والحسين وفدا على معاوية فأجازهما بمئتي ألف . وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلي ، فقال له الحسين رضي الله عنه: ولم تعط أحداً أفضل منا^(٢) . ودخل مرة الحسن على معاوية فقال له: مرحباً وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ ، وأمر له بثلاثمئة ألف^(٣) . وهذا مما يقطع الكذب مما يدعى في حق معاوية من حمله الناس على سب علي ، إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم؟! وبهذا يظهر الحق في هذه المسألة ، وتتجلى الحقيقة^(٤) ، كما أن المجتمع في عمومهم مقيد بأحكام الشرع ، حريص على تنفيذها ، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذيء^(٥) ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات من المشركين؛ فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين ، فعن عائشة رضي الله عنها - مرفوعاً: «لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»^(٦) .

خامساً: معاوية وسم الحسن بن علي :

ذكرت بعض الروايات أن الحسن بن علي توفي متأثراً بالسم الذي وضع له ، وقد اتجهت أصابع الاتهام نحو زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث بن قيس أمير كندة؛ فهذه أم موسى سرية علي تتهم جعدة بأنها دست السم للحسن ، فاشتكى منه شكاة: فكان يوضع تحته طست^(٧) ، وترفع أخرى نحوه من أربعين يوماً^(٨) ، وهذه رواية إسنادها لا يصح وهي ضعيفة^(٩) ، وحاول البعض من الأخباريين والرواة أن يوجد علاقة بين البيعة ليزيد ووفاة الحسن ، وزعموا أن يزيد بن معاوية أرسل إلى جعدة بنت قيس أن سمي حسناً فإني سأزوجك ، ففعلت ، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى يزيد تسأله الوفاء . فقال: إنا والله لم نرضك له أفرضاك لأنفسنا؟!^(١٠) . وفي سندها يزيد بن عياض بن جعدية ، كذبه مالك وغيره^(١١) ، وقد وردت هذه الروايات في

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) البداية والنهاية (٨/ ١٣٩) .

(٣) البداية والنهاية (٨/ ١٤٠) .

(٤) الانتصار للصحب والآل ، (ص ٢٧٧) .

(٥) صحيح ابن حبان ، رقم (٤٧)؛ صحيحه الألباني في الصحيحة ، رقم (٣٢٠) .

(٦) البخاري ، رقم (٦٥١٦) .

(٧) طست: إناء معلوم .

(٨) الطبقات ، تحقيق السلمي (١/ ٣٣٨) إسناده ضعيف .

(٩) المصدر السابق نفسه .

(١٠) تهذيب الكمال (٦/ ٤٥٣) .

(١١) تقريب التهذيب ، (ص ٦٠٤) .

كتب أهل السنة بدون تمحيص ، مع العلم أن تلك الروايات أسانيدھا ضعيفة^(١).

١ - قال ابن العربي: فإن قيل: دس على الحسن من سمّه ، قلنا: هذا محال من وجهين: أحدهما: أنه ما كان ليتقي من الحسن بأساً وقد سلّم الأمر ، الثاني: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله ، فكيف تحملونه بغير بيّنة على أحد من خلقه في زمن متباعد ، ولم نثق فيه بنقل ناقل ، بين أيدي قوم ذوي أهواء ، وفي حال فتنة وعصية ، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغي ، فلا يقبل منها إلا الصافي ، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم^(٢).

٢ - وقال ابن تيمية: وأما قوله: معاوية سمّ الحسن ، فهذا ممّا ذكره بعض الناس ، ولم يثبت ذلك ببينة شرعية ، أو إقرار معتبر ، ولا نقل يجزم به ، وهذا ممّا لا يمكن العلم به ، فالقول به قول بلا علم^(٣).

وقد جاء عن ابن تيمية في رده على اتهام معاوية بسمّ الحسن وأنه أمر الأشعث بن قيس بتنفيذ هذه الجريمة وكانت ابنته تحت الحسن ، حيث قال: وإذا قيل: إن معاوية أمر أباهما كان هذا ظناً محضاً ، والنبي ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث». ثم إن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين ، وقيل: سنة إحدى وأربعين ، ولهذا لم يذكر في الصلح الذي كان بين معاوية والحسن بن علي ، فلو كان شاهداً لكان يكون له ذكر في ذلك ، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذي أمر بنته؟^(٤). وهذا يدل على قدرة ابن تيمية للنقد العلمي القوي للروايات التاريخية.

٣ - وقال الذهبي: قلت: هذا شيء لا يصح؛ فمن الذي اطلع عليه؟^(٥).

٤ - وقال ابن كثير: روى بعضهم: أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث: أن سمّي الحسن وأنا أتزوجك بعده ، ففعلت ، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن ، أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندي أن هذا ليس بصحيح ، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأخرى^(٦).

٥ - وقال ابن خلدون: وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث ،

(١) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٣٩٣).

(٢) العواصم من القواصم ، (ص ٢٢٠ - ٢٢١).

(٣) منهاج السنة النبوية (٤/ ٤٦٩).

(٤) المنتقى من منهاج الاعتدال ، (ص ٢٦٦).

(٥) تاريخ الإسلام ، عهد معاوية ، (ص ٤٠)، اتهامات لا تثبت ، سليمان بن صالح الخراشي ، (ص ١٧٤).

(٦) البداية والنهاية (٨/ ٤٣).

فهو من أحاديث الشيعة ، حاشا لمعاوية من ذلك^(١).

٦- د. جميل المصري : وقد علق على هذه القضية بقوله : ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد . . . ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعاً آنذاك ، لأننا لا نلمس^(٢) لها أثراً في قضية قيام الحسن ، أو حتى عتاباً من الحسين لمعاوية . وبالنسبة لسم الحسن رضي الله عنه ، فنحن لا ننكر هذا ، فإذا ثبت أنه مات مسموماً فهذه شهادة له وكرامة في حقه^(٣).

وأما اتهام معاوية وابنه فهذا لا يثبت من حيث السند ، كما مر معنا ، ومن حيث المتن ، وهل جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال - كما تذكر الروايات - حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد ، وبالتالي تكون زوجة له ؟! أليست جعدة ابنة أمير قبيلة كندة كافة وهو الأشعث بن قيس ؟! ثم أليس زوجها وهو الحسن بن علي أفضل الناس شرفاً ورفعة بلا منازعة ؟! إن أمه فاطمة رضي الله عنها ، وجده رسول الله ﷺ وكفى به فخراً ، وأبوه علي بن أبي طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين ، إذاً ما هو الشيء الذي تسعى إليه جعدة وتحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير ؟!^(٤).

إن هناك الكثير الذين هم أعداء للوحدة الإسلامية ، وزادهم غيظاً وحنقاً ما قام به الحسن بن علي ، كما أن قناعتهم قوية بأن وجوده حياً صمام أمان للأمة الإسلامية ، فهو إمام ألفتها وزعيم وحدتها بدون منافس ، وبالتالي حتى تضطرب الأحداث وتعود الفتنة إلى ما كانت عليه فلا بد من تصفيته وإزالته ، فالتهم الأول في نظري هم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين وجه لهم الحسن صفقة قوية عندما تنازل لمعاوية وجعل حداً للصراع ، ثم الخوارج الذين قتلوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهم الذين طعنوه في فخذه ، فربما أرادوا الانتقام من قتلاهم في النهروان وغيرها^(٥).

سادساً : موقف معاوية من قتلة عثمان رضي الله عنهما :

كان من ضمن شروط الحسن في صلحه مع معاوية ألا يطالب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء^(٦) ، والذي يلاحظه المؤرخ أنه من ذلك الوقت ترك الطلب بدم

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٢٧).

(٢) أثر أهل الكتاب في الفتنة والحروب الأهلية ، (ص ٤٨٢)؛ مرويات خلافة معاوية ، (ص ٣٩٥).

(٣) منهاج السنة (٤/ ٤٢).

(٤) مواقف المعارضة في خلافة يزيد بن معاوية ، (ص ١٢٣).

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٢٤).

(٦) التبيين في أنساب القرشيين ، (ص ١٢٧).

عثمان^(١) ، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان في أيام علي ؛ وهي قاعدة بالغة الأهمية تحول دون الالتفات إلى الماضي ، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل^(٢) ، وقد تمّ التوافق المبني على الالتزام والشرعية ؛ حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين ، قبل إبرام الصلح ، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحداً بذنب سابق ، وتأسى بذلك بصلح الحسن على الإحسان والعفو ، وقد تمّ بسط الأمن وحفظ الدماء في عهد معاوية إلى حد كبير^(٣) .

وجاء في عيون الأخبار لابن قتيبة: إن معاوية بن أبي سفيان لما قدم بعد عام الجماعة المدينة، دخل دار عثمان بن عفان ، فصاحت عائشة بنت عثمان بن عفان وبكت ونادت أباها ، فقال معاوية: يا بنة أخي ، إن الناس أعطونا طاعة ، وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلمًا تحته غضب ، وأظهروا لنا ذلاً تحته حقد ، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، فإن نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا ، لأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس^(٤) .

والذي يعتد به من كلام ابن قتيبة ما جاء عن العهود والمواثيق التي أبرمت بين معاوية والحسن ؛ وقضت بالصلح بين الناس ، ووضع الحرب وحقق الدماء ، وعدم تهيج النفوس ، وإضافة إلى ذلك فإن السنوات الخمس التي احتضنت المعارك في الجمل وصفين والنهروان ومصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسماؤهم بتهمة قتل عثمان ، ومع ذلك فإن مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة في ذهن الخلفاء من بني أمية ونوابهم في الأغلب ، وأما انتصار بني أمية لعثمان فقد كان حقيقة لا شبهة فيها^(٥) .

سابعاً: مقتل حجر بن عدي رضي الله عنه :

تحدثت معظم المصادر في مقتل حجر بن عدي رضي الله عنه ؛ ومن هذه المصادر : ابن سعد^(٦) ، وخليفة بن خياط^(٧) باختصار شديد ، والبلاذري^(٨) ،

(١) الخلفاء الراشدون ، للنجار ، (ص ٤٨٢) .

(٢) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام ، (ص ٣٤١) .

(٣) خامس الخلفاء الراشدين ، الحسن بن علي ، (ص ٢٤٩) .

(٤) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، (ص ٦٩) ؛ السلطان ، لابن قتيبة ، (ص ٥٨) .

(٥) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ، (ص ٧٠) .

(٦) الطبقات (٢١٧/٦) تحقيق إحسان عباس .

(٧) التاريخ ، (ص ٢١٣) .

(٨) أنساب الأشراف (٢٤٢/٤) .

واليعقوبي^(١) ، والمسعودي^(٢) ، وأبو الفرج الأصفهاني^(٣) مطولاً ، وابن الجوزي^(٤) ، وابن الأثير^(٥) مطولاً ، والذهبي^(٦) ، وابن كثير^(٧) .

وقد اعتمد الطبري في خبر حجر بن عدي وأصحابه على أبي مخنف المؤرخ الشيعي المشهور ، والذي ليس بثقة ولا يعتمد عليه عند علماء المسلمين من أهل السنة ، فقد نقل الطبري عنه ست عشرة رواية .

وعموماً فإن خبر مقتل حجر بن عدي ورد في مصادر متعددة ولم تنفرد الروايات الشيعية بسوق خبره ، ولكن رواية أبي مخنف الساقط الاعتبار عند علماء أهل الجرح والتعديل أشارت إلى أن معاوية أوصى المغيرة بن شعبة بشتيم علي وذمه ، لذلك كان المغيرة لا يترك ذم علي في خطبته طوال فترة ولايته على الكوفة ، ونص خطبته التي أغضبت حجر بن عدي كما أوردها أبو مخنف: اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه ، واجزه بأحسن عمله ، فإنه عمل بكتابك ، واتبع سنة نبيك ﷺ ، وجمع كلمتنا وحقق دماءنا ، وقتل مظلوماً ، اللهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيه والطالبين بدمه : ويدعو على قتلته^(٨) .

وكما نلاحظ من نص الخطبة أنه لم يرد فيها ذم علي ، ومع ذلك فإن الرواية تشير إلى أن هذه الخطبة تضمنت ذلك ، إلا إذا تأولت لعنه لقتله عثمان بأنه ذم لعلي^(٩) . وبراءة علي من دم عثمان يعرفها القاصي والداني ، وقد أثبتنا في كتيبي عن عثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم جميعاً . ومهما يكن من أمر فإن الباحث في مقتل حجر بن عدي رضي الله عنه ، يلاحظ أن موقف حجر من أمير المؤمنين معاوية قد مرّ بمرحلتين :

- المرحلة الأولى : مرحلة المعارضة القولية : (٤١ - ٥١ هـ) :

كان حجر بن عدي الكندي ، أبو عبد الرحمن الشهيد ، له صحبة ووفادة ، وفد مع أخيه

(١) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٣٠) .

(٢) مروج الذهب (٣/ ١٢) .

(٣) الأغاني (١٧/ ١٣٣) .

(٤) المنتظم (٥/ ٢٤١) .

(٥) الكامل في التاريخ (٢/ ٤٨٨) .

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٢) .

(٧) البداية والنهاية (١١/ ٢٢٧) .

(٨) تاريخ الطبري (٦/ ١٦٨ - ١٦٩) .

(٩) أثر التشيع على الروايات ، (ص ٣٦٨ - ٣٧٠) .

هانئ بن الأدبر ، ولا رواية له عن النبي ﷺ ، وسمع من علي وعمار^(١) ، وكان شريفاً ، أميراً مطاعاً ، أماًراً بالمعروف ، مقدماً على الإنكار ، من شيعة علي رضي الله عنه ، شهد صفين أميراً ، وكان ذا صلاح وتعبداً^(٢) ، وكان رضي الله عنه من المعارضين للصلح الذي قام بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما ، غير أن هذه المعارضة لم يترتب عليها في هذه المرحلة أي فعل ، بل اقتصر على الأقوال فقط^(٣) ، وفي ذلك يقول البلاذري : . . . لم يزل حجر بن عدي منكرأ على الحسن بن علي بن أبي طالب صلحه لمعاوية ، فكان يعذله على ذلك ويقول : تركت القتال ومعك أربعون ألفاً ذوو نيات وبصائر في قتال عدوك ، ثم كان بعد ذلك يذكر معاوية فيعييه ، ويظلمه^(٤) ، فكان هذا هجيره^(٥) ، وعادته .

- المرحلة الثانية : مرحلة المعارضة الفعلية :

هذه المرحلة بدأت في سنة ٥١ هـ حيث حصل في هذه السنة تدهور مفاجئ في علاقة حجر بن عدي مع زياد بن أبيه والي العراق ، وقد ذكرت المصادر سببين في سبب تدهور هذه العلاقة :

أ- ما ذكر من إقدام المغيرة بن شعبة على الثناء على عثمان والترحم عليه ، وذم علي بن أبي طالب ، وإقدام حجر بن عدي على مدح علي بن أبي طالب ، وذم عثمان بن عفان ، وسكوت المغيرة عن حجر بن عدي ، فلما مات المغيرة بن شعبة وتولى زياد بن أبيه ، قال زياد في عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب مثلما كان يقول المغيرة ، فقام حجر بن عدي وقال فيهما مثلما كان يقول للمغيرة ، فكان ذلك سبب ابتداء المواجهة بين حجر وزياد^(٦) .

ب- ما ذكر من إطالة زياد الخطبة ، وتأخير الصلاة ، وقيام حجر بإنكار ذلك على زياد ، فكان هذا سبب ابتداء المواجهة بينهما^(٧) . وهذان السببان يكدرهما ما يلي :

* أن سياسة المغيرة رضي الله عنه مع أهل الكوفة اتسمت بالعفو والصفح ، وليس بإثارة الأحقاد والإحزن ، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق زياد بن علاقة قال : سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة ، قام فحمد الله وأثنى عليه وقال : عليكم باتقاء

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٣/ ٤٦٣) .

(٣) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٤٢٢) .

(٤) أي : ينسبه للظلم .

(٥) هجيراه : دأبه وشأنه . القاموس المحيط ، (ص ٦٣٧) .

(٦) تاريخ الطبري (٦/ ١٦٩) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

الله وحده لا شريك له ، والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير ، فإنما يأتيكم الآن ، ثم قال : استغفروا لأميركم ، فإنه كان يحب العفو^(١) . ثم قال : أما بعد فإنني أتيت النبي ﷺ قلت : أبايعك على الإسلام ، فشرط عليّ: النصح لكل مسلم . فبايعته على هذا ، ورب هذا المسجد إنني لناصح لكم^(٢) ، ثم استغفر ونزل^(٣) .

* أن ضم الكوفة إلى زياد كان في سنة ٤٩ هـ ، وهو ما صرح به فيل مولى زياد؛ حيث قال : ملك زياد العراق خمس سنين ، ثم مات سنة ثلاث وخمسين . وهذه الرواية التي تحدد تاريخ ضم الكوفة إلى زياد بن أبيه تعد أصح ما في الباب ، وحيث إن ولاية زياد على الكوفة كانت سنة ٤٩ هـ ، ولم يحدث الصدام بين حجر وأنصاره وزياد والي الكوفة ؛ لأن الحسن بن علي رضي الله عنهما لا زال حياً ، ووجوده كان كفيلاً بردع تحركات المعارضين للصالح من أنصاره ؛ لأنه رضي الله عنه اشترط عليهم أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم . ولكن بعد وفاة الحسن رضي الله عنه عام ٥١ هـ^(٤) تغير موقف بعض قيادات أهل العراق ومنهم حجر بن عدي من المعارضة القولية إلى الفعلية ؛ فقد روى البلاذري بإسناده إلى الشعبي ، وغيره ، قالوا : لما قدم زياد الكوفة - عام ٤٩ هـ - بعث إلى حجر فقال : يا هذا ، كنا على ما علمت ، وقد جاء أمر غير ذلك ، أمسك عليك لسانك ، وليسعك منزلك ، وهذا سريري فهو مجلسك ، فإياك أن تستنزلك السفلة أو تستفرك ، إني لو استخففت بحقك هان علي أمرك ، ولم أكلمك من كلامي هذا بحرف ، فلما صار إلى منزله اجتمعت إليه الشيعة فقالوا : أنت شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا الأمر^(٥) .

فلما شخص زياد إلى البصرة استخلف عمرو بن حريث على الصلاة والحرب ، ومهران مولاه على الخراج ، وأمر العمال بمكاتبة عمرو . فكتب عمرو إلى زياد : إن كانت لك بالكوفة حاجة فالعجل ، فإني كتبت إليك وليس في يدي منها مع حجر إلا القصر ، فأخذ السير حتى قدم الكوفة - فبعث إلى عدي بن حاتم الطائي ، وجريز بن عبد الله البجلي . . . فقال : اتنوا هذا الشيخ المفتون ، فإني خائف أن يحملنا من أمره على ما ليس من شأننا فأتوه . . . وكلمه القوم ، فلم يكلم منهم أحداً ، فأتوا زياداً فقال : مهيم^(٦) ؟ فقال عدي : أيها الأمير ، استذمه^(٧) ، فإن له

(١) مرويات خلافة معاوية ، (ص ٤٢٤) .

(٢) إشارة إلى أنه وفي بما بايع عليه رسول الله ﷺ ، وكان صادقاً في نصحه .

(٣) البخاري ، صحيح البخاري مع الفتح (١/١٦٨) .

(٤) مرويات خلافة معاوية ، (ص ٤٢٥) .

(٥) مرويات خلافة معاوية ، (ص ٤٢٨) ؛ أنساب الأشراف (٤/٢٤٦) .

(٦) مهيم : كلمة استفهام ، أي : ما وراءك ؟

(٧) استذمه : لا تخفر ذمته .

سناً ، فقال : لست لأبي سفيان إذاً ، ثم أرسل إليه الشُّرَطُ فقتلوا^(١) ، وجاء في رواية أخرى : لما قدم زياد الكوفة أميراً^(٢) أكرم حجر بن الأديب^(٣) ، وأدناه ، وشفَّعه ، فلما أراد الانحدار إلى البصرة^(٤) دعاه فقال له : يا حجر إنك قد رأيت ما صنعت بك ، وإنني أريد البصرة ، فأحب أن تشخص معي ، فإنني أكره أن تتخلف بعدي ، فعسى أن أبلغ عنك شيئاً فيقع في نفسي ، وإذا كنت معي لم يقع في نفسي منك شيء ، فقد علمت رأيك في علي بن أبي طالب ، وقد كان رأي من قبلك فيه على مثل ذلك ، فلما رأيت الله صرف الأمر إلى معاوية ، لم أتهم قضاء الله ورضيت به ، وقد رأيت إلى ما صار أمر علي وأصحابه ، وإنني أحذرك أن تركب أعجاز أمور هلك من ركب صدورها^(٥).

والمقصود من كلام زياد أنه كان من خواص علي رضي الله عنه ، ولما رأى تنازل الحسن لمعاوية وإجماع الأمة عليه دخل في الجماعة وحرص على وحدة الصف وحذر من الفتن ، فقال له حجر : إنني مريض ولا أستطيع الشخوص . قال : صدقت ، والله إنك لمريض الدين والقلب ، مريض العقل ، وإيم الله لئن بلغني عنك شيء أكرهه سأحرص على قتلك ، فانظر أو دع ، فخرج زياد فلحق بالبصرة ، واجتمع إلى حجر قراء أهل الكوفة ، فجعل لا ينفذ لعامل زياد معهم أمر ، ولا يريد شيئاً إلا منعه إياه ، فكتب إلى زياد : إنني والله ما أنا في شيء مع حجر وأصحابه ، وأنت أعلم ، فركب زياد بغاله حتى اقتحم الكوفة ، فلما قدمها تغيب حجر ، فجعل يطلبه فلا يقدر عليه^(٦).

أما تفاصيل المواجهة بين شرطة زياد وحجر بن عدي وأنصاره ، فقد انفرد أبو مخنف من بين المصادر التي وقفت عليها بإيراد تفاصيلها^(٧) ، كذلك انفرد أبو مخنف بإيراد تفاصيل مهمة عن شهادة أهل الكوفة على حجر وأصحابه^(٨).

١ - قضاء معاوية رضي الله عنه في حجر رضي الله عنه وأصحابه :

نظراً لخطورة قضية حجر بن عدي وحساسيتها ، فقد وافق زياد بن أبيه على شرط حجر بن

(١) أنساب الأشراف (٤/ ٢٤٦ ، ٢٤٧).

(٢) وذلك سنة ٤٩ هـ.

(٣) الأديب : لقب عدي والد حجر .

(٤) وذلك سنة ٥١ هـ.

(٥) هذا تحذير من زيادة لحجر يدل على رغبته على حسم مادة الفتنة ولذلك حرص على اصطحابه معه إلى البصرة .

(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٢٧٠ ، ٢٧١).

(٧) تاريخ الطبري (٦/ ١٧٧ ، ١٨٣).

(٨) المصدر السابق نفسه (٦/ ١٨٤ ، ١٨٦).

عدي عند استسلامه ، وهذا الشرط هو إحالة قضية حجر ومن معه إلى معاوية ليحكم فيها^(١).

وقبل الحديث عن حكم معاوية في حجر وأصحابه ، ينبغي التذكير بالتهم الموجهة إليهم ، وهذه التهم كما وردت عن أبي مخنف هي : . . . أن حجراً جمع إليه الجموع ، وأظهر شتم الخليفة ، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، ووثب بالمصر ، وأخرج عامل أمير المؤمنين ، وأظهر عذر أبي تراب^(٢) ، والترحم عليه ، والبراءة من عدوه وأهل حربه ، وأن هؤلاء نفر الذين معه هم رؤوس أصحابه ، وعلى مثل رأيه وأمره^(٣).

أما قضاء معاوية رضي الله عنه في حجر رضي الله عنه وأصحابه ؛ فإنه لم يقتلهم على الفور ، ولم يطلب منهم البراءة من علي رضي الله عنه كما تزعم بعض الروايات^(٤) ، بل استخار الله سبحانه وتعالى فيهم ، واستشار أهل مشورته ، ثم كان حكمه فيهم أن قتل بعضهم ، واستحيى بعضهم ، والحجة في ذلك ما يرويه صالح بن أحمد بن حنبل^(٥) ، بإسناد حسن قال : حدثني أبي^(٦) ، قال : حدثنا أبو المغيرة^(٧) ، قال : حدثنا ابن عياش^(٨) ، قال : حدثني شرحبيل بن مسلم^(٩) ، قال : لما بُعث بحجر بن عدي الأدبر وأصحابه من العراق إلى معاوية بن أبي سفيان ، استشار الناس في قتلهم ، فمنهم المشير ، ومنهم الساكت ، فدخل معاوية منزله ، فلما صلى الظهر قام في الناس خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم جلس على منبره ، فقام المنادي ، فنادى : أين عمرو بن الأسود العنسي^(١٠) ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا إنا بحصن من الله حصين لم نؤمر بتركه ، وقولك يا أمير المؤمنين في أهل العراق ألا وأنت الراعي ونحن الرعية ، ألا وأنت أعلمنا بدائهم وأقدرنا على دوائهم ، وإنما علينا أن نقول : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

فقال معاوية : أما عمرو بن الأسود فقد تبرأ إلينا من دمائهم ورمى بها ما بين عيني معاوية . ثم

- (١) تاريخ الطبري (٦/ ١٨٧ ، ١٨٨) .
- (٢) المقصود به علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهي كنيته .
- (٣) تاريخ الطبري (٦/ ١٨٨) .
- (٤) مرويات خلافة معاوية ، (ص ٤٣٠) .
- (٥) قال عنه الذهبي : صدوق ثقة . السير (١٢/ ٥٢٩) .
- (٦) أحمد بن محمد بن حنبل : ثقة حافظ فقيه حجة .
- (٧) عبد القدوس بن الحجاج الخولاني : أمير المغيرة .
- (٨) إسماعيل بن عياش العنسي ، الحمصي : صدوق .
- (٩) شرحبيل بن مسلم الخولاني ، الشامي ، من شيوخ الشام .
- (١٠) مخضرم ، ثقة عابد ، من كبار التابعين ، مات في خلافة معاوية .

قام المنادي فنادى: أين أبو المسلم الخولاني، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فلا والله ما أبغضناك منذ أحببناك، ولا عصيناك منذ أطعناك، ولا فارقناك منذ جامعناك، ولا نكثنا بيعتنا منذ بايعناك على عواتقنا، إن أمرتنا أطعناك، وإن دعوتنا أجبنناك، وإن سبقناك نظرناك، ثم جلس.

ثم قام المنادي فقال: أين عبد الله بن مَخْمَرٍ الشرعبي^(١)، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وقولك يا أمير المؤمنين في هذه العصابة من أهل العراق، إن تعاقبهم فقد أصبت، وإن تعفو فقد أحسنت.

فقام المنادي فنادى: أين عبد الله بن أسد القسري، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، رعيتك، ووليتك، وأهل طاعتك، إن تعاقبهم فقد جنوا على أنفسهم العقوبة، وإن تعفو فإن العفو أقرب للتقوى يا أمير المؤمنين، ولا تطع فينا من كان غشوماً ظلوماً، بالليل نؤوماً، عن عمل الآخرة سؤوماً^(٢).

يا أمير المؤمنين، إن الدنيا قد انقضت أوتادها، ومالت بها عمادها، وأحبها أصحابها، واقترب منها مياعدها، ثم جلس.

فقلت^(٣) لشرحبيل: فكيف صنع؟ قال: قتل بعضاً واستحيا بعضاً، وكان فيمن قتل حجر بن عدي الأدبر^(٤)، وكان حجر رضي الله عنه قبل قتله قال: يا قوم دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فتوضأ، وصلى ركعتين، فطوّل، فقبل له: طوّل، أجزعت؟ فقال: ما صليت صلاة أخفّ منها، ولئن تجزعت لقد رأيت سيفاً مشهوراً، وكفنّاً منشوراً، وقبراً محفوراً. وكانت عشائهم قد جاؤوهم بالأكفان، وحفروا لهم القبور.

ويقال: بل معاوية الذي فعل ذلك. وقال حجر: اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل العراق شهدوا علينا وإن أهل الشام قتلونا. فقبل له: مدّ عنقك. فقال: إنّ ذاك لدم ما كنت لأعين عليه^(٥)، وجاء في رواية: لما أتني معاوية بحجر، قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. قال: أو أمير المؤمنين أنا؟ اضربوا عنقه، فصلّى ركعتين، وقال لأهله: لا تطلقوا عني حديداً، ولا تغسلوا عني دماً، فإني ملاقي معاوية على الجادة^(٦).

(١) شامي مخضرم، يروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) مريات خلافة معاوية، (ص ٤٣٤)؛ نقلاً عن تاريخ دمشق (٤/ ٢٧١).

(٣) القائل هو إسماعيل بن عياش.

(٤) أحمد بن حنبل: المسائل، رواية ابنه صالح (٢/ ٣٢٨، ٣٣١).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٥).

(٦) المصدر السابق نفسه (٣/ ٤٦٦).

وقد علق ابن العربي على مقتل حجر بن عدي رضي الله عنه فقال: . . وأراد أن يقيم الخلق للفتنة ، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فساداً^(١) ، وقد اعتمد معاوية رضي الله عنه في قضائه على قوله ﷺ : «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم^(٢) ، أو يفرق جماعتكم ، فاقتلوه»^(٣) ، وقوله ﷺ : «إنه ستكون هنات^(٤) ، وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة ، وهي جميع ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان»^(٥) .

ومما يجدر التذكير به في هذا المقام أن معاوية رضي الله عنه لم يكن ليقضي بقتل حجر بن عدي رضي الله عنه لو أن حجراً اقتصر في معارضته على الأقوال فقط ولم ينتقل إلى الأفعال ، ولنا في خبر المسور بن مخرمة وغيره مما مرّ معنا دلالة على ذلك^(٦) .

٢- موقف عائشة رضي الله عنها من مقتل حجر بن عدي رضي الله عنه :

بالغت الروايات في ذكر موقف عائشة رضي الله عنها من مقتل حجر بن عدي ، حيث ذهبت بعض الروايات إلى زعم بتهديد عائشة لمعاوية بالقتل حين زارها سنة ٥١ هـ ، وكذلك التهديد بمحاربة معاوية^(٧) .

وهذه الروايات لم يصح منها شيء في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وأما حقيقة موقفها : فعن ابن أبي مليكة : أن معاوية جاء يستأذن على عائشة ، فأبت أن تأذن له ، فخرج غلام لها يقال له : ذكوان^(٨) ، قال : ويحك أدخلني على عائشة فإنها قد غضبت علي ، فلم يزل بها غلامها حتى أذنت له ، وكان أطوع مني عندها ، فلما دخل عليها قال : أمتاه فيم وجدت عليّ يرحمك الله؟ قالت : . . . وجدت عليك في شأن حجر وأصحابه أنك قتلتهم فقال لها : . . . وأما حجر وأصحابه فإنني تخوفت أمراً ، وخشيت فتنة تكون ، تهراق فيها الدماء ، وتستحل فيها المحارم ، وأنت تخافيني ، دعيني والله يفعل ما يشاء ، قالت : تركتك والله ، تركتك والله ، تركتك والله^(٩) . وجاء في رواية أخرى : لما قدم معاوية دخل على عائشة ، فقالت : أقتلت

(١) العواصم من القواصم ، (ص ٢٢٠) .

(٢) يشق عصاكم : يفرق جماعتكم .

(٣) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٢٤٢) .

(٤) هنات : جمع هنة ، والمراد بها هنا الفتنة والأمور الحادثة . شرح صحيح مسلم (١٢/٢٤١) .

(٥) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/٢٤١) .

(٦) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٤٣٥) .

(٧) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٣٨) ، مثل ما ورد في تاريخ الطبري .

(٨) أبو عمرو مولى عائشة ، ثقة ، توفي في المدينة سنة ٦٣ هـ .

(٩) تاريخ دمشق (٤/٢٧٣ ، ٢٧٤) ، نقلاً عن مرويات معاوية ، (ص ٤٤٠) .

حجرًا؟ قال: يا أم المؤمنين ، إني وجدت قتل رجل في صلاح الناس ، خير من استحيائه في فسادهم^(١).

٣- ندم معاوية على قتل حجر بن عدي :

جاء في رواية: أن عائشة أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في حجر وأصحابه ، فقدم عليه وقد قتلهم ، فقال له عبد الرحمن: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ قال: غاب حين غاب عني مثلك من حلماء قومي^(٢) ، قال الذهبي: يعني أنه ندم^(٣).

ومع أن قتل حجر رضي الله عنه وإن ذكر له من الأعداء والمبررات ما ذكر ، ففي الحقيقة كانت غلطة من معاوية ، وكان ينبغي أن يتسع حلمه لصحابي من صحابة رسول الله ﷺ . وقد ندم معاوية ندماً كبيراً على قتل حجر ، وظل يذكر هذه الحادثة طوال حياته^(٤) ، وقد روي أنه قال عند موته: يوم لي من ابن الأدر طويل: ثلاث مرات - يعني حجر^(٥).

٤ - موقف لمالك بن هبيرة السكوني رضي الله عنه :

لم يقبل معاوية رضي الله عنه شفاعة مالك بن هبيرة السكوني في حجر بن عدي ، فجمع مالك قومه وسار ليخلصه وأصحابه ، فلقي القتلة وسألهم ، فقالوا: مات القوم . وسار إلى عدي فتيقن قتلهم ، فأرسل في أثر القتلة فلم يدركهم ، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها في نفسه وكأنني بها قد طفئت . ثم أرسل إليه بمئة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حرباً فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر ، فطابت نفسه^(٦).

وكان مالك بن هبيرة السكوني صحابياً جليلاً ، وكان معاوية رضي الله عنه ولأه حمص ، وكان يقول فيه: ما أصبح عندي من العرب أوثق في نفسي نصحاً بجماعة المسلمين وعامتهم من مالك بن هبيرة^(٧). وقد كان يسع معاوية غير القتل من العقوبات ، كالسجن ، أو تفريق حجر وجماعته ، أو يمن بهم على عشائهم^(٨).

(١) المصدر السابق نفسه (٤/٢٧٣)، نقلاً عن مرويات معاوية، (ص ٤٤٠).

(٢) تاريخ الطبري (٦/١٩٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٤٦٥).

(٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، (ص ١١٦).

(٥) تاريخ الطبري (٦/١٩٦).

(٦) تاريخ ابن خلدون (٣/١٧).

(٧) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية، (ص ٦٧١) ، الطبقات الكبرى (٧/٤٢٠).

(٨) القراء ودورهم في الحياة العامة، (ص ١٩٥).

٥- ما قيل في حجر بن عدي من رثاء :

قالت هند بنت زيد بن مخزومة الأنصارية في رثاء حجر :

تَرْفَعُ أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمَنِيرُ تَبَصَّرْ هَلْ تَرَى حَجْرًا يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ لِيَقْتَلَهُ كَمَا زَعَمَ الْأَمِيرُ
تَجَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حَجَرٍ وَطَابَ لَهَا الْخَوَزَنْقُ وَالسَّادِيرُ
وَأَصْبَحَتِ الْبِلَادُ بِهَا مُحُولًا كَأَن لَّمْ يُحْيِهَا مُزَنٌ مَطِيرُ
أَلَا يَا حَجْرُ حَجْرُ بْنُ عَدِيٍّ تَلَقَّاكَ السَّلَامَةَ وَالشُّرُورُ
أَخَافُ عَلَيْكَ مَا أَدْرِي عَدِيًّا وَشِخَا فِي دِمَشْقَ لَهُ زَيْرُ

إلى أن قالت :

أَلَا يَا لَيْتَ حَجْرًا مَاتَ مَوْتًا وَلَمْ يُتَحَرَّ كَمَا نُحَرِّ البَعِيرُ
فَإِنْ تَهْلِكُ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى هَلِكٍ يَصِيرُ^(١)

وفيما عدا قضية حجر وأصحابه فقد حافظ معاوية على سياسته السلمية القائمة على الحلم وسعة الصدر مع رعيته ، والتي لخصها هو نفسه في جمل يسيرة حين قال : لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ؛ كانوا إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها^(٢) . وهي سياسة حكيمة تفسح المجال أمام القول إذا ما ظل في حدود لا يتعداها ، فحيث يكفي المال عن اللسان يعتمد ، ولا يضع السوط حيث يكفي اللسان ، ولا يضع السيف حيث يكفي السوط^(٣) ، وقد قيل : بأن سليم مولى زياد فخر بزياد عند معاوية ، فقال معاوية : اسكت ما أدرك صاحبك شيئاً قط بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني^(٤) .

* * *

(١) تاريخ الطبري (١٩٦/٦) .

(٢) السلطان ، لابن قتيبة ، (ص ٥١) .

(٣) السلطة والمعارضة في الإسلام ، زهير هواري ، (ص ٢٦٢) .

(٤) السلطان ، لابن قتيبة ، (ص ٥٣) .

المبحث الثاني

مباشرة معاوية للأمر بنفسه وحرصه على توطيد الأمن في خلافته

أولاً: مباشرة معاوية للأمر بنفسه :

ومن القواعد التي قامت عليها سياسة معاوية الداخلية : مباشرة الأمور بنفسه ، وكان رضي الله عنه يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة في دولته فرغم أنه استعان بأمر رجال عصره ، إلا أنه لم يكن يكتفي بذلك بل كرّس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين^(١).

١ - مجلس معاوية في يومه :

كان معاوية رضي الله عنه يظهر في اليوم واللييلة خمس مرات ، فكان إذا صلى الصبح جلس للقصاص حتى يفرغ من قصصه ثم يدخل فيؤتى بمصحفه ، فيقرأ جزأه ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى ثم يصلي أربع ركعات ، ويخرج إلى مجلسه ، فينادي بخاصته ، فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراءه ، فيكلمونه فيما يريدون من يومهم ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر ، وهو فضل عشاء الليل ، . . . ثم يتحدث طويلاً ، ثم يدخل منزله لما أراد ، ثم يخرج فيقول : يا غلام أخرج الكرسي ، ويسند ظهره إلى المقصورة ، ويقوم الحراس ، فيقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ، فيقول : ظلمت ، فيقول : أعزّوه ويقول : عُدِّي عليّ ، فيقول : ابعثوا معه ، ويقول : صنّع بي ، فيقول : انظروا له ، حتى إذا لم يبق أحد ، دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلني أحد عن رد السلام ، فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله عمره؟ فيقول : بنعمة من الله ، فإذا استوا جلوساً ، قال : يا هؤلاء إنما سُميتُم أشرافاً ، لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا حاجة من لا يصل إلينا ، فيقوم الرجل فيقول : استشهد فلان ، فيقول : افرضوا لولده ، ويقول : غاب فلان عن أهله ، فيقول : تعاهدوهم وأعطوهم ، واقضوا حوائجهم واخدموهم .

ويؤتى بالغداء ويحضر الكاتب ، فيقوم عند رأسه ، ويقدم الرجل فيقال له : اجلس على

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (ص ١١٧).

المائدة فيجلس فيمد يده ، فيأكل لقمتين أو ثلاثاً ، والكاتب يقرأ كتابه ، فيأمر فيه بأمره ، فيقال : يا عبد الله أعقب ، فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم ، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء ، ثم يرفع الغداء ، وينصرف الناس ، ويدخل منزله ، فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلي^(١) ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة ، فإن كان الوقت شتاء أتاهم بزداد الحاج ، من الأخبصة اليابسة والخشكبالج^(٢) ، والأقراص المعجونة بالسكر واللبن من دقيق السميد ، والكعك المسمن والفواكه اليابسة ، وإن كان الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة ، ويدخل عليه وزراء فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ، ويجلس إلى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصر ثم يدخل منزله ، فلا يطعم فيه طامع حتى إذا كان في آخر وقت العصر ، خرج فجلس على سريره ، ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منها مقدار ما ينادى بالمغرب فيصليها ، ثم يصلي أربع ركعات ، يقرأ في كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت أخرى .

ثم يدخل منزله فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة ، فيخرج فيصلي ثم يؤذن للخاصة ، وخاصة الخاصة ، والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم ، ويسمر ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياساتها ، وسير الأمم وحروبها ، ومكائدها وسياساتها لرعيتهما ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطرف الغربية من عند نسائه : من الحلواء وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم : فيحضر الدفاتر ، فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكائد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وگگلو بحفظها وقراءتها ، فيمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار ، فيخرج ثم يصلي الصبح ، ثم يعود فيفعل ما وصفنا كل يوم وليلة ، وقد تبعه في ذلك عبد الملك بن مروان وغيره ، فلم يدركوا حلمه ، ولا إتقانه السياسة ولا التأني للأمور ، ولا مداراة الناس على منازلهم ، ورفقه بهم على طبقاتهم^(٣) .

٢- الدواوين المركزية التابعة لمعاوية :

أ- ديوان الرسائل :

هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده ، ووصاياه ، ومواريثه إلى موظفيه في الأقاليم الإسلامية إلى البلدان الخارجية التي لها علاقة بالدولة الإسلامية^(٤) ، ومن

(١) الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، (ص ٣٠٩) .

(٢) الخشكبالج : نوع من الحلوى .

(٣) الشهب اللامعة ، (ص ٣١٠) ؛ مروج الذهب (٣/ ٢٢٠ ، ٢٢٢) .

(٤) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ، (ص ١٢٤) .

أشهر من أشرف على ديوان الرسائل وقام بمهمة الكتابة في هذا الديوان في عهد معاوية: عبد الله بن أوس الغساني ، وزمل بن عمرو العذري ، واستمر هذان الكاتبان في خلافة يزيد الأول^(١) ، وكانت وسيلة الرسائل في الاتصال بالولاة وقادة الجند ، والقضاة ، وزعماء القبائل تابعة لمعاوية وتحت إشرافه المباشر .

ب- ديوان الخاتم :

أنشأ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة ، فلا تطلع عليها عين جاسوس ، ولا تصل إليها يد خائن^(٢) ، وكان من أغراض هذا الديوان تحاشي التزوير ، ومنع حدوث التلاعب في الكتب التي يصدرها الخليفة ، ثم أصبح الديوان بمثابة سجل للكتب الصادرة ، وصارت الدولة تعتمد عليه في تدقيق الأوامر ، والمراسلات التي تتعلق بالصرف والحسابات ، بين مقر الخلافة والأقاليم الإسلامية الأخرى^(٣) ، كما أنه كان يقوم بالإشراف على تدقيق الدواوين الأخرى ، وبيان الأخطاء التي تقع فيها .

وهذا الديوان يختلف عن ختم الرسول ﷺ ، وختم الخلفاء الراشدين ، فختم الرسول ﷺ يعني التوقيع بالختم ، بينما نراه في عهد معاوية ، وعصر الدولة الأموية بمثابة جهاز للفحص والتدقيق في الأعمال الصادرة عن الدواوين الأخرى ، وقد تقلد الخاتم الكبير لمعاوية: عبد الله بن محصن الحميري ، وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمر بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمئة ألف درهم ، وكتب بذلك إلى زياد بن أبيه وهو على العراق ، ففض عمرو الكتاب وصير المئة مئتين ، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية ، فأخذ عمرأ بردها ، وحبسه ، فأذاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير ، فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وخزم الكتب^(٤) ، ولم تكن تخزم^(٥) ، وفي الحقيقة فإن تأسيس ديوان الخاتم أملت ظروف اتساع الدولة الإسلامية في عهد معاوية رضي الله عنه ، وحاجة الخليفة إلى نظام اتصال آمن وسري لمتابعة عماله وقواده ورجال دولته^(٦) .

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٥٦) .

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ٤٣٣) .

(٣) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ، (ص ١٧٠) .

(٤) تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر ثم يوضع خاتم الخلافة .

(٥) الإدارة في العصر الأموي ، (ص ٢٨٧) ؛ مرويات خلافة معاوية ، (ص ٧٥) .

(٦) مرويات خلافة معاوية ، (ص ٧٦) .

جـ- ديوان البريد :

يذكر المؤرخون : أن معاوية بن أبي سفيان أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية ، وأصدر أوامره بوضع الخيول في عدة أماكن ، وقام بتنظيمه ^(١) ، وتشير بعض المصادر إلى أنه اقتبس من الروم ^(٢) ، وكانت أعماله في العصر الأموي واسعة ومتشعبة ، نظراً لسعة رقعة الدولة الإسلامية .

وقد قام الخلفاء الأمويون بتحسين طرق المواصلات التي يسير عليها صاحب البريد ، وكانت تلك الطرق واضحة ومعلومة ، والدليل على تحسين هذه الطرق هو سرعة وصول الأخبار إلى مقر الخلافة بالشام ^(٣) .

ولم تكن خدمات ديوان البريد قاصرة على ما يتعلق بالدولة ، بل كان في بعض الأوقات يحمل رسائل الناس من بلد إلى آخر ^(٤) .

وكانت الدولة في عهد معاوية لا تستغني عن البريد في حالات السلم ، وحالات الحرب ، وكان موظف البريد من أهم أعوان الخليفة ، وقد ذكرت بعض المصادر أسماء بعض من اشتغل مع معاوية في ديوان البريد ؛ وهما : نصر بن ذبيان ، والكميت ، كانا على البريد في أيام معاوية ، واستخدمهما في نقل الأخبار بين الشام والحجاز ^(٥) .

وكانت أهم وسائل النقل : البغال ^(٦) ، والخيول ^(٧) ، ويعتبر معاوية مؤسس نظام البريد في الإسلام ، حيث كانت الرسائل ترسل قبل ذلك من قبل الخليفة إلى الجهة التي يراد إرسالها إليها ، عن طريق رسول يحملها وينطلق بها وحده ، حتى يوصلها إلى الجهة المقصودة ، فكانت الرسائل بذلك تستغرق مدة طويلة حتى تصل إلى محلها ، وأما نظام البريد الذي استخدمه معاوية اقتباساً من البيزنطيين فقد كان يقتضي أن تقسم الطرق إلى مسافات ، يوضع في نهاية كل مسافة دواب (خيل) مهيأة لحمل رسائل الخليفة إلى الجهات المختلفة ، تسلم الكتب والرسائل إلى صاحب البريد ، وينطلق بها مسرعاً حتى إذا بلغ نهاية المسافة سلمها لمن بعده ، وتظل الرسالة

(١) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ، (ص ١٧٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٧٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٧٦) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) العيون والحدائق (٣/ ٨٢) ؛ إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ، (ص ١٧٦) .

تنطلق من مسافة إلى مسافة حتى تصل إلى الجهات المرسله إليها في أقصر مدة ، وأما مقدار المسافة الواحدة ، فكان أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، وبذلك تكون طول المسافة اثني عشر ميلاً ، أي : عشرين كيلو متراً تقريباً ، وهذه المسافة تسمى بريداً ، وبهذه الطريقة تصل الرسالة بأكبر سرعة ، دون إجهاد لصاحب البريد ، حيث إن المسافة يمكن قطعها بسهولة ، وتناوب أصحاب البريد إذا كان سيقطع المسافة وحده ، وهكذا يوفر هذا النظام الراحة لأصحاب البريد ، واختصار الوقت^(١) ، يقول أبو هلال العسكري : أول من وضع البريد في توصيلها يوفر الزمن الذي يستريحه صاحب البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، وأحكم أمره عبد الملك^(٢) .

د- نظام الكتبة :

كان هناك كاتب لديوان الرسائل ، وآخر لديوان الخراج ، وثالث لديوان الجند ، ورابع لديوان الشرطة ، وخامس لديوان القضاء ، وكان في عهد الأمويين أكبر دواوين الدولة ، ويقوم الموظفون فيه بنسخ أوامر الخليفة ، وإيداعها ديوان الخاتم ، بعد أن تحزم وتختم بالشمع ، ثم تختم بخاتم صاحب الديوان^(٣) ، وظل ديوان الخاتم من أكبر دواوين الدولة ، منذ أنشأ معاوية ، وحتى أواسط العهد العباسي^(٤) . وكانت هذه الدواوين تقوم بأعمال وزارة المالية (ديوان الخراج) ، ووزارة الدفاع (ديوان الجند) ، ووزارة الداخلية (ديوان الشرطة) ، ووزارة العدل (ديوان القضاء) ، كما كان ديوان الرسائل يقوم بأعمال السكرتيرية ، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشفة ، وكان لكل ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين ، وكان ديوان الخراج يكتب في العراق باللغة الفارسية ، وفي الشام ومصر باللغة الرومية ، وظل كذلك حتى عرّبه عبد الملك بن مروان^(٥) .

ثانياً : حرصه على توطيد الأمن في خلافته :

ومن القواعد التي بنى عليها معاوية سياسته الداخلية : توطيد الأمن في ربوع العالم الإسلامي ، وقد اتخذ معاوية عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف .

١- الحاجب :

كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحاجب في الإسلام ، لكي يتجنب محاولات

(١) الأمويون بني الشرق والغرب (١/ ١٠٠) .

(٢) الأوائل ، (ص ٢٣٧) .

(٣) تاريخ الإسلام (١/ ٤٥٨) .

(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٥٩) .

(٥) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٠٢) .

الاعتداء عليه^(١)، وكانت بعض المظاهر الملكية لها ما يبررها في هذه الحقبة التاريخية؛ فقد عبّر ابن خلدون عن احتجاج الخلفاء عن الناس، على النحو التالي: كان أول شيء بدأ به في الدولة شأن الباب وستره دون الجمهور، لما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلي ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب^(٢).

ومما يعزز آراء ابن خلدون عن وجود العامل الأمني وراء اتخاذ معاوية من محاولة اغتياله التي دبرها الخوارج: أمر عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد^(٣).

وقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون في الشام قريباً من أعدائهم الموتورين من الروم، فضلاً عن أعدائهم الموتورين من الشيعة والخوارج المتفرقين في البلاد، وكانوا يرون أنه لا بد لهم لاستقرار الدولة الإسلامية التي قتل ثلاثة من خلفائها من اتخاذ نمط من أنماط الحراسة والاحتراز^(٤)، وقد ذكر المؤرخون أسماء أربعة من مواليه شغلوا له وظيفة الحاجب، وهم: سعد، وأبو أيوب، وصفوان^(٥)،... وكان يشترط في الحاجب أن يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم، لكي يتمكن أن يعرف من يأذن لهم، ومن لا يأذن لهم، فقد رويت أخبار كثيرة تؤكد ذلك، فمعاوية بن أبي سفيان قال لحصين بن المنذر، وكان يدخل عليه في أخريات الناس: يا أبا ساسان كأنه لا يحسن أذنك؟ فأنشأ يقول:

وكلُّ خفيفِ السَّاقِ يسعى مشمراً
إذا فتحَ البوابُ بابَكَ أصعباً
ونحنُ الجلوسُ الماكثون رزانةً
وحلماً إلى أن يفتحَ البابُ أجمعاً^(٦)

وعندما دخل شريك الحارثي على معاوية قال له: من أنت؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما رأيت لك هفوة قبل هذه؛ مثلك ينكر مثلي من رعيته؟! فقال له معاوية: إن معرفتك متفرقة؛ أعرف وجهك إذا حضرت الوجوه، وأعرف اسمك في الأسماء إذا ذكرت، ولا أعلم أن ذلك الاسم هو هذا الوجه ما ذكر لي اسمك تجتمع معرفتك^(٧)، فالحاجب يخبر الخليفة والخليفة هو الذي يأذن أو لا يأذن.

(١) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، (ص ١٠٢).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٤٩/٢ - ١٥٠).

(٣) تاريخ الطبري (٦٥/٦).

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، (ص ٢٧١).

(٥) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، (ص ١٠٣)؛ البداية والنهاية (١١/٤٦٥).

(٦) البيان والتبيين (٩٠/٢)؛ إدارة بلاد الشام، (ص ١٠٧).

(٧) عيون الأخبار (٩٠/١).

وذاث يوم وقف الأحنف بن قيس ، ومحمد بن الأشعث بباب معاوية الأول ، فأذن للأحنف ، ثم أذن لابن الأشعث ، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله ، فلما رآه معاوية غمه ذلك ، وأحنقه ، فالتفت إليه فقال : والله إني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله ، وإنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم ، ولا يزيد متزيد في خطوة إلا لنقص يجده في نفسه^(١).

٢- الحرس :

كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحرس في الدولة الإسلامية ، خوفاً من الخوارج الذين كانوا يريدون قتله ، فقد أمر بالمقصورات في الجوامع وكان لا يدخلها إلا الثقات وحراسه^(٢) ، وكما يبدو أن معاوية لم يكتفِ باتخاذ الحرس ، بل اتخذ المقاصير زيادة في التشدد ، وذلك لحماية نفسه من أي اعتداء قد يقع عليه^(٣) ، وقد ذكرت كتب التاريخ أسماء رؤساء الحرس في عهد معاوية وهم : المختار أبو المخارق^(٤) ، ويزيد بن الحارث العبسي^(٥).

٣- الشرطة :

وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام ، والقبض على اللصوص والجناة والمفسدين ، والدفاع عن الخليفة ، وهي غير مسؤولة عن صد أي هجوم خارجي عن الدولة^(٦).

وقد قام معاوية بتنظيمها وتطويرها في الشام ، وقد ذكر المؤرخون أربعة أسماء من الذين عينهم على رئاسة الشرطة وهم : قيس بن حمزة الهمداني ، زميل بن عمرو العذري ، الضحاك بن قيس الفهري ، ويزيد بن الحر العنسي^(٧).

والشرطة لا يقتصر وجودها على عاصمة الخلافة فقط بل في الولايات الإسلامية الأخرى ، وهم يتبعون الولاة ؛ فهم الذين يختارونهم ويعينونهم ، وكان وجودها مهماً للدولة والمجتمع ، فالدولة تعتمد عليها في قمع المتمردين ، وفي القضاء على الثورات ، والاضطرابات ، وربما كانت تحل محل الجند في حالة عنايتهم واشتراكهم في الغزوات ، وهي للمجتمع ، لأنها تعمل

(١) العقد الفريد (٦٨/١) ؛ إدارة بلاد الشام ، (ص ١٠٨).

(٢) إدارة بلاد الشام في العهدين ، (ص ١١١).

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) البداية والنهاية (١١/٤٦٥).

(٥) إدارة بلاد الشام في العهدين ، (ص ١١٧) ؛ العقد الفريد (٤/٣٦٢).

(٦) المصدر السابق نفسه ، (ص ١١٥).

(٧) المصدر السابق نفسه ، (ص ١١٧).

على تحقيق الأمن والاستقرار ، فهي الجهة الوحيدة المسؤولة عن حماية أرواح الناس ، وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض ، وقد كلف الخلفاء الأمويون رؤساء الشرطة بأعمال شتى خارج بلاد الشام وداخلها: فالضحاك بن قيس كلفه معاوية بإبلاغ وصيته لابنه يزيد ، وأخذ البيعة له^(١).

٤- حسن اختيار الرجال والأعوان:

فقد وفق معاوية رضي الله عنه في اختيار أعوانه من الرجال الموثوق بولايتهم وخبرتهم الإدارية ، مع حكمتهم ودعائهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: عمرو بن العاص السهمي ، والمغيرة بن شعبة الثقفي ، وزباد بن أبيه الثقفي ، ويزيد بن الحر العبسي ، والضحاك بن قيس الفهري ، وعبد الله بن عامر بن كريب ، وغيرهم من القادة المقاتلين؛ أمثال: المهلب بن أبي صفرة ، وعقبة بن نافع الفهري ، ومالك بن هبيرة ، وجنادة بن أمية الأزدي وآخرين ، وكان عمرو بن العاص يقول: أنا للبيضة ، ومعاوية للأناة ، والمغيرة للمعضلات ، وزباد لصغار الأمور وكبارها^(٢).

وقد ساهم هؤلاء في إدارة الدولة وفتحها والتصدي لأعدائها ، فكان لهم دور كبير ومتميز في ترسيخ وتوطيد وتثبيت الأمن ودعائم الخلافة الأموية^(٣).

٥- استخدام المال في تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب:

فقد اعتُبر معاوية من أجواد العرب ؛ لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء وجاد بالمال مع المدارة ، وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره أسكته بالمال^(٤).

٦- اتباع سياسة الشدة واللين في الوقت نفسه حسب الظروف والأحوال:

وظهرت هذه السياسة بشكل واضح بعد توطيد دعائم الخلافة الأموية ، وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه في ذلك وقال: إنه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس بسياسة واحدة ، إنا إن نشد جميعاً نهلك الناس ونخرجهم ، وإن نلن جميعاً نبطرحهم ، ولكن تلين وأشدتد ، وتشدتد وألين^(٥) ، ويمثل هذه السياسة ما نسب إلى معاوية رضي الله عنه من أقوال؛ مثل: لا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، فإذا لم أجد من السيف بدأ

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٢٣)؛ الأخبار الطوال ، (ص ٢٠٥ ، ٢٠٦).

(٢) أنساب الأشراف (١٣١/٤).

(٣) الجذور التاريخية للأسرة الأموية ، (ص ١٠٠).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) أنساب الأشراف (٨٤/٤).

وبعد نيله الخلافة^(١)؛ تمثلت في حركة الفتوحات في عصره ، وهذا سيأتي تفصيله في محله بإذن الله تعالى .

١١ - سياسة الموازنات :

على الرغم من نفوذ الكلبيين في الدولة الأموية ، فإن المعادلة لم تكن قائمة على التحالف الأموي - الكلبي ، ولكنها اتخذت في عهد معاوية رضي الله عنه منحىً توازياً ما بين كلب وفهر بصورة خاصة ، وقحطان وقيس بصورة عامة ، فإذا كان الكلبيون قد حملوا عبء الدفاع المسلح عن الدولة ، مؤثرين الإقامة في جنوب الشام (جند الأردن) ، فإن الفهرين كان لهم الدور السياسي والإداري البارز فضلاً عن الدور العسكري ، حيث شارك زعيمهم الضحاك بن قيس في صفين ، وكان بالإضافة إلى ذلك في طليعة الذين اعتمد عليهم معاوية في حضّ الناس على البيعة ليزيد^(٢) ، وقد ارتفع الضحاك في السياسة الأموية ، وفي أعقاب الدور الأمني الذي شغله في عهد معاوية كقائد على شرطته^(٣) ، والدور السياسي في عهد يزيد ، كعامل له على دمشق ، مما هيأه من خلال هذا الموقع الهام ، لدور أكثر خطورة بعد وفاة معاوية الثاني الذي أوصى بأن: يصلي الضحاك بالناس بدمشق^(٤).

وهكذا نجح مؤسس الدولة الأموية في الإمساك بزمام الأمور من خلال الموازنة بين القبائل الشامية الكبرى ، دون أن يدع لأي منها مجاًلاً بأن تتجاوز حدودها المرسومة لها في الدولة ، بما في ذلك القبيلة الكلبية الأثيرة .

وقد اتسعت دائرة هذه السياسة ، لتصبح ظاهرة من ظواهر عهد معاوية رضي الله عنه ، حيث نجح معاوية في تحقيق التوازن المنشود داخل قريش (المهاجرة ، وغير المهاجرة) ، فضلاً عن التوازن داخل الأسرة الأموية (بنو حرب ، وبنو العاص) واحتواء الثقفين بعد منحهم إدارة العراق الذي ارتبط تاريخه أو كاد بهذه الأسرة ، إلى آخر هذه التوازنات المتقنة التي ضبطها معاوية رضي الله عنه^(٥).

١٢ - سياسته مع الأسرة الأموية :

لم يأت معاوية رضي الله عنه للخلافة بدعم مادي أو معنوي من الأسرة الأموية ، وإنما أتاه من جبهة شامية قبلية متماسكة وقفت وراءه؛ لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز في إدارة الدولة في

(١) الدولة الأموية ، د. فرست مرعي الدهوكي ، (ص ٦٤).

(٢) الطبقات (٢٢/٦).

(٣) مؤتمر الجابية ، إبراهيم بيضون؛ جمهرة النسب ، ابن الكلبي (١/٤٧١).

(٤) الطبقات (٣٩/٦)؛ مؤتمر الجابية ، (ص ٣٥).

(٥) مؤتمر الجابية ، (ص ٣٦).

عهد من الناحية الإدارية أو من الناحية العسكرية ، نلاحظ ذلك من خلال استعراض أسماء ولاية وقادة معاوية الذين استعان بهم^(١) ، إلا أن معاوية لم يجاف أسرته جفاء تاماً ، بل استعان بأفراد منها ؛ واضعاً نصب عينيه هدفين :

أ- الاستعانة بالأكفاء منهم .

ب- الحيلولة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهدد مخططاته السياسية^(٢) .

وقد استطاع معاوية تحقيق وحدة الصف الأموي بما كان يملك من صفات ومؤهلات قيادية فذة^(٣) .

هذه هي أهم الوسائل التي اتخذها معاوية لتوطيد الأمن في دولته رضي الله عنه .



(١) سيأتي الحديث عن أسمائهم بإذن الله عند التحدث عن الولاية .

(٢) الدولة الأموية ، فرست مرعي ، (ص ١٧٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٨٠) .

المبحث الثالث

حياة معاوية في المجتمع واهتماماته العلمية

أولاً: حياة معاوية في المجتمع :

١ - بين معاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهما :

قال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين ألسنت أنصح الناس لك؟ قال : بذلك نلت ما نلت^(١).

٢ - مشاجرة في مجلس معاوية :

عن جويرية بن أسماء : أن بسر بن أبي أرطاة نال من علي عند معاوية ، وزيد بن عمر بن الخطاب جالس ، فعلاه بعصاً فشجعه ، فقال معاوية لزيد : عمدت إلى شيخ من قريش سيد أهل الشام فضربت ، وأقبل على بسر فقال : تشتم علياً وهو جده وابن الفاروق على رؤوس الناس ، أو كنت ترى أنه يصبر على ذلك ؟! ثم أرضاهما جميعاً^(٢).

٣ - أنا أحق بهذا منك :

قال معاوية : ما من شيء أحب إلي من عين خراطة في أرض خوّارة ، فقال عمرو بن العاص : ما من شيء أحب إلي من أن أبيت عروساً بعقيلة من عقائل العرب ، فقال وردان مولى عمرو بن العاص : ما من شيء أحب إلي من الإفضال على الإخوان ، فقال معاوية : أنا أحق بهذا منك ، قال : ما تحب فافعل^(٣).

٤ - نعى إلي نفسي :

كان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريداً إلى معاوية أمر مناديه فنادى : من له حاجة

(١) تاريخ الطبري (٢٥٣/٦).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه (٢٥٤/٦).

١٧- إطعام الصائمين :

جعل أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه دار المراحل بمكة ، والتي كان يطبخ فيها طعام الحجاج وطعام الصائمين من الفقراء في شهر رمضان المبارك^(١) وفقاً في سبيل الله .

١٨- الله أقدر عليك منك عليه :

رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً له ، فقال له : اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه ، سوء لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك؟! والله لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإحسان ، وإن أحسن من عفا لمن قدر^(٢) .

فهذا توجيه سديد من أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه لابنه يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم : العفو عند المقدرة ، هذا الخلق الذي يعتبر من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمة ، ولقد ذكّره بقدرة الله جل وعلا عليه ليحطّ من تعاضمه بنفسه ، وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده^(٣) .

ثانياً: اهتماماته العلمية :

كان معاوية رضي الله عنه يشجع الولاة والعلماء وأبناء الأمة على إيجاد نهضة ثقافية حضارية ، وشهد عصره نهضة في التفسير وعلوم القرآن والفقه والعقيدة ، وتألق فيه نجم عديد من العلماء الذين ظل المسلمون بعد ذلك يأخذون من علومهم ويستشهدون بأقوالهم واجتهاداتهم ، كابن عباس وأبي هريرة ، وابن عمر ، وغيرهم ، وكانت العلوم الرئيسة هي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه واللغة العربية ، واهتم معاوية رضي الله عنه بغيرها من العلوم أيضاً منها :

١- اهتمام معاوية بالتاريخ :

كان معاوية رضي الله عنه الراعي الذي عمل على أول تدوين باللغة العربية للتاريخ بمعناه العام لا على أنه المغازي النبوية وقصص الأنبياء ، ولا على أنه الأنساب ، وأيام العرب ، ولكن على أنه تاريخ الأمم السالفة ، وسير الملوك والحروب ، وأنواع السياسات مما هو جدير بالقراءة على الملوك^(٤) ، فقد كان ينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢٦) .

(٢) البداية والنهاية ؛ نقلاً عن التاريخ الإسلامي (١٧/٢٣) .

(٣) التاريخ الإسلامي (١٧/٢٤) .

(٤) الدولة الأموية ، حمدي شاهين ، (ص ٤٥٤) ، التاريخ العربي (١/٩٥) .

يا أيها الرجل المعلم غيرَه
تصفُ الدواء لذي السَّقام وذي الضنى
ونراك تُصلِّحُ بالرَّشادِ عقولنا
ابدأ بنفسك فانْهَها عن غيِّها
فهنالك يسمَعُ ما تقول ويُهتدى
لا تنهَ عن خلقٍ وتأتى مثلهُ

وله في الزهد المبرأ من الكسل ؛ كقوله :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً
فليعطيكَ ما أراد بقُدرةٍ
ودعِ العبادَ وشأنَهُم وأمورَهُم

٣- اهتمام معاوية بالعلوم التجريبية :

ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم ، وكان لا بد - للإفادة من ذلك التراث - من ترجمته ونقله إلى العربية بعد أن غدا تراثاً تقليدياً تداولته أيدي الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية^(٣) ، وقد كان بعض هذه الترجمات حافزاً على الاهتمام بالعلوم التجريبية ، وربما كان العكس صحيحاً أحياناً . ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه إمكانات الأفراد العاديين ، ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة - على نحو ما سنرى بإذن الله - كانت بداياتها من عهد معاوية ؛ فقد كان سباقاً إلى رعاية العلوم وأهلها ، فأنشأ بيتاً للحكمة ؛ أي : مركزاً للبحث ، ومكتبة ، واستمر المروانيون يعنون بهذا البيت حتى في أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به^(٤).

ويشير بعض المؤرخين إلى دور ابن أثال النصراني طبيب معاوية في نقل بعض معارف الطب إلى العربية^(٥) ، على أن بداية الجهود الحقيقية في الترجمة بدأت مع خالد بن يزيد أول من عني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية ، فقد أمر بإحضار جماعة من اليونانيين ممن درسوا بمدرسة الإسكندرية في مصر ، وتفصَّحوا بالعربية كذلك ، فطلب منهم نقل كثير من الكتب من

(١) الأدب الإسلامي وتاريخه ، عابد الهاشمي (١٧/٢).

(٢) المصدر السابق نفسه ؛ ديوان أبي الأسود الدؤلي .

(٣) تاريخ سورية ، فيليب حتي (١٣٢/١) ؛ الدولة الأموية ، شاهين ، (ص ٤٥٩).

(٤) الدولة الأموية ، يوسف العش ، (ص ٣٤٨).

(٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ابن أبي أصيبعة ، (ص ١٧١٧).

اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي ، وكان هذا أول نقل في الإسلام^(١) ، كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب ، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية ، وهو أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء كل صناعة ، وترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء ، والحروب والآلات والصناعات ، وهو أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة الإسلام ، ففي دمشق إذا أنشئت أول دار للكتب في العالم الإسلامي^(٢) .

وقد ظهرت دلائل كثيرة تدل على تزايد عدد المشتغلين في الطب في عهد معاوية ؛ بحيث أصبحت النسبة : طبيب لكل ٥٣٤ خمسمئة وأربعة وثلاثين فرداً ، وهذه النسبة تم أخذها مما أورده ابن كثير من أن زياد بن أبيه والي البصرة حينما طعن في يده جمع مئة وخمسين طبيباً ليداووه^(٣) ، وكان عدد سكان البصرة ثمانين ألفاً تقريباً^(٤) .

* * *

(١) الدولة الأموية ، حمدي شاهين ، (ص ٤٦٠).

(٢) خطط الشام (٢٣/٤ - ٢٤) ؛ الدولة الأموية ، حمدي شاهين ، (ص ٤٦٠).

(٣) البداية والنهاية (١١/٢٦١).

(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢٥٥).

المبحث الرابع

الخوارج في عهد معاوية

عرف الخوارج بهذا الاسم بعد التحكيم في معركة صفين ، وكانوا قبلها من أشد أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحضروا معه موقعة الجمل وصفين ، ولكنهم انشقوا عليه بعدها ، ورفضوا التحكيم ، وحاول علي إقناعهم وردهم إلى الجماعة ولكنهم تشبثوا بموقفهم ، وبالغوا في شقاقهم وتطرفوا ، حتى عاثوا في الأرض فساداً ، مما جعل علياً يقاتلهم ويقضي على معظمهم في معركة النهروان .

وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج ، لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام ، وعلى جماعة المسلمين ، أما هم فيسمون أنفسهم : الشراة ، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى ، على أن لهم الجنة ، يشيرون بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ . . . [التوبة : ١١١] . ويسمون : المحكمة ، لأنهم قالوا : لا حكم إلا لله ، وكان يطلق عليهم أيضاً : الحرورية ، نسبة إلى قرية حروراء التي انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على علي^(١) .

ولما كان سبب خروجهم هو قبول علي التحكيم بينه وبين معاوية رضي الله عنهما ، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية في الخلافة تقوم على مبدئين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة^(٢) :

المبدأ الأول : أن الخلافة ليست وقفاً على قريش كما يذهب أهل السنة^(٣) ، بل تجوز لكل مسلم يكون أهلاً لها حتى ولو كان عبداً حبشياً ، ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين ، وأنه إذا تم اختياره لا يصح له أن يتنازل عنها ، أو يقبل التحكيم ، وفي ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر ، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته في شطرها الأول ، ثم

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي ، (ص ٤٥٤) .

(٢) النظريات السياسية الإسلامية ، محمد ضياء ، (ص ٥٧) .

(٣) الدولة الأموية في المشرق ، محمد النجار ، (ص ٨٧) .

وقيل: أبو حصين التميمي ، وكان الجيش ألفي رجل ، فلمّا وصلوا إلى أبي بلال ناشدهم الله أن لا يقاتلوه فلم يفعلوا ، ودعاهم أسلم إلى معاودة الجماعة ، فقالوا: أتردّوننا إلى ابن زياد الفاسق؟ فرمى أصحاب أسلم رجلاً من أصحاب أبي بلال فقتلوه ، فقال أبو بلال: قد بدؤوكم بالقتال . فشذّ الخوارج على أسلم وأصحابه شذّة رجل واحد فهزموهم فقدموا البصرة ، فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت في ألفين ، لا خير فيك . فقال: لأنّ تلومني وأنا حي خير من تنني عليّ وأنا ميت ، فكان الصبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به: أما أبو بلال وراءك! فشكا ذلك إلى ابن زياد ، فنهاهم فانتهوا^(١) ، فهذه أهم حركات الخوارج في عهد معاوية .

ثالثاً: أهم الدروس والعبر والفوائد في محاربة معاوية للخوارج:

- ١ - إن الناظر في سلوك الخوارج زمن معاوية يجد أن خروجهم في ذلك العهد كان يستهدف إزعاج نظام حكم بني أمية وإضعافه ، دون أن يكون لهم أمل في القضاء عليه^(٢) .
- ٢ - كانت بعض هذه الحركات مقتصرة على المجموعات المنسحبة من التّهروان والتي ظلت مشتتة في الأرياف ، وعدم وجود ما يشير إلى مشاركة الخوارج المقيمين في الكوفة فيها ، وهو ما يؤكد عدم حصول تحول في موقف هؤلاء رغم التغير الذي طرأ على السلطة^(٣) .
- ٣ - ومن الملاحظات ما يخصّ الكوفيين الذين أبدى العديد منهم حماساً في محاربة الخوارج ، وإذا كنا نعتقد أن تهديدات معاوية وعداء بعض الكوفيين للخوارج بسبب موقفهم من علي قد لعبت دوراً في دفع هؤلاء إلى المشاركة في قمع الثائرين ، فإننا لا نستبعد أن تكون الرغبة الملحة في إنهاء الحروب والانقسامات والعودة إلى الوحدة قد ساهمت بدورها في دفع الكوفيين إلى مساعدة معاوية في القضاء على هؤلاء المعارضين ، رغم يقينهم أنّهم سيفقدون مع الحكم الجديد امتيازاتهم وسيفقد مصرهم المكانة التي كان يتمتع بها في خلافة علي^(٤) ، رضي الله عنه .
- ٤ - كان معاوية رضي الله عنه على وعي تام بحقيقة المعارضة الخارجية وموقفها من السلطة ومن شخصه بالذات ، ولذلك لم يعمل على جلب الخوارج إلى صفّه ، وقرّر منذ اللحظة الأولى التصدي لهم بالقوة^(٥) .

٥ - لم يتردد المغيرة بن شعبة في محاربة الخارجيين على السلطة بالشرطة والجيش ، ولم

(١) الكامل في التاريخ (٥١٨/٢) .

(٢) الخوارج في العصر الأموي ، نايف معروف ، (ص ١٣٠) .

(٣) حركة الخوارج ، لطيفة البكائي ، (ص ٦٠) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ٦٦) .

يقتصر استعمال القوة على الثائرين ، بل شمل حتى الذين بلغه أنهم ينوون الخروج ؛ مثل : معين بن عبد الرحمن المحاربي ، وحيان بن ظبيان السلمي ، وغيرهما ، وهو ما يدل على أن المغيرة كان يقوم بمراقبة تحركات الخوارج داخل مصر ، ويتجسس عليهم وينزل عقوباته بهم تبعاً لما يصله عنهم من أخبار^(١).

٦ - أهم وأخطر ما قام به المغيرة رضي الله عنه هو استعماله أنصار علي رضي الله عنه ضد الخوارج مستفيداً من العداوة التي كانت بينهم ، وهو عمل استفادت منه الدولة الأموية على المدى القريب والبعيد ، فعلى المدى القريب حاصر المغيرة بأعماله الفكر الخارجي في الكوفة ، وأسكت المعارضين الموجودين فيها دون أن يكلف الدولة خسارة تُذكر ، فضلاً عن أنه شغل الكوفيين عن معارضة الدولة الأموية ، وأعطاهما بذلك الفرصة لتدعيم نفوذها^(٢).

أما على المدى البعيد فقد عمّق المغيرة الهوة بين الخوارج والشيعية ، وأبعد إمكانية التقارب بين هاتين الحركتين لفترة طويلة ، مجنباً بذلك الدولة الأموية خطر مواجهة معارضة موحدة وقوية ، غير أن ما قام به المغيرة تجاه المعارضة في الكوفة لم يكن سوى تطبيق لأوامر الخليفة نفسه ، مع بعض الاجتهادات التي رأى أنها تخدم الدولة أكثر^(٣) . . . وأما أنصار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وخاصة الزعماء منهم ، فقد عملت الدولة الأموية على تقريهم وكسبهم ، ولذلك سلك المغيرة سياسة اللين معهم وهو ما ضمن الهدوء في الكوفة طيلة ولايته عليها^(٤).

٧ - مع تولي زياد البصرة : تصاعدت عمليات القمع ضد الخوارج ؛ فبالإضافة إلى القتل كان زياد يمثل بالمقتولين فيصلبهم في الأماكن العامة ، أو في دُورهم ، وقد شمل التمثيل الخارجيين من الرجال والنساء ، ورغم أن التمثيل يعد من الأعمال البشعة التي نهى رسول الله ﷺ عن القيام بها حتى مع الكفار ، فإن زياداً استعمله مع المسلمين رجالاً ونساءً ليروّع بقية السكان ويلزمهم الهدوء ، ولم تكن العقوبات المسلطة على الخوارج مقتصرة على القتل والتمثيل والتسيير والإقامة الجبرية ، بل شملت كذلك العطاء ، وقد تجاوز زياد في هذا المجال من سبقه من الحكّام ، إذ قام بشطب أسماء الخوارج من سجلات الديوان^(٥).

٨ - أقحم زياد بأعماله العنف في سياسة الدولة ، وجعله إحدى ركائزها ، واعتبر أن مصلحتها

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ٦٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٦٦) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) صدر الإسلام والدولة الأموية ، محمد عبد الحى شعبان ، (ص ٩٩) ؛ الخوارج ، لطيفة البكائي ، (ص ٧٠) .

تقتضي استعماله ضدّ كل الذين يرفضون الخضوع لسلطتها^(١).

٩ - أدّت سياسة زياد - العنيفة - إلى إخماد تحرّكات الخوارج ، وفرضت هيبة الدولة على الجميع ، وحولت القبائل إلى طرف له دور في سياستها، ومنحتها مهمة توفير الأمن داخل المصر بعد أن كانت مهامها تقتصر على دفع الدّية والتأطير العسكري ، إلا أنّها أضعفت التضامن القبلي وأفقدت القبيلة القدرة على حماية أبنائها الخارجين على السّلطة ، وأجبرتها على القبض عليهم ومعاقبتهم أحياناً ، ولئن نجح زياد في إخماد تحرّكات المعارضين ، وزرع الرّعب في نفوس بقية سكان العراق ، وتحويلهم من مقاتلة يتمتعون بقدر كبير من الحرية ، إلى رعية خاضعة كلياً لأجهزة الدّولة ، فقد فشل في خنق إرادة الخروج لدى قسم كبير من الخوارج ، وهو ما يفسر عودة الانتفاضات في ولاية ابنه عبيد الله^(٢).

١٠ - تجاوز عبيد الله بن زياد والده في قمع الخوارج بفرضه العقوبات على الجميع المعلن والمسر على حدّ السواء ، وإذا كان القتل هو عقوبته المفضلة فقد كان يعمد أحياناً إلى سجن البعض منهم ، كما كان يسمح أحياناً أخرى وتحت تأثير رجال القبائل بإطلاق سراح البعض الآخر مع فرض الإقامة الجبرية عليهم ، وتكليف من يقوم بعملية المراقبة التي كانت غالباً ما تنتهي بقتلهم لمخالفتهم الأوامر . . .

ولم يكن ابن زياد ينتظر خروج الحرورية عليه ، بل كان يبحث عنهم مستعملاً كل الوسائل بما في ذلك تشجيع السّكان بالمال لتتبّع تحرّكات أبناء قبائلهم ونقلها إليه أو إلى أعوانه ، وقد أدّت هذه الطريقة إلى إلقاء القبض على العديد ممّن يحمل هذا الفكر أو يتعاطف معه أو يُشبه فيه ذلك ، ولكنها فسحت في الوقت نفسه المجال أمام الوشاية وتلفيق التّهم بالباطل^(٣) ، فأججت بذلك الحزازات القبلية القديمة ، وخلقت خلافات جديدة بين القبائل^(٤).

١١ - السمات العامة لحركات الخوارج في خلافة معاوية رضي الله عنه :

أ - اتسمت بالعشوائية والارتجال وقلة التنظيم .

ب - كانت أشبه ما تكون بعمليات انتحار جماعي ، لأنهم يخرجون بفئات قليلة لا تلبث أن تستأصل .

ج - افتقارهم إلى قيادة واعية ومحكمة تستطيع استثمار شجاعتهم وفروسيّتهم لتحقيق أهدافهم .

(١) حركة الخوارج ، لطيفة البكائي ، (ص ٧١).

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٧٤).

(٤) المصدر السابق نفسه .

د- تكرارهم لأخطاء بعضهم ، وعدم استفادة كل حركة من تجربة سابقتها .

هـ - استبعادهم لأسلوب الحوار والمناظرة في دعوتهم ، ومحاولة فرض فكرهم على المجتمع المسلم بالقوة .

و - اختلاط الدوافع الدينية التي دعيتهم للخروج - بزعمهم - مع دوافع العصبية الجاهلية في حركاتهم ، والمتمثلة بخروج بعضهم ثاراً لمن قتل من أصحابهم .

ز - شعورهم بالغربة داخل المجتمع المسلم ، ونفورهم منه ، واقتناعهم أن قتال أهل القبلة أولى من جهاد الكفار .

ح - عدم بحثهم عن أرض جديدة لنشر دعوتهم ، واقتصرهم على بعض مدن العراق ، وخاصة الكوفة والبصرة .

ط - سلوكهم طريقة منكرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي طريقة الاستعراض ، ومرد ذلك إلى الجهل بالدين وقلة العلم ، لأن كثرة العبادة ليست دليلاً على فقه الرجل ، وإلا لكان الخوارج أفقه أهل زمانهم^(١) ، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاته ، وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »^(٢) .

ي - افتقارهم لطول النفس والصبر في مشروعهما التغيير .

١٢ - شفاعة أبي بكره الثقفي لبعض الخوارج عند معاوية ونصيحته له :

في عام ٤١ هـ وثب حمران بن أبان على البصرة ، فأخذها وتغلب عليها ، فبعث معاوية إليه جيشاً ليقتلوه ومن معه ، فجاء أبو بكره الثقفي إلى معاوية ، فسأله في الصفح عنهم والعفو ، فغفا عنهم وأطلقهم وولّى على البصرة بسر بن أبي أرطاة^(٣) . . وقد قال معاوية لأبي بكره : هل من عهد تعهده إلينا؟ قال : نعم ، أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيتك وتعمل صالحاً ، فإنك قد تقلدت عظيماً ، خلافة الله في خلقه ، فاتق الله ، فإن لك غاية لا تعدوها ، ومن ورائك طالب حثيث ، وأوشك أن تبلغ المدى ، فيلحق الطالب ، فنصير إلى من يسألك عمّا كنت فيه ، وهو أعلم به منك ، وإنما هي محاسبة وتوقيف ، فلا تؤثرن على رضا الله شيئاً^(٤) .

(١) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢١٠) .

(٢) البخاري مع الفتح (١٢/٢٠٣) .

(٣) البداية والنهاية (١١/١٤٩) .

(٤) المصدر السابق نفسه (١١/١٥٠) .

فَارُبَّ جَمْعٍ قَدْ فَلَلْتُ وَغَارَةَ شهدت وقرنٍ قد تركت مُجَدَّلًا^(١)

٢- ما قال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة عندما انتصر مرداس أبو بلال بن أدية من بني ربيعة ،
وكان في أربعين رجلاً ، على جيش لعبيد الله بن زياد ؛ حيث قال :

أَلْفًا مَوْمِنٍ مِنْكُمْ زَعَمْتُمْ ويقتلهم بآسك^(٢) أربعونا
كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ ولكنَّ الخوارج مؤمنونا
هِيَ الْفِتَّةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ على الفئّة الكثيرة يُضْصَرُونَا^(٣)

وفي رواية أخرى نسبت قصيدة إلى عيسى بن فاتك ؛ قال فيها :

فَلَمَّا أَصْبَحُوا صَلَّوْا وَقَامُوا إلى الجُرد العِتاقِ مسوِّمينَا^(٤)
فَلَمَّا اسْتَجْمَعُوا حَمَلُوا عَلَيْهِم فظلاً ذوو الجعائلِ يقتلونَا^(٥)
بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى أَتَاهُمْ سوادُ الليلِ فيه يراوِغُونَا
يَقُولُ بِصِيرُهُمْ لَمَّا أَتَاهُمْ بأن القومَ ولَّوا هارينَا
أَلْفًا مَوْمِنٍ فِيمَا زَعَمْتُمْ ويهزمهم بآسك أربعونا^(٦)

* * *

(١) الكامل في التاريخ (٢/ ٤٥٠).

(٢) آسك : بلد في نواحي الأهواز . معجم البلدان (١/ ٥٣).

(٣) تاريخ الطبري (٦/ ٢٣١ ، ٢٣٢).

(٤) الجرد العتاق : الخيل الجياد الكريمة . مسومين : معلمين .

(٥) ذوو الجعائل : جنود بني أمية المأجورون .

(٦) أدب السياسة في العصر الأموي ، (ص ٢٢٠) ، نقلاً عن تهذيب الكامل (١/ ١٠٥).

المبحث الخامس

النظام المالي في عهد معاوية رضي الله عنه

أولاً: مصادر دخل الدولة :

١ - الزكاة :

وهي أهم مكونات النظام المالي الإسلامي ؛ وذلك لكونها ثابتة بالكتاب ، والسنة ، إذ يقول عنها سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥] ، كما أجمع المسلمون على وجوبها باعتبارها أحد أركان الإسلام الخمسة ، ومن ذلك اتفاق صحابة رسول الله ﷺ على قتال مانعيها في عهد أبي بكر الصديق^(١).

وقد أسند إلى السلطان مهمة تحصيلها وإنفاقها ، فقد كان رسول الله ﷺ يجمعها ويقوم على تفريقها ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر ، أما في عهد عثمان لما كثرت الأموال فقد رأى أن يفوض الممولين فيما يتعلق بالأموال الباطنة كالوكلاء عن الإمام^(٢) ، أما الأموال الظاهرة كالزروع والمواشي ونحوها ، فقد استمرت الدولة في جبايتها وإنفاقها ، وقد ورد عن أبي بكر وعمر وعثمان بن عفان أنهم كانوا يأخذون زكاة المال من عطاء الرجل^(٣) . ثم اختلف بعد مقتل عثمان هل تدفع الزكاة إلى الولاة أم لا^(٤) ؟ . وهذا الخلاف بشأن الأموال الباطنة ، أما الأموال الظاهرة ظلت تحصلها الدولة ، وهذا يدل على سبب نقص حصيلة الزكاة بشكل عام في العصر الأموي ، لامتناع جماعة من الناس عن دفعها للولاة ، وتفريقها بمعرفتهم ، عدا عهد عمر بن عبد العزيز الذي ما إن سمع الناس بولايته حتى سارعوا إلى دفعها للدولة^(٥) . كما أعاد كذلك أخذ الزكاة من

(١) المغني والشرح الكبير (٢/ ٤٣٤)؛ التطور الاقتصادي في العصر الأموي، (ص ٦٤).

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني، كتاب الزكاة (٢/ ٨٢٠).

(٣) الأموال ، لأبي عبيد القاسم بن سلام، (ص ٣٧٢ ، ٣٧٣).

(٤) المصدر السابق نفسه، (ص ٥٠٤ - ٥١١).

(٥) عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ١٠٤)؛ التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، عصام الجفري ، (ص ٦٥).

العطاء^(١) ، أي: بالخصم عند المنيع ، وهكذا يعكس تعاضم دور الزكاة كأحد مكونات الإيرادات العامة إبان عهد عمر بن عبد العزيز ، ولا يعني هذا إغفال دورها الهام طيلة العصر الأموي ، فبالرغم من عدم توافر أرقام عنه إلا أن الدلائل تشير إلى كبر أهميتها ، وذلك لأنها كانت تحصل من قطاعين رئيسيين من قطاعات الاقتصاد الأموي ، هما الزراعة وقطاع التجارة؛ خاصة في ظل نظام العشور^(٢).

ومنها أيضاً وجود ديوان خاص يسمى ديوان الصدقات^(٣) ، وهو الديوان الذي يتولى النظر في أمور الزكاة والصدقات التي تجبى من القادرين والمتمكنين مالياً ، ليتم توزيعها على مستحقيها في الوجوه الشرعية التي ذكرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة^(٤) ، وأشار إليه الجهشيارى أول مرة في خلافة هشام بن عبد الملك ، ويذكر أن: إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب كان يتقلد ديوان الصدقة للخليفة هشام بن عبد الملك.

وقد يعود عدم وجود أرقام عن حصيلة الزكاة لعدم تسجيل مقادير تلك الصدقات ، إذ كانت تدفع جميعها أو معظمها في الحال إلى مستحقيها^(٥).

وبصفة عامة يمكن القول: إن نظام الزكاة كان مطبقاً في العهد الأموي وفقاً للأسس الشرعية الخاصة به ، وإن قمة التطور بالنسبة لحصيلة الزكاة كان في عهد عمر بن عبد العزيز ؛ حيث وثق الشعب في الدولة نتيجة حرصها على تطبيق الإسلام كواقع عملي ، فسارع إلى دفع الزكاة إليها ، وكذلك أخذ الزكاة من العطاء فيه تخفيف لتكاليف جباية الزكاة ، فزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نمواً ملحوظاً في حصيلة الزكاة^(٦).

٢- الجزية:

وهي ما يؤخذ من أهل الذمة ، وهي ضريبة على الذمي المستوفي لشروطها مقابل الدفاع عنه ، وكانت تمثل أحد الموارد الثابتة للدولة الأموية ، عملاً بقوله تعالى: ﴿فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمَ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] .

(١) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ، (ص ٤٢٦).

(٢) الخراج ، (ص ١٧١ ، ١٧٢).

(٣) النظم الإسلامية ، أنور الرفاعي ، (ص ٨٢ ، ٨٣).

(٤) الدواوين في العصر الأموي ، نجم المسعودي ، (ص ٦١).

(٥) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٦٦).

(٦) المصدر السابق نفسه .

وهي ثابتة في السنة: لما قاله المغيرة بن شعبة لترجمان عامل كسرى: . . فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده ، أو تؤثوا الجزية^(١).

وهي ثابتة أيضاً بالإجماع^(٢).

ولم يضيف الأمويون شيئاً يذكر بالنسبة لتنظيم الجزية ، ويمكن القول بأن جبايتها خضعت لما استقر عليه تنظيمها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فمن حيث ضوابطها تمثلت في أربعة؛ هي: تحديد الشريحة التي تؤخذ منها الجزية متمثلة في الذكور العقلاء البالغين^(٣) ، ثم تحديد الفئات المعفاة منها؛ وهم: الصبيان والنساء ، المرضى المزمنون ، العبيد ، المجانين ، العميان ، الشيوخ ، الرهبان الذين لا مورد لهم^(٤) ، وكذلك مراعاة مستوى دخل الممول يساراً وإعساراً ، حيث كانت تفرض على الفرد الغني (٤٨) درهماً سنوياً ، وعلى المتوسط (٢٤) درهماً سنوياً ، وعلى ما دون ذلك (١٢) درهماً سنوياً بشرط أن يكون ذا حرفة^(٥).

وأما عن تصنيفها فيمكن تقسيم الجزية وفق المعيارين التاليين:

أ- معيار المسؤولية: وطبقاً له تنقسم الجزية إلى فردية وجماعية ، فالجزية الفردية هي التي تفرض على كل ذمي مستوفٍ لشروطها في صورة مبلغ محدد يسقط عنه حالة إسلامه ، أما الجماعية أو المشتركة فكانت تتم بوضع مبلغ إجمالي معين على أهل القرية أو المدينة ، ثم يتولون هم توزيعه بين أفرادهم ، ومثالها من عهد النبي ﷺ: صلحه ﷺ لأهل أذرح على مئة دينار في كل رجب^(٦). وكان غالب الجزية في العصر الأموي من هذا النوع^(٧).

ب- معيار النقدية والعينية: وطبقاً له انقسمت الجزية إلى ثلاثة أقسام: جزية نقدية ، جزية عينية ، جزية مشتركة ، وكانت جميع أصناف الجزية معمولاً بها في العصر الأموي ، ولم يوجد ما يشير إلى الخروج عن ذلك ، خاصة وأن الشريعة الإسلامية تقتضي بالالتزام بعقود الصلح ، والوفاء بها ، لكن هذا لم يمنع من خروج بعض الولاة أحياناً عن الضوابط الشرعية^(٨).

(١) فتح الباري (٣١٧/٦).

(٢) المغني ، كتاب الجزية (١٠/٥٦٧).

(٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٦٦).

(٤) الأحكام السلطانية ، (ص ١٤٤).

(٥) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٦٧).

(٦) فتوح البلدان للبلاذري ، (ص ٧١).

(٧) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٦٧).

(٨) المصدر السابق نفسه (ص ٦٨) ، ومن أراد التوسع فليُنظر: تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢٩٤).

وبالنسبة لحجم غلة الجزية ونسبتها إلى إجمالي الإيراد الكلي للدولة؛ فهذا مما يصعب تحديده ، لكن هناك مؤشرات تدل على عظم حجم إيراد الجزية وما يتضح من الدور الكبير الذي قامت به الدولة الأموية في نشر الإسلام في بلدان كثيرة تم فتحها وفرض الجزية على من لم يسلم من أهلها^(١).

٣- الخراج:

كبقية المصادر المالية للدولة التي كان لعمر بن الخطاب الريادة في تنظيمها ، فقد استفادت الدولة الأموية من تنظيم عمر له ، إذ سارت في أغلب أقاليمها عليه ، إلا ما طرأ من تعديلات سوف يتم التعرض لها^(٢) ، وللخراج معنى خاص: وهو إيراد الأراضي التي افتتحها المسلمون عنوة وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام ، كما فعل عمر بأرض السواد من العراق والشام^(٣) ، والخراج كما قال ابن رجب الحنبلي: لا يقاس بإجارة ولا ثمن ، بل هو أصل ثابت بنفسه لا يقاس بغيره^(٤) ، وكان للخراج أهمية كبرى بالنسبة للدولة الأموية ، وكانت غلة الخراج في منطقة السواد على سبيل المثال في عهد ابنه عبيد الله سنة (٥٤ - ٦٦ هـ) بلغت ١٣٥ مليون درهم^(٥).

وأما منطقة الجزيرة والشام: فقد استمر الخراج في هذه المنطقة وفقاً لما وضعه معاوية بن أبي سفيان ، الذي فرض ضرائب على أهل المدن ذات شقين ، شق منه جزية ، والآخر خراج؛ وهو كما يلي:

أ- على أهل قنسرين حوالي مليون وخمسمئة ألف درهم .

ب- على الأردن ستمئة ألف درهم .

ج- على فلسطين حوالي ستمئة ألف درهم^(٦).

وقد حدثت بعض الانحرافات في تحصيل الخراج في عدة صور؛ أهمها:

أ- فرض الخراج على أرض مستثناة منه بنص عقود الصلح^(٧) ، فقد حدث ذلك في عهد

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٧١).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٧٣).

(٣) الخراج ، لأبي يوسف ، (ص ٢٤ ، ٢٥)؛ اقتصاديات الحرب ، (ص ٢١٥).

(٤) الاستخراج لأحكام الخراج ، (ص ٤٠)؛ اقتصاديات الحرب ، (ص ٢١٥).

(٥) الأحكام السلطانية ، (ص ١٧٥) و: التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٧٤).

(٦) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٧٦).

(٧) فتوح البلدان ، (ص ١٦٢ ، ١٦٣).

يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ) حيث فرض الخراج على أرض السامرة^(١) بالأردن وفلسطين.

ب - استخدام العنف في تحصيل الخراج ، في بعض الأقاليم ، باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز ، حيث استخدمت الشدة في تحصيل الإيرادات بأنواعها^(٢).

ج - تحميل نفقات جباية الخراج على الممول ، ومن تلك النفقات : قيمة الورق الذي يكتب عليه مقادير الخراج ، قيمة إيجار المستودعات التي يتم تخزين حصيلة الخراج العينية فيها ، أجرة الجابي الذي يقوم بالجباية ، وبقية نفقات تحصيل الخراج^(٣) ، وقد حدث ذلك خاصة في إقليم العراق وكان قبل عهد عمر بن عبد العزيز ، فلما ولي الخلافة أبطلها ثم عادت بعد موته^(٤).

وكان للخراج في عهد الدولة الأموية ديوان خاص به ، يسمى ديوان الخراج : وهو الذي يتولى النظر في جباية ضريبة الخراج ، ويقوم بجمعها وتسجيلها ، ووضع تقديرات لها ، لأنها أعظم واردات الدولة^(٥).

وكان الأمويون قد فصلوا بين الولاية والجباية ، وعينوا مسؤولين عنها لكي يحصروا المسؤولية ، وقد ذكرت المصادر قائمة بأسماء الذين أسندت إليهم مهمة الجباية والإشراف على أعمال الديوان ، فمعاوية رضي الله عنه عين على خراج دمشق : سرجون بن منصور^(٦) ، وعلى خراج فلسطين : سليمان المشجعي^(٧) ، وعلى خراج حمص : ابن أثال النصراني^(٨) ، وفي خلافة يزيد بن معاوية استمر على الديوان : سرجون بن منصور ، كما بقي عليه طوال حكم معاوية الثاني ، ومروان بن الحكم ، وعبد الملك ، حتى عزله^(٩).

وقد أولى معاوية رضي الله عنه ، وولاته في الأقاليم الأرض ومن عليها عناية متزايدة ، فاستصلح البطائح وهي أرض واسعة مغمورة بالمياه ، بقطع القصب وضح الماء بالمسنيات ، مما أدى إلى عمارة البلاد وزيادة الوارد العام بمقدار خمسة آلاف ألف درهم ، وراعى معاوية حالة

(١) السامرة: قوم من اليهود؛ وهم صنفان: الدستان والكوشان. التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٧٨).

(٢) الخراج، لأبي يوسف، (ص ٢٦٩ ، ٢٧٠).

(٣) المصدر السابق نفسه، (ص ١٨٦ ، ١٨٧)؛ التطور الاقتصادي في العصر الأموي، (ص ٧٨).

(٤) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، (ص ٤٥٦).

(٥) إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي، (ص ١٧٧).

(٦) الجهشيارى، (ص ٢٤).

(٧) الجهشيارى، (ص ٢٦)؛ إدارة بلاد الشام، (ص ١٧٨).

(٨) تاريخ البعقوبي (٢/ ٢٢٣).

(٩) إدارة بلاد الشام في العهد الراشدي والأموي، (ص ١٧٨).

السكان وسعى لتطمينهم والتخفيف عن كاهلهم بمجموعة من الإجراءات يتعلق بعضها بضريبة الخراج ذاتها ، وبعضها الآخر يتعلق بالقائمين على الضريبة^(١).

ومن ناحية أخرى ، فقد عمل معاوية على إنصاف دافعي الضريبة باختيار عماله ومتابعته لهم ، وإن كانوا من المقربين ، فقد عزل ابن أم الحكم وهو عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي - وهو ابن أخته - لأنه اشتد في أمر الخراج ، ولم يقبل من عامل خراجه جباية الخراج قبل مواعده الموجود^(٢).

وفي الفترة الأموية تكثر الإشارة إلى استعمال الأعاجم في الخراج ، وصلاحتهم لذلك لأسباب عبّر عنها زياد بن أبيه بوضوح ؛ منها: معرفتهم بأمر الخراج ، ودورهم في إعمار الأرض^(٣) ، حيث يقول: وينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمر الخراج^(٤) ، ودعا زياد إلى مراعاة الدهاقين والإحسان إليهم: أحسنوا إلى الدهاقين^(٥) ، فإنكم لن تزالوا سمناً ما سمنا^(٦).

٤ - العصور:

هي الأموال التي يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة الإسلامية ؛ سواء داخلية أو خارجية من أرض الدولة ، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية في العصر الحاضر ، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له: العاشر ؛ أي: الذي يأخذ العصور^(٧) ، وأول من وضعها في الإسلام هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد فرضها على الحربي بنسبة العشر ، وعلى الذمي نصف العشر ، وعلى المسلم ربع العشر^(٨) ، وقد استمر هذا النظام في العهد الأموي وفق القواعد التالية:

أ- إعفاء الحد الأدنى لرأس المال ، والذي قدر بالنسبة للمسلم بمئتي درهم^(٩) ، أما بالنسبة للحربي والذمي فقد اختلف فيه^(١٠).

(١) الخراج ، د. غيداء خزنة كاتبي ، (ص ٢٣٩).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٦٢).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) الدهقان: شيخ القرية العالم بالزراعة ، وما يصلح للأرض من شجر.

(٦) الضرائب في السودان في العصر الأموي ، للدوري ، (ص ٤٨)؛ والخراج ، (ص ٢٦٣).

(٧) الخراج ، لأبي يوسف ، (ص ٢٧١)؛ اقتصاديات الحرب ، (ص ٢٢٣).

(٨) الأموال ، لأبي عبيد ، (ص ٤٧٥ ، ٤٧٦).

(٩) الخراج ، لأبي يوسف ، (ص ٢٧٦).

(١٠) الأموال ، لأبي عبيد ، (ص ٤٧٧).

ب- لا تحصل العشور إلا مرة واحدة في السنة .

ج- يشترط لتحصيل العشور من النعم التي للمسلم أن تكون سائمة .

د - لا تؤخذ العشور من عبد ولا مكاتب ولا مضارب ولا بضاعة ، وإنما من رب المال نفسه^(١) .

هـ- أن يكتب للتاجر سند بالمبلغ الذي دفعه ، وبمقتضاه لا تأخذ منه العشور إلا في السنة التالية^(٢) .

و- أن لا يتم تفتيش التاجر ولا تعنيفه^(٣) .

ز- أن من ادّعى ديناً يستغرق ما معه من التجارة ، صدق إن كان مسلماً ، وإن ارتاب في أمره استحلفه (على خلاف في ذلك)^(٤) ، وأما الذمي فأقرب الأقوال فيه أن يشهد له شاهدان من المسلمين حتى يُعفى^(٥) .

ح- أن العشور التي تؤخذ من المسلمين هي الزكاة ، فلا يجمع على المال زكاة وعشور^(٦) .

ط - أن غير المسلم إذا مر بما يوصف بالمالية عندهم وليس بمال عند المسلمين كالخمر والخنزير ونحوها ، يقومه أناس من غير المسلمين ، ويضاف إلى قيمة ما معه من تجارة ويؤخذ منه العشور^(٧) .

وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن العشور كانت تشكل جزءاً مهماً في إيرادات الدولة ، من ذلك ما لمسه ابن الزبير من نقص في موارد الدولة حينما منع تحصيل العشور لمدة عام واحد ، مما حمله عن التراجع على ذلك القرار^(٨) .

٥- الصوافي :

هو ما اصطفاه الإمام لبيت المال من أرض الفبيء ، كما فعل رسول الله ﷺ ، أو من البلاد المفتوحة عنوة بحق الخمس أو باستطابة نفوس الغانمين ، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله

(١) الخراج ، لأبي يوسف ، (ص ٢٧٤) .

(٢) الأموال ، لأبي عبيد ، (ص ٤٧٥) ؛ التطور الاقتصادي ، (ص ٨٠) .

(٣) الخراج ، لأبي يوسف ، (ص ٢٧٥) ؛ التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٨٠) .

(٤) الأموال ، لأبي عبيد ، (ص ٤٨٠ ، ٤٨١) .

(٥) المرجع السابق نفسه ، (ص ٤٧٩) ؛ التطور الاقتصادي ، (ص ٨٠) .

(٦) الخراج ، لأبي يوسف ، (ص ٢٧٣) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

(٨) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٨٠) .

عنه^(١). ثم أقطعت أجزاء منها إلى بعض من كان يتولى استثمارها ، على أن يؤدي لبית المال ما عليها ، وأول من أقطع: عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٢) ، وذلك بدافع زيادة غلتها ، وقد اشترط على من يقطعه إياها حق الفيء^(٣) ، فبلغت غلتها آنذاك خمسين مليون درهم^(٤).

وانتبه معاوية بن أبي سفيان للصوافي في وقت مبكر ، وكتب إلى الخليفة عثمان سألته أن يقطعه إياها ، ليقوى بها على ما وصف في كتابه؛ يقول ابن عساكر: حتى كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها. ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسماها له ، وسألته أن يقطعه إياها ليقوى بها على ما وصف له ، وأنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً^(٥) ، يضاف إلى تلك المزارع: مزارع وأراضي بني فوقا الذين لا وراث لهم ، فأخذ معاوية ما يليهم^(٦). ولما أفضى الأمر إليه ، جعل هذه الأراضي حبساً^(٧) على فقراء أهل بيته والمسلمين^(٨) ، وأشار المؤرخ الشيوعي يعقوبي إلى أن معاوية جعل هذه الأراضي ، وضياع الملوك في الشام والجزيرة واليمن والعراق خالصة لنفسه عندما أفضى الأمر إليه^(٩). فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته ، واعتبر بذلك: أول من كانت له الصوافي في جميع أرجاء الدنيا^(١٠). وهذه الإشارة من يعقوبي تلفت الانتباه نظراً إلى الالتباس الواضح في لغتها ، فقد ذكرت الصوافي في الجزيرة واليمن؛ علماً بأن عمر بن الخطاب كان قد أصفى مجموعات خاصة في أراضي السواد وأراضي الشام لم يدخل فيها صوافي الجزيرة واليمن^(١١).

كما أشار يعقوبي إلى أن معاوية جعل هذه الأراضي خالصة لنفسه ، فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته ، وبمقارنة هذا النص ، بنص ابن عساكر عن الموضوع نفسه ، يظهر مدى المبالغة

- (١) الأحكام السلطانية، (ص ١٩٢).
- (٢) فتوح البلدان، (ص ٢٧٣).
- (٣) الأحكام السلطانية، (ص ١٩٣).
- (٤) المصدر السابق نفسه.
- (٥) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٨٤)؛ الخراج ، د. غيداء ، (ص ٣٠٧).
- (٦) الخراج ، د. غيداء ، (ص ٣٠٧).
- (٧) الحبس: الوقف.
- (٨) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٨٤)؛ الخراج ، د. غيداء ، (ص ٣٠٧).
- (٩) تاريخ يعقوبي (٢/ ٢٣٢ - ٢٣٤).
- (١٠) المصدر السابق نفسه، (٢/ ٢٣٤).
- (١١) المعرفة والتاريخ (١/ ٤٣٤)؛ الخراج ، د. غيداء ، (ص ٣٠٧).

في تلك الرواية؛ يقول ابن عساكر عن تلك الأراضي: فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر، فأقرها على حالها، ثم جعل من بعده حبساً على فقراء أهل بيته والمسلمين، أي أن معاوية لم يتصرف فيها ابتداءً، بل تركها على حالها^(١)، ولكن يبدو أن هناك ضرورات سياسية نشأت في الشام دفعت الدولة إلى اتخاذ ضرب جديد من التنظيم والسعي لخدمة مصالح الدولة، ومن هذه الضرورات: محاولة إقامة توازن قبلي في بلاد الشام بين اليمانية وبين القيسية، ولذلك أقطع معاوية إقطاعات واسعة في هذا المجال^(٢).

ولقد أسيء فهم هذا الإجراء، وفسر بعض المؤرخين كاليعقوبي، موضوع مصالح الدولة بأنه يعني مصالح الأسرة الأموية وبالتحديد معاوية^(٣). ولا شك أن معاوية استخدم هذه الأموال في تثبيت دعائم الدولة، وحفظ وحدة الأمة، فكان يتصرف وفق ما يراه مناسباً للمصالح العام^(٤)، ولا يمنع ذلك الإحسان إلى أسرته والمقربين إليه بالمعروف، وقد أمر معاوية بإعادة مسح للصوافي في أمصار الدولة الأموية، وأضاف أراضي واسعة بعد العثور على سجل الضياع الساسانية^(٥) وأصبحت تحت تصرف معاوية المباشر؛ فكان يسد منها بعض حالات العجز في النفقات العامة، فقد بلغ غلة صوافيه بالعراق وما يتبعه مئة مليون درهم^(٦)، وكذلك فعل بصوافي أرض الشام والجزيرة واليمن حتى فذك اصطفاها لنفسه ثم أقطعها لمروان بن الحكم^(٧)، وظلت كذلك طيلة العهد الأموي، باستثناء عصر عمر بن عبد العزيز الذي أعادها للملكية العامة وشجع القطاع الخاص على استثمارها^(٨)، كما رد فذك لبيت المال ووضع ما يأتي منها في أبناء السبيل، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده^(٩)، كما أمر باستثمار أراضي الصوافي حين كتب إلى واليه على العراق: انظر ما قبلكم من أرض الصافية، فأعطوه حتى تبلغ العشر؛ فإن لم يزرعها أحد فامنحها، فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين، ولا تبتز قبلك أرضاً^(١٠)، ونلاحظ من هذا النص اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر

(١) الخراج، غيداء، (ص ٣٠٨).

(٢) المصدر السابق نفسه، (ص ٣٠٨).

(٣) المصدر السابق نفسه، (ص ٣٠٩)؛ دراسات في حضارات الإسلام، (ص ٤٦).

(٤) الخراج، غيداء خزانة كاتب، (ص ٣١١).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) الإدارة في العصر الأموي، نجدة خماش، (ص ١٩٧).

(٧) فتوح البلدان، (ص ٤٦).

(٨) المصدر السابق نفسه؛ التطور الاقتصادي في العصر الأموي، (ص ٨٢).

(٩) فتوح البلدان، (ص ٢٤ - ٤٨).

(١٠) واسط في العصر الأموي، (ص ٤٠٦).

الصوافي ، مما يدل على أهميته في موارد الدولة . . لكن أمر الصوافي ، عاد إلى ما كان عليه الأمر بعد عهد عمر بن عبد العزيز ^(١) .

٦- خمس الغنائم :

تعرف الغنيمة : ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة ^(٢) ، وقد نص عليها القرآن الكريم ، وفي العصر الأموي ازدادت حركة الفتوحات ، وبالتالي زادت الغنائم كأحد موارد بيت المال ، وقد اتبع الأمويون نفس النهج العمري بالنسبة للغنائم والأراضي المفتوحة ، فكان تخميس الغنائم وتقسيمها بين الفاتحين وترك الأرض فيئاً لمجموع المسلمين مع ضرب الخراج عليها ^(٣) ، هذه أهم المصادر المالية للدولة مع وجود مصادر أخرى كنظام خمس الركاز ، ومال من لا ورث له ؛ إذ ظل في العصر الأموي على ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ، إضافة إلى أن نسبة هذين العنصرين بسيطة جداً بالنسبة لغيرها من المصادر ^(٤) .

ثانياً: النفقات العامة :

١- النفقات العسكرية :

حملت الدولة الأموية على عاتقها مهمة مواصلة نشر الإسلام في أرجاء المعمورة ، ولذلك اتسعت الدولة الإسلامية في العصر الأموي اتساعاً كبيراً ، وقد تم لها ذلك على الرغم مما كانت تعانيه من فتن وقلقل داخلية تتطلب أموالاً طائلة لإخمادها ، وتتضح معالم النفقات العسكرية في العصر الأموي من خلال نفقات الجند والصناعات الحربية ^(٥) .

أ- رواتب الجند: ويشرف عليها ديوان الجند ، وتجمع المصادر على أن أول من وضعه ورتبه هو الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ ^(٦) ، وقد بقي هذا الديوان على الأساس نفسه من حيث حفظ سجلات بأسماء المقاتلين وأوصافهم ، وأنسابهم ومقدار أعطياتهم ^(٧) ، وقد عمل معاوية بن أبي سفيان على تحسين حالة الجند المعاشية فزاد في أعطياتهم ، بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية في الدولة ، وكان أمير المؤمنين معاوية : يتفقد أحوال القبائل ، كجزء من سياسته في حفظ التوازن بين قبائل اليمن والقبائل القيسية ، وكان قد جعل

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٨٢) .

(٢) الخراج ، يحيى القرشطي ، (ص ٥٨) .

(٣) الإدارة في العصر الأموي ، (ص ٢١) .

(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٨٦) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ٩٧) .

(٦) طبقات ابن سعد (١/٢١٣)؛ تاريخ يعقوبي (٢/١٤٣) .

(٧) التراتيب الإدارية ، للكتاني (١/٢٢٥)؛ الدواوين في العصر الأموي ، (ص ٣٧) .

على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية، فيقال: سموهم، فيكتب، ويقال: نزل بنا رجل من أهل اليمن بعياله، فيسمونه وعياله، فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان^(١)، وكان للجند ديوان مركزي في دمشق، في حين وجدت دواوين فرعية في مراكز الولايات: كالكوفة والبصرة والفسطاط^(٢).

وكان سلم رواتب الجند في عهد معاوية كالاتي: على درجات: شرف العطاء والمرتب ٢٠٠٠ درهم، عطاء العرب فئة (أ) ٣٠٠ درهم، فئة (ب) ١٠٠٠ درهم، فئة (ج) ١٥٠٠ درهم، وأدخل الموالي في العطاء^(٣)، وكانت نفقات رواتب الجند في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كالاتي:

- في منطقة مصر: كان عدد المسجلين في الديوان ٤٠٠٠٠ جندي منهم أربعة آلاف مسجلين بشرف العطاء^(٤)، وبالتالي يكون مجمل عطائهم ٨٠٠٠٠٠٠ درهم، أما بقية المسجلين في الديوان فكان عددهم ٣٦٠٠٠ جندي، وعلى فرض أن عطاء الجندي سنوياً هو ٣٠٠ درهم يصبح إجمالي عطائهم ١٠٨٠٠٠٠٠ درهم^(٥).

- في منطقة الشام: كان عدد الجند المسجلين في ديوان الشام ستين ألف جندي، كان الدخل السنوي لكل جندي ألف درهم، أما إجمالي نفقات جند الشام فبلغ ستين مليون درهم^(٦).

- في العراق تأخذ مثلاً ديوان البصرة: حيث بلغ عدد المسجلين به ثمانين ألف مقاتل^(٧)، وبلغت مرتباتهم في عهد زياد ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم، فإذا أخرجنا منهم نسبة ١٠ مسجلين في شرف العطاء، (قياساً على ديوان مصر) يكون المتبقي ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم، وعليه يكون متوسط الدخل للجندي في ديوان البصرة حوالي ٢٧٨ درهماً، ويمكن قياس بقية منطقة العراق على هذا^(٨).

(١) حسن المحاضرة، للسيوطي (١/٦٥)؛ الدواوين في العصر الأموي، (ص ٣٧).

(٢) الجيش والأسطول الإسلامي في العصر الأموي، (ص ٥٣٥).

(٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، (ص ٩٨).

(٤) ديوان الجند، للسلمي، (ص ١٤٩)؛ التطور الاقتصادي، (ص ٩٩).

(٥) الخطط، للمقريزي (١/١٢٨).

(٦) الخراج والنظم المالية، للرئيس، (ص ٩٤).

(٧) الحياة الاقتصادية في صدر الإسلام، بطاينة، نقلاً عن التطور الاقتصادي، (ص ٩٩).

(٨) المصدر السابق نفسه، (ص ١٠٠).

وقامت الدولة الأموية بتطوير ديوان الجند ، وهو الجهة المسؤولة عن نفقات ورواتب الجند وكان من أبرز صور هذا التطوير ما يلي :

* فقد قام مندوب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه المكلف بتوزيع عطاء المدينة بدفع عطاء كل رجل في يده مباشرة ، وكان النظام السابق هو أن يدفع العطاء إلى العرفاء . لكن هؤلاء العرفاء لم يكونوا يغيبون غائباً ولا يميئون ميئاً^(١) .

* وفي عهد معاوية قام واليه على العراق زياد بن أبيه ، بتخفيض النفقات الإدارية لديوان الجند ، حيث اختصر عدد العرفاء المسؤولين عن توزيع العطاء ليصبح لكل قبيلة عريف واحد^(٢) .

ب - نفقات الصناعات الحربية : على الرغم من عدم وجود أرقام محددة في نفقات الدولة على الصناعات الحربية ، إلا أن هناك ما يدل على اتجاه هذه النفقة نحو التزايد ، فقد كان اهتمام الدولة الأموية منصباً على تطوير سلاح البحرية ، وقد بلغ عدد قطع الأسطول البحري الإسلامي في بداية تكوينه مئتي مركب^(٣) ، ثم تطور على يد الدولة الأموية ليبلغ في عهد سليمان بن عبد الملك ألفاً وثمانمئة سفينة كبيرة^(٤) .

٢- النفقات الإدارية :

تقسم هذه النفقات إلى قسمين : رواتب الموظفين ، ونفقات المستلزمات الإدارية . وكانت هذه الأخيرة ضئيلة للغاية ، ومتمثلة في الشموع وأوراق الكتابة ، وغيرها من الأدوات البسيطة التي لا تشكل شيئاً يذكر بالنسبة لما هو عليه الأمر اليوم ، ومع ذلك فقد تميز عهد عمر بن عبد العزيز بالحساسية للمال العام ، فكانت هذه النفقات في عهده أقل من غيره من العهود^(٥) ، وسنركز الحديث على رواتب الموظفين ، ويبدو أن رواتب الموظفين كانت متروكة إلى والي الإقليم ، يحدد لنفسه ولعماله رواتبهم حسب ما يرى ، وقد ساعدت هذه اللامركزية على ظهور مرتبات كبيرة - نسبياً - إذا ما قورنت بالمرتبات في عهد عمر بن الخطاب ، وبمتوسط مستوى المعيشة المتواضع نسبياً في الدولة الأموية ؛ حيث بلغ مرتب والي العراق زياد بن أبيه خمسة وعشرين ألف درهم شهرياً^(٦) ، وظهرت أيضاً إلى جانب المرتبات الكبيرة مخصصات إضافية ،

(١) ديوان الجند ، للسلمي ، (ص ١٦٩) ؛ التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٠٢) .

(٢) الإدارة في العصر الأموي ، (ص ٣٢٠) .

(٣) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، (ص ١١٥ ، ١١٦) .

(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٠٦) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) الإدارة في العصر الأموي ، (ص ٣١٠) .

فهذا زياد بن أبيه يجعل لأحد الولاة التابعين لإدارته مئة ألف درهم سنوياً عدا مرتبه^(١).

وهذه بعض النماذج من رواتب الموظفين خلال فترات من العصر الأموي ، يمكن اعتبارها مؤشراً على مستوى رواتب ومكافآت موظفي الدولة ، وذلك لعدم العثور على معلومات تفصيلية عنها:

أ- كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب طوال العصر الأموي وطرفاً من العباسي حتى عهد المأمون هو ٣٦٠٠ درهم سنوياً ، وكان حدها الأدنى ٧٢٠ درهماً سنوياً^(٢).

ب- يرجح أن أكبر مرتب لصاحب الشرطة في العصر الأموي بلغ مئة ألف درهم سنوياً^(٣).

ج- مرتبات القضاة كانت عبارة عن رزق يجري عليهم من بيت المال ليتفرغوا للقضاء^(٤) ، وكان حده الأدنى ألف ومئتي درهم سنوياً^(٥) ، وأما الحد الأقصى فقد بلغ ثلاثة آلاف درهم سنوياً^(٦).

٣- مصارف الزكاة:

حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠] .

٤- مصارف الفيء:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ... ﴾ [الحشر: ٧] .

٥- معظم مصارف العشور:

التي تؤخذ من المسلمين هي نفقات تحويلية؛ لأنها تعتبر في حقهم زكاة ، فتصرف في مصارف الزكاة.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٣١٨).

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ٣٣١).

(٥) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٠٧).

(٦) فتوح مصر وأخبارها ، (ص ٢٣٦).

٦- نفقات الضمان الاجتماعي :

تطورت نفقات الضمان الاجتماعي في الدولة الأموية ، وكانت في صورة عينية ، وكمثال على ذلك ما ورد من أن الفقراء في إقليم الحجاز والعراق خلال الفترة (٤٥ - ٥٣ هـ) كانوا يحملون بطاقات حُدد لهم فيها الكمية المخصصة لكل فرد منهم من المعونة العينية^(١) ، ثم أصبحت في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) مزيجاً من النفقات النقدية والعينية ، وكمثال على المعونات النقدية : قضاء دين من أدان في غير سفه ، ولا سرف ، وتزويج الرجل الذي ليس له مال وله رغبة في الزواج^(٢) ، ومثال النفقات العينية : أنه أمر لكل أعمى بقائد ، ولكل خمسة من اليتامى بخادم^(٣) ، وشملت في عهده نفقات الضمان الاجتماعي غير المسلمين^(٤) ، ثم تطور الأمر حتى مثلت نفقات الضمان الاجتماعي بنداً محدداً من بنود النفقات العامة للدولة ، ومثال ذلك : يوجد ضمن بنود النفقات العامة السنوية في إقليم العراق خلال الفترة (١٢٠ - ١٢٦ هـ) مبلغ عشرة آلاف درهم^(٥) ، مخصص لبيوت رعاية الأحداث^(٦) ، والعواتق^(٧) .

ثالثاً: اهتمام الدولة بالزراعة :

مع بداية الدولة الأموية ظهرت الملكيات الزراعية الكبيرة ، وذلك نتيجة لدخول الولاة والخلفاء في هذا الميدان ، ولذلك اهتموا بإحياء الأرض الموات من أراضي الصوافي وغيرها ، من الأراضي المفتوحة الخصبة ، وبالذات إقليم العراق وما شابهه ، وقد ساعدهم في ذلك حجم السيولة التي يملكونها ، فقد أحيا والي معاوية رضي الله عنه على خراج العراق أرضين من البطائح لمعاوية ، حيث قام بقطع الماء عنها وتجفيفها وزراعتها ، وقد بلغت غلتها خمسة ملايين درهم^(٨) ، وهذا مما يدل على عظم مساحتها ، ولم يكن معاوية رضي الله عنه يجعل ريعها

(١) الإدارة في العصر الأموي ، (ص ٣٣٥).

(٢) الأموال ، لأبي عبيد ، (ص ٢٣٤ ، ٢٣٥).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ١٨٣).

(٤) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ، (ص ٤٣٣).

(٥) الأحكام السلطانية ، للماوردي ، (ص ١٧٥ - ١٧٦).

(٦) حداثه السن : كناية عن الشباب وأول العمر ، لسان العرب ، مادة : حدث (٧٩٦/٢).

(٧) العواتق : جمع عاتق ، وهي البكر التي لم تن عن أهلها ، وقيل : هي التي بين التي أدركت وبين التي عنست .

(٨) فتوح البلدان ، (ص ٢٩١)؛ الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، (ص ١٨٧).

كله داخلاً في نفقاته الخاصة ، وإنما كان يتدارك منها شيئاً من النقص في النفقات العامة^(١) ، ولم يدخل تلك الأرضين في ملكه يتوارثها من بعده ، بدلالة أن الأرض التي أحيها الحجاج فيما بعد لعبد الملك هي نفس الأرض التي أحيها معاوية رضي الله عنه ، إلا أنها عادت موأناً لغلبة الماء عليها^(٢).

ومن الناحية الشرعية فإن إحياء الأرض بصفة عامة مباح ، بل هو سبب من أسباب الملك لها ، وذلك استناداً على الأحاديث الواردة في ذلك ، وهي إباحة عامة يستوي فيها الحاكم والمحكوم ، إلا أنه في حق الحاكم ينبغي أن تكون هناك قيود إضافية ؛ لعل من أبرزها :

أ - عدم استغلال الحاكم لسلطته ومكانته ، وإنما يدخل في عملية الإحياء كأي فرد من أفراد الشعب .

ب - عدم استخدام أموال المسلمين في عملية الإحياء ، بل يقوم بإحيائها من ماله الخاص .

ج - ألا يترتب على تملكه للأرض بطريق الإحياء ضرر على المسلمين ، الأفراد أو جماعة المسلمين ، وكذا من له ذمة^(٣) ، وقد ساهم الإقطاع - أي الإقطاع بقصد الإحياء والإعمار - في تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة ، فقد أقطع معاوية رضي الله عنه بعض إخوته الجزيرة التي بين النهرين ، فأرسل زياد بن أبيه الماء ، فلما نظر إلى المقطوعة له ظن أنها بطيحة ، فاشتراها منه زياد بمئتي درهم ، وقد أقطع زياد بعد ذلك من تلك الأرض غيره ، مما يدل على عظم حجمها ، حتى إنه أيضاً حفر لها أنهاراً وليس نهراً واحداً^(٤) ، وأقطع زياد بن أبيه مئة جريب^(٥) على نهر الأبله ، فحفر لها نهراً فسمي باسمه ، كما أقطع أيضاً كل بنت من بناته - أي بنات زياد - ستين جريباً^(٦).

واستمرت الملكيات الزراعية بالتوسع مع مجيء الخلفاء الأمويين بعد معاوية رضي الله عنه ، ولم ينحصر الإقطاع للأراضي على الأسرة الأموية وبعض وجهاء قريش ، وإن كان هو الغالب^(٧) ، إذ كانت هناك إقطاعات لعامة الشعب ، ومثال ذلك : أن زياداً كان يقطع الرجل

(١) الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، بطاينة ، (ص ١٣٥).

(٢) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، للرئيس ، (ص ٢١٤).

(٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي .

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٧٨).

(٥) المقصود به هنا : وحدة المساحة .

(٦) معجم البلدان (١/ ٤٣٥) ؛ التطور الاقتصادي ، (ص ١٨٠).

(٧) أرض الصوافي ، للمصري ، ص ١٢٢ .

القطيعة ويتركه سنتين ؛ فإن لم يعمرها أخذها منه^(١) . وقد كانت تقدر مساحات تلك الإقطاعات بين (٦٠ - ١٠٠) جريب^(٢) .

وقد كانت إقطاعات الدولة الأموية من الصوافي أو من الأراضي الموات ، ولكن بصفة عامة يؤخذ على القطاع في العصر الأموي عنصر المحاباة ، إذ إن أصحاب الملكيات الكبيرة كانوا إما من الأسرة الأموية ، أو من أشرف قريش ، وبحث الدولة عن أصحاب السيولة النقدية القادرين على استثمار تلك الأراضي ، لكن ترتب على ذلك السلوك تركيز الثروة الكبيرة في أيدي قلة من أفراد المجتمع^(٣) .

كانت الزراعة في العصر الأموي تعتمد بصفة رئيسة على مياه الأنهار ، ولذا نجد أن مراكز الإنتاج الزراعي الرئيسة كانت هي العراق ومصر والشام ، وبالذات حول الأنهار^(٤) .

وكان للقطاع الخاص دوره في تطوير الزراعة في العهد الأموي ، وقد قام القطاع الخاص باستصلاح أراضي زراعية جديدة بمساحات واسعة ، ومثال ذلك : أراضي البطائح التي كانت منذ عهد الفرس وحتى عهد الدولة الأموية أراضي مغمورة بالمياه ، فبدأت من بداية الدولة الأموية حركة استصلاحها بحجز المياه عنها وتجفيفها ، وقد خرجت منها أراضي واسعة وخصبة وفيرة الإنتاج^(٥) ، وقد توسعت الملكيات الزراعية الخاصة ، وترتب عليها زيادة في الإنتاج الزراعي ، مما أدى إلى وجود أراضي بعيدة عن مصدر الري وهو النهر الأساسي ، فحدث تطور في تقنية الري ؛ حيث ظهرت حركة حفر الأنهار والقنوات الفرعية وفق طرق هندسية تسمح لتلك الأراضي بالاستفادة من ماء النهر دون أن يؤدي ذلك إلى إغراقها ، وقد توسع القطاع الخاص في حفر هذه الأنهار والقنوات ، فحدثت تنمية زراعية نتيجة استفادة الأراضي التي كانت تمر بجوارها تلك الأنهار والقنوات الفرعية^(٦) .

وقد تمّ نقل التقنية الزراعية من البلاد المفتوحة حديثاً إلى مراكز الإنتاج الزراعي الرئيسة في الدولة الأموية^(٧) .

(١) تطوير نظام ملكية الأراضي ، محمد علي ، (ص ١٩٠ - ١٩١) .

(٢) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٨٨) .

(٣) تطوير نظام ملكية الأراضي ، محمد علي ، (ص ١٩٠ - ١٩١) .

(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٨٨) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٩٠) .

(٦) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٥١) .

(٧) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٩١) .

إلا أن القطاع الزراعي تعرض للتدهور في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية بسبب عوامل متعددة؛ منها:

١ - الاضطراب السياسي ، وفقدان الأمن بالمنطقة ، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية ، ويبدأ هذا الاضطراب مع مجيء يزيد بن معاوية ، ومعاوية الثاني ، ومروان بن الحكم ... إلخ .

٢ - تركيز الثروة في يد قلة من سكان المنطقة ، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالى^(١) ، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة ، فضعفت حركة تبادل السلع ، أي : حدوث كساد اقتصادي بالمنطقة .

٣ - إعادة ضريبة النيروز والمهرجان التي روي أنها بدأت مع عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه^(٢) ، وكان السبب في إعادتها أن الناس اعتادوا دفعها على الرغم من منع الإسلام لها^(٣) ، فأراد معاوية رضي الله عنه سحب مبالغها من غير المسلمين من الدهاقنة المسؤولين عن الجباية ، حتى لا يكونوا مراكز ثروة يتقنون بها ضد الدولة الإسلامية ، وكان ينفقها رضي الله عنه في مصالح الأمة الإسلامية ، لكن الدهاقنة والأمراء المحليين أخذوا فيما بعد في ابتكار ضرائب إضافية عديدة^(٤) ، أرهقت كاهل المزارعين ، بالإضافة إلى ما صاحب تلك الضرائب من عنف في الجباية^(٥) .

٤ - إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية ، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية ، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل ، ومن صور ذلك ما حدث في عهد الحجاج من أن بثوقاً انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح ، فلم يعمل الحجاج - بوصفه والي المنطقة - على سد تلك البثوق مضارة لأهلها (لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث في الخروج عليه) . فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات^(٦) .

٥ - معاناة الدولة الأموية في بداية نشأتها من مجموعة من المهاجرين الذين قدموا إلى إقليم

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٩٦) .

(٢) تاريخ يعقوبي (٢/ ٢١٨) .

(٣) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، (ص ٣١) .

(٤) الخراج ، لأبي يوسف ، (ص ١٨٦ ، ١٨٧) .

(٥) الأحكام السلطانية ، للماوردي ، (ص ١٧٥) .

(٦) إدارة العراق في صدر الإسلام ، رمزية خيرو ، (ص ٨٦) .

العراق ، وكانوا يعانون من البطالة ، حيث لم يكونوا مسجلين بالعطاء ، وليس لديهم أراضي يقومون بزراعتها ، فبدلاً من أن يقوموا بالعمل في مجال من المجالات الأخرى قامت فئة منهم بإحداث بثوق في نظام الري ، فأدى ذلك إلى تخریب المزارع وإغراقها ، فلما ولي زياد العراق قام بالقضاء على مثل تلك الأعمال^(١).

٦ - حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالي والدولة الأموية ، وذلك حينما حاول والي العراق -الحجاج بن يوسف- إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة ، وإعادة فرض الجزية عليهم ، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية ، فانضموا تحت لوائه^(٢). ونتيجة لتلك العوامل وغيرها ، فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعي العام في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية^(٣).

ومع ذلك فقد كانت خلال تلك الفترة مجموعة من الإجراءات والمشاريع التي خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال هذه الفترة ، وكان من أبرزها ما يلي :

أ- إنشاء زياد بن أبيه جسراً يمنع طغيان الماء على الكوفة^(٤) مما وفر الفرصة لاستغلال أراضي كانت تعطل فترة من السنة نتيجة فيضان الماء عليها ، وينتظر حتى تنتهي فترة الفيضان ، وتجف الأرض حتى يمكن إعادة زراعتها مرة أخرى ، كما أعطى هذا المشروع فرصة إدخال زراعة النباتات المعمرة إلى تلك الأراضي بدلاً من افتقار الزراعة فيها على المحاصيل الموسمية ، وبلغ من أهمية هذا الجسر أن الولاة ظلوا يتعاهدونه طيلة فترة العصر الأموي^(٥).

ب - عملية نقل الأيدي العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى ، بهدف إحداث تنمية زراعية في الجهة المنقول إليها . ومن أمثلة ذلك ما يلي :

ج - نقل زياد خمسين ألف أسرة من البصرة والكوفة من ذوي الخبرة الزراعية المشهورة إلى خراسان لتعميرها^(٦).

هذا وقد كانت الدولة الأموية تتولى مسؤولية إقامة منشآت الري الكبرى والعمل على صيانتها وتطهيرها ، كحفر الآبار ومجاري الأنهار ، وسد البثوق (التصدع) ، وفتح البريدات (مفاتيح

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) الخراج والنظم ، للريس ، (ص ٢١٩) ؛ الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية في الدولة الأموية ، (ص ٧١).

(٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٩٨).

(٤) الإدارة في العصر الأموي ، (ص ٢٤٧).

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، للدوري ، (ص ٢٧).

الماء) ، وإقامة المسنيات (السدود) ، أما أصحاب الأراضي فكانوا يشاركون أحياناً في تطهير الأبنية الكبيرة ، وكذلك الأمر فإنه كان يقع على عاتقهم ، بطبيعة الحال مسؤولية إقامة الأبنية ووسائل الري داخل ممتلكاتهم الخاصة^(١).

وقد حاول الحكام الأمويون استغلال ما أمكنهم من الأراضي ، فعملوا على توسيع نطاق الأراضي الزراعية ، وبخاصة تجاه بلاد الشام ، عن طريق استصلاحها وتأمين المياه ، ووسائل الري لها^(٢) ، حتى إن قصور الأمويين في الصحراء كانت مراكز مهمة للاستثمار الزراعي ؛ حيث أقيمت حولها منشآت الري ، من قنوات ، وصهاريج ، ومجارٍ ، وتوسعوا بذلك في استصلاح الأراضي بواسطة توفير الري لها^(٣) ، وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان يبدي اهتماماً كبيراً بتنمية الزراعة ورفع مستوى إنتاجها ، فكان يولي عنايته لتطوير وسائل الري ، وإخصاب الأراضي عن طريق الاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص من السكان المحليين^(٤) ، كما أن يزيد بن معاوية كان يلقب بالمهندس نظراً لخبرته الهامة في الشؤون الزراعية ، وإبداء اهتمامه بإصلاح أنظمة الري والعناية بها ، فقد أمر بحفر قناة سميت باسمه بنهر يزيد ، وكانت هذه القناة في الأساس رافداً صغيراً بالكاد يروي ضيعتين بالغوطة ، فقام يزيد بتوسيعها وتعميقها حتى أصبحت بعرض ستة أشبار ، وبعمق ستة أشبار كذلك ، الأمر الذي أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها ، بحيث أصبحت تكفي لري أراضٍ واسعة في الغوطة^(٥) ، وبذلك أتيح المجال أمام المزارعين للقيام باستصلاح بعض أراضيهم المتروكة والعمل على استغلالها^(٦).

وكانت غالبية الأراضي في بلاد الشام تعتمد في ريها على مياه الأمطار التي تتساقط عليها خلال الفترة الممتدة بين تشرين الأول ونيسان ، إلا أن أراضي واسعة^(٧) كانت تروى سيجاً ، أي من المياه الجارية على سطح الأرض ؛ حيث تأتي من مياه بعض الأنهار ومن مياه العيون في الجداول والقنوات ، وكذلك فإن قسماً آخر من الأراضي كانت تروى بواسطة الآلات التي ترفع المياه من منخفضات بعض الأنهر إلى سواقي أعلى لري الأراضي التي يعلو مستواها عن مجاري الأنهر ، أو التي ترفع المياه من الآبار والخزانات^(٨) ، وتعتبر مياه العيون مهمة في ري

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي ، عاطف رجال ، (ص ١٣٥).

(٢) التنظيم الاقتصادي في صدر الإسلام ، (ص ٨٢).

(٣) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٣٦).

(٤) النزعات المادية ، حسين مروة (١/٤٧٦) ؛ تاريخ بلاد الشام الاقتصادي .

(٥) تهذيب تاريخ دمشق (١/٢٤٥ - ٢٤٦).

(٦) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٤١).

(٧) مفاتيح العلوم ، للخوارزمي ، (ص ٤٦) ؛ تاريخ بلاد الشام الاقتصادي ، (ص ١٤١).

(٨) تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي ، (ص ١٤١).

المزروعات ، حيث كانت تروي قسماً كبيراً من الأراضي في أنحاء الشام^(١) ، وكانت الغلات والمزروعات المتوفرة: القمح والشعير والرز والزيتون ، والنخيل والعنب والتين والفواكه والقطن ، وقصب السكر ، والبقول ، والسهم ، والرياحين ، وغير ذلك^(٢) .

رابعاً: اهتمام الدولة بالتجارة الداخلية والخارجية :

يتوسط موقع الدولة الأموية بين دول الشرق الأقصى من ناحية؛ مثل: الصين والهند ونحوهما ، وبين الدولة البيزنطية من ناحية أخرى ، ومعنى ذلك بالضرورة وطبقاً لمعايير ذلك العصر: أن أهم علاقاتها التجارية ارتبطت بهاتين الدولتين^(٣) .

وبعد تولي معاوية الخلافة استقرت الأمور ، وبدأت حركة التجارة الداخلية تزدهر كما كانت عليه قبل ذلك ، واهتم معاوية بمصالح التجار ، وعمل على توسيع نطاق التجارة ، وتميز أهل الشام في حرفة التجارة وفتحوا علاقات تجارية مع غربي أوروبا ، واستفادوا من الأسطول الإسلامي ، ومن بين العوامل التي ساعدت على نشاط حركة التجارة: الثراء العريض الذي نعمت به طبقة الحكم وحاشيتهم ، حيث نمت في نفوسهم حب البذخ والرفاهية ، وبالتالي توفر عندهم الميل والحاجة إلى اقتناء المنتجات الكمالية ، فأقبلوا على شراء السلع التجارية الباهظة الثمن ، مما زاد في فعالية التجار وازدهار التجارة^(٤) .

وكان الأمويون يقومون بدور كبير في عالم التجارة وخصوصاً أن الخليفة معاوية رضي الله عنه كان والده من كبار تجار قریش ، كما أن معاوية نفسه لما كان والياً في عهد عثمان بن عفان على بلاد الشام كان يرسل بقوافله التجارية من الشام إلى حاضرة الجزيرة العربية^(٥) ، وكان التجار يحتلون مكانة اجتماعية عالية في العصر الأموي وكانوا يقومون بتأسيس الشركات في سبيل زيادة فعالية التجارة ، حيث كانوا يساهمون في الشركة بتقديم المال وممارسة العمل كذلك ، أو بوحدةٍ منهما ، فإذا أقدم صاحب المال على تقديم ماله لآخر ليتاجر به لقاء حصة من الربح يتفق عليها ، فيسمى ذلك الاتفاق بالمضاربة^(٦) . وقد ازدهرت شركات المضاربة وأصبحت وسيلة مهمة في مجال العمل التجاري^(٧) .

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٤٣) .

(٢) تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي ، (ص ١٤٧ - ١٥٦) .

(٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢٠٥) .

(٤) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ١٦٨) .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٧٢) .

(٦) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٧٤) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

وكانت تجارة الأسواق المحلية مليئة بالحركة والنشاط ، وقد أصبحت عاصمة الدولة دمشق مركزاً تجارياً مهماً يعود إلى الظروف السياسية الجديدة التي نشأت ، فغيرت من سبل واتجاهات حركة التجارة عما كانت عليه سابقاً في العصر البيزنطي ، حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية ، ومحطاً للتجارة الشرقية^(١) ، وبالتالي أصبحت مركزاً لتوزيع البضائع إلى الجهات المختلفة ، بعد أن كانت القوافل المحملة بالبضائع الشرقية تتجه مباشرة إلى إنطاكية على ساحل الشام الشمالي .

وهكذا كان لأهمية تجارة دمشق التي تتكدس في أسواقها البضائع المتنوعة ، المنتجة محلياً والمستوردة أن قال ياقوت بأنه يستحيل أن يطلب شيء في أسواق دمشق غير موجود ، حتى إن السلع الغالية الثمن التي تستورد من جميع أنحاء العالم المتمدن موجودة فيها^(٢) .

ثم إن دمشق كانت بحكم موقعها الجغرافي المتاخم للبادية المركز التجاري الهام الذي يقصده البدو والمقيمون في الصحراء^(٣) ، وقد اشتهرت مدن الشام كحلب ، والرصافة ، وحمص ، والرملة ، والقدس ، وإنطاكية بأهميتها التجارية ، ونشاط أسواقها^(٤) . وكانت عاصمة الشام محط رحال القوافل التجارية الآتية من الشرق ، ولا شك أن الكوفة والبصرة والموصل ، ومدن الحجاز ، ونجد وغيرها قد ازدهرت حركة التجارة فيها أيضاً ، إلا أن مدن الشام كانت تزدهر فيها التجارة أكثر من غيرها ، حيث إنها تعتبر مراكز تجارية كبرى وأسواقاً هامة ، كما أن الأسواق الموسمية التي كانت تقام في بعض المدن ، وتعرض فيها البضائع المتنوعة بكثرة ، كانت توفر مجالاً أوسع لتأمين كافة متطلبات واحتياجات سكان المدن والقرى كذلك ، بالإضافة إلى أن هذه الأسواق كانت مناسبة هامة للتجار الذين يأتون إليها من أماكن مختلفة لتستفيد من كل ذلك . وقد كان من هذه الأسواق التي كانت قائمة في العصر البيزنطي واستمر قيامها في العصر الأموي سوق بصرى الذي كانت تطول مدة إقامته ، حيث كان يستمر من ثلاثين إلى أربعين يوماً ، وكذلك فقد كان هناك سوق أذرعات الذي استمر قيامه حتى ما بعد العصر الأموي^(٥) .

وأما بالنسبة للتجارة الخارجية في عهد معاوية رضي الله عنه وابنه ، فقد ازدهرت التجارة مع الدولة البيزنطية ، وازدادت نمواً وقوة ، وقد ساهمت عدة عوامل في هذا الازدهار ؛ منها :

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي ، (ص ١٨٣) .

(٢) معجم البلدان (٢/ ٤٦٥) .

(٣) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي ، (ص ١٨٣) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٨٧) .

١ - كثرة الاضطرابات والحروب في المنطقة الشرقية من الدولة الأموية ، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئي ، وبالتالي زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطة بالغرب .

٢ - الاستقرار الأمني في الدولة الأموية دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر في الشرق إلى إقليم الشام بحثاً عن فرص استثمار تجارية آمنة .

٣ - الاعتماد الكلي لكل من الدولتين على الأخرى في مجال هام وحيوي بالنسبة لها ، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كلياً على أوراق البردي ، كانت الدولة الأموية تعتمد كلياً في حجم النقد الذهبي داخلها على ما يريدها من الدولة البيزنطية .

ومن العلامات التي تدل على ازدهار التجارة بين الطرفين في عهد معاوية ومن بعده ما يلي :

أ - كمية الدنانير الذهبية البيزنطية التي كانت موجودة في داخل الدولة الأموية تتم بها عمليات التداول الداخلية .

ب - استمرار مصانع إنتاج البردي في مصر في إنتاجه على النهج البيزنطي للتصدير حتى عهد عبد الملك بن مروان^(١) .

خامساً: الحرف والصناعات :

تأثرت الحرف والصناعات في العصر الأموي بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها ، كما تأثرت الصناعات والحرف بطبيعة الاقتصاد الأموي ، حيث كان النشاط الزراعي هو النشاط الرئيس فيه ، فظهرت وتطورت صناعات تعتمد في موادها الخام على القطاع الزراعي ، مثل : صناعة النسيج وصناعة المعاصر والمطاحن ، كما واكبت الصناعة حركة التطور العمراني بالدولة الأموية ، فظهرت وتطورت صناعة مستلزمات البناء ، إضافة إلى تأثر الصناعة بالجو العسكري السائد في معظم فترات العصر الأموي ، حيث تطورت صناعة السفن التجارية^(٢) ، وقد اهتمت الدولة الأموية ببناء أسطول حربي ، ليقف في وجه الأسطول الحربي البحري البيزنطي ، والذي كان يهدد سلامة الشواطئ الغربية للدولة الإسلامية ، فتطورت صناعة السفن الحربية في العصر الأموي بشكل كبير ومتلاحق ، فقد كان الإنتاج في بداية العصر الأموي مقتصرأعلى السفن ، التي كانت تنفرد مصر بصنعها حتى عام ٤٩ هـ ، حيث أمر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام بمدينة عكا ، وقد استقدم من مصر الخبراء للاستفادة منهم في

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢٠٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٣٥) .

دار الصناعة الجديدة ، والتي تميزت بسهولة حصولها على الأخشاب من جبال لبنان^(١) . ثم تطورت هذه الصناعة ، فأُنشئت في مصر منطقة صناعية جديدة ، خاصة بصناعة السفن الحربية ، وذلك عام (٥٤ هـ)^(٢) .

واستمرت الدولة الأموية في تطوير صناعة السفن فيما بعد عهد معاوية رضي الله عنه ، وقد أصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكاني ، كما أصبحت مناطق جذب وتوطن صناعي ، فأصبحت أماكن استثمار خصبة ، حيث أنشئت فيها الفنادق ، والمطاحن ، ونحوها من الأنشطة الأخرى ، وساعد على نمو وتطور هذه الصناعة ما اتسمت به منذ بداية نشأتها ، من دقة التنظيم ، ومن صور هذه الدقة ابتكار وظيفة المشرف العام على دار الصناعة ؛ ويسمى : متولي الصناعة ، ومن أبرز مهامه : جمع الطاقات البشرية الفنية العاملة في هذا المجال من نجارين وحدادين وعمال ونحوهم ، سواء من الأقاليم المجاورة للصناعة ، أو من مختلف أقاليم الدولة ، ومن مهامه أيضاً : توفير الأدوات الخام ، مثل : الأخشاب والمسامير وغيرها من مستلزمات دار الصناعة .

وعليه : يمكن القول : إن التنظيم كعنصر من عناصر الإنتاج في العصر الحديث ترجع جذوره إلى القطاع العام الصناعي في العصر الأموي ، أو (متولي الصناعة) ، ومن صور دقة تنظيم هذه الصناعة : الاهتمام بتحديد أجور العمال ، وتوفير الكميات الغذائية اللازمة لهم ، كما حرصت الدولة على توفير سبل الراحة للعاملين في هذه الصناعة ، وكان من بين ذلك رفعها كل ظلم يقع على العامل ، وتوفير وحدات سكنية للعمال والمشرفين على هذه الصناعة بداخل دور الصناعة ، وكذا وحدات لتموين السفن الحربية بالسرعة والدقة المطلوبة^(٣) ، ونتج عن ذلك كله تطور هائل في حجم الأسطول البحري إبان العهد الأموي^(٤) .

لقد كانت الدولة البيزنطية متفوقة على الدولة الإسلامية الأموية في ميادين البحر ، فاتخذ معاوية الوسائل المناسبة لإضعافها ثم القضاء عليها فيما بعد ، وفي هذا الفقه درس عظيم لقادة الأمة في معرفة عوامل قوة العدو ، وجوانب تفوقه ، ثم السعي للوصول لنقطة تساوي ثم تفوق على الخصوم ، سواء في الميادين العسكرية ، أو السياسية ، أو الاقتصادية أو الإعلامية ، ومما نلاحظه الآن القوى العسكرية الهائلة التي تميز بها عدونا سواء على مستوى السلاح الجوي أو

(١) خطط الشام (٣٧/٥)؛ النظم الإسلامية ، إبراهيم العدوي ، (ص ٣٥٥)؛ التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢٣٩) .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، (ص ١٦٦) .

(٣) النظم الإسلامية ، للعدوي ، (ص ٣٥٤ ، ٣٥٥) .

(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢٤١) .

النووي والذري ، فواجب على الأمة أن تسعى لإيجاد حلول حتى تستطيع أن تقاوم أعداءها ، وعلى علماء الأمة ومفكرها ألا يخضعوا للضغوط النفسية والسياسية والإعلامية التي يمارسها الأعداء علينا ، وعليهم أن يبينوا أحكام الله في امتلاك ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل . إن استمرار الأعداء في امتلاك الأسلحة الرادعة والتي لها قدرة بإذن الله على حسم المعارك العسكرية ، جعلهم يتجبرون ويتغطسون ويعملون على إفساد عقائدنا وثقافتنا وديننا ، ويستولون على خيراتنا وثرواتنا ، وديننا يوجب علينا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة ، لذلك وجب علينا أن نسعى لامتلاك الأسلحة الرادعة لكي نحمي بها أمننا وديننا ونقيم العدل وندفع الظلم عن البشرية .

ومن الصناعات التي اشتهرت في العهد الأموي : صناعة السفن التجارية ، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيراً عن السفن التجارية ، ومع ذلك كانت مناطق تصنيعها مختلفة ، فقد اقتصت منطقة البحرين أكثر من غيرها بإنتاج السفن التجارية ، في حين كانت مصر ، وعكا ، وتونس مواطن تصنيع السفن الحربية ، وساعد البحرين على ذلك وقوعها على الخليج العربي ، والذي كان يعد من أهم طرق المواصلات التجارية البحرية بين الشرق والغرب ، وكذا ما اكتسبه أهلها من خبرة ملاحية نتيجة احتكاكهم بشعوب لديها خبرات ملاحية كشعوب الهند ، والصين^(١) .

ولم تقتصر صناعة السفن على البحرين ، بل امتدت إلى مدينة واسط بالعراق ، وقد تطورت هذه الصناعة في عهد ولاية الحجاج بصفة خاصة^(٢) ، فقد أدخل تحسينات على صناعة السفن التجارية لتستطيع السير في عرض البحر ، فأمر بتكبير حجمها ، واستخدام المسامير لتقويتها ، والاهتمام بهيكلها العظمي^(٣) ، وكانت السفن التي تصنع في واسط تسمى الواسطية ، وكانت مدينة واسط تنتج القوارب الصغيرة ، والتي كانت تستخدم للنزهة والسفر ونقل السلع التجارية بين واسط والبصرة لضحالة الطريق النهري بينهما وعدم قدرة السفن على السير فيه^(٤) ، ولم تكن مراكز إنتاج السفن الشرقية بالدولة الأموية متخصصة في إنتاج السفن التجارية فقط وإن كان هو الغالب عليها ، بل كان لديها القدرة المزدوجة ، فقد قام الحجاج أيضاً ببناء قوة عسكرية بحرية بالخليج العربي وبحر الهند^(٥) .

(١) البحرين في صدر الإسلام ، عبد الرحمن نجم ، (ص ٨٤) .

(٢) العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى ، (ص ١٠١) .

(٣) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢٤٢) .

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفي ، هزاع الشمري ، (ص ٥٩) .

(٥) واسط في العصر الأموي ، (ص ٢٤٣) .

مشورتهم حين تترهل نفوسهم ، وإلى جانب ذلك وقبل ذلك أخذ عمر رضي الله عنه نفسه وأهل بيته بالشدة الحازمة ، حتى لا يكونوا قدوة سيئة أمام الناس . فيفسد الناس .

أما حين يترك المال بدون تصرف معين من ولي الأمر ، يسمح بالنفع ويمنع الضرر ، فإنه لا بد أن يؤدي إلى نتائج المحتومة حسب السنة الإلهية ، لا لأن المال في ذاته هكذا يصنع ، ولكن لأن الجهد البشري المطلوب لإصلاح الآفة لم يبذل فتفرد الآفة وحدها بالسلطان ، وآفة المال الترف ، وعلاجها في يد ولي الأمر . . . بنشر روح الجد في المجتمع ، وبإعطاء القدوة من نفسه لبقية الناس . أما حين يترك في أيدي الناس بلا ضابط مع وجود فئة تعمل جاهدة في إفساد أخلاق المجتمع وروحه كما فعل الفرس ، فالنتيجة هي ما قرره السنة الربانية التي جاء بيانها في كتاب الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١] .

والترف مُعْدٍ لكل آفة . . فحين لا يعالج ولا يوقف ؛ فإنه ينتشر ولا بد . . . وحين يكون مبتدؤه في قصور الخلافة فأمر أسوأ ، لأن الحكام دائماً قدوة ، وقد كان الأمويون - برغم وجود الترف بينهم - أقل فساداً بالمال من العباسيين ، لأنهم كانوا أكثر انشغالاً بتثبيت دولتهم من ناحية ، وبالجهاد في سبيل الله من ناحية أخرى ، فأما العباسيون فبعد أن استتب لهم الملك أخذ الترف يسري بينهم سريعاً ، خاصة بفعل الحاشية الفارسية المفسدة المتعمدة للفساد ، ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء ، ثم قصور التجار الذين وصل دخلهم في التجارة العالمية إلى ملايين الدنانير ، وشيئاً فشيئاً غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد ثم العواصم الإسلامية الأخرى^(١) .

* * *

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ؟ ، محمد قطب ، (ص ١٢٦ ، ١٢٧) .

المبحث السادس

القضاء في عهد معاوية رضي الله عنه والدولة الأموية

يعتبر القضاء في العهد الأموي من الدرجة الثالثة بعد القضاء في العهد النبوي والقضاء في العهد الراشدي ، لأن العصر الأموي كان زاهياً وفيه كثير من آثار العهد الراشدي ، وكانت كثير من الأعمال امتداداً للعهد الراشدي ، وخاصة في جانب الفتوحات الإسلامية ، وانتشار الدعوة في المشارق والمغرب ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، وازدهار الحضارة الإسلامية^(١).

أولاً: صلة العهد الأموي بالعهد الراشدي :

كان العهد الأموي وخصوصاً عهد معاوية امتداداً للعهد الراشدي في عدة جوانب ، فبقي كثير من الصحابة إلى العهد الأموي ، وشاركهم في العلم والفقه والقضاء وغيرها كبار التابعين ، ثم صغار التابعين ، كما بقي بعض قضاة العهد الراشدي يمارسون القضاء في العهد الأموي ، وبعدهم طال قضاؤهم كشريح بن الحارث رحمه الله ، وبقيت في العهد الأموي آثار التربية الدينية وسمو العقيدة ، وآثار الإيمان ، والالتزام بأهداب الدين ، والتقيد بالأحكام الشرعية ، وظهر في العهد الأموي عدد كبير من المجتهدين الذين كانوا صلة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية ، وكان العلماء والمجتهدون في العهد الأموي أساتذة لأئمة المذاهب التي ظهرت في العهد العباسي ، وكان لهذه الصورة الفقهية الزاهية أثرها الكبير والمحمود على حسن سير القضاء والعدالة في العهد الأموي ، وظهر التوسع بالاجتهاد ، كما بدأت حركة تدوين العلوم الإسلامية ، والانفتاح على الحضارات الأخرى ، وترجمة الثقافات والعلوم من الأمم المجاورة^(٢).

(١) تاريخ القضاء في الإسلام ، (ص ١٦٥).

(٢) المصدر السابق نفسه .

ثانياً: تخلي الخلفاء عن ممارسة القضاء ، وفصل السلطات :

كان الخلفاء الراشدون يتولون القضاء بأنفسهم ، ويفصلون في القضايا والدعاوى والمنازعات ، وصدرت عنهم أفضية كثيرة ، وكان الولاة في الأمصار يتمتعون بنفس السلطات والصلاحيات الممنوحة للخليفة لأنهم نواب عنه ، إلا إذا قيدت سلطتهم ومنعوا من القضاء ، وعُين معهم القضاة للفصل بين الناس ، ومن هؤلاء الولاة معاوية بن أبي سفيان الذي بقي والياً على الشام عشرين سنة ، وكان يتولى القضاء والحكم بنفسه^(١) ، ولما تولى معاوية الخلافة تخلى عن ممارسة القضاء ، وعين القضاة في حاضرة الدولة الإسلامية بدمشق وفوّض إليهم السلطة القضائية ، وخوّلهم الصلاحيات الكاملة في الدعاوى ، وسار ولاته في الأمصار على هذا النهج ، وابتعد الولاة عن أعمال القضاء ، وسار خلفاء بني أمية على هذه الخطة طوال العهد الأموي ، سواء في عاصمة الدولة الأموية ، أم في سائر الأمصار والمدن والولايات وانقطعت صلة خلفاء بني أمية عن القضاء الإسلامي إلا في ثلاثة أمور :

١- تعيين القضاة مباشرة بالعاصمة دمشق .

٢- الإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم ، ومتابعة شؤونهم الخاصة في التعيين والعزل ، والرزق ، وحسن السيرة ، ومراقبة الأحكام القضائية التي تصدر عنهم ، للتأكد من مطابقتها للحق والعدل ، والشرع والدين ، والالتزام بالسلوك القضائي القويم .

٣- ممارسة قضاء المظالم ، وقضاء الحسبة . وقد أولى خلفاء بني أمية أهمية خاصة ورعاية كاملة لقضاء المظالم حتى وقف على قدميه ، وأصبح له جهاز كامل مستقل . ومن ذلك نرى أن القضاء في العهد الأموي كان مستقلاً عن أية سلطة أخرى حتى سلطة الخليفة أو والي الذي كانت سلطته تنتهي عند تولية القاضي أو عزله ، دون أن يكون لهم تدخل في أعمال القاضي واجتهاده وحكمه ، وما على الخلفاء والولاة إلا تنفيذ الأحكام التي يصدرها القضاة^(٢) .

قال الثّباہي : ولما أفضى الأمر إلى معاوية جرى بجهدہ على سنن من تقدّمہ من ملاحظۃ القضاة ، وبقي الرسم على حدو ترثہ زماناً^(٣) . فقد كان معاوية رضي الله عنه أول خليفة امتنع من القضاء تماماً ، ودفعه إلى غيره ، فكان له قضاة في قاعدة ملكه ، فضلاً عن قضائہ في الأمصار^(٤) .

(١) تاريخ القضاء في الإسلام ، (ص ١٦٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٦٧) .

(٣) تاريخ قضاة الأندلس ، (ص ٢٤) .

(٤) عبقرية الإسلام في أصول الحكم ، (ص ٣٤٢) .

ثالثاً: رزق القضاة:

من المعلوم أن عمر بن الخطاب هو الذي فصل القضاء عن الولاية ، وهو أول من رتب أرزاق القضاة ، وأما أمير المؤمنين علي وهو المعروف بالزهد والقناعة فقد قال لعامله على مصر في شأن القضاة: . . . وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس^(١) ، واستمر الحال على ذلك في العهد الأموي ، فكانت تُجرى على القضاة أرزاقهم من بيت المال^(٢) ، مع التوسيع عليهم ، واختلاف المقدار بحسب البلدان والظروف^(٣) ، وروى الشعبي عن شريح : أنه كان يأخذ على القضاء خمسمئة درهم كل شهر ، ويقول: أستوفي لهم ، وأوفيههم ، ويقول أيضاً: أجلس لهم على القضاء ، وأحبس نفسي ولا أرزق؟! ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة ٧٢ هـ ، وسأل عن شريح ، فعلم أنه امتنع عن القضاء في عهد ابن الزبير ، فاستدعاه وقال له: وفكك الله ، عُدْ إلى قضائك ، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم ، وثلاثمئة جريب ، فأخذهما وقضى إلى سنة ثمان وسبعين^(٤) ، وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاء أجراً ، ويحتسبون أجرهم عند الله تعالى في إقامة شرعه ، منهم مسروق بن الأجدع القاضي والمفتي (ت ٦٣ هـ) ، وكان أعلم بالفتيا من شريح ، وشريح أبصر منه في القضاء ، وقالت امرأة مسروق: كان مسروق لا يأخذ على القضاء رزقاً ، وقال القاسم: كان مسروق يقول: لأن أقضي يوماً فأقول فيه الحق أحب إليّ من أن أربط سنة في سبيل الله^(٥).

رابعاً: تسجيل الأحكام والإشهاد عليها:

ظهر في العهد الأموي لأول مرة تسجيل الأحكام القضائية التي يصدرها القاضي في سجله وديوان المحكمة؛ ليرجع إليه القاضي عند الحاجة ، وأول من سجل الأحكام سليم بن عنز التجيبي قاضي مصر في عهد معاوية ، لما تخاصم إليه أشخاص في توزيع ميراث ، فحكم بينهم ، فغابوا مدة ، واختلفوا وتناكروا وتجادوا الحكم ، وعادوا يطلبون فصل الخلاف ثانية ، فتذكر القاضي قصتهم ، وكاشفهم بها ، فاعترفوا ، فأعاد الحكم بينهم ، وطلب من كاتبه أن يسجل الأحكام القضائية وكتب لهم كتاباً بقضائه ، وأشهد عليه^(٦).

(١) القضاء ونظامه في الكتاب والسنة ، (ص ٢٦٧).

(٢) تاريخ القضاء في الإسلام ، (ص ١٦٧).

(٣) المصدر السابق نفسه ، (١٧٦ ، ١٧٧).

(٤) أخبار القضاة (٢/ ٢٢٧ ، ٣٩٧).

(٥) طبقات ابن سعد (٦/ ٨٢)؛ تاريخ القضاء في الإسلام ، (ص ١٧٨).

(٦) تاريخ القضاء في الإسلام ، (ص ١٨٠).

وقال الكندي: فكان سليم أول القضاة بمصر سجل سجلاً بقضائه^(١)، وكان سليم - فيما وصل إلينا - أول من أشهد على الأحكام القضائية لتوثيقها، ومنع جحودها أو إنكارها، ثم توسع الأمر في العهد العباسي^(٢).

خامساً: أعوان القضاة:

يحتاج القضاة عادة إلى أعوان يساعدونهم في حسن التقاضي وسير القضاء، منهم كاتب القاضي أو كاتب المحكمة، أو كاتب الضبط، وأول ما ظهر في العهد الراشدي^(٣) ثم شاع استعماله فيما بعد، وظهر أعوان جدد في العهد الأموي بحسب الحاجة، وتطور الحياة، واتساع أعمال القاضي، وكثرة الدعاوى، ونذكر أهمهم:

١- المنادي:

وهو الذي يجلس عند القاضي، لبيان مكانة القاضي، ومعرفته، والمناداة على الخصوم، وكان يطلق عليه: (الذي على رأس القاضي)، أو (صاحب المجلس)، وأول ما ظهر ذلك في عهد شريح، قال وكيع: عن عمرو بن قيس الماضي، قال: رأيت رجلاً كان يقوم على رأس شريح، وكان إذا تقدم إليه خصمان، فيقول: أيكما المدعي فليتكلم، وروى وكيع أيضاً: «كان شريح إذا جلس للقضاء لم يقم حتى ينادي: هل من خصم أو مستثبت أو مستفتى؟»^(٤).

٢- الحاجب:

وهو الذي يقف على باب القاضي، ليحجب عنه الناس أثناء النظر في الدعاوى، ويرتب دخول المتداعين عليه عند تراحمهم وتعدددهم، وقد يكون الحاجب هو المنادي الذي يقف على رأس القاضي، ويقوم بالعملين معاً، وقد يكون هو نفسه الجلواز «التابع للشرطي»، أو أحد الشرطة القضائية، وقد يكلفه القاضي القيام ببعض الأعمال في المحكمة، أو أداء بعض المهمات خارجها^(٥)، وذكر وكيع أن إبراهيم النخعي كان جلوازاً للقاضي شريح^(٦)، وكان على رأس شريح شرطي بيده سوط^(٧).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) نظام الحكم في الشريعة، (ص ٢٥٩)؛ تاريخ القضاء، (ص ١٨٠).

(٤) تاريخ القضاء، عرنوس، (ص ١٢٨)؛ تاريخ القضاء، (ص ١٨١).

(٥) تاريخ القضاء في الإسلام، (ص ١٨١).

(٦) المصدر السابق نفسه؛ أخبار القضاة (٢/ ٢١٥).

(٧) تاريخ القضاء في الإسلام، (ص ١٨١).

٣- الترجمان أو المترجم :

اتخذ القضاء الترجمان لكثرة الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام ، وتعارفت هذه الشعوب واختلطت مع بعضها ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات: ١٣] ؛ فإذا حصل نزاع أو اختلاف ، أو دعوى ، استعان القاضي بالترجمان الثقة المقبول لينقل أقوال الخصوم له ^(١).

سادساً : المراقبة والمتابعة :

إن تخلي الخلفاء والولاة عن ممارسة القضاء ، والاقتصار على التعيين والعزل لم يمنع الخلفاء من مراقبة أعمال القضاء ومراجعة أحكامهم ومتابعة الدعاوى والأقضية التي تصدر عنهم ، لأن الخليفة هو المسؤول عن القضاء ، وجميع ما يخص الأمة والأفراد في سياسة الدين والدنيا ، وتفويض القضاء للقضاة لا ينجي الخليفة من المسؤولية في الدنيا والآخرة ، لذلك كان الخلفاء يراقبون أعمال القضاة ، ويتابعون ما يصدر عنهم ، فإن وجدوا فيه خللاً أو انحرافاً ، أو تقصيراً ، تصدوا للتقويم والتصحيح ^(٢) ، وهذا ما نقلناه سابقاً عن النباهي قال : «ولما أفضى الأمر إلى معاوية جرى بجهد على سنن من تقدّمه من ملاحظة القضاة ، وبقي الرسم حذو ترتبه زماناً» ^(٣).

سابعاً : مصادر الأحكام القضائية في العهد الأموي :

اعتمد القضاء على المصادر نفسها التي جرى عليها القضاء في العهد الراشدي ، وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة ، والإجماع ، والسوابق القضائية والاجتهاد مع الاستشارة ، وكان الالتزام بالقرآن والسنة هو الأساس ، وهو ما تلتزم به الخلافة ، وتتم عليه البيعة ، وتطور الأمر في السوابق القضائية على الإشادة بقول الصحابة رضوان الله عليهم والتقيد غالباً بما صدر عنهم ، لأنهم أقرب عهداً وصلة بمدرسة النبوة ، ونزول الوحي ، وخصوصاً أقضية الخلفاء الراشدين ، كما بدأ يظهر في هذا العهد أثر العرف والعادة على أقضية الحكام ، نظراً لاختلاف الأعراف والعادات في أصقاع الخلافة الأموية المترامية الأطراف ، فكان القضاة ينظرون في الأقوال والدعاوى والأيمان والتهمة بحسب الأعراف التي تظلمهم وتحدد المراد من الألفاظ والمصطلحات ^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٢٣).

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٨٦).

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المدخل الفقهي (١/ ١٥٠).

تاسعاً: القضاة والأعمال المختلفة:

نظراً لما يتمتع به القضاة من الثقة ، وما يتصفون به من العدل والنزاهة ، والورع والتقوى ، فقد أسند لهم الخلفاء في العهد الأموي عدة أعمال ؛ هي :

١- الشرطة :

تولى القضاة رئاسة الشرطة بالإضافة إلى أعمالهم القضائية ، فجمعوا بين ولاية القضاء وولاية الشرطة وذلك في عدة مدن إسلامية ، فقد روى وكيع أن معاوية عزل سعيد بن العاص عن المدينة سنة ثلاث وخمسين ، ويقال : سنة أربع وخمسين في شهر ربيع ، وأعاد مروان بن الحكم ، فعزل مروان أبا سلمة ، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف ، وضم إليه الشرط مع القضاء ، وكان شديداً صلباً في ولايته ، ولما ولي الشرط أخذ الناس بالشدة^(١) ، قال الكندي عن مسلمة بن مخلد أنه : قدم مسلمة الفسطاط ، فعزل السائب بن هشام بن كنانة العامري عن شرطه ، وولى عليها عابس بن سعيد ، وعزل سليمان بن عاز عن القضاء وجعله إلى عابس ، فجمع له القضاء والشرط ، وهو أول من جمع له سنة ستين^(٢) ، ولما توفي مسلمة سنة ٦٢ هـ ، بعد أن مكث والياً على مصر أكثر من ١٥ سنة وليها سعيد بن يزيد الأزدي في رمضان سنة ٦٢ هـ ، فأقر عابس بن سعيد على القضاء والشرط جميعاً ، ولما جاء عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري أميراً على مصر أقر عابساً على الشرط والقضاء ، وذكر الكندي : أن مسلمة بن مخلد والي مصر عين عابس بن سعيد على شرطته ، ثم جمع له الشرط والقضاء^(٣) ، وذلك في أول سنة إحدى وستين^(٤) .

٢- الإمارة :

استعمل بعض القضاة ولاية في بعض الأحيان ، كما كان الخليفة أحياناً ينوب القاضي مكانه في الإمارة إذا خرج عن دمشق ، وكان كثير من الولاة يستخلفون القاضي على إدارة الأمور ، وتصريف شؤون المصر أثناء غيابهم ، أو خروجهم لمهمة ، قال أبو زرعة : لما خرج معاوية إلى صفين استخلف القاضي فضالة بن عبيد على دمشق^(٥) .

(١) أخبار القضاة (١/١١٨) .

(٢) تاريخ القضاء ، عرنوس ، (ص ٢٦) ؛ الولاء والقضاء ، (ص ٣١١-٣١٣) .

(٣) تاريخ القضاء في الإسلام ، (ص ١٩٦) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) قضاة دمشق ، لابن طولون ، (ص ٤١٣) .

فجمع له القضاء والشرط^(١). هؤلاء هم أشهر القضاة في عهد معاوية رضي الله عنه.

حادي عشر: ميزات القضاء في عهد معاوية والعهد الأموي عموماً:

من أهم ميزات وخصائص القضاء في العهد الأموي الآتي:

١ - بقي القضاء في العهد الأموي كما كان في العهد النبوي والعهد الراشدي ، في معالمه الأساسية ، وتنظيمه الجوهري ، ووسائله وأهدافه ، وكان استمراراً لما سبق في إقامة الحق والعدل ، والنزاهة والموضوعية ، مع مراعاة التطور والتوسع في الخلافة الأموية .

٢ - استعمل القضاة في العهد الأموي وسائل الإثبات الشرعية نفسها المعمول بها في العهد الراشدي ، مع التوسع في الفراسة ، واستعمال الحيل على المتهم ، لكشف الحق ، والوصول إلى الصواب والعدل^(٢).

٣ - ظهرت في العهد الأموي مصادر جديدة للأحكام القضائية ؛ وهي : العرف ، وقول الصحابي ، وإجماع أهل المدينة أحياناً ، بالإضافة إلى المصادر الأصلية في العهد النبوي وهي القرآن الكريم والسنة الشريفة ، والمصادر الاجتهادية في العهد الراشدي وهي : الإجماع ، والقياس ، والسوابق القضائية ، والرأي^(٣).

٤ - كان الخلفاء يعينون القضاة في الشام ، وقد يرشحون بعض القضاة للأقاليم ، وكان الولاية في الأمصار يعينون القضاة ، ويعزلونهم .

٥ - حرص الخلفاء والولاة على اختبار أحسن الناس لولاية القضاء ، من العلماء والفقهاء والشرفاء وخيرة القوم ، الذين تتوفر فيهم صفات القاضي الشرعية ، ويخشون الله تعالى ، ويلتزمون بالحق والشرع ، ويقيمون العدل بين الناس .

٦ - طرأت تغييرات بارزة على القضاء في العهد الأموي ، وأضيفت لأول مرة ، وهي :

أ- تسجيل الأحكام خوفاً من النسيان ، ومنعاً للتجاحد ، ووضعها في ديوان خاص .

ب- الإشراف على الأوقاف من أجل حسن تطبيقها .

ج- النظر في أموال اليتامى ومراقبة الأوصياء .

د- ترتيب الدعاوى ، واستعمال الرقعة لإدخال الخصوم والمناداة على الناس بالترتيب .

هـ- وجود المساعدين للقضاة ، وهم : الأعوان والحاجب ، والشرطي في مجلس القضاة .

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢١٣).

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢١٤).

قلبه مع أهله ، فينبغي للقاضي أن يقدمه في سماع الخصومة ، ليرجع إلى أهله ، وكان رسول الله ﷺ يتعاهد الغرباء . وقيل : مراده أن الغريب منكسر القلب ، فإذا لم يخصه القاضي بالتعاهد عجز عن إظهار حجته ، فيترك حقه ، ويرجع إلى أهله ، والقاضي هو السبب ، لتضييع حقه ، حين لم يرفع به رأسه ، ثم قال :

٤ - «وعليك بالصلح بين الناس ، ما لم يستبن لك فصل القضاء»^(١) . وفيه دليل أن القاضي مندوب إليه أن يدعو الخصم إلى الصلح ، خصوصاً في موضع اشتباه الأمر^(٢) .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه .

المبحث السابع

الشرطة في عهد معاوية رضي الله عنه

شهد عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه تطوراً كبيراً في نظام الشرطة من جهة نموها وترسخها كمؤسسة رسمية على مستوى الدولة وبصورة لم تُعرف من قبل ، لقد أصبحت مؤسسة الشرطة مسؤولة مسؤولية كاملة ومباشرة عن توفير الأمن وإقرار النظام في جميع الأمصار الإسلامية ، لقد أصبحت أهم قوة أمن يعتمد عليها معاوية وولاته لتحقيق الأمن الشخصي من جهة ، وحفظ الأمن والنظام في الداخل من جهة أخرى ، يضاف إلى هذا كله أن أصبحت الشرطة المدافع الأول عن نظام الأمن الأموي وحمايته من اعتداءات الفرق الأخرى المعارضة له كالخوارج والشيعة وغيرهما ؛ التي كانت تعمل على إسقاطه بشتى السبل ، وقد استعمل معاوية رضي الله عنه الشرطة كحرس خاص لحمايته شخصياً ، ودونما شك أن المحاولة الفاشلة التي قام بها الخوارج لاغتيال معاوية كان لها دور كبير في دفع معاوية لاتخاذ قراره بالاعتماد على الشرطة كحرس خاص لضمان عدم تكرار المحاولة ، وخصوصاً أن علياً وعمرو بن العاص قد تعرضا للمحاولة نفسها ، قُتل على أثرها أمير المؤمنين عليّ ، وكان ذلك عام ٤٠ هـ ، ومنذ ذلك الحين ومعاوية لا يخرج بدون حماية خاصة ، وحتى أوقات الصلوات كان يأمر حراسه بالوقوف عند رأسه حماية له من الاعتداءات المحتملة من منائيه^(١).

أولاً: الشرطة في العراق :

يعتبر المغيرة أول والٍ يعينه معاوية في الكوفة ، وقد استعان برجال الشرطة لغرض بسط الأمن ، وعين صاحب شرطة عُرف بشراسته وقسوته وكان يُدعى قبيصة بن دُمون^(٢) ، ومن الحوادث التي تبين مدى فعالية الشرطة في حفظ الأمن والنظام ما أورده الطبري حول صراع المغيرة مع الخوارج ، وذلك حين أخبره صاحب الشرطة باجتماعهم في الكوفة لإثارة القلاقل

(١) تاريخ الطبري (٦/٦٥)؛ الشرطة في العصر الأموي ، (ص ٣٦).

(٢) تاريخ الطبري ، نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي ، (ص ٣٧).

والاضطرابات ، فأصدر المغيرة أوامره إلى صاحب الشرطة لمحاصرة مكان الاجتماع ، وبعد أن ألقى القبض عليهم أودعهم السجن .

وفي البصرة ، عين معاوية عبد الله بن عامر والياً عليها ، ثم عزله في عام ٥٤ هـ وعين زياد بن أبيه والياً على البصرة . وقد تبين لزياد عند وصوله البصرة مدى التدهور الحاصل في الأمن ، فذكره وشدد عليه في خطبه التي افتتح بها ولايته ، جرياً على العادة في ذلك الوقت ، فألقى خطبة طويلة سيأتي الحديث عنها بإذن الله ، بين فيها أسلوبه الذي سوف يتبعه في معالجة التدهور الأمني ، ومن قراءة تلك الخطبة تبين أن زياد كان مصمماً على إقامة الأمن والنظام بغض النظر عن الوسيلة التي تحقق ذلك الهدف^(١) ، ولو كانت بالعسف ، وخصوصاً حين يقول : وإني أقسم بالله لأخذنّ الولي بالولي ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : انج يا سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم^(٢) .

ويروي البلاذري كيف استتب الأمن في البصرة في عهد زياد ، وذلك في حادثة مفادها أن زياداً سمع جلباً وأصواتاً بين العامة ، فسأل عن السبب ؛ ف قيل له : إنّ فلاناً قد استأجر من يحمي له بيته ، وذلك نظراً لعدم وجود الشرطة ، وانتشار السُّراق^(٣) ، وفي اليوم التالي أمر زياد صاحب الشرطة بأن يقوم الشرطة بحراسة الطرقات بعد صلاة العشاء^(٤) .

ويضيف البلاذري : أنّ الشرطة قد قتلت ما يقارب الخمسمئة نفر من لص ومنتهب للبيوت^(٥) ، ويعتبر زياد أول من منع التجول ، وذلك بمنع العامة من الخروج من منزلهم ليلاً^(٦) ، وكان يأمر صاحب شرطته بالخروج ، فيخرج ولا يرى إنساناً إلا قتله . فأخذ ليلة أعرابياً ، فأتى به زياداً فقال : هل سمعت النداء؟ - يقصد نداء منع التجول ليلاً - قال : لا والله ، قدمت بحلوب^(٧) لي وغشيني الليل فاضطرتها إلى موضع ، فأقمت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمر . قال : أظنك والله صادقاً ، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه^(٨) . ومثل هذا الفعل الظالم لا تقرّه الشريعة مهما كانت التبريرات^(٩) .

(١) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ٣٨) .

(٢) تاريخ الطبري (٦/١٣٥) .

(٣) أنساب الأشراف (٤/١٧١) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ٣٩) .

(٧) الحلوب : ذات الحليب .

(٨) تاريخ الطبري (٦/١٣٨) .

(٩) ولاية الشرطة في الإسلام ، نمر بن محمد الحميداني ، (ص ١٢٣) .

وعلى ما يبدو أن قتل البدو لم يكن لمجرد الرغبة في القتل ذاته ، بل تم لإقناع أهل البصرة بجدية الوالي في تنفيذ أوامره ، وأن لا أحد ينجو من العقوبة إذا خرق القانون ، حتى لو كان بريئاً لا ذنب له ، كما سبق وهدد في خطبته البتراء .

لقد كان الهدف النهائي عند زياد ، إقرار هيبة الدولة والحصول على طاعة العامة ، ولو عن طريق الإرهاب ، وبذلك تستقيم الأمور في البصرة حيث ترى العامة أن الأمر لا هزل فيه ولا هوان في تطبيق العقاب^(١) .

ولم يكن خافياً على زياد بن أبيه ضرورة إعادة تنظيم جهاز الشرطة حتى يتمكن من تحقيق سيطرة فعالة على الأوضاع الأمنية ، لذلك عمل زياد على اتخاذ بعض الإجراءات التي تسمح له بفرض هيمنته ، منها : زيادة عدد الأفراد العاملين في الشرطة ، فصعد عددهم^(٢) حتى وصل أربعة آلاف فرد ، وعين اثنين في منصب صاحب الشرطة بدلاً من واحد^(٣) .

إن ارتفاع عدد رجال الشرطة إلى أربعة آلاف يدل على أمرين :

أولهما : شدة الاضطراب الداخلي .

الثاني : أن الشرطة كانت ترفد الجيش في كثير من الأحيان^(٤) .

وبلغ من دقته في عهده أنه قال : لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه^(٥) ، وترتب على ذلك ما قاله الطبري : . . . وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرّد السيف ، وأخذ بالظنّة ، وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه ، خوفاً شديداً ، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله ، وأدّر العطاء ، وبنى مدينة الرزق^(٦) ، وعندها ضمّ معاوية الكوفة إلى ولاية زياد ، واستطاع أن يفرض النظام الأمني حيث حقق للأمويين رغبتهم في استقرار النظام والأمن في كل من البصرة والكوفة ، وحيث أصبحت الشرطة أهم قوة داخلية وأكثرها فاعلية^(٧) .

(١) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ٤٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تاريخ الطبري (١٣٨/٦) .

(٤) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (٦٣٦/٢) .

(٥) تاريخ الطبري (١٣٩/٦) .

(٦) المصدر السابق نفسه (١٣٨/٦) .

(٧) الشرطة في العصر الأموي (ص ٤١) .

ثانياً: الشرطة في الأقاليم الأخرى:

عند مقارنة مثلاً مصر بغيرها من الأمصار الإسلامية كالبصرة مثلاً ، نجد أن الشرطة لم تلعب الدور نفسه ؛ وذلك لبعد مصر عن الاضطرابات التي يحدثها عادة الخوارج ، وكذلك تذكر المصادر في العادة حرص الولاة عند اختيار صاحب الشرطة ، وقد عين مروان بن الحكم والي المدينة مصعب بن عبد الرحمن بن عوف في مناصبي صاحب الشرطة والقضاء في آن واحد - كما مرّ معنا - وكان ذلك في عهد معاوية^(١) . ويروي ابن سعد أن مصعباً كان شديداً على المذنبين والخارجين على القانون^(٢) ، وقد طلب مصعب من والي مروان بن الحكم أن يزوده بعدد كبير من أفراد الشرطة ، إذا كان يريد الحفاظ على الأمن في المدينة ، حيث لم يكن عدد الشرطة المتوفر كافياً لهذه المهمة^(٣) ، وأجابه مروان إلى طلبه وأرسل إليه مئتي شرطي ، وظل مصعب في منصب صاحب الشرطة حتى وفاة معاوية^(٤) .

ثالثاً: واجبات الشرطة:

كان للشرطة في الدولة الأموية مكانة مميزة بسبب الواجبات المهمة التي كانت تقوم بها هذه المؤسسة تجاه السلطة والمجتمع ؛ ومن هذه الواجبات :

١ - حماية الخليفة وولاية الأمصار ضد مناوئهم في الداخل :

أول من استخدم الشرطة لحمايته الشخصية من الاغتيال الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، الذي خاض صراعاً (سياسياً - عسكرياً) عنيفاً مع معارضيه من الخوارج وغيرهم ، وكان الشرطة يحرسون معاوية بشكل دائم في حله وترحاله ، بل حتى وقت الصلاة كان هناك حارس يقف عند رأسه وهو يصلي في المحراب ، وعلى ما يبدو أن الخليفة كان يسير بين يديه صاحب الشرطة متقلداً كامل سلاحه ، وكذلك تقوم الشرطة بتوفير الحماية للولاة في الأمصار المختلفة ، بالطريقة السابقة نفسها ، وكما ذكر سابقاً أن زياد بن أبيه كان يستخدم الشرطة لأمنه الشخصي ، وكان صاحب الشرطة هو المسؤول الأول عن سلامة والي^(٥) .

إن ظهور صاحب الشرطة في مقدمة موكب الخليفة أو والي في الأماكن العامة ليس دليلاً فقط على الحماية ، بل لإشعار العامة أيضاً بالهيمنة والسلطة ، إلى جانب ذلك كانت الشرطة أداة

(١) الشرطة في العصر الأموي (ص ٤٣)؛ الطبقات (٥/ ١٥٨).

(٢) الطبقات ، لابن سعد (٥/ ١٥٨).

(٣) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ٤٣)؛ الأغاني (٥/ ٧٤).

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٣).

(٥) تاريخ الطبري (٦/ ١٣٨)؛ الدولة الأموية في العصر الأموي ، (ص ٧٩).

بيد الخليفة والولاء لفرض سلطة الدولة على الذين يحاولون التمرد عليها أو معارضتها^(١) ، وكانت تعين الخليفة على جمع المعلومات ، فقد كان معاوية رضي الله عنه قد بلغ من اهتمامه في الحصول على أخبار عماله ورعيته أن بثَّ عيونه في كل قطر وكل ناحية ، فكانت تصله الأخبار أولاً بأول ، فانتظم له أمره ، وطالت في الملك مدته^(٢) ، وحذا زياد بن أبيه حذو معاوية ، ومما يحكى عنه: أن رجلاً كلمه في حاجة له ، فتعرف عليه وهو يظنُّ أنه لا يعرفه فقال: أصلىح الله الأمير أنا فلان بن فلان. فتبسم زياد وقال: أتعرّف إليّ وأنا أعرف منك بنفسك ، والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك ، وأعرف هذا البرد^(٣) الذي عليك وهو لفلان. . فبُهِت الرجل وأرعد حتى كاد يغشى عليه^(٤).

٢- معاقبة المذنبين والخارجين على القانون:

الشرطة بحكم كونها القوة الرئيسة المسؤولة عن حفظ الأمن ، والنظام داخل المدن ، إضافة إلى واجبها في فرض القانون ، ولكن الأحوال الاجتماعية في المدن الكبرى كانت تدفع الشرطة إلى اتخاذ إجراءات مشددة تجاه العامة ، وقد بين زياد بن أبيه في خطبته البتراء خطورة التجاوزات التي حدثت من الناس؛ فقال: . . . من بُيِّت منكم فأننا ضامن لما ذهب له ، إياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، . . . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً ، غرقناه ، ومن حرّق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً^(٥) . . .

من هذه الخطبة يتبين مدى التدهور الحاصل في البصرة ، من خلال طبيعة الجرائم التي كان يرتكبها بعض المنحرفين من أهلها قبل قدوم زياد ، وحين انتهى من خطبته أمر صاحب الشرطة بحراسة الطرقات وقتل كل من يوجد خارج منزله ليلاً^(٦) . ويروي البلاذري أن زياداً لم يتردد في تنفيذ ما توعّده به^(٧) حرفياً.

٣- تنفيذ العقوبات الشرعية:

من الواجبات التي كانت الشرطة تقوم بها: تنفيذ الحدود الشرعية ، التي يأمر بها القضاء ،

(١) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ٧٩).

(٢) المحاسن والمساوي ، للبيهقي ، (ص ١٤٣ - ١٤٤).

(٣) البرد: كساء مخطط يلتحف به .

(٤) المحاسن والمساوي ، (ص ١٤٤).

(٥) تاريخ الطبري (٦/١٣٦).

(٦) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ٨٣)؛ أنساب الأشراف (٤/١٧٢).

(٧) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ٨٣).

ضد كل من يظهر منه فساد في المجتمع الإسلامي ، والحدود الشرعية - كما هو معروف -
مذكورة في القرآن الكريم ، والسنة النبوية بينت ذلك ، وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم
لديهم غيرة وحرص على أوامر الدين وتنفيذها ، ومن ذلك ما رواه الإمام مالك : أنَّ عبداً سرق
ودياً^(١) فوجدوه ، فاستعدي على العبد مروان بن الحكم^(٢) ، فسجن مروان العبد ، وأراد قطع
يده ، فانطلق سيد العبد إلى رافع بن خديج رضي الله عنه ، فسأله عن ذلك ، فأخبره : أنه سمع
رسول الله ﷺ يقول : « لا قطع في ثمر ولا كثر »^(٣) ، فقال الرجل : فإن مروان بن الحكم أخذ
غلاماً لي وهو يريد قطع يده ، وأنا أحب أن تمشي معي إليه فتخبره بالذي سمعت من رسول الله
ﷺ ، فمشى معه رافع إلى مروان بن الحكم ، فقال : أخذت غلاماً لهذا ؟ فقال : نعم ، فقال :
ما أنت صانع به ؟ قال : أردت قطع يده ، فقال له رافع : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا قطع في
ثمر ولا كثر » ، فأمر مروان بالعبد فأرسل^(٤) .

ويستفاد من هذه اللوحة كذلك احترام الولاة والعمال للصحابة الكرام ، وعدم التعرض
لتصرفاتهم ما دامت منبثقة من الحرص على تنفيذ أمر الله ورسوله ، حتى وإن كانت داخلية ضمن
مهام الوالي^(٥) ، ومن مظاهر الغيرة على أوامر الدين وتغليب أمر الله على ما سواه : امتناع والي
شرطة المدينة مصعب بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما من هدم دور بني هاشم ، ومن
كان في حيزهم ، ودور بني أسد بن عبد العزى ، والشدة عليهم ، وذلك لمواالاتهم الحسين بن
علي وابن الزبير ، وامتناعهم عن بيعة يزيد ، إذ قال مصعب لأمير المدينة عمرو بن سعيد : أيها
الأمير إنّه لا ذنب لهؤلاء ولست أفعل ، فقال له الأمير : انتفخ سحر ك يا بن أم حريث ، إليّ
سيفنا ، فرمى إليه بالسيف وخرج عنه^(٦) . وهذا الفعل يدل على قوة إيمان مصعب ، وأنّه
لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق^(٧) .

ومن واجبات الشرطة : مساعدة الجيش ضد أعداء الدولة^(٨) ، وتنفيذ أحكام الإعدام

(١) الودي : الواحدة ودية ، وهي صغار النخل . الفائق في غريب الحديث (٤ / ٥١) .

(٢) ولاية الشرطة في الإسلام ، (ص ١٢٠) .

(٣) الكثر : بفتح الكاف والمثلثة ؛ هو جمار النخل ، أي وعاء الطلع في جوفه ؛ وهو يؤكل . انظر : الفائق في
غريب الحديث (٣ / ٢٤٧) .

(٤) ولاية الشرطة في الإسلام ، (ص ١٢١) .

(٥) نسب قريش ، (ص ٢٦٨) ؛ ولاية الشرطة في الإسلام ، (ص ١٢٢) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ١٢٢) .

(٨) المصدر السابق نفسه ، (ص ٩٧) .

والتعذيب للمناوئين السياسيين وكل ما يتصل بالسجناء عند صاحب السجن^(١) ، وإن كانت الواجبات الأخيرة تتضح ملامحها في عهد الخلفاء الذين بعد معاوية أكثر .

رابعاً : قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة :

تعتبر الشرطة العمود الفقري للجهاز الأمني في الدولة الأموية ، وكانت المهمة الرئيسة لهم : حفظ الأمن الداخلي بالدرجة الأولى ، ومع ذلك عرف العصر الأموي مؤسسات أخرى لعبت دوراً مشابهاً ومكملاً للشرطة ؛ وهذه المؤسسات هي :

١ - الحرس :

استخدمت كلمة حرس في بدايات العصر الأموي لوصف كل من يقوم بمهمة الحراسة بغض النظر عن المكان أو الشخص الذي يحرسه ، وفي العصر الأموي كان الحرس يمثلون تلك الفئة التي تقوم بمهمة حماية الخلفاء والولاة ، وعلى ما يظهر أن معاوية كان أول خلفاء بني أمية يتخذ الحرس لحماية الشخصية من احتمال الاعتداء عليه من قبل الخوارج وغيرهم ، وفي خلافة معاوية استخدم الولاة الحرس ، كقوة أمنية داخلية إلى جانب الشرطة ، وقد استخدم زياد بن أبيه خمسمئة رجل في قوات الحرس الخاصة به ، وعين عليهم رجلاً من بني سعد أطلق عليه صاحب الحرس^(٢) ، ومنذ ذلك الحين وخلفاء بني أمية يعينون من يثقون به^(٣) .

وخلاصة القول : إن مفهوم الشرطة يتسع إلى الدرجة التي يضم فيها نشاط الحرس تحت سلطته ، في حين أن الحرس لا يدخلون ضمن الشرطة^(٤) ، ويورد الجاحظ شطر بيت من الشعر : (كأنه شرطي بات في حرس) ؛ للدلالة على التفرقة بين المؤسستين^(٥) .

٢ - الحرس من غير العرب :

عرف العرب ، قبل قيام الدولة الأموية ، بعض الألفاظ الأجنبية التي تطلق على الحرس الذين كانوا يحرسون بيت المال في البصرة^(٦) . وهذه الألفاظ هي : الأساورة والسيابجة والزط ، ويشرح البلاذري هذه الألفاظ فيقول : إنّ الأساورة من الفرس ، أما السيابجة والزط فينحدرون على ما يظهر من الهند^(٧) .

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ٩٧ إلى ١٠٩) .

(٢) تاريخ الطبري ؛ نقلاً عن الشرطة في العصر الأموي ، (ص ١٢٨) .

(٣) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ١٢٨) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٣٠) .

(٥) الحيوان (٣/ ١٥٨) ؛ الشرطة في العصر الأموي ، (ص ١٣٠) .

(٦) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ١٣٠) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

بمكان وجودها ، لقب (صاحب الاستخراج) ، ويروي ابن قتيبة أن هذه المهنة ظهرت في عهد زياد بن أبيه ، الذي كان دائم التحذير لمن يعينهم لمساعدته في الإدارة ، وكان لا يتردد في إعفائهم من مناصبهم إذا ظهرت منهم خيانة ، ويكون العزل بعد إيقاع العقوبة بهم^(١) ، ويورد كثير من المؤرخين حوادث تتصل بالولاة الذين استخدموا صاحب الاستخراج لاسترداد الأموال المختلسة من المختلسين ، أو ممن ظهرت عليهم أمارات الخيانة أو ما شابه ذلك من أمور ؛ من ذلك أن والي العراق عبيد الله بن زياد عزل من مساعديه رجلاً يدعى عبد الرحمن ، واستخلص منه مئتي ألف درهم^(٢) ، كما استخلص مبلغ مئة ألف درهم اختلسها أحد العاملين في إدارته^(٣) .

٥- جهاز الحسبة :

والمقصود هنا بالحسبة: المعنى الضيق ، أي: عملية الإشراف على تنظيم الأسواق والعمليات التجارية فيها ، وقد كان من مهام المحتسب في الدولة الأموية جباية ضرائب المبيعات وتحصيل أجرة الدكاكين التابعة للدولة^(٤) ، إضافة إلى مسؤوليات السوق والتي من أبرزها^(٥) :
أ- التأكد من دقة الأوزان ، والمكاييل ، والمقاييس المستعملة في عمليات السوق ، منعاً لحدوث غبن في التعامل .

ب- التفقد المفاجئ لعيار الحبات ، والمثاقيل ؛ لضمان عدم الإخلال بها .

ج- منع الارتفاع الفاحش لأسعار السلع الأساسية .

د- منع حالات الاحتكار إن وجدت ، وإجبار المحتكر على بيع ما احتكره .

ووفق هذا المفهوم نجد أن الحياة الاقتصادية في بداية الدولة الأموية كانت بسيطة ، وعليه فقد سار ولاة الأقاليم على نهج الخلافة الراشدة ؛ فكان الولاة - كل في إقليمه - يباشر الحسبة بنفسه^(٦) .

لكن هذا لم يمنع من ظهور وظيفة العامل على السوق في مدينة البصرة في عهد ولاية زياد بن أبيه (٤٥ - ٥٣ هـ)^(٧) .

(١) عيون الأخبار (١/ ٥٥)؛ الشرطة في العصر الأموي ، (ص ١٣٤) .

(٢) الشرطة في العصر الأموي ، (ص ١٣٤) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، نقلاً عن الأنساب للبلاذري .

(٤) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢٢٣) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٢٤) .

ويمكن القول - من خلال التتبع - بأن نظام الحسبة كان موجوداً منذ بداية العصر الأموي ، وإن لم يكن يحمل لفظ الحسبة ، إنما دور المحتسب في تنظيم السوق كان متواجداً طوال العصر الأموي ، وقد نما النظام وتطور بما يوافق تطور قطاع التجارة ، والأسواق ، فيلاحظ أنه في بداية الأمر كان الوالي يتولى بنفسه أعمال الحسبة ، ثم تطور الأمر لأن يكون هناك شخص معين وظيفته الإشراف على السوق ، ثم تطور الأمر ليكون لهذا المعين أعوان يعينونه في عمله^(١).

٦- نظام المراقبة :

ظهر هذا النظام في دمشق في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، في عدة صور :

أ- إلزام بعض منائيه السياسيين بأداء الصلاة في الجماعة في مساجد معينة^(٢) . ويشبه هذا الإجراء ما هو معمول به في بعض الدول المعاصرة من إلزام المشبوهين بالتردد على مراكز الشرطة في أوقات محددة^(٣).

ب - إسكان بعض منائيه في مساكن خاصة أعدّها لهم في دمشق وغيرها ؛ لتسهيل عليه مراقبتهم .

ج- إحكام المراقبة الشخصية على الأجانب الذين يدخلون دار الإسلام^(٤).

٧- مؤسسة الدرك :

والدرك في الاصطلاح : مؤسسة تضم قوى الدولة العاملة في سبيل الأمن خارج حدود المدن الكبيرة^(٥) ، وفي الطبري نص يفيد اهتمام زياد عام ٤٥ هـ - أي أيام معاوية - بالسُّبل - أي الطرق - جاء فيه : قيل لزياد : إن السبل مخوفة . فقال : لا أعاني شيئاً سوى المصر ، حتى أغلب على المصر وأصلحه ، فإن غلبني المصر ، فغيره أشد غلبة ، فلما ضبط المصر تكفل ما سوى ذلك ، فأحكمه^(٦) . وكان يقول : لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه^(٧) . وهذا

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) ولاية الشرطة في الإسلام ، (ص ١٢٥) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (٢/ ٦٤٣) .

(٦) تاريخ الطبري (٦/ ١٣٩) .

(٧) المصدر السابق نفسه .

لا يكون إلا إذا كان رجاله متمكنين من الطرق والسبل^(١). وقد طرح زياد نظرية أمنية مفادها التمكن أولاً من داخل الأمصار ، ثم التوسع لما حولها من طرق وسبل .
هذه بعض الملامح والمعالم الكبيرة عن نظام الشرطة في عهد معاوية رضي الله عنه .

* * *

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (٢/ ٦٤٤) .

المبحث الثامن

الولاة والإدارة في عهد معاوية رضي الله عنه

حاول معاوية رضي الله عنه طيلة فترة خلافته أن يجعل أسلوب حكمه في وضع بين المركزية واللامركزية؛ فقد اتخذ من دمشق عاصمة للدولة ، وغدت المركز الرئيس الذي تصدر منه الأوامر السياسية والاقتصادية والإدارية للدولة ، أما ترتيب أمور الولايات داخلياً فقد ترك معاوية رضي الله عنه للولاة ليقوموا به كل حسب خبرته وجدارته ، على أن يكونوا جميعاً مسؤولين أمام معاوية رضي الله عنه مسؤولية مباشرة ، ومحاسبين على كل عمل يقومون به .

ولعل من ضمن الأسباب التي حدث بمعاوية لأن يتخذ من دمشق عاصمة للدولة الأموية؛ هو: معرفته الجيدة بأهل الشام وثقته التامة فيهم وفي ولائهم له ، فقد أمضى معاوية رضي الله عنه هناك قرابة عشرين عاماً أميراً على بلاد الشام ، كان خلالها يتمتع بشعبية كبيرة بينهم ، ولعل معاوية رضي الله عنه كذلك كان يشعر أن استمرار دولة الأمويين يعتمد في درجة كبيرة على مدى المساعدة التي يقدمها إليه أهل الشام خاصة ، كان معاوية رضي الله عنه يعي هذه المسائل جيداً ويعيرها جلّ انتباهه ، لذلك حاول جهده منذ البداية أن يعمل على حفظ التوازن بين رجالات القبائل العربية المختلفة في بلاد الشام ، وعلى درجة الخصوص القبائل اليمانية والقبائل القيسية^(١) ، وقد عمل معاوية رضي الله عنه كل ما في استطاعته لإيجاد التوازن بين مصالح الطرفين في بلاد الشام ، فقد كان في خدمة معاوية رضي الله عنه رجالات من القيسية؛ أمثال: الضحّاك بن قيس الفهري ، وحبيب بن مسلمة الفهري ، مثلما كان هناك رجالات من اليمانية؛ أمثال: مالك بن هبيرة السكوني ، وشرحبيل بن سمط الكندي ، وحسان بن بحدل الكلبي وغيرهم ، كما أن معاوية رضي الله عنه حصل على مساعدات من كلا الطرفين إبان فترتي ولايته وخلافته ، وكانوا يحاربون إلى جانبه في جيش واحد وتحت إمرة واحدة^(٢) .

(١) خلافة معاوية بن أبي سفيان ، العقيلي ، (ص ٧٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٧٣) .

وكانت سياسة معاوية تقوم على الاستعانة بأفراد من أقاربه أبناء البيت الأموي؛ مثل: عنبسة بن أبي سفيان، وعتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وسعيد بن العاص بن أمية، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك^(١)، وعمر بن سعيد بن العاص^(٢)، وغيرهم.

كما حرص معاوية رضي الله عنه على اختيار أعوانه وولاته من ذوي التجارب الواسعة من المسلمين، كعبد الله بن عامر بن كرز، والمغيرة بن شعبة، والنعمان بن بشير الأنصاري، ومسلمة بن مخلد الأنصاري^(٣)، وغيرهم.

ولم تكن المحاباة هي الأساس الأهم والأوحد في انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم، وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ورأى أن يستفيد من جهودهم ومواهبهم؛ ولاسيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام^(٤).

ونلاحظ أن معاوية استعان بأهل الصحة والكفاية والولاء ولاة على الأمصار، ومع أن معاوية رضي الله عنه اختار بعض أعوانه من أهل بيته، يوليهم الولايات؛ إلا أنه كان يعاملهم بحذر شديد إلى أن يطمئن لهم، ويقتنع بمقدرتهم الإدارية؛ فقد كان يختارهم أول الأمر لولاية مدن صغيرة كالطائف^(٥) مثلاً، فإذا ما أظهر أحدهم مقدرة إدارية، فإن معاوية رضي الله عنه يضم إليه مكة لتكون تحت إشرافه، ثم يتبعها بالمدينة، وعند ذلك يقال: هو قد حذق^(٦).

وغني عن البيان أن الطائف كانت مدينة مهمة في ذلك الوقت؛ حيث تتركز فيها قبيلة ثقيف^(٧) القوية، وأن من استطاع من الولاة أن يسيطر على الطائف - سياسياً واقتصادياً - فإن بقية المدن تسهل السيطرة عليها بعد ذلك.

وتشير نجدة حمّاش إلى أن معاوية رضي الله عنه جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرّب فيها أبناء البيت الأموي على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرّج في تلك الإدارة وفق خطوات مقررّة^(٨).

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، نقلاً عن خلافة معاوية، للعقيلي، (ص ٧٣).

(٢) خلافة معاوية، (ص ٧٣)، نقلاً عن أنساب الأشراف (١٦٠/٤).

(٣) خلافة معاوية، العقيلي، (ص ٧٤).

(٤) الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم العنوي، (ص ٧٤).

(٥) خلافة معاوية، للعقيلي، (ص ٧٤).

(٦) تاريخ الطبري؛ خلافة معاوية، للعقيلي، (ص ٧٥).

(٧) خلافة معاوية، للعقيلي، (ص ٧٥).

(٨) الإدارة في العصر الأموي، (ص ١٠٨-١٠٩).

وقد اتبع معاوية رضي الله عنه أسلوباً مميزاً في معاملته لبني أهله ممن يستعين بهم . فقد كان يحاول أن يجعلهم متفرقين عن بعضهم البعض ، وذلك كي يتجنب أي تحالف ضده ^(١) .

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه تمتع رعايا الدولة من غير المسلمين بمنتهى التسامح والرفق ، وحصلوا على امتيازاتهم بسهولة ويسر . فقد كانوا يعملون في مختلف الوظائف الحكومية ، ذلك أن معاوية رضي الله عنه أبقي على النظم البيزنطية والقبطية التي كان معمولاً بها في الشام ومصر والمغرب . كما أبقي على النظم الفارسية في العراق وخراسان . وكان ترك معاوية رضي الله عنه هذه النظم على حالتها بسبب نقص من كانوا يعرفون لغات ونظم إدارة البلاد المفتوحة من المسلمين في أوائل العهد الأموي ، وعلاوة على ذلك فقد كان طبيب معاوية رضي الله عنه الخاص ، ويدعى ابن أثال ^(٢) ، غير مسلم ، وكذلك سريج (سرجون) بن منصور الرومي مستشاره المالي ^(٣) ، وابن مينا ^(٤) ، وابن النضير ^(٥) ، مولاه من عماله على الصوافي ، كانوا أيضاً من سلالة غير المسلمين ، وأسلم بعضهم فيما بعد . وفضلاً عن ذلك ترك معاوية لرعايا الدولة من غير المسلمين أيضاً حرية تامة ؛ هي : ممارسة طقوسهم الدينية ؛ فاستجاب لطلب نصارى دمشق بعدم زيادة كنيسة يوحنا في مسجد دمشق ^(٦) . كما : رمم لهم كنيسة الرّها (أديسّا) والتي كانت قد تهدمت من جراء الزلازل ^(٧) . كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري على مصر ما بين عامي (٤٧ - ٦٨ هـ) ^(٨) .

كما استعان معاوية رضي الله عنه بمهندسين وفنيين من غير المسلمين في بناء قصر الخضراء بدمشق الذي اتخذته معاوية مقراً لإقامته في فترة إمارته على بلاد الشام ، ثم في فترة خلافته بعد ذلك ، ويروي البلاذري : أنهم بنوه لمعاوية رضي الله عنه من الحجارة بعد أن كان قبل مبنياً باللبن والطين ^(٩) .

وكما كانت سياسة التسامح مع الرعايا غير المسلمين هي الطابع المميز لفترة خلافة معاوية

(١) أنساب الأشراف (٤/ ٦٥ ، ٦٧) ؛ خلافة معاوية ، (ص ٧٥) .

(٢) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٢٣) .

(٣) تاريخ خليفة ، (ص ٢٢٨) .

(٤) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٩٧) ؛ المحن ، (ص ١٧١) .

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ١٢٣) .

(٦) خلافة معاوية ، للعقيلي ، (ص ٨٠) .

(٧) الأمويون والبيزنطيون ، (ص ٢٩١) .

(٨) فتوح مصر ، (ص ١٣٢) ؛ غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، للقرضاوي ، (ص ١٠ - ٢١) .

(٩) أنساب الأشراف (٤/ ١٤٧) .

رضي الله عنه ، كذلك نرى سياسة التعاطف والاهتمام المتزايد وحسن المعاملة تجاه الموالي من المميزات الأخرى في عصر معاوية؛ فنجد معاوية رضي الله عنه استعان بكثير من الموالي في إدارة بعض شؤون الدولة: فعين مولاه عبد الله بن درّاج على خراج الكوفة ومعونتها في ولاية المغيرة بن شعبة^(١). وكان وردان مولاه على خراج مصر في ولاية عتبة بن أبي سفيان^(٢) ، وكان على حرسه رجل من الموالي يقال له: المختار، وقيل: رجل يقال له: مالك، وكان على حجابيه سعد مولاه^(٣). وكان يلي أمواله بالحجاز أيضاً. وهو الذي قال فيه معاوية: أغبط الناس عيشاً مولاي سعد ، كان يتربع جدّة ، ويتقيّط الطائف ، ويشتو بمكة^(٤). واتخذ زياد بن أبي سفيان من مهران مولاه ، حاجباً له وكاتبه على الخراج في العراق^(٥). وكان أبو المهاجر دينار مولى لمسلمة بن مخلد الأنصاري، فتولى له إدارة شؤون المغرب^(٦) في سنة ٥٥ هـ.

وبالرغم من هذه الأمثلة نجد أن عباس محمود العقاد يشير إلى أن معاوية كان لا يلتفت إلى الموالي ، وردّد ما سبقه إليه المستشرقون في طعنهم في تسامح معاوية رضي الله عنه مع الموالي ، رغم ما تزخر به المؤلفات العربية القديمة من أمثلة على هذا التسامح^(٧).

ومن ناحية أخرى: فقد ترك معاوية رضي الله عنه الإصلاحات الضرورية لعماله على الأقاليم ليقوم كل واحد منهم بواجبه تجاه الإقليم الذي يرى شؤون^(٨) ، وقد أصبح التقسيم الإداري للدولة في عهده كالآتي: دمشق عاصمة للدولة ، وقسم البلاد إلى ولايات يحكم كل ولاية منها وال من قبل الخليفة ، وكان لكل سلطة غير محدودة في الولاية التي يحكمها ، وفي بعض الأحيان أطلقت الدولة للوالي سلطة التصرف كما يشاء ، حتى كان بعضهم يقتل وينفي ، ويسجن ، ويشرد ، ... وقد لاحظنا أن هذا الحكم المطلق لم يتكرر ، بل كان دائماً محصوراً في ولاية العراق ، وذلك لما كان يحدث فيها من اضطرابات وفتن أكثر من غيرها ، وكان الخليفة يختار لهذه الولاية ولاة مشهورين بالحزم والشدة ، فكان زياد بن أبيه من أشهر ولاة معاوية ، أما بقية الولايات فكانت تحكم بطابع الدولة المألوف ، فالوالي مقيد بأوامر الخليفة ، لا يقضي إلا بعد رأيه ، ولا يفصل إلا بعد مشاورته ، وكان الوالي يرجع إلى الخليفة في كل ما يتصل

(١) خلافة معاوية ، للعقيلي ، (ص ٨١).

(٢) الإدارة في العصر الأموي ، خمّاش ، (ص ٣٤٧).

(٣) أنساب الأشراف (٤/ ٥٤ ، ٦٣)؛ خلافة معاوية ، (ص ٨٢).

(٤) معجم البلدان (٤/ ١٢)؛ خلافة معاوية ، (ص ٨٢).

(٥) تاريخ خليفة ، (ص ٢١٢).

(٦) خلافة معاوية ، (ص ٨٢).

(٧) خلافة معاوية.

(٨) المصدر السابق نفسه ، (ص ٨٣).

بالمصالح العامة ، فإذا كان الأمر خاصاً بولايته له أن يتصرف فيه بحسب ما يحقق المصلحة العامة ، وإلا فهو مسؤول أمام الخليفة عن كل تصرفاته .

وكانت ولايات الدولة الكبرى في عهد معاوية^(١) : دمشق العاصمة ، والبصرة ، والكوفة ، والمدينة ومكة ، ومصر وغيرها ، وأما ولاية الأمصار في عهد معاوية فسوف نتحدث عنهم في حديثنا عن كل إقليم بإذن الله تعالى .

أولاً: البصرة:

ومن أشهر ولايتها في عهد معاوية :

١- بسر بن أبي أرطاة رضي الله عنه (٤١ هـ) :

تولى الولاية عام ٤١ هـ ، وجاءت روايات لم تصل إلى درجة الصحة تشير إلى تعرض بسر لأبناء زياد بن أبيه^(٢) ، ثم عزل وعين بدله عبد الله بن عامر .

٢- عبد الله بن عامر رضي الله عنه (٤١ - ٤٤ هـ) :

ففي هذه السنة - أي ٤١ هـ - ولي معاوية عبد الله بن عامر البصرة ، وحرب سجستان^(٣) ، وخراسان^(٤) . ولم يكن تعيين عبد الله بن عامر على البصرة لأسباب شخصية ، لأنه لم ترد رواية صحيحة تؤكد ذلك ، ولكن اختيار معاوية رضي الله عنه له كان نتيجة خبرته السابقة في ولاية البصرة وحرب سجستان وخراسان أيام عثمان ، فما كان من معاوية إلا أن أسند الأمر إلى أهله ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب^(٥) ، وبعد أن أمضى ابن عامر ثلاث سنوات تمكن فيها من تثبيت الفتحة في سجستان وخراسان ، واستفاد المسلمون من خبرته العسكرية ، ثم دعت الحاجة إلى تغييره ، فعزله معاوية وولى الحارث بن عبد الله الأزدي البصرة في أول سنة خمس وأربعين ، فأقام بالبصرة أربعة أشهر ، ثم عزله وولاه زياداً^(٦) .

٣- زياد بن أبيه (٤٥ - ٥٣ هـ) :

أ- نسبه :

يعتبر نسب زياد المكنى بأبي المغيرة ، من أكثر القضايا غموضاً في حياته ، فقد كانت أمه أمة

(١) الدولة الأموية ، محمد سيد الوكيل (٩٧/١) .

(٢) تاريخ الطبري (٨٢/٦) .

(٣) سجستان : تقع حالياً جنوب غرب أفغانستان .

(٤) تشمل حالياً : شمال شرق إيران ، وشمال غرب أفغانستان .

(٥) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢٣٤) .

(٦) تاريخ الطبري (١٣٣/٦) .

اسمها سمية^(١) ، ولم يتفق المؤرخون من هو أبوه ، وبالتالي هم مختلفون في ذكر نسبه ؛ فقد ذُكر اسمه في المصادر ، تارة زياد بن سمية^(٢) ، وتارة زياد بن عبيد^(٣) ، ومرة زياد الأمير^(٤) ، وأخرى زياد بن أبي سفيان^(٥) ، وفي أغلب الأحيان عرف بابن أبيه^(٦) ، وذلك لما وقع في أبيه من الشك^(٧) .

ب- صلح زياد مع معاوية :

كان زياد بن أبيه والياً على خراسان لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وكان مخلصاً له غاية الإخلاص ، وحاول معاوية أن يكسب زياد ويضمه إلى صفه في عهد علي رضي الله عنه ، إلا أنه فشل في ذلك ، وبعد مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وجد معاوية فرصة طيبة لإعادة النظر في مساعيه الهادفة إلى استمالة زياد بأقل التكاليف ، واستخدم معاوية لغة التهديد والترغيب مع زياد ، ولكن زياداً اعتصم بفارس بقلعة عرفت باسمه ، فخافه معاوية وهو من أكثر الناس معرفة بصلابته ، ولا شك أن اعتصام زياد بفارس مع علمه بأنه الوحيد الذي لم ينزل على حكم معاوية ، ويدخل فيما دخل فيه الناس ، إنما يدل على ثقته بنفسه أولاً ، وبإمكانات إقليم فارس الاقتصادية والبشرية ثانياً ، إلا أن هذه الأمور وحدها ليست كافية لمواجهة معاوية إذا ما لجأ إلى استخدام القوة ، الأمر الذي دفع زياد في المرحلة التالية في علاقته بمعاوية إلى تبديل موقفه الرافض بموقف أكثر إيجابية .

وبعد صلح الحسن حاول معاوية الاتصال بزياد وسمح للمغيرة بن شعبة أن يتدخل لحل هذا المشكل ، واستطاع المغيرة بن شعبة أن ينجح في إقناع زياد ببيعة معاوية والدخول في طاعته ، وكان هذا النجاح من المغيرة من أعظم ما قدمه لمعاوية من خدمات ، فقد كان من الصعب على معاوية أن يصل إلى زياد أو يوفق في إخضاعه إلا بعد قتال عنيف ، لا يدري أحد من سيكون الرابع في مثل ذلك الموقف الخطير^(٨) ، وقد تمّ لمعاوية احتواء حركة اعتصام زياد بفارس ، ولم يستعجل في الأمر ، وابتعد عن استخدام القوة ، وأعطى للزمن فرصته ، واستعان بدهية

(١) زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة ، للرواضية ، (ص ٣١) .

(٢) تاريخ الطبري (٦/ ١٣١) .

(٣) العواصم من القواصم ، (ص ٣١) .

(٤) الطبقات (٧/ ٩٩) ؛ زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة ، (ص ٣١) .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط ، (ص ١٩١) .

(٦) زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة ، (ص ٣٢) .

(٧) المصدر السابق نفسه ؛ الوافي بالوفيات (١٥/ ٣٢) .

(٨) زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة ، (ص ٧٥ إلى ٨١) .

من دهاة العرب في إقناع زياد، وهذا من حكمته^(١) رضي الله عنه .

جـ- حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه :

قال الطبري في عام ٤٤ هـ: في هذه السنة استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل^(٢) ، وقال الطبري: . . . زعموا أن رجلاً من عبد القيس كان مع زياد لما وفد على معاوية ، فقال لزياد: إن لابن عامر عندي يداً ، فإن أذنت لي أتيتك ، قال: على أن تحدثني ما يجري بينك وبينه ، قال: نعم ، فأذن له فأتاه ، فقال له ابن عامر: هيه هيه ! أو ابن سمية يقبح آثاري ، ويعرض بعمالي ؟! لقد هممت أن آتي بقسامة^(٣) من قریش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية ، قال: فلما رجع سأله زياد ، فأبى أن يخبره ، فلم يدعه حتى أخبره ، فأخبر ذلك زياد معاوية ، فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضرب وجهه دابته عن أقصى الأبواب ، ففعل ذلك به ، فأتى ابن عامر يزيداً ، فشكا إليه ذلك ، فقال له: هل ذكرت زياداً؟ قال: نعم ، فركب معه يزيد حتى أدخله ، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل ، فقال يزيد لابن عامر: اجلس؛ فكم عسى أن تقعد في البيت عن مجلسه ، فلما أطل خرج معاوية ، وفي يده قضيب يضرب به الأبواب ، ويتمثل:

لنا سياق^(٤) ولكم سياق قد علمت ذلكم الرفاق^(٥)
ثم قعد فقال: يا ابن عامر ، أنت القائل في زياد ما قلت ؟! أما والله لقد علمت العرب أنني كنت أعزها في الجاهلية ، وإن الإسلام لم يزدني إلا عزاً ، وإنني لم أتكثر بزياد من قلة ، ولم أتغز به من ذلة ، ولكن عرفت حقاً له فوضعت موضعه^(٦) .

وقد اتهم معاوية رضي الله عنه عندما استلحق زياد بن أبيه إلى أبيه بأنه خالف أحكام الإسلام؛ لأن الرسول ﷺ قال: «لا دعوة في الإسلام ، ذهب أمر الجاهلية ، الولد للفراش^(٧) ، وللعاهر الحجر»^(٨) .

(١) مرويات خلافة معاوية ، (ص ١٧٣)؛ تاريخ الطبري (٩٤/٦ ، ٩٥) .

(٢) تاريخ الطبري (١٣١/٦) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، القسامة: هم القوم الذين يحلفون .

(٤) السياق: المهر . القاموس المحيط ، (ص ١١٥٦) .

(٥) تاريخ الطبري (١٣٢/٦) .

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) الفراش: لفظة يعبر بها عن المرأة غالباً ، وقد يعبر بها عن حالة الافتراش ، والمراد لحقوق حالة نسب الولد بمن له الاختصاص بالوطء كالزوج والسيد . فتح الباري (٣٦/١٢) .

(٨) صحيح سنن أبي داود (٤٣٠/٢) . للعاهر الحجر: أي للزاني الخيبة وحرمان الولد الذي يدعيه ، وقد جرت عادة العرب أن تقول لمن خاب: له الحجر وبقيّة الحجر والتراب . فتح الباري (٣٧/١٢) .

وقد ردّ على هذا الاتهام الدكتور خالد الغيث في رسالته (مرويات خلافة معاوية) بقوله: . . أما اتهام معاوية رضي الله عنه باستلحاق نسب زياد ، فإنني لم أفق على رواية صحيحة صريحة العبارة تؤكد ذلك ، هذا فضلاً عن أن صحبة معاوية رضي الله عنه ، وعدالته ودينه وفقهه تمنعه من أن يرد قضاء رسول الله ﷺ ، لاسيما وأن معاوية أحد رواة حديث: «الولد للفراش ، وللعاهر الحجر»^(١) . ووجه التهمة إلى زياد بن أبيه بأنه هو الذي ألحق نسبه بنسب أبي سفيان ، واستدل برواية أخرجها مسلم في صحيحه من طريق أبي عثمان^(٢) قال: لما ادعى زياد ، لقيت أبا بكره فقلت له: ما هذا الذي صنعتُم؟ إني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سمعت أذناي من رسول الله ﷺ وهو يقول: «من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه؛ يعلم أنه غير أبيه؛ فالجنة عليه حرام». فقال أبو بكره: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ^(٣) .

قال النووي رحمه الله معلقاً على هذا الخبر: . . . فمعنى هذا الكلام الإنكار على أبي بكره ، وذلك أن زياداً هذا المذكور هو المعروف بزياد بن أبي سفيان ، ويقال فيه: زياد بن أبيه ، ويقال: زياد بن أمه ، وهو أخو أبي بكره لأمه . . . فلهذا قال أبو عثمان لأبي بكره: ما هذا الذي صنعتُم؟! وكان أبو بكره رضي الله عنه ممن أنكر ذلك وهجر بسببه زياداً وحلف أن لا يكلمه أبداً ، ولعل أبا عثمان لم يبلغه إنكار أبي بكره حيث قال هذا الكلام ، أو يكون مراده بقوله: ما هذا الذي صنعتُم؟! أي: هذا الذي جرى من أخيك ما أقبحه وأعظم عقوبته؛ فإن النبي ﷺ حرم على فاعله الجنة^(٤) .

وبذلك يكون زياد هو المدّعي ، وفي حقيقة الأمر فإن مسألة استلحاق معاوية زياد هي مسألة اجتهادية ، ويذهب الكثير من المؤرخين بأن هناك دلائل عديدة تثبت أن أبا سفيان قد باشر سمية - جارية الحارث بن كلدة الثقفي - وكانت من البغايا ذوات الرايات - في الجاهلية ، فعلقت منه بزياد ، وذكروا بأن أبا سفيان اعترف بنفسه بذلك أمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآخرين بعدما شب ونبع في عهد عمر بن الخطاب^(٥) . وقال ابن تيمية بأن أبا سفيان كان يقول: زياد من نطفته^(٦) .

(١) فتح الباري (١٢/٣٩) .

(٢) أبو عثمان النهدي ، معروف بكنيته ، مخضرم من كبار الطبقة الثانية (ت ٩٥ هـ) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/٥١ ، ٥٢) .

(٤) المصدر السابق نفسه (٢/٥٢ ، ٥٣) .

(٥) مروج الذهب (٣/١٤ - ١٥)؛ الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٩٥) .

(٦) الفتاوى (٢٠/١٤٨) .

فلما كانت خلافة معاوية شهد لزياد بذلك النسب أبو مريم السلولي ؛ وهو صحابي كان يعمل في الجاهلية خماراً بالطائف ، وهو الذي جمع بين أبي سفيان وسمية ، وكان ذلك أمراً مألوفاً آنذاك^(١).

ويبدو أن هذا النسب قد شاع أمره حتى لقد شهد بذلك أحد رجال البصرة لزياد قبل استلحاق معاوية إياه^(٢) ، فهي دعوة قديمة إذ أولم تكن كما يزعم الرواة نتيجة مشورة المغيرة بن شعبة على معاوية كجزء من صفقة متبادلة بين معاوية وزياد أو غير ذلك من التفاصيل التي اخترعها الرواة^(٣).

وبعد عقود من السنين نجد الإمام مالك بن أنس - إمام أهل المدينة - يذكر زياداً في كتابه الموطأ بأنه زياد بن أبي سفيان ، ولم يقل زياد بن أبيه ، وذلك في عصر بني العباس^(٤) ، والدولة لهم والحكم بأيديهم فما غيروا عليه ، ولا أنكروا ذلك منه ، لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد قد اختلف الناس فيها ، فمنهم من جوزها ، ومنهم من منعها ، فلم يكن لاعتراضهم عليها سبيل^(٥) ، وفي نسبة الإمام مالك لزياد إلى أبي سفيان فقه بديع لم يفتن له أحد ، وهو أنها لما كانت مسألة خلاف ونقد الحكم فيها بأحد الوجهين لم يكن لها رجوع ؛ فإن حكم القاضي في مسائل الخلاف بأحد القولين يمضيها ويرفع الخلاف فيها والله أعلم^(٦).

وأما تعارض هذا الاستلحاق مع نص الحديث الشريف ، فمن اعتذر لمعاوية قال : إنما استلحق معاوية زياداً لأن أنكحة الجاهلية كانت أنواعاً ، وكان منها أن الجماعة يجامعون البغي ، فإذا حملت وولدت ألحقت الولد لمن شاءت منهم فيلحقه ، فلما جاء الإسلام حرّم هذا النكاح ، إلا أنه أقر كل ولد كان يُنسب إلى أب من أي نكاح كان من أنكحتهم على نسبه ، ولم يفرّق بين شيء منها ، فتوهم معاوية أنّ ذلك جائز له ، ولم يفرّق بين استلحاق في الجاهلية والإسلام^(٧).

وأجاز الإمام مالك أن يستلحق الأخ أخأله ويقول : هو ابن أبي ، ما دام ليس له منازع في ذلك النسب . فالحارث بن كلدة (الذي كانت سمية جارية له) لم ينازع زياداً ، ولا كان إليه منسوباً ، وإنما كان ابن أمة بغي ولد على فراشه - أي في داره - فكل من ادعاه فهو له ، إلا أن يعارضه من هو

(١) الكامل في التاريخ (٢/ ٤٧٠).

(٢) تاريخ الطبري (٦/ ١٣١ - ١٣٢).

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها ، (ص ١٩٦).

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) العواصم من القواصم ، (ص ٢٥٤).

(٦) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، (ص ١٤١)؛ نقلاً عن العواصم ، (ص ٢٤٢).

(٧) الكامل في التاريخ (٢/ ٤٧١).

أولى به منه ، فلم يكن على معاوية في ذلك مغمز ، بل فعل الحق على مذهب مالك ، فإن قيل : فلم أنكر عليه الصحابة ؟ قلنا : لأنها مسألة اجتهاد^(١) . . .

والحوادث تثبت أن معاوية كان مقتنعاً بحق زياد في ذلك ، ولا بد أنه كان قد سمع من أبيه ؛ ولهذا فإن معاوية كان مؤمناً بأن عمله لم يكن عملاً موضوعياً وواجباً ضرورياً من باب وضع الشيء في محله ، ولا ريب أن هذا كان معروفاً عند الناس ؛ غير أن معاوية أراد أن يثبتته^(٢) .

د- خطبة زياد المعروفة بالبراء بالبصرة :

لما تولى زياد ولاية البصرة ، عام ٤٥ هـ ، خطب خطبة براء^(٣) ، لم يحمد الله فيها ، وقيل : بل حمد الله فقال :

«الحمد لله على أفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه ، اللهم كما رزقتنا نعماً ، فألهمنا شكراً على نعمتك علينا .

أما بعد ، فإن الجهالة الجاهلاء ، والضلالة العمياء ، والفجر^(٤) الموقد لأهله النار ، الباقي عليهم سعيها ، ما يأتي سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بأبي الله ، ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمد^(٥) الذي لا يزول .

أ تكونون كمن طرفت^(٦) عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكروا أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به ، من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة ، في النهار المبصر ، والعدد غير قليل : ألم تكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دلج^(٧) الليل وغارة النهار ؟! قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغطون على المختلس^(٨) ، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو معاداً ، ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم

(١) العواصم من القواصم ، (ص ٢٥٣) .

(٢) إدارة العراق في صدر الإسلام ، رمزية عبد الوهاب ، (ص ٦١) .

(٣) تاريخ الطبري (١٣٤/٦) .

(٤) الفجر : الانبعاث في المعاصي والزنى . القاموس المحيط ، (ص ٥٨٤) .

(٥) السرمد : الدائم . القاموس المحيط ، (ص ٣٦٧) .

(٦) الطرفة : نقطة حمراء من الدم تحدث في العين من ضربة وغيرها .

(٧) الدلج : السير من أول الليل . القاموس المحيط ، (ص ٣٤٢) .

(٨) الخلس : الأخذ في نهرة ومخالطة . لسان العرب (٦/٦٥) .

ما ترون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب^(١).

حُرِّم عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير جبرية وعنف .
وإني أقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى^(٢) ، والمقيم بالظاعن^(٣) ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد^(٤) ، أو تستقيم لي قناتكم .

إن كذبة المنبر تبقى مشهورة ، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي^(٥) . من بيئت^(٦) منكم ، فأنا ضامن لما ذهب له ، إياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إلي ، وإياي ودعوى الجاهلية^(٧) ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرقته ، ومن حرّق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته^(٨) حياً ، فكفوا عني أيديكم وألستكم أكفف يدي وأذاي ، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضرب عنقه .

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن^(٩) ، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته .

إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له سترأ ، حتى يبدي لي صفحته ، فإذا فعل لم أناظره .

(١) كنوساً في مكانس الريب : استروا في موضع الريبة . لسان العرب (٦/١٩٨) .

(٢) بمعنى واحد وهو : الصاحب والقريب والجار والحليف والشريك .

(٣) الظاعن : المسافر . لسان العرب (١٣/٢٧٠ ، ٢٧١) .

(٤) مثلاً يضرب في الاستخبار عن الأمرين : الخير والشر ؛ أيهما وقع ؟ .

(٥) مرويات خلافة معاوية ، (ص ٢٤٠) .

(٦) بيئت : أوقع به ليلاً . لسان العرب (٢/١٦) .

(٧) دعوى الجاهلية : المفارقة بالأنساب والكبر والتجبر .

(٨) عند الجاحظ : دفناه فيه حياً . البيان التبيين (٢/٢٣٠) .

(٩) الإحن : الأحقاد .

فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبيتس بقدومنا سيسر ، ومسروور بقدومنا سيبيتس^(١) .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة^(٢) ، نسوكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بقيء^(٣) الله الذي حولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيتنا^(٤) بمناصحتكم .

واعلموا أي مهما قصرت فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجياً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبانة^(٥) ، ولا مُجمراً^(٦) لكم بعثاً (مبقياً جيشاً في أرض العدو) أكثر من أربعة أشهر ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركو حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم كان شراً لكم ، أسأل الله أن يعين كلاً على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله ، وإيم الله إن لي فيكم لصرعاً كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي .

فقام عبد الله بن الأهم فقال : اشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، فقال : كذبت ، ذاك نبي الله داود عليه السلام^(٧) .

قال الأحنف : قد قلت فأحسنت أيها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثنى حتى نبتلي ، فقال زياد : صدقت^(٨) .

وهذه الخطبة تعتبر من الخطب المشهورة في التاريخ ، وعلى الرغم من كثرتها وكثرة المصادر التي أوردتها إلا أنها لم تأت بإسناد صحيح يجعل القارئ يطمئن إلى صحة ما ورد فيها ، لاسيما أنها تحتوي على مآخذ عديدة ، وتناقضات واضحة تقلل من صحة نسبة جميع ما جاء فيها إلى زياد ، وقد نبه إلى هذه المآخذ والتناقضات الدكتور خالد الغيث حفظه الله^(٩) .

(١) تاريخ الطبري (٦/١٣٦) .

(٢) ذادة : حماة ومدافعون .

(٣) الفيء : الغنيمة .

(٤) فيتنا : عطفنا وبرنا . لسان العرب (١/١٢٦) .

(٥) إبانة : حينه . القاموس المحيط ، (ص ١٥١٥) .

(٦) تجمير الجيش : هو حبس الأمير للجيش في الثغر وعدم السماح له بالعودة .

(٧) تاريخ الطبري (٦/١٣٧) .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢٤٤) .

- تحدثت الخطبة عن انتشار الفجور في البصرة وكثرة بيوت الدعارة فيها ، ويستفاد ذلك من قول زياد: .. من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، وقوله: ... حُرِّمَ عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً^(١).

وهذا الكلام المنكر عن حال البصرة عند قدوم زياد ، يردّه حقيقة ما كانت عليه البصرة منذ تأسيسها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حيث بنيت لتكون قاعدة تنطلق منها الجيوش الإسلامية لمواصلة الفتح ونشر الإسلام في ربوع البلاد المفتوحة ، ومن أجل هذه الغاية استوطن البصرة أكثر من خمسين ومئة صحابي ، حملوا على عواتقهم مهمة الدعوة إلى الله وتعليم الناس أمور دينهم ، فأثّر لهذه المنكرات أن تثبت وتنتشر في مجتمع عماده الصحابة والتابعون دون أن ينكروه ويلزموه ، كذلك فإن وجود الخوارج في البصرة وما عرف عنهم من الاستعجال والاندفاع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل آخر على انتفاء وجود هذه المنكرات في مجتمع البصرة وبالحجم الذي ورد في خطبة زياد^(٢).

- ومن التناقضات الواردة في الخطبة: ورد قول زياد: وإياي ودعوى الجاهلية ، فإنني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه^(٣). مع أنه ذكر في موضع آخر من الخطبة نقيض ذلك وهو قوله: وإني أقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم^(٤).

وورد في الخطبة قول زياد: إياي ودلج الليل ، فإنني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه^(٥). لكنه عاد في موضع آخر من الخطبة لينقض ما ذكره آنفاً فقال: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل^(٦).

وهذه التناقضات الواردة في الخطبة يستغرب صدورها من زياد مع ما عرف عنه من البلاغة والفصاحة ، وهذا يقودنا إلى قضية أخرى وهي احتمال كون النص الذي بين أيدينا عن خطبة زياد عند مجيئه إلى البصرة عبارة عن أكثر من خطبة تم دمجها في سياق واحد ، ويؤيد ذلك ثناء عبد الله بن الأهمم والأحنف بن قيس على زياد بعد انتهاء الخطبة من أن الخطبة تستوجب النقد

(١) تاريخ الطبري (٦/١٣٥).

(٢) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢٤٤).

(٣) تاريخ الطبري (٦/١٣٥).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه (٦/١٣٦).

وليس الثناء ، لما فيها من تقديم حكم الجاهلية على حكم الله^(١) .

وعن الشعبي ، قال : ما سمعت متكلماً قد تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسيء إلا زياداً ، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً^(٢) . وهذا الثناء من الشعبي على زياد يقوي الشك حول خطبة زياد البتراء التي سبق الحديث عنها في الرواية السابقة^(٣) .

هـ- استعانة زياد بصحابة رسول الله ﷺ :

استعان زياد بعددٍ من أصحاب النبي ﷺ ، منهم : عمران بن الحصين الخزاعي^(٤) ، ولاء قضاء البصرة ، والحكم بن عمرو الغفاري^(٥) ، ولاء خراسان ، وسمرة بن جندب ، وأنس بن مالك ، وعبد الرحمن بن سمرة ، فاستعفاه عمران فأعفاه ، واستقضى عبد الله بن فضالة الليثي^(٦) ثم أخاه عاصم بن فضالة^(٧) ، ثم زرارة بن أوفى الحرشي^(٨) ، وكانت أخته لبابة عند زياد^(٩) .

و- من سياسة زياد في العراق :

يعتبر زياد بن أبي سفيان عامل معاوية على البصرة والكوفة بعد عبد الله بن عامر والمغيرة بن شعبة ، هو الذي قام بمعظم الإصلاحات الضرورية في ذلك الجناح الشرقي من الدولة الأموية ، وكان هذا الرجل يتمتع بقدرة إدارية فائقة^(١٠) .

وقد استن زياد عدة قوانين وتنظيمات ، وقام بكثير من الإصلاحات في البصرة أولاً (٤٥ - ٥٠ هـ) ، ثم في الكوفة بعد أن جُمعت المدينتان تحت إمرته في ولاية واحدة ؛ وذلك منذ سنة ٥٠ هـ ، وحتى سنة ٥٣ هـ . فبنى دار الرزق في البصرة^(١١) ، وهي شبيهة بمخزن المؤمن في

(١) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢٤٦) .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ، (٢١٢/٥) .

(٣) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢٤٧) .

(٤) مات بالبصرة عام ٥٢ هـ ، أخرج له الستة . التقريب ، (ص ٤٢٩) .

(٥) مات بمرور عام ٥٠ هـ ، أخرج له البخاري والأربعة . ابن حجر ، التقريب ، (ص ١٧٥) .

(٦) ابن حجر ، التقريب ، (ص ٣١٧) .

(٧) الإصابة (٥٧٤/٣) .

(٨) توفي وهو يصلي سنة ٩٣ هـ . التقريب ، لابن حجر ، (ص ٢١٥) .

(٩) أنساب الأشراف (٣٧٠/٤) .

(١٠) خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقيلي ، (ص ٨٦) .

(١١) أنساب الأشراف (٣١٤/٤) ؛ خلافة معاوية ، (ص ٨٧) .

أيامنا هذه ، فكان الأهالي يتمنون منها ، وعيّن أشخاصاً يشرفون عليها ؛ منهم : عبد الله بن الحارث بن نوفل ، ورؤاد بن أبي بكرة .

كما عيّن الجعدي بن قيس التميمي مشرفاً على السوق ومراقباً على أسعار المواد الغذائية فيه^(١) . وكان يعطي قروضاً للتجار إذا ما ارتفعت الأسعار كي يحثهم على المحافظة على سعر السلعة أو بزيادة بسيطة . وإذا ما تحقق ذلك وتوفرت الحاجات : ارتجع ماله^(٢) .

وترك زياد الناس في البصرة أحماساً ؛ أما الكوفة فقد قسمهم إلى أربع^(٣) ، بدل الأسباع . واختار عريفاً لكل قسم يقوم بمهمة توزيع الأعطيات على أفراد عشيرته ، كما أنه كان مسؤولاً أمام زياد عما يحدث في ناحيته ، فيقوم بإرسال التقارير بما حصل فيها أولاً بأول إلى زياد ، واستطاع أن يضبط الأمور في المدينتين برجال من أهلها .

وأصدر زياد أوامره بالألا يدخل أو يخرج أحد من الكوفة أو البصرة بعد صلاة العشاء ، وأوقع القصاص بالسارق وقاطع الطريق ، فعمّ الأمن والطمأنينة بحيث إن المرأة كانت تنام وباب بيتها مفتوحاً ، وأن الشيء ليسقط على الأرض فيظل ملقى دون أن يحركه أحد^(٤) .

ونظم العطاء من الديوان ؛ فحذف منه أسماء الذين توفوا ، ومن كان غائباً عن قطره ، ومن كان عابثاً بالأمن ، فكان : إذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتلة فملؤوا بيوتهم من كل حُلُو وحامض ، واستقبلوا رمضان بذلك ، وإذا كان ذو الحجة أخرج أعطية الذرية^(٥) ، ويشير البلاذري إلى أنه : كان لكل عيّل جريبان ومئة درهم ، ومعونة الفطر خمسين ، ومعونة الأضحى خمسين^(٦) .

واختار زياد حوالي خمسمئة رجل من أهل البصرة ليعملوا كحرس خاص له ، وكذلك حماية الأماكن الهامة ، وأعطى لكل واحد منهم ما بين ثلاثمئة إلى خمسمئة درهم ، وأسند قيادتهم إلى شيبان بن عبد الله السعدي^(٧) .

وبنى زياد مساجد عديدة ، منها : مسجد بني عدي ، ومسجد بني مجاشع ، ومسجد الأساورة . وكان لا يدع أحداً يبني بقرب مسجد الجماعة مسجداً ، فكان مسجد بني عدي أقربها

(١) خلافة معاوية ، (ص ٨٧) ، نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ٢١٢ ، ٢١٧) .

(٢) أنساب الأشراف (٤/ ٢٣٧) .

(٣) تقسيم يتعلق بالقبائل .

(٤) تاريخ الطبري ، نقلاً عن خلافة معاوية ، للعقيلي ، (ص ٨٨) .

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢١٩) .

(٦) خلافة معاوية ، (ص ٨٨) ، نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ٢٢١) .

(٧) المصدر السابق نفسه ، (ص ٨٩) ، أنساب الأشراف (٤/ ٢٢١) .

منه^(١). ويذكر ابن الفقيه: أن زياداً بنى سبعة مساجد؛ فلم يُنسب إليه شيء منها، وأن كل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فإنه من بناء زياد^(٢). وزاد زياد في مسجد البصرة زيادة كثيرة، وبناء بالأجر والجص، وسقفه بالساج، وبنى منارته بالحجارة^(٣).

وكان يهتم بنظافة المدينة ويعتبر الأفراد مسؤولين عن نظافة بيوتهم ويعاقب من يهمل ذلك، فقد كان يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أضحت برفع ما بين يدي فئائه من الطين، فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فألقي في مجلسه، وكان يأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات، ثم إنه اشترى عبداً ووكّلهم، فكانوا يلمونه^(٤)؛ فهذه الرواية تشير إلى وجود موظفين مهمتهم مراقبة النظافة من ناحية، كما تشير إلى أن زياداً تنبه إلى أن نظافة الطرق أمر يجب أن يتولاه أشخاص معينون، فاشترى عبداً ووكّل إليهم تنظيف الطرق من القذر والكناسات^(٥).

واهتم زياد بتقدم الزراعة وتنظيم طرق الري: فبنى السدود^(٦)، وحفر القنوات^(٧)، كما أنه كان يمنح المزارع قطعة من الأرض الزراعية، مساحتها ٦٠ جريباً، ثم يدعه عامين؛ فإن عمّرها أصبحت له، وإلا استردها منه، وأعطائها آخرين ينتظرونها^(٨).

ولكي يسهل الاتصال بين ضفتي نهر الفرات، فقد أصلح زياد قنطرة الكوفة وأعاد بناءها باللبن والطوب المقوّى، بعد أن كانت من أخشاب القوارب المتهاكة. وأصبحت تعرف بعد ذلك بجسر الكوفة^(٩).

وأما عن كيفية تصرف زياد في موارد بيت مال الولاية؛ فيشير البلاذري إلى: أن زياداً كان يجبي من كُور البصرة ستين ألف ألف، فيعطي المقاتلة من ذلك ستة وثلاثين ألف ألف، ويعطي الذرية ستة عشر ألف ألف درهم، وينفق من نفقات السلطان ألفي ألف، ويجعل في بيت المال للبوائق والنوائب ألفي ألف درهم، ويحمل إلى معاوية أربعة آلاف ألف درهم، وكان يجبي من

(١) مختصر كتاب البلدان، (ص ١٩١).

(٢) الإدارة في العصر الأموي، (ص ١٦٠).

(٣) فتوح البلدان، (ص ٣٤٦-٣٤٧)؛ خلافة معاوية، (ص ٨٩).

(٤) أنساب الأشراف (٢٠٦/٤)؛ الإدارة في العصر الأموي، (ص ٢١٤).

(٥) الإدارة في العصر الأموي، (ص ٢١٤).

(٦) خلافة معاوية، للعقيلي، (ص ٨٩).

(٧) فتوح البلدان، (ص ٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٩).

(٨) خلافة معاوية، (ص ٩٠).

(٩) فتوح البلدان، (ص ٢٨٥-٢٨٦).

الكوفة أربعين ألف ألف ، ويحمل إلى معاوية ثلثي الأربعة الآلاف ألف ؛ لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة . كما أن عبيد الله بن زياد ، والذي خلف أباه على ولاية العراق حمل إلى معاوية ستة آلاف ألف درهم ، فقال معاوية : اللهم ارض عن ابن أخي^(١) .

٤- ولاية سمرة بن جندب رضي الله عنه (٥٤ هـ) :

عن جعفر بن سليمان الضبعي ، قال : أقر معاوية سمرة بعد زياد ستة أشهر ، ثم عزله ، فكذبوا على سمرة وزعموا أنه قال : لعن الله معاوية ! والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبني أبداً^(٢) . هذا الخبر المنسوب إلى سمرة بأنه شتم معاوية خبر مكذوب على هذا الصحابي الكريم ، وفي ذلك يقول ابن كثير : وهذا لا يصح عنه^(٣) ، كما أن معرفة ميول مصدر الخبر جعفر بن سليمان الضبعي ، والذي قال عنه ابن حجر : صدوق زاهد ؛ لكنه يتشيع^(٤) ، تبين أثر التشيع في تشويه التاريخ الإسلامي^(٥) .

٥- ولاية عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي (٥٤-٥٥ هـ) :

قال الطبري : وفي هذه السنة - ٥٤ هـ - كان عزل معاوية بن أبي سفيان لسمرة بن جندب عن البصرة ، واستعمل عبد الله بن عمرو بن غيلان^(٦) .

٦- ولاية عبيد الله بن زياد خراسان ثم البصرة (٥٥ هـ-...) :

قال الطبري : وفي هذه السنة ولى معاوية عبيد الله بن زياد خراسان^(٧) ، وفي عام ٥٥ هـ عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن غيلان عن البصرة ، وولاه عبيد الله بن زياد^(٨) ، وأوصى معاوية عبيد الله بن زياد بهذه الوصية : إني قد عهدت إليك مثل عهدي إلى عمالي ، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندي ، لا تبعن كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخفّ عليك المؤونة وعلينا منك ، وافتح بابك للناس تكن في العلم منهم أنت وهم سواء ، وإذا عزمت على أمر فأخرجه إلى الناس ، ولا يكن لأحد فيه مطمع ، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع ، وإذا لقيت عدوك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبونك على

(١) أنساب الأشراف (٢١٨/٤-٢١٩) .

(٢) مرويات معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢٦١) .

(٣) البداية والنهاية ، نقلاً عن مرويات معاوية في تاريخ الطبري ، (ص ٢٦٢) .

(٤) تقريب التهذيب ، (ص ١٤٠) .

(٥) مرويات خلافة معاوية ، (ص ٢٦٢) .

(٦) تاريخ الطبري ، (٦/٢١٢) .

(٧) المصدر السابق نفسه (٦/٢١٢) .

(٨) المصدر السابق نفسه (٦/٢١٧) .

وقد هدأت المدينة بعد بيعة معاوية وأخلدت إلى السكينة ، وانصرف أهلها إلى أعمالهم وانقطع أهل العلم إلى رواية ما حفظوه من حديث رسول الله ﷺ ، وأغدق معاوية الأموال على سراة الناس لاستمالتهم ، وكان كرم هؤلاء يسع الكثير من أهل المدينة^(١) ، وكان معاوية عند عهده لأهل المدينة وفيّاً بالسياسة التي رسمها في خطبته عند زيارة المدينة ، وكان يقدم من الترغيب أكثر مما يعلن من التهريب ، وكان إكرامه لرجالات المدينة إكراماً يفوق كل وصف ، وما قصده أحد في طلب إلا أعطاه ؛ لقد كان يخص وجهاء القوم ، ولكن هؤلاء كانوا موزعين لعطايا معاوية ، كلما كثرت عطايا معاوية كثرت إنفاقهم على أهل المدينة^(٢) ، فقد روي أن معاوية قضى عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار ، ممّا كان عليها من الدين الذي كانت تعطيه الناس^(٣) ، وبعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمئة ألف ، ففرقتها من يومها ، فلم يبق منها درهم ، فقالت لها خادمتها : لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً؟ فقالت : ألا ذكرتني^(٤) . وأما ولاية المدينة فهم :

١- مروان بن الحكم (٤٢ - ٤٩ هـ) :

في عام ٤٢ هـ ولي معاوية مروان بن الحكم المدينة ، فاستقضى مروان عبد الله بن الحارث بن نوفل^(٥) .

٢- ولاية سعيد بن العاص رضي الله عنه (٤٩ - ٥٤ هـ) :

في سنة ٤٩ هـ عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة في شهر ربيع الأول ، وأمر فيها سعيد بن العاص على المدينة في شهر ربيع الآخر ، وقيل : في شهر ربيع الأول^(٦) .

٣- ولاية مروان بن الحكم الثانية (٥٤ - ٥٧ هـ) :

في عام ٥٤ هـ عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة ، واستعمل عليها مروان بن الحكم^(٧) .

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ٧١) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٧٣) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤) .

(٤) تذكرة الحفاظ ، ترجمة ١٣ ؛ سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤) .

(٥) تاريخ الطبري (٦/ ٨٧) .

(٦) المصدر السابق نفسه (٦/ ١٤٨) .

(٧) المصدر السابق نفسه (٦/ ٢١٠) .

الأثير^(١) ، وابن كثير^(٢) ، فقد أورد خبر المنبر والعصا . هذا وقال الدكتور خالد الغيث : ولم أقف على رواية صحيحة تؤكد مزاعم الواقدي ، هذا فضلاً عن أن دين معاوية ، وعدالته ، وصحبته لرسول الله ﷺ تمنعه من حمل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام وهو يعلم قوله ﷺ : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة »^(٣) .

هذا وقد أورد عبد الرزاق^(٤) خبر قدوم معاوية رضي الله عنه المدينة وزيادته درجات المنبر دون الإشارة إلى إرادة معاوية نقل المنبر إلى الشام ، أو أخذ العصا ، وزيادة معاوية رضي الله عنه للمنبر وكسوته تعد من مناقب معاوية التي حاول بعض الأخباريين طمسها وتشويهها^(٥) .

٢- خبر ربط كسوف الشمس بتحريك المنبر ؛ فقد ذكره عبد الرزاق والزيبر بن بكار^(٦) ، وابن الجوزي^(٧) ، وابن الأثير^(٨) ، وابن كثير^(٩) ، بينما ذهب اليعقوبي الشيعي إلى حدوث زلزلة عند تحريك المنبر ، وهذا الخبر لم يرد بإسناد صحيح ، هذا فضلاً عن أن كسوف الشمس على افتراض حدوثه ؛ فإنه لم يكن نتيجة لتحريك المنبر ليس إلا ، وقد حصل ما يشبه ذلك في عهد الرسول ﷺ ، حيث أخرج البخاري من طريق المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ، يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا رأيتم فصلوا ، وادعوا الله » ، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ، ولكن الله تعالى يخوف بهما عباده »^(١٠) .

٣ - اتهام معاوية رضي الله عنه ببغض أهل المدينة (الأنصار) لكونهم قتلة عثمان بن عفان

(١) الكامل في التاريخ (٢/٤٨٢) .

(٢) البداية والنهاية (١١/٢١٤) .

(٣) البخاري ، صحيح البخاري مع الفتح (٤/١١٩) .

رضي الله عنه ، هذا الخبر أورده ابن الأثير^(١) ، وهو خبر ضعيف الإسناد^(٢) .

وقد بينت موقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان ، وكيف أن كعب بن مالك الأنصاري حثَّ الأنصار على نصرته عثمان رضي الله عنه ، وقال لهم: يا معشر الأنصار! كونوا أنصار الله مرتين ، فجاءت الأنصار عثمان ، ووقفوا ببابه ودخل زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب ، إن شئت كنّا أنصار الله مرتين^(٣) . فرفض القتال ، وقال: لا حاجة لي في ذلك ، كفّوا^(٤) .

وأما زعمهم أن معاوية يبغض الأنصار رضي الله عنهم لكونهم قتل عثمان رضي الله عنه ، فمردود بما ورد من حقيقة موقف الأنصار من عثمان رضي الله عنه ، كما أن تقريب معاوية للأنصار وتوليته إياهم في مناصب هامة وحساسة يرد هذه الفرية ، ومن الشواهد على ذلك:

١- توليته فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه قضاء دمشق^(٥) ، وتوليته إياه منصب أمير البحرية الإسلامية في مصر^(٦) .

٢- تعيينه النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه أميراً على الكوفة^(٧) .

٣- تعيينه مسلمة بن مخلد الأنصاري رضي الله عنه أميراً على مصر والمغرب معاً^(٨) .

٤- تعيينه رويغ بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه أميراً على طرابلس^(٩) .
رابعاً: مكة:

١- ولاية خالد بن العاص بن هشام رضي الله عنه:

ولّى معاوية في سنة ٤٢ هـ مكة خالد بن العاص بن هشام^(١٠) ، وبعد أن سمى الطبري من وُلّي مكة في سنة ٤٢ هـ وسنة ٤٣ هـ نجده بعد ذلك يسكت عن تسمية عمال مكة^(١١) ، ويكتفي

بعبارة: وكانت الولاة والعمال على الأمصار في هذه السنة من تقدم ذكره قبل^(١) ، أو عبارة نحوها ، وقد تابعه كل من ابن الجوزي^(٢) ، وابن الأثير^(٣) .

خامساً: ولاية الطائف:

لم يذكر الطبري أسماء ولاية الطائف ، لكن وردت عنده رواية تفيد تولي بعض بني حرب الطائف ، وفيما يلي نص هذه الرواية: وكان معاوية إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ولاية الطائف؛ فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها ، فإن أحسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معهما المدينة ، فكان إذا ولي الطائف رجلاً قيل: هو في أبي جاد^(٤) ، فإذا ولاه مكة قيل: هو في القرآن ، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق^(٥) . أما بالنسبة لمن ولي الطائف من بني حرب فإن رواية الطبري تسكت عن تسميتهم ، لكن ورد عند البلاذري ما يفيد تولية عنبسة بن أبي سفيان بن حرب وعتبة بن أبي سفيان بن حرب على الطائف^(٦) .

سادساً: مصر:

المسألة، حيث رأى رضي الله عنه الأخذ بالقَوْد من قتلة عثمان على الفور، فكان هذا الاجتهاد من عمرو بن العاص متطابقاً مع اجتهاد معاوية في القضية نفسها^(١).

وقد كانت ولاية عمرو بن العاص على مصر ذات صلاحيات واسعة بس

خشبة ولا حجراً ، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جذور وتقطيعها ، أستأن

الحق ولا تأتونوه ، وذم الباطل وأنتم تفعلونه ، كالحمار يحمل أسفاراً ي

